ربيكا تنسلي

دارفور... دارفور

أو كأني رأيت نجما هوى

رواية

ترجمة

مبروك الشريف





دارفور ... دارفور
أو كأني رأيت نجما هوى

ريبكا تنسلي

ترجمة مبروك الشريف

دار التنوير2019

الفصل الأول

المكان: ولاية غرب دارفور، السودان
الزمان: كانون الثاني/ ديسمبر 2004

أسندت زهرة ظهرها إلى جدار الجرف الصخري حتى كادت تلتحم به محاولة أن تتخذ من النتوء الممتد في أعلى الجرف سقفا يخفيها عن أنظار تترصدها من السماء. كم تمنت في هذه اللحظة لو أنها تمتلك طاقية الإخفاء التي سمعت عنها في الحكايات الشعبية.

ها هي ذي صبيّة الرابعة عشرة وحيدة طريدة في موطنها، كما لم تتخيل نفسها يوما؛ تحاول النفاذ بجلدها من نيران طوّافة غادرة تحوم فوق رأسها، وهي التي لم تكن، إلى وقت قريب، تعرف من معاني المعاناة أكثر من تلك الأعمال المنزلية البسيطة التي كانت تساعد فيها أمها.

كان الهدير يصمّ أذنيها، ويشتدّ كلّما انحدرت الطوافة نحو الوادي وحلّقت على انخفاض يكفل بقاء الطريدة في مرمى نيران رشاشاتها، ويجنبها إثارة ستائر من التراب تحجب عنها الرؤية، وقد تفتح للطريدة باب الفرار والإفلات.

انخلع قلب الطفلة جزعا وهي ترى تنورتها الطويلة والضيقة على خصرها النحيف تطيّرها ريح قوية هبت فجأة ورفعتها إلى أعلى ركبتيها. هل اقتربت منها الطوافة إلى هذا الحد؟ أسرعت تلملم، بيدين مرتعشتين، أطراف التنورة التي نزعت عنها مشاق رحلة هروبها ووعثاء الطريق ألوانها الزاهية.

أحكمت القبض على أطراف التنورة المشاغبة بين ساقيها، حتى لا تشي بمخبئها وينتهي أمرها. وازدادت التصاقا بجدار الجرف حتى التحمت بتضاريس صخوره، وحبست أنفاسها، فقد يشي بها ارتفاع صدرها وانخفاضه. وشفطت بطنها الضامر أصلا، وبقيت يقظة متيقّظة، لا شيء فيها يتحرّك ولم يعد لكامل أعضائها من وظيفة غير إحكام التخفّي والتواري عن الأنظار. ففي مثل هذه اللحظات الفارقة يصبح الاختفاء والتخفي مفتاح النجاة ويصبح التعري والانكشافُ عنوان الهلاك. لذا، حرصت على ألا تصدر عنها أي حركة؛ وأطلقت في المقابل لعينيها العنان لتحوما داخل مقلتيها تراقبان كلّ حركة حولها. بل وخشيت، من شدة خوفها وفزعها، أن تثير حركة عينيها في مقلتيها انتباه الوطواط الحديدي إليها!

فجأة، اتسعت حدقتاها جزعا وفغرت فاها، وكتمت صرخة كادت تفلت من حلقها عندما نظرت حولها تتفحص المكان، فلمحت هناك على بعد تسعة أمتار، نعلها الذي انفلت من قدمها دون أن تشعر وهي تعدو بتلك السرعة الجنونية هاربة من الوطواط الحديدي. هذا النعل إذن هو الذي سيكشف أمرها، لا التنورة؛ فقد كان يبرق على الأرض الرملية تحت أشعة الشمس بلونه الإفريقي الحار. فكّرت في الاندفاع نحوه والتقاطه لتمحو أي أثر يقود إلى كشف مخبئها، لكنّ الخوف أقعدها وشلّ حركتها.

أغمضت عينيها لتتقي أشعة شمس الظهيرة. وكانت دقات قلبها تقرع أذنيها. لم تكن لتنظر إلى ما أضحى عليه مظهرها خلال رحلة هروبها، ولم تكن لتنظر في مرآة لتنتبه إلى الوحل الذي علق بجبهتها العريضة السمراء التي ورثتها عن أمها، وإلى التراب الذي عفر شعرها الأسود الذي انحلت ضفائره وتبعثرت، وإلى هذا الرعب الذي سكن عينيها اللتين ورثت عن أبيها وجدها لونهما العسلي غير المتوارث بكثرة بين أبناء وبنات قبائل الفور التي سمّي الإقليم دارفور نسبة إليها.

كان العطش قد أخذ منها مأخذه وأصبحت تشعر بأنّ جسمها قد تيبس. وكان للهواء الجاف أثر في حلقها كوخز الإبر؛ فقد ظلت طوال أسبوع تسير هائمة على وجهها لا تفعل شيئا، مثلها في ذلك مثل نملة تائهة في واد مجدبٍ يمتد إلى ما لا نهاية. ولم تكن قد نالت سوى سويعات قليلة من نوم متقطع إذ كلّما وجدت مخبأ صالحا ركنت إليه.

ولم تكن تتوقف عن السير إلا لتفرّ هاربة بحثا عن ملاذ، بعيدا عن أنظار عساكر البشير الذين كانوا يطاردون أهلها الفارّين من بطشهم، وتساءلت في حيرة كيف تجيز عدالة السماء لهؤلاء العساكر مطاردتهم مطاردة الصياد لفريسته، وإزهاق أرواحهم، ونشر الدمار حولهم أينما وجدوهم.

وخُيّل إلى زهرة أنّ غشاء الطبلة في أذنيها سينفلق من شدّة ضجيج محرك الطائرة التي ارتقت محدثة زوبعة من الهواء الدوار، ثم تلاشى الضجيج وهي تبتعد وتميل حيث تميل تعرجات الوادي وتحلّق قريبا من الحجارة المرصوفة المترسّبة في بطن الوادي، وهنا، تمتمت زهرة دعاء خفيا إلى رب السماء كي يقطع دابر عساكر البشير ويكفّ عنها شرّهم.

ورغم ابتعاد آلة القتل، تراجعت زهرة إلى الوراء وظلت مسندة ظهرها إلى الجدار، فما يدريها ألّا ترتدّ الطائرة راجعة أو تنشقّ عنها السماء. وعندما تأكدت من أنها لم تعد تسمع صوتًا للهدير الصاخب المنبعث من أجنحتها الدوارة، جمعت شجاعتها وفتحت عينيها ثم جثت على الأرض المغبرّة وهي لا تدري ماذا تفعل بركبتيها المصطكتين.

ضمّت ساقيها الطويلتين اللتين كانتا تؤلمانها، ودفنت رأسها بين راحتيها تفكّر بعقل مشلول عن التفكير: هل تتوقف عن السير وتمكث في مكانها لتنال قسطا من الراحة تحسبًا لاحتمال عودتهم، أم عليها ملازمة مكمنها الآمن هذا خصوصا أنهم لن يعودوا إليه اليوم. ثم ابتسمت في سرّها، وسخرت من نفسها ومن حيرتها بين خيارين

كلاهما يدعوانها للاختفاء وعدم الظهور. حارت في ما يمكن فعله وشعرت بغصة في حلقها. لم تكن الصبية تعلم أن هذه الغصة التي جحظت منها عيناها وامتلأتا دموعا كانت نتاج قهر محبوس أكبر من سنها وعبرات مكتومة لم تأخذ حقها في الخروج؛ فلا وقت للبكاء في رحلة الهروب.

ولقد حان الوقت لتنفجر الطفولة المرعوبة من داخلها، في هذه اللحظات القليلة التي أحست فيها ببعض الأمان عند ابتعاد الطوافة، فانفجرت بالبكاء، وهي تحاول عبثًا أن تخمد نشيجها. ثم دخلت في نوبة هستيريا وصارت تنادي أهلها وتشكوهم حالها.

وتهدّج صوتها وراحت تنادي أهلها وتنوح:

«جدّي، أين أنت يا جدّي؟ لماذا تخلّيت عني؟ تعال بالله عليك يا جدي، أدركني بنصحك الحازم ورأيك السديد، وأشر عليّ ماذا أفعل! أبي، أين أنت يا أبي؟ لماذا لم تلقنّي مهارات البقاء على قيد الحياة في هذا الخلاء الموحش بدلا من أن تعلّمني تاريخ أفريقيا؟ أمّي، أحتاج إليك يا أمي. لطالما علّمتني الخياطة والطهو، ألم يكن من الأجدر بك أن تعلميني كيف أنجو من عساكر البشير وطوافاتهم؟».

هدأت نوبة البكاء والنشيج، فأحست براحة كبيرة بعد أن أفرغت ما في مهجتها من عبرات مكتومة ومكبوتة، فأسندت ظهرها إلى الحائط وأغمضت عينيها.

بقيت تنصت إلى قرقرة أمعائها الخاوية وتتحسّس بطنها الجائع، واستسلمت لأحلام اليقظة: ها هي ترى نفسها الآن تغرز أسنانها في

عرنوس من الذرة المشوية، ثم تختتم وليمتها بِقدح ماء بارد من بئر قريتها. وتفيق من أحلامها وهي تُدخل يدها في جيبها مرّة تلو أخرى لعلها تعثر في طياته على حبّات فول سلمت منها في الفترات التي اشتدّت عليها وطأة الجوع طوال رحلة الأيام السبعة الماضية.

ثم تغمض عينيها من جديد وترثي للحال التي وصلت إليها:

«يا لتعاستي، هل وصل بي الحال إلى هذا الحدّ الذي يكون فيه أقصى ما أحلم به هو حبّات فول لا تغني ولا تسمن من جوع؟»، ثمّ تعود إلى رشدها فتشعر بمرارة هي مزيج من الحزن والاستياء والخجل؛ حزن على مصير أهلها، واستياء مما آلت إليه حالها، وخجل من أنانيتها لأنها غفلت عن ذكر أهلها الذين هلكوا جميعهم على أغلب الظن، ولم تحمد ربها على نجاتها من دونهم جميعا. وهنا، تنكس رأسها ذليلة مستكينة، وتتمتم قائلة: «الحمد لله، فأنا على الأقلّ لا أزال حيّة أُرزق».

كيف لطفلة في سنّها أن تتحمّل كلّ هذا الضغط النفسي؟ وكيف لها أن تجد مكانًا وسط كلّ هذا الخراب؛ خراب يحيط بها من كل جانب، وخراب داخل وجدانها الغض النضير.

ثم ها هي ذي الآن تستريح في ظل ممدود، تحاول جمع شتات فكرها لتفاضل بين خيارين يحكمهما الخوف والرعب فينتهيان إلى أمر واحد. لكن شبح الطوافة لم يفارق خيالها، ولم تستطع أن تفكر في شيء آخر. فسرحت وعادت بها الذاكرة إلى أوّل مرة رأت فيها طوافة سودانية.

كان ذلك قبل شهر واحد فقط، عندما رأت واحدة سابحة في الأفق، فخالتها طيرا جارحا. وإذا بالطير يرسل جسمًا غريبًا يتّقد لهبًا، وما أسرع ما ارتطم بالأرض فسمعت له دويًّا يصمّ الآذان!

وتذكرت كيف أسرعت في ذلك اليوم إلى جدّها وهي تصيح مذعورة: «جدّي، جدّي، كأني رأيت نجمًا هوى». لكنّ جدها الشيخ محمد هدّأ من روعها وبدأ يشرح لها بكل هدوء وحكمة: «اسمعي بنيتي ولا تجزعي! يبدو أنّ ما أُشيع بين أهالي القرية صار حقيقة للأسف الشديد، وأنّ «العصابة الحاكمة في الخرطوم»، كما يسميهم أبناء دارفور، قد نفّذوا وعيدهم وفتكوا بأهالي عدّة قرى دارفورية وأطلقوا عليهم الرصاص، وأنّ الدور قادم على قريتنا لا محالة».

قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع: « جدّاه، لماذا يفعلون بنا هذا؟»، فأجابها قائلا: « العصابة الحاكمة تريد إرغام الجميع على اتباع فهمها المتشدّد للإسلام؛ فهم يضعون الأحكام ويقرّرون ما يجب علينا قوله وإلى أي وجهة نتّجه، وهم يقرّرون من يجوز له العمل ومن ليس له من خيار سوى أن يقضي جوعًا، وهم أيضا يقرّرون من هو المسلم السيّئ ومن هو المسلم الحقّ، ويقرّرون إعدام أي مسلم آخر لا يؤيدهم الرأي».

قطبت زهرة حاجبيها وهي تقول: «لكن أليس القرآن ينهانا عن قتل المسلم لِأخيه المسلم؟»، فأومأ لها جدّها برأسه مؤيّدًا وقال وقد غلبه الحزن: «إنهم ينتقون من القرآن ما يناسبهم. يسوؤني جدّا كيف أنهم

يشوّهون ديننا على هذا النحو، ويعاملوننا على أنّنا أدنى منهم مرتبة لأنهم عرب ونحن أفارقة؛ سحناتنا شديدة الاسمرار».
أطرقت برهة كأنّها تحاول استيعاب قوله. ثم تساءلت ما إذا كان هؤلاء سيرسلون طوافات أخرى لقتلهم. وتمنّت لو يكذّب جدّها ظنونها، ويدعوها إلى أن تصرف عنها مخاوفها الطفولية ويطمئنها إلى أنّ كلّ شيء سيكون على أحسن ما يرام. وشعرت بأنّ قلبها يغوص في صدرها عندما طالعها وجهه المهموم وهو يومئ لها برأسه تأكيدا لمخاوفها.
ها هي الآن جاثمة في مكانها عند الجرف تتذكّر كم كان حزن جدّها كبيرًا لِما حلَّ بأهالي القرى الدارفورية في أقصى غرب السودان.
وعادت بها الذاكرة من جديد إلى اليوم الذي شاهدت فيه طوّافة الموت لأول مرة، فظهر لها وجه جدّها مكفهرًّا كما لم تره من قبل. فلقد كان ذلك الطائر نذير شؤم، إذ تغيّر إيقاع حياتهم منذ ذلك الحين وفقدوا السيطرة على مجريات الأحداث حتّى داخل قريتهم الصغيرة.
استندت زهرة إلى الجدار وكان صوت العقل داخلها يحدّثها بأنّه لا أمل في وجود من نجا من أهلها من الهجوم الأخير على قريتها. غير أنّ صوتًا آخر كان يطرد عنها هذه الفكرة ويخبرها أنّ البعض منهم اجتاز الحدود المشتركة مع تشاد، ووصل إلى مخيّم اللاجئين هناك، بل لعلّهم في انتظارها. وشعرت بالنشاط يدبّ في ساقيها بمجرد ترجيحها لهذا الاحتمال.

ولمّا كان لزهرة، كباقي سكان قريتها، إلمام كبير بعالم النجوم والشمس ومعلومات كثيرة تساعدهم في حلّهم وترحالهم، فقد حزمت أمرها، وقررت الشروع في المسير ما إن تصبح السماء خالية من طوافات البشير ستجد مكانا تختبئ فيه عندما يرخي الليل سدوله، ثم تستأنف السير في صباح اليوم التالي، وبإمكانها عندئذ الوصول إلى تشاد في خاتمة المطاف.

ثم راحت تقول بصوت مرتفع: «سأصل إلى تشاد لا محالة». فاستأنست بصوتها واستمدت منه شيئا من القوة والأنس وأحست كما لو أنّ شخصا آخر برفقتها يساندها ويشدّ أزرها. فواصلت تسامر نفسها وتطمئن روح جدّها قائلة: «اطمئن يا جدّي سأكون قوية كما أردت لي أن أكون، ولن أخيّب حسن ظنّك بي».

ثم استرخت وأغمضت عينيها وهي تستحضر مشهدًا يجمعها مع جدّها تحت شجرة وارفة الظلال وهو يحدّثها عن عوالم أخرى بعيدة عن «قرية الشيخ محمد».

وتراءى إلى مسامعها صوته وهو يقول: «إليك مني هديتك المفضلة، بطاقة بريدية تحمل صورة لمبنى كرايسلر في مدينة تسمّى نيويورك».

فقد كان جدّها يحتفظ بمجموعة من البطاقات البريدية لمعالم مدينة نيويورك وما أكثر ما عرضها عليها! وكانت في كلّ مرّة تطيل النظر فيها كما لو أنّها تراها للمرة الأولى. ولما كان عالمها يكاد يخلو من

الكتب، ناهيك عن أية صور أو لوحات زيتية، فقد ملأت معالم نيويورك عليها كلّ وجدانها دون منازع.

ولم تكن تملّ كذلك من سماع جدّها وهو يقلب تلك البطاقات الملوّنة العجيبة، ليترجم لها ما خطّه، على ظهر كل بطاقة، أصدقاء له في أمريكا على بعد آلاف الأميال.

كان جدّها يحظى باحترام الآخرين وكان علية القوم يأتون لزيارته للاستماع إليه. وكانت زهرة تشعر بالاعتزاز لأن رجلا مبجّلا كهذا الرجل يفرد لها حيّزًا كبيرًا من اهتمامه ويعتني بها ويحثّها على طلب العلم كي تحقّق له حلمه في أن يراها في يوم من الأيام طبيبة تداوي المرضى.

وكانت كلما عادت من المدرسة، يأتيها جدّها من كوخه بكتاب مدرسي قديم من كتب يقول إن صديقه الأمريكي مارتن قدمها له، ويقرأ لها منه بلسان إنكليزي بطيء ومبسّط ومبين. ويجلسان معا تحت ظلال شجرتهما المفضلة التي تتوسّط فناء بيت الأسرة، ويظلان يذاكران لمدة ساعة أو أكثر ويتدارسان النصوص التي بين أيديهما. وكان جدّها يرسم لها المفردات الجديدة على أديم الأرض بعود من الحطب. وكانت لا تشعر بمضي الوقت ولا ينتزعها من تلك المتعة إلا صوت أمها وهو يدعوها للذهاب لجمع الحطب.

لقد أسرَّ لها جدُّها بضرورة تعلّم اللغة الإنكليزية إذا ما أرادت أن تصبح طبيبة تداوي المرضى؛ فهي كسائر أبناء القرية وبناتها تتحدث

اللغة الفورية في المنزل أما في المدرسة، فالعربية التي يتكلّمها ناس الخرطوم والعصابة الحاكمة، هي لغة التدريس.

وجاءه ردّها سريعا بأنها تريد تعلّم اللغة الأنكليزية فهي أيسر عليها من اللغة العربية.

فأجابها بأنّه لا يرى مانعًا ولكن، عليها ألا تنسى أنّها لن تتذوّق معاني القرآن إلا إذا أجادت اللغة العربية. فهزت زهرة رأسها مؤيدةً ولسان حالها يقول إنها تثق تمامًا في كلّ ما يقوله رغم أنّها لا تفقه ما الذي يعنيه بحديثه عن القرآن ومعانيه وعلاقته بإجادة اللغة العربية.

ولمكافأتها على اجتهادها، كان جدّها يأتيها مرة في الأسبوع تقريبًا من داخل كوخه ببطاقاته البريدية بعد نهاية الدروس فيقلّبها بين يديه وهو سعيد بأن يلمح عينيها المشدوهتين وقد برقتا بحبّ الاطلاع، وتحفزّتا لتفحص بطاقاته التي كان معظمها صورا لمبانٍ شهيرة، وكان الكبير والصغير في الأسرة يعرف أن رجلا اسمه مارتن يقطن في نيوجرسي، هو الذي أرسلها إليه.

وكانت بطاقة مبنى الكريسلر في مدينة نيويورك هي أكثر البطاقات إثارة لدهشتها، فهي لم تر مطلقا مبنى بهذا الارتفاع ولم يسبق لها أن رأت مبنى يزيد علوّه عن دورين، وكانت تحدق فيها كما لو أنها ترى معجزة ماثلة أمامها. فقد كانت تستهويها، في هذه اللوحة الفسيفسائية، غرابة خطوط المبنى المنسابة والعصافير المعدنية التي تزينه والعدد المهول من نوافذه الزجاجية البراقة تحت أشعة الشمس. وكانت تتخيل

نيويورك مدينة تعجّ بمبان كثيرة أخرى مماثلة مصطفة في الجانب الآخر كحزمة من عرانيس الذرة المشرئبة بأعناقها إلى السماء.

فمعظم بيوت الذين تعرفهم هي عبارة عن عِشش جدرانها من طين وسقفها من قش. أما البيوت الأخرى، فهي توجد في المدن وهي خرائب آيلة للسقوط؛ جدرانها وأبوابها لم يعرف الطلاء إليها سبيلا منذ أمد بعيد. وعلى النقيض من ذلك، تبدو مدينة نيويورك جنة يتجلى فيها جمال وكمال صنع الخالق جلّ جلاله. وكانت تقول لنفسها في كلّ مرّة: «إني قادمة إليك يا مدينتي طال الزمان أم قصر».

الفصل الثاني

المكان: الجنينة، ولاية غرب دارفور، السودان

الزمان: 1969

ها هو محمد يقف في انتظار الحافلة، وهو منذ الصباح يردّد في داخله كلمات الترحيب التي سيلقيها بالانجليزية على هذا القادم الجديد إلى مدينة الجنينة.

ها قد وصلت الحافلة، يسبقها صرير عجلاتها وأزيز محرّكها الذي أحدث رجّة ارتدادية سرعان ما تلاشت فيما يشبه الحشرجة، قبل أن تتوقف عن السير، وتكفّ مروحاتها عن الدوران.

وقف الفتى يتفحّص وجوه الركّاب وهم ينزلون الواحد تلو الآخر. وشعر بغبطة غامرة عندما ظهر له من بينهم، الوجه الوحيد ذو البشرة البيضاء، وجه المدرّس الأمريكي السيد بينيت.

نزل السيد مارتن بينيت من الحافلة وجفناه يرفّان اتّقاء لأشعة الشمس الساطعة. وأحسّ الفتى، وهو يتجه نحوه، بأنّه مقبل على مرحلة جديدة من حياته التي ما تزال في بدايتها.

شعر الشاب مارتن بينت، ذو الواحد والعشرين عاما، بالارتياح عند انتهاء رحلته على متن تلك الحافلة العتيقة. فقد تخلّص أخيرا، بعد أن احتمل طويلًا، من رائحة الدخان الخانق المنبعث من مؤخرتها.

سار السيد بينيت يدفع حقيبته الثقيلة، ويتأمّل ملامح هذه المدينة التي سيقيم فيها لمدّة معلومة؛ مدينة «الجنينة» التي تقع في أقصى غرب السودان على تخوم دولة «تشاد».

كانت الطرقات عبارة عن مسالك رملية غاصت فيها عجلات العربات وحوافر الحمير التي تجرّها. أمّا أهل المدينة، فها هو يرى منهم في مصافحته الأولى هذه، رجالا يجلسون القرفصاء بجلابيبهم الطويلة وعمائمهم القرمزية وهم يحدقون بدهشة في قامته الفارعة وبشرته البيضاء الغريبة وشعره المنسدل على كتفيه. لم يكن المشهد يختلف كثيرا عن غرب أمريكا لو حل رعاة البقر محل هؤلاء الرجال السمر وحلت جيادهم محل هاته الحمير.

أحسّ مارتن بصداع شديد، فاتجه نحو شجرة وارفة الظلال ليستريح، من التعب الذي ألمّ به، ويسلّم جفونه إلى نعاس لذيذ كان

يراوده. فلقد قطع مسافات طويلة داخل السودان حتى وصل أقصاه، ولا عجب أن يشعر بهذا الجفاف المزعج في حلقه.

تمدّد تحت الشجرة، لكنه لم ينم، وإنما ظل يتساءل في سره عما أتى به إلى هنا؟ ولماذا ترك الدفء العائلي والأمان في بلده وقطع كلّ هذه المسافات وتحمّل كلّ هذه المتاعب ليصل إلى هذه الأرض الغريبة؟ فلقد سمع هاتفا يقول له ذات يوم بعد استماعه لخطاب تنصيب الرئيس «كينيدي»: «قم واعمل عملا صالحًا».

وقبل أن يتوه بين هذه الأفكار التي أخذت تتنازعه، تناهى إلى سمعه صوت يقول بانجليزية تغلب عليها لكنة غريبة: « مساء الخير». استدار نحو مصدر الصوت، فوجد نفسه أمام شاب نحيل، أسمر اللون، طويل القامة، يقف منتصبًا أمامه كتمثال. كانت بشرته السوداء الصافية تخفي أثر السنين، فلم يستطع تحديد سنّه. غير أنه، وخلافًا لما يبدو عليه من نضارة، كان يتصرّف كشخص راشد، ناضج، قادم في مهمة رسمية. كان الهواء يعبث بجلبابه الطويل، فيكشف عن صندل بالٍ من البلاستك الرقيق.

واصل الفتى حديثه بالانجليزية قائلا: « مرحبا بك في دارفور، يمكنك أن تدعوني محمدًا». وكانت عيناه العسليتان تلمعان بينما افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان ناصعة البياض اكتظّ بها فمه، وقد بدا عليه الارتياح بعد أن نجح في إبلاغ رسالته الترحيبية بالانجليزية.

ابتسم له مارتن وهو يجفف حبات العرق المتصبّبة من جبينه بمنديل تحوّل لونه إلى الرمادي من فرط ما استخدمه في رحلته التي ظلت الحرارة فيها مرتفعة جدا طوال الوقت. ثم تخلّى الفتى فجأة عن اللغة الانجليزية وخاطبه قائلا: «هل تتحدث العربية؟».

أجابه مارتن بأنه لا يتحدثها بطلاقة. فلغة الرسول والصحابة التي تعلّمها على أيدي أساتذة سوريين في أمريكا كانت لغة عربية قحّة. أمّا العربية اللتي يتحدّثها الناس هنا، فمخارجها خيشومية تعطي انطباعًا بأنّ أهلها يمخطون أنوفهم كلّما نطقوا بها.

واصل الفتى حديثه بالانجليزية قائلا: «جئت لأبلغك تحيات مدرستي وأرافقك إلى غرفتك».

وشعر الفتى بالرضا عن نفسه بعد أن نقل رسالته وقصده. ثم انحنى ورفع حقيبة الظهر بنطرة واحدة. فقد كان قويا رغم نحوله، وابتسم من جديد في وجه مارتن وهو يدعوه ليتبعه.

وبالرغم من حذائه العسكري الأمريكي السميك، وجد مارتن صعوبة كبيرة في مجاراة الفتى في سيره على طريق كثرت فيها النتوءات والأخاديد. وفي سيره، كان مارتن يلتفت حوله، فلاحظ أن الطريق مقفرة لا أثر فيها لسيارات مركونة، ولا وجود لرصيف أو دكاكين أو مغازات أو فنادق أو مطاعم على جانبيه، ولا لفوانيس تنيره، وكلّ ما هنالك جدران عالية وأبواب حديد صدئة، معطّبة، تخفي وراءها أحواشًا.

أشرق وجهه بابتسامة عريضة وخاطب مستر بينيت قائلا:

«نحن مسرورون جدّا بقدومك إلينا في مدرستنا وقد حمّلوني إليك أجمل التحيات».

سأله الشاب الأمريكي: «هل أنت من هيئة التدريس؟».

قال الفتى: «لا، أنا تلميذ وقع اختياري ليكون لي شرف استقبالك بما أنّي كنت الحاصل على أعلى درجة في دروس الانجليزية».

قال الشاب الأمريكي: «شكرا، كم عمرك؟».

قال الفتى: «ثلاثة عشر عامًا».

قال ذلك وافترّ ثغره من جديد عن ابتسامة كشفت عن نواجذه.

حاول الشاب الأمركي واسمه مارتن أن يخفي دهشته. ثم سرعان ما تذكّر أنّ مرحلة الطفولة في أفريقيا قصيرة نسبيًّا لأنّ شظف العيش يعجّل بدخول الأطفال معترك الحياة. وقد كانت هذه إحدى المعلومات الضرورية التي تلقّاها عن أحوال الناس هنا قبل أن يأتي. غير أنّ هدوء الفتى جعله يعتقد أنه أكبر من ذلك، ممّا أثار فضوله لمعرفة سنّه. ثم سأله عن مكان سكناه، فأجابه بالعربية قائلا: «أقطن في بيت عمي هنا في الجنينة، أمّا أسرتي فهي تقيم في قرية تبعد خمسة وعشرين ميلا. أرسلني أهلي للإقامة في بيت عمي لأتلقّى تعليمي. نحن نعيش وسط أسرنا الموسعة بين أبناء أعمامنا وغيرهم من الأقارب في أحواش مثل هذه التي تراها وراء تلك الجدران العالية».

توقّف عن الحديث وهما يتجاوزان حمارا يجرّ عربة محمّلة بأكياس مملوءة بالفاصوليا الجافّة. ثم استرسل قائلا: «أعتقد أنّ الأمر يختلف في أمريكا عمّا نحن عليه هنا، فلدينا الكثير من الإخوة والأخوات

أشقاء وغير أشقاء لأنّ الرجل يتزوج عدّة نساء إذا كان يملك المال. وأنا محظوظ جدا لأن أبي سمح لي بأن أذهب إلى المدرسة».

وجد مارتن صعوبة في استيعاب كلام الفتى في لغة غريبة ولكنه هزّ رأسه موافقًا وحدث نفسه قائلا: «يا لسذاجتنا في أمريكا ونحن نعتبر مجانية التعليم تحصيلًا حاصلًا».

ومضى الفتى يقول بِلهجة فيها الكثير من الجدّ والفخر: «أنا الولد الوحيد من قريتي الذي بلغ التعليم الثانوي. فوالدي يؤمن بأهمية التعليم في السودان الجديد والعالم الحديث، والفرص قليلة في دارفور لبُعدها، كما تعلم، عن العاصمة ونحن لا نمتلك ما يمتلكونه في الخرطوم من مستشفيات ومدارس وطرقات».

وسأله مارتن مستفسرا: «ماذا تعني بِقولك السودان الجديد؟».

قال الفتى: «بعد أن تخلّصنا من نير الاستعمار، نلنا استقلالنا في عام 1956 ونحن الآن بصدد بناء بلد حديث. فبعد أن كان الغرباء، من مصريين وإنجليز، يتحكّمون في مقدراتنا لمدّة قرون، آن الأوان لكي نبني بلدنا بِسواعدنا ليصبح من البلدان الأفريقية المتقدّمة والمتطوّرة».

هزّ مارتن رأسه وقد وافق كلامُ الصبي ما كان قد تلقّاه من معلومات حول هذا الشعب، فقد أعلموه أنّ القليلين الذين يسعفهم الحظ بالتعليم يتعرّضون إلى عصف من الأفكار الجاهزة عن سيئات «الاستعمار» و«الامبريالية»، وهي أفكار سبقت موجة التحرّر التي اكتسحت أفريقيا في العقد الماضي. وتوقّع مارتن أن يتحدّث الفتى عن تفاهات من قبيل «الأخوّة» و«الوحدة» و«الحدود الجديدة» و«الرّقي»، غير

أنّ الفتى خيّب توقعاته، إذ سكت عن الكلام وتوقّف عن المسير. «لقد وصلنا». قال ذلك عندما بلغا بابًا خشبيًّا عاليًّا ذا مصراعين.

دخل، فتبعه مارتن إلى فناء منزل حيث طالعه مشهدُ رجلٍ مسنّ يستريح تحت إحدى الأشجار العديدة في الحوش، وأطفال يلعبون وامرأتان تجلسان القرفصاء قرب أوان كبيرة الحجم فيها فاصوليا على ما يبدو، وكانت هناك في وسط الساحة جديان تمضغ ألياف عشب جاف.

وما إن رآهما الرجل المسنّ حتى هبّ واقفًا وأقبل عليهما تعلو محياه ابتسامة. وتبادل مع حفيده باللغة المحلية كلمات سريعة لم يفهم منها مارتن شيئا، ثم مدّ بعدها الرجل يده نحو مارتن وصافحه بحرارة.

وتوجّه الفتى بالكلام إلى مارتن، فقال: « عمي يقول إنك ستقيم معنا»، قالها بصوت متردّد إذ لاحظ أن الأمر اختلط على مارتن، قبل أن يضيف قائلا: « هذا مسكنك الآن». قال مارتن وقد بدت نوعا ما على وجهه علامات الحيرة: «ولكن المدرسة أبلغتني أنها ستجد لي مكانا أقيم فيه طوال الأشهر الثمانية عشر القادمة»، وهنا قاطعه الفتى قائلا: «وجدنا أنها غرفة سيئة والأفضل أن تقيم هنا معنا».

سأله مارتن قائلا: «بكم الإيجار؟»، وهنا بدت على الفتى علامات الاستنكار الشديد وأجابه قائلا: « يشرفنا جدّا أن تقيم بيننا، هذه عاداتنا».

لم يصدق مارتن أذنيه، غير أن الفتى واصل قائلا بالإنجليزية وهو يبتسم بخجل: «ثم إن وجودك معنا سيتيح لي فرصة ممارسة اللغة

الإنجليزية ليل نهار»، ثم استأنف التحدث بالعربية، قائلا: «فبوجودك معنا، أكون قد أتيت بفصل اللغة الإنجليزية إلى البيت وأتيت بأستاذ يعطيني على الدوام دروسا خصوصية فيها».

ثم أطرق وبدا عليه الارتباك قبل أن يردف قائلا: «أصدقائي كثيرا ما يقولون لي أنت تريد معرفة كلّ شيء، وكلّ جواب يتحوّل لديك إلى سؤال».

وصل مارتن في اليوم التالي إلى مكان عمله وتعجّب من الصمت الذي كان يخيّم على ساحة المدرسة، فخشي أن يكون قد قدم في يوم عطلة، أو أن يكون التلاميذ مقاطعين للدروس احتجاجا على قدوم أستاذ أجنبي. ولم يُخْفِ عن مرافقه حيرته وتساؤلاته. لكنّ محمدا لم يحر جوابا، بل واصل سيره وهو يقود مارتن إلى قاعة صغيرة غارقة في العتمة. وعندما تعودت عينا مارتن على عتمة المكان تبين وجود عدد كبير من الصبية جالسين على مقاعدهم في صمت، وفي عيونهم بريق يلمع من فرط الترقب. وقد تبين فيما بعد أنّ عددهم كان خمسة وخمسين صبيًّا.

بدأ مارتن حصة المحادثة بالانجليزية بأن طلب من كلّ تلميذ أن يعرّف بنفسه. وما هي إلا ساعات حتى عرف مارتن أن هناك من التلاميذ من يقطع كلّ صباح ميلين أو ثلاثة أميال مشيا على الأقدام ليصل إلى المدرسة وقد نهشه الجوع. ثم يقطع المسافة ذاتها في طريق العودة وبطنه لا يزال خاويًا، ليجد في انتظاره أعمالا شاقة في الحقل لا تنتهي إلا مع غروب الشمس.

وما هي إلا أسابيع وأشهر حتى عرف أن معظمهم ينجزون واجباتهم المدرسية على ضوء فانوس وأنهم يعتبرون أنفسهم أقلية محظوظة سُمح لها بارتياد المدرسة. ومن ثمّ، لم يكن يصدر عنهم تشويش أو تصرف أرعن، بل كانوا يتسابقون لاستضافة مارتن في بيوتهم واصطحابه معهم ليعرّفوه على أسرهم.

أصبحت لمارتن في حياته اليومية طقوس لا يحيد عنها. فقد صار يرافق الفتى يوميا بعد ساعات التدريس إلى المدينة في جولة كان الفتى يلعب فيها دور الدليل، بينما يضطلع مارتن بالإجابة عن أسئلته الفضولية حول أسلوب الحياة في أمريكا.

وكانت لمارتن هو أيضا أسئلة يلقيها على الفتى بشأن ما يراه في السوق من منتجات تعرض على ملاحف مفروشة على الأرض، ومواش يربطونها بحبل يشد وثاقها جميعا، وبهارات مكومة في أشكال مخروطية، وخضروات مورقة لم يرها من قبل.

وكثيرا ما أخذهما الحديث إلى مقارنة مجتمعيهما، خصوصا فيما يتعلّق بحياة المرأة في دارفور وتبعيّتها للرجل. وقد كانت صلة مارتن بنساء البيت شبه معدومة، وذلك لانشغالهن الدائم بالأعباء المنزلية أو بالعمل في الحقل، إضافة إلى تناولهن وجبات الطعام بمعزل عن الرجال.

كان مارتن منبهرًا بما وجده من نضج في الفتى ورجاحة عقل؛ حتى أنّه، وعندما توطّدت علاقتهما، سأله إن كان ينوي مواصلة دراسته الجامعية في الخرطوم.

قال الفتى: «لا أعتقد أني سأواصل» واختفت فجأة روح التفاؤل التي لم تكن تفارقه.
سأله مارتن، بعد تردّد، ما إذا كان ذلك لأسباب مالية، وهو يعلم أنّ أسرته ميسورة وتملك من الحقول والأطيان والمواشي ما يجعل أفرادها من علية القوم في دارفور.
قال الفتى وهو يتهرّب من النظر في عينيه:
«هناك مشكلتان».
سكت برهة، ثم واصل قائلا بصوت خفيض: «أولا، أنا الإبن البكر لشيخ قريتنا وسأستلم دوره القيادي بعد وفاته».
قال مارتن مندهشا: «وما دخل هذا في ذاك؟».
قال الفتى: «الشيخ هو من يفصل في جميع القضايا وهو من يقرر أوجه استخدام الأرض ويكفل استتباب السلام بين أبناء القرية وهو من يقودهم». ثم أضاف قائلا وهو يواصل سيره مع مارتن: « إنهم يتوقعون منه أن يكون سلوكه مثاليًّا وأن يكون قدوة يحتذيها الجميع».
قال مارتن: «جميل كلّ هذا، ولكنّه لا يحول دون مواصلة دراستك الجامعية في الخرطوم».
تذكر كم كانت دهشته كبيرة، عندما عرف في إحدى المحادثات اليومية مع أسرة الفتى، أن مرضا بسيطا يسهل علاجه في أمريكا قد يغيّر مجتمعا محليا بأسره. فعشرات الأطفال يموتون قبل بلوغ سن العاشرة وهناك عدد كبير من الأمهات اللائي يتوفين أثناء الوضع، وذلك بأعداد غير مقبولة لم يشهدها الغرب منذ عدّة قرون، وأنّ بناتًا

كثيرات يتوفين جراء عمليات الختان التي تُجرى عليهن في سنّ السادسة، وذلك بسبب قلة المستوصفات والأطباء لإنقاذهن.
لقد أوضح له الفتى أنّه يوجد الكثير مما بإمكان البلد أن يتعلمه من أمريكا في هذا المجال، وقال له وهو يغالب مشاعر الحرج التي انتابته إن الأهالي لم يوتوا من العلم إلا النزر القليل وإنهم يعيشون في مناطق ريفية نائية، ورغم ذلك فإنهم يسلمون أمرهم لله ويعتبرون أنّ ارتفاع معدل وفيات الرضع والأطفال قدر لا مردّ له، ويعتقدون أنّ ولادة طفل بعاهة مستديمة أمر عادي، بل ومنهم من يرى في ذلك عقابا من الله على إثم ارتكبه والداه في وقت من الأوقات، والمرض في نظرهم قضاء من الله لا دخل فيه لتلوّث المياه وقلة النظافة.
سرح مارتن بذهنه مستحضرًا النظام الغذائي لأهالي دارفور وهو الذي خبر شحته إذ إنه رأى بأم عينه كيف يذهب القسط الأعظم من الطعام إلى الرجال والأطفال الذين يتحلقون حول قصع يتلقّفون منها لقمًا من نشاء لا طعم لها يكوّرونها بين أصابعهم ويلقون بها في أجوافهم، ورأى كيف أن الفاصوليا هي مصدر البروتين الوحيد، أمّا اللحم، فذاك ترف لا سبيل إليه.
وانتبه إلى صوت الفتى وهو يواصل حديثه قائلا فيما يشبه الهمس: «ثم إنّه من الصعب على أبناء المنطقة الدخول إلى الجامعة» ثم وهو يستعيد نبرته ويقول: «حتى حكّامنا ينظرون إلينا أحيانًا باحتقار، ولا يصيبنا من منافع التنمية إلا النزر القليل، كما لمسته أنت مباشرةً بنفسك».

رجع مارتن بذاكرته إلى المدّة القصيرة التي قضّاها في الخرطوم حيث بدت له مدينة فقيرة قبيحة ومليئة بالأوساخ، قنوات الصرف الصحي فيها مبعوجة على طول الطريق الرئيسي.

غير أنّها، وبالمقارنة مع الجنينة، فإنه يراها الآن أغنى بكثير مما بدت له آنذاك. غير أنه لو خُيّر بينهما، فسيختار الإقامة هنا في الجنينة وعزلتها البريئة بين ناسها الطيبين وأسلوب حياتهم الهادئ، وبين حقول الذرة الممتدة فيها على امتداد البصر. وهو لو كان من أبناء دارفور، لسأل نفسه لماذا يموت ابنه لمجرد فقدان دواء بسيط لا يجده فيها ولكنّه متوفرٌ في العاصمة!

وسرعان ما استدرك الفتى قائلا: «لا يلتحق بها إلا قلة كلهم من العرب».

واستحضر كلامًا من القرآن يفسره البعض على أنّه يجيز استعباد الرجل الأسود، بل وهناك من يزعم استنادًا إليه أنّ «الله خلق الرجل الأسود لخدمة العرب»، وقال: «أتمنّى أن يكون هذا رأي قلة قليلة، غير أنه ليس من المستحبّ أن تسمع أحدهم يصفك بالعبد أو يعاملك على أنك طفل متخلّف».

حاول مارتن أن يخفي تعجّبه؛ فهو يرى أنّ العرب في الخرطوم هم أيضا ذوو بشرة سوداء لا تختلف كثيرا عن بشرة أبناء دارفور.

لاحظ الفتى علامات الحيرة على وجه مارتن، فواصل قائلا: «لقد حكم المصريون بلدنا لمدّة قرون وهم من أطلق اسم السودان على هذا البلد وهي تسمية محرّفة لكلمة الرجال السود في لغتهم العامية، أي

بعبارة أخرى كان المصريون ينظرون إلى العرب هنا على أنهم زنوج لا فرق بينهم وبين غيرهم من أبناء القبائل الأخرى، ومنذ ذلك الحين والعرب السودانيون يعانون من عقدة نقص بسبب لون بشرتهم، ومن ثمّ جاء كرههم للآخرين ممن تجري في عروقهم دماءٌ زنجية أكثر منها عربية».

لمح مارتن مسحة من الحزن في عيني الفتى الذي راح يعدّد له جملة من الإهانات الكثيرة التي قد توجه إلى أبناء دارفور. وهنا تذكّر مارتن، وهو المنحدر من أصول يهودية في بلده، الغضب الذي استبدّ بوالده عندما سافر بأسرته لقضاء إجازة في ولاية ماين الأمريكية وكان كلّما توقّف أمام نزل للاستراحة ردّته على أعقابه لوحةٌ عنصرية كُتب عليها: «ممنوع على غير زبائنا الاعتياديين».

استرسل الفتى يقول: «لا أريد أن أعطيك انطباعًا بأنّ جميع العرب ينظرون إلينا على أنّنا دونهم مرتبة، فنحن كلّنا أبناء السودان وهناك زيجات مختلطة كثيرة بيننا، ولكن ما يعنيني هو كيف ترى نفسك وهويتك، لا نسبة الدم العربي أو الأفريقي الذي يجري في عروقك».

هز مارتن رأسه متعجبا وقال مؤيدا لرأيه: «وهل يدخل الاعتبار العرقي في تقسيم الأراضي بينكم؟».

أجاب الفتى قائلا: «صحيح أنّ الجماعتين تتعايشان هنا منذ قرون، غير أنّه جرت العادة أن يشتغل المنحدرون من أصل أفريقي بالزراعة خلافًا لأبناء القبائل العربية الرحّل الذين ينتقلون بماشيتهم إلى حيث

المراعي الخصبة، وهو ما يتسبّب في نزاعات بين الجانبين؛ كنّا نفضّها بالحسنى».

وجد مارتن نفسه يقول في سرّه: «ما أشبه هذا الوضع بما كان عليه الحال في الغرب الأمريكي عندما كان الخلاف قائمًا بين المزارعين ومربّي الماشية!».

ثم وهو يسأله قائلا: «وكيف الحال في الخرطوم؟».

قال الفتى: « لا يُخفى على أحد أنّ العرب من غير المتعلمين لا يحبون القادمين من جنوب السودان الذي يسكنه مسيحيون وآخرون من أتباع الديانات الأفريقية التقليدية ولا يحبوننا نحن رغم أننا جميعنا مسلمون».

قال مارتن متعجبًا: «مسيحيون من جنوب السودان؟».

قال الفتى: «ترك الاستعمار وراءه بلدًا يضمّ عدّة طوائف وأعراق، نسأل الله أن يكون هذا الأمر عاملَ قوّةٍ في المستقبل».

أجابه مارتن قائلًا بنبرة يعتريها الشكّ: «أرجو ذلك أيضا».

فجأة توقّف الفتى عن السير ونظر في عيني مارتن، وهو لا يزال متعكّر المزاج إلى حدّ ما وقال: «لديّ شيء أريدك أن تراه في عطلة آخر الأسبوع إذا أتيت معي».

أجابه مارتن قائلا: «طبعا».

فلقد كان الرجل يتحرّق شوقًا ورغبةً في معرفة كل ما تخبئه له حياته الجديدة في هذا البلد.

الفصل الثالث

المكان: الجنينة: ولاية غرب دارفور، السودان
الزمان: الأسبوع التالي

ما إن انتهى الدوام المدرسي يوم الجمعة حتى حمل كلّ من محمد ومارتن معه حصيرا أحكم طيّه لافتراشه عند الحاجة. وطفقا يضربان في الفلاة، وسرعان ما تركا وراءهما المدينة بمبانيها الحجرية والأسمنتية. ومرّا في سيرهما بحقول انتشرت فيها نساء وبنات تقوّست ظهورهن وهن يعزقن الأرض بمساح محليّة قصيرة المقبض لا تجدي نفعا في إنجاز عمل بدا لمارتن غير منتج إضافة إلى أنه يقصم الظهر، خصوصا في هذا القيظ الشديد. ولاحظ مارتن أن كلّ النساء منشغلات بعمل ما، وأن الواحدة منهن إن لم تكن تعزق الأرض، فذاك لأنها ذهبت إلى بئر ضحلة لعلها تضخ منها ماء لريّ أرض لم ترتوِ مطلقًا.

مرَّا أيضا بنساء وبنات يسرن حافيات بأجسادهن النحيلة على الطريق الزراعية يحملن قفافا تسمّرت فوق هاماتهن، فلا تربك في شيء مشيهن منتصبات بخطى واثقة منتظمة. وكانت أوشحتهن وأثوابهن المزركشة تنقل لعين الناظر مشهدا بهيجا يكسر قتامة ألوان الطبيعة. وحتى في هذا الخلاء، كان يخرج عليهما بين الحين والآخر

أناس لا يعرفون من أين جاؤوا ولا إلى أين يسيرون في هذه الطريق الطويلة.

قال مارتن معلّقا على هذا السيل المتقاطر من عابري الطريق الزراعية: « ما ألطفهم! كأن الهمّ لا يطرق بابهم مطلقًا، جميعهم يبتسمون لنا ويلقون علينا التحية».

ردّ الفتى قائلا: «وهل تنفع الشكوى؟ نحن في دارفور نرضى بالقليل ونبحث عن الحلول ولا نستسلم، وهذا سرّ بقائنا». أطرق برهة، ثم أضاف قائلا: «هذه هي أفريقيا الحقيقية وقد جئت بك إلى هنا لتراها».

قضّيا ليلة الجمعة مع بعض أبناء عمومة الفتى في قرية هي عبارة عن نجع من عدّة دواوير تحلقت حول عين ماء. ويفصل بين دوار وآخر سور قُدّ من أعواد قصب شُدّت إلى بعضها. ولم يغب عن مارتن أن يلاحظ أنّ هذه الأسوار ليست عالية، إذ لا يوجد ما تخفيه الأسر عن بعضها بعضًا ولا معنى لمفهوم الحيز الخاص خلافا لما عليه الحال في بلده. ويتكون كلّ دوار من مجموعة عِشَاش؛ جدرانها من طين تعلوها أسقف مخروطية ضخمة من قش مجفف. وقد علم مارتن من الفتى أن باستطاعة الرجل، إذا كان ميسور الحال أن يملك عدّة عِشَاش يخصّص كلّ عشّة لواحدة من زوجاته تتقاسمها مع أولادها منه. بينما يعيش ضعاف الحال في عشّة واحدة ويحتفظون بماشيتهم قريبة منهم ومن عِشَاشهم ويحبسونها في الليل داخل زريبة في ركن من الدوار.

لم ير مارتن في القرية أيّ مرفق عمومي باستثناء المسجد الصغير الذي لا تخلو منه قرية في دارفور. فلا دكاكين ولا مطاعم ولا محطات بنزين، وكلّ ما في القرية يدل على توقّف ساعة الزمن عن الدوران عند زمن وصول الإسلام إلى دارفور في السنة تسعمائة للميلاد عن طريق قوافل التجار العرب. وكان مارتن يعرف أنّ للاسلام تنويعات عديدة شأنه في ذلك شأن المسيحية واليهودية، وبدا له أن التنويعة التي يراها في دارفور هي نتاج إسلام مسالم ومتسامح، إذ لاحظ أنّ الناس هنا لا يعنيهم كثيرا أن يكون على دين غير دينهم، ولم يشعر قط برفض منهم تجاهه لأنّ ديانته تختلف عن ديانتهم.

أثناء تناول العشاء مع أبناء أعمام الفتى وأخواله، لفت انتباه مارتن الاهتمام الفائق المتبادل بينهم. فأعجب بذلك وشعر بالارتياح لحديثهم الهادئ فيما بينهم. ولم يسعه إلا أن يقول في سره لعلّ إيثارهم لبعضهم البعض هو سرّ نزول البركة في زادهم على قلّته.

في اليوم التالي، رأى مارتن مشهدا لم يره ولم يتخيله في حياته؛ رأى كيف تجلس النسوة مصطفّات، الواحدة عند ظهر الأخرى، وقد تفيّأن الظلّ هربًا من شمس الظهيرة، فتسلّم كلّ واحدة شعرها للتي تجلس خلفها لتجدل ضفائره. ورأى كيف يترفّق شباب الأسرة بشيوخها ويطلبون منهم النصيحة والرأي، ويصغون إليهم بانتباه واحترام وهم يعيدون على مسامعهم قصصًا من ألبوم ذكرياتهم الأثيرة.

قال الفتى موجّهًا حديثه إلى مارتن المتشوّق إلى سماع إيضاحاته: «نحن نتعاون كأسرة واحدة، نتدارس الأمور فيما بيننا لكي نتوصّل إلى ما يمثّل الأفضل لِمصلحة الأسرة. والكثيرون من سكان الريف ليس لهم موارد يعيشون منها، ولكنهم، على الأقل، يعلمون أنّ ذويهم لن يخذلوهم عند الحاجة».

أخذ مارتن نفسًا عميقًا إيذانًا بأنه يريد أن يتحدّث، فأحسّ بعبق التربة التي قلبتها مساحي النسوة في جانبي النجع يسري إلى ضلوعه، ثم قال مخاطبًا الفتى: «أنت تعرف أنّي جئت إلى دارفور لأعلّمكم، غير أني وجدت نفسي أتعلّم الكثير منكم. دعك من فكرة أنّ الأسلوب المتّبع في الغرب هو الأفضل في جميع الحالات! فما من مجتمع يملك بمفرده جميع الحلول. أمنيتي أن تُتاح للجميع فرصة المجيء إلى دارفور والاستفادة مثلي. يالها من تجربة قشعت عن عيني غشاوة كانت تحجب عني صفاء الرؤية!».

سأله الفتى وهما يصعدان الجبل باتجاه خط الأفق: « قشعت عن عينيك غشاوة؟».

قال مارتن: «لقد خلصت إلى أنّ العالم يصبح مكانًا أصلح للتعايش إذا عرفنا كيف نحترم بعضنا بعضا».

قال محمد باسما: «يبدو أنّ المقام قد بدأ يطيب لك في دارفور».

أجابه مارتن ضاحكًا: «كلّ يوم يأتي لي بالجديد هنا، لقد استعدت دهشة الطفل وهو يرى الأشياء لأول مرة، إني أعيد اكتشاف العالم الخارجي».

تساءل مارتن في سره كيف يفسّر لهذا الفتى الذي لم ير شاشة تلفزيون أن الواقع الذي يعيشه بين ظهرانيهم يفوق خياله الذي كثيرا ما كان يطلق له العنان، بعد أن شاهد في صباه على قناة ناشيونال جيوغرافيك، برنامجا شغف به شغفًا شديدا، فأصبح يرى نفسه واحدا من القوم الذين شاهدهم على الشاشة، يعيش مثلهم في البرية حياة بدائية، ويركب معهم الجمال والحمير في بلد صهدت أرضه أشعة شمس حارقة، أسواقه مكتظة ترى فيها ملابس زاهية الألوان وأكواما من التوابل والبهارات وتتردد فيه أصداء إيقاعات أفريقية.

قال مارتن: «أتمنى أن تلازمني هذه الدهشة، وأناشدك أن تحرص على تذكيري في المستقبل بأنّي آليت على نفسي ألا أحتفظ بتجربتي هذه لنفسي، وسأسعى ما حييت لإطلاع الآخرين عليها».

ابتسم الفتى وأجابه قائلا: «اطمئن، سأمطرك بالرسائل ليلا نهارا، فلا تهملها!».

قال مارتن ينهره: « لا تقل هذا! لن أقطع حبل التواصل معك مطلقًا». وهنا قال الفتى بنبرة جدية: «سنبقى على اتصال دائم، أريد أن يتعرّف أولادي وأحفادي على أولادك وأحفادك».

تعاهدا على ذلك بأن تصافحا، ثم واصلا صعود الجبل.

قضّيا تلك اللية في الجبل. وفي فجر اليوم التالي أيقظ الفتى أستاذه قائلا: « هيا معي لأريك هذا المشهد! وقاده إلى حافة جرف صخري يطل على سهل يمتدّ في الأفق إلى ما لا نهاية. وظلاّ هناك يرقبان بزوغ الشمس في منظر يبدو كما لو أنّ يد الدهر لم تمسسه منذ بدء

الخلق. وبسط الفتى ذراعه مشيرا إلى ذلك الرحب الفسيح وهو يقول: «انظر! هي ذي أفريقيا التي أريدك أن تذكرها». بقي مارتن يتأمّل المشهد مدهوشًا في صمت. «يا إلهي، ما هذا الذي أرى؟ فضاء مترامي الأطراف لم تمسس يد الإنسان أرضه ولا سماءه، على امتداد المسافات واتساع المساحات حيث لا أثر لأي مظهر من مظاهر العمران؛ فلا مساكن ولا عواميد كهربائية ولا طرقات ولا قاطرات بخارية ولا أنوار بعيدة لمدينة من المدن». شعر مارتن بأن العناية الإلهية قد اصطفته دون الآخرين، فحدث نفسه قائلا: «ترى كم شخصا من نيوجرسي قيض له الله أن يشاهد هذا الذي أراه؟».

في تلك الليلة، ظلا مستلقيين يراقبان النجوم. ولا تسل عن دهشة مارتن وهو يراها قريبة منه بمثل ذلك القرب ويراها تسطع بذلك السطوع الذي لم يره من قبل، وشعر برعدة تسري في جسده وهو يتعرف بسهولة على عدد كبير منها حيث لا أنوار من صنع الإنسان في ذلك الفضاء الرحيب تعكر رؤيتها. فلقد رأى ليلتها النجوم تتلألأ ثم تتهاوى. وكان يخُيّل إليه من موقعه ذاك أنها قريبة جدّا وكان كلما خيل له أنه قد رأى نجما هوى، رمشت عيناه وجلا وخاله سيرتطم به ويسحقه.

رجعا في اليوم التالي إلى الجنينة. وبعد تلك الرحلة، أصبح مارتن يترك نافذة غرفته مفتوحة في الليل كي لا يفوّت على نفسه رؤية انبلاج الفجر والتمتّع مع طلوع كلّ شمس بسماع أصوات لم يألفها سمعه من زقزقات عصافير وتغريدات طيور ومواويل يتخللها ثغاء أو

مأمأة أو خوار أو صرير عجلات عربة يجرها حمار أو صياح ديك يعلن ميلاد يوم جديد.

في المدرسة، كان محمد أنجب تلاميذ فصله. كانت لديه نزعة استعراضية لا يخفيها ويرفع إصبعه دائما طلبا للإجابة على الأسئلة؛ فلقد كان شديد الثقة في أنه سيثير انتباه رفاقه في الفصل ويأسر إعجابهم. وقد خطر لمارتن أن يكبح جماحه ويطلب منه أن يتعلّم الإصغاء للآخرين ويجنح من حين لآخر إلى التسليم برجاحة رأيهم متى كان رأيهم هو الأسلم. غير أنه عدل عن مفاتحته في هذا الأمر خشية أن تُخمد جذوة طموحه وتيقّظه، واحتفظ بملاحظته تلك، فقد كان يعتبر الفتى بمثابة أخيه الأصغر وحبه له قد منعه من كبح اندفاعه الجارف وقمع نزعته الاستعراضية التلقائية.

كان مع محمد في نفس الفصل فتًى آخر؛ عمره اثنا عشر عامًا اسمه عصمان وهو لا يقلّ عنه فطنة، كان سريع البديهة، حادّ الذكاء، وإن لم يكن شديد الحرص على تحصيل العلم. وقد احتار مارتن في تفسير خمول هذا الفتى وانسياقه وراء الإرادة الجماعية والحسابات المحلية ضيّقة الأفق التي كان يخفيها وراء نظراته الخاملة والحال أنّ له من المؤهلات الذهنية ما يسمح له بأن يبني لنفسه مستقبلا أكثر إشراقًا وأوسع آفاقا.

كان مارتن يتحدث إلى عصمان من حين لآخر في ظلّ الشجرة التي توجد خلف المدرسة، فيلمس الاختلاف الصارخ بينه وبين محمد؛ ففي حين كان محمد يتّقد نشاطًا واستعدادًا للسير أميالًا أثناء مناقشاته معه

وكان ينظر إليه في عينيه كلما خاطبه ليرصد ردود فعله، كان عصمان يتكئ إلى جذع الشجرة ووجهه العريض خالٍ تمامًا من أيّ تعبيرٍ.

كان عصمان قصير القامة مكتنز الجسم خلافًا لمعظم زملائه في الفصل. ومن الواضح أنّه سليل أسرة ميسورة لأنّ أبناء الأسر الميسورة، حسبما تعلّم مارتن سريعًا، هم لوحدهم من يتكدّس الشحم في أجسادهم. وقد استشفّ من حديثه مع هذا الفتى أنّ عينيه الخاليتين من أيّ تعبير تخفيان وراءهما آلة تظلّ تحسب كلّ كبيرة وصغيرة، وهذا ما يجعله متقدّمًا عدّة أشواط على زملائه في الفصل.

حاول مارتن ذات مرّة أثناء حديث له مع عصمان أن يرشده إلى توخّي المنطق منهاجًا في التفكير والتحلّي بروحٍ نقدية، لكنه لم يفلح. فقد وُلد عصمان ليتسلم هو أيضا، مثل محمد، المشعل عن أبيه بعد عمر طويل بحول الله، ولكنّه وخلافًا لمحمد، لم يكن لديه حرصٌ كبير على المطالعة لتوسيع مداركه.

قال عصمان بشراسة ردًّا على استفسار مارتن له حول عزوفه عن المطالعة: « أبي يقول إن قراءة القرآن تُغني عن مطالعة الكتب جميعها».

قال مارتن: «ولماذا يرسلك إلى المدرسة إذن؟».

قال عصمان: «لأتعلم الحساب وأستعين به في التجارة وأُجيده مثل تجار الجنينة الذين يحاولون دائما التحيل على أبي».

سأله مارتن: «وكيف ذلك؟».

قال عصمان: «يعتقدون أنه يسهل التحيل علينا لأننا من البادية، لقد أوصاني أبي بألا أثق مطلقا في أي شخص غريب».
قال مارتن: «وكيف تثقون في شخصي وأنا رجل غريب عنكم؟».
قال عصمان وقد تجهّم وجهه: «هذا واجب علينا».
قال مارتن: «عفوا ولكن، ألا تستفز الأفكار الجديدة التي أعرضها عليكم في دروسي حبّ الاطلاع لديك؟ ما هي هواياتك؟».
غارت مقلتا عصمان وأطرق يفكّر كما لو كان أستاذه يريد امتحانه. فأضاف مارتن قائلا: «ماذا تفعل مع أصدقائك على سبيل الترفيه عن النفس؟».
أجاب عصمان متسائلا: « أصدقائي؟ أبي يقول إنّ الرجل ليس بحاجة إلى أصدقاء وإنّ أسرته تغنيه عنهم، لا يمكن الاعتماد إلا على أفراد الأسرة فقط».
قال مارتن « وماذا تفعل مع أفراد أسرتك على سبيل الترفيه عن النفس؟ هل تستمعون إلى الموسيقى أم تمارسون ركوب الخيل أم ترقصون؟».
نظر عصمان إلى مارتن كمن ينظر إلى شخص فقد عقله ولم يقدّم ردًّا. وكم كان بودّ مارتن أن يجد الجرأة ليقول له: «لم أرك تبتسم مطلقًا»، لكنّه غالب نفسه واكتفى بالقول في سرّه: «أي أب نكدي هذا الذي ابتُلي به عصمان؟ كيف لنفس الشريحة الاجتماعية المترفة نسبيًّا أن تنجب من ناحية فتى مثل محمد يتّقد حيوية وطموحًا، وتنجب من

ناحية أخرى فتى مثل عصمان خاملًا وتعيسًا. ثم تذكّر أنّ ذلك كثيرًا ما يحدث حتى في أمريكا، بل وداخل نفس الأسرة بين شقيق وشقيقه.

قال مارتن: «عصمان، أنت فتى له من الذكاء ما يؤهله لأن يصبح طبيبًا يساعد أهله».

قال عصمان دون تصنّع وهو يقلب عينيه الحجرتين الداكنتين في مارتن: «أقول له سأصبح شيخًا، فيقول لي لماذا لا تصبح طبيبًا؟».

وعندها أيقن مارتن أن لا فائدة تُرجى من محاولة معرفة ما إذا كان عصمان قد قرر بمحض إرادته أن يصبح شيخًا. فقد اختار له أبوه مستقبله بوصفه إبنه البكر ولأن تقاليد الأسرة تقتضي ذلك ولا اعتراض على تقاليد الأسرة. غير أنّ مارتن أحسّ بالرغم من ذلك أنّ هنالك وجعًا يعتمل في نفس المراهق عصمان قد أحدثته استكانته لهذا القدر الذي أراده الآخرون له.

ومِن المحادثات التي دارت بينه وبين عصمان، محادثة لن تمّحي من ذاكرته. فقد تودّد له ذات مرّة ودعاه رغم امتعاض محمد إلى أن يرافقهما في إحدى جولاتهما الطويلة والمنتظمة في المدينة بعد انتهاء الدوام المدرسي. وكان محمد يتجنّب مرافقة عصمان رغم أنّهما من شريحة اجتماعية واحدة. وكان مارتن يشعر بأنّ عصمان لا يحبّ محمدًا لأنّه تلميذٌ متفوقٌ في الدراسة وقدوةٌ يُحتذى بها. غير أنّ مارتن كان يأمل في أن يُقحم الفتيين في نقاش مباشر لعلّه يفلح في جرّ عصمان إلى خارج دائرة الاستكانة والخمول التي حبس فيها نفسه.

كان مارتن يأمل في سرّه أن يقتنع عصمان بأنّه لا يقلّ ذكاء عن محمد وأنّه باستطاعته أن يقارعه الرأي مقارعة الندّ للندّ.

أخذ مارتن في استفزاز الفتيين لحملهما على الدخول في مناقشة، فقال: «لتعلما أن البلد سينمو بوتيرة أسرع لو سمح للفتيات بارتياد المدارس، إذ أن ذلك يضاعف عدد المتعلمين المستعدين لخدمة البلد، وإلا فإنّ الاقتصاد لن يخرج من العصر الحجري إذا ما ظلّت النساء يشتغلن بالزراعة على هذا الشكل».

قال عصمان: «هذا ما وجدنا عليه أمهاتنا وجداتنا».

قال مارتن: «وهذا سبب تخلفكم الكبير عن سائر بلدان العالم».

قال عصمان: « هذا ما ترونه أنتم، لكنّكم في نظرنا منحطون أخلاقيا».

قال مارتن: «كيف تفسر إذن سبب عيش الناس في الغرب حياة أيسر بكثير من حياتكم، هل العناية الإلهية هي التي أسعفتهم؟ لماذا يترك الله عباده المؤمنين يعانون العسر والمرض وينعم في المقابل باليسر والصحة على غيرهم ممن ترونهم منحطين أخلاقيا؟».

قال عصمان وهو يتجاهل السؤال: «لا علينا». وظلّ يمشي بخطى متثاقلة وقد ازدادت ملامح وجهه قساوة، ثم استأنف كلامه قائلا: «النساء في أدنى مرتبة من الرجال ولا يمكن أن تثق بهنّ، إذ تغلبهن العاطفة ولا يرجّحن كفّة المنطق خلافًا للرجال».

قال مارتن وهو يمعن في استفزازه: «ألا ترى أن الرجال تحكمهم غرائزهم الجنسية؟ أعرف رجالا كثيرين ارتكبوا حماقات جسيمة لانقيادهم وراء شهواتهم بدلا من الاحتكام إلى عقولهم».

قال عصمان: «المرأة في مجتمعكم هي التي تغوي الرجل. نساؤكم يتصرفن كالعاهرات، خلافا لنسائنا لأننا نختتنهنّ، فيصبح الجماع عندهن عذابًا لا يُطاق، فنمنع بذلك عنهنّ مغبّة الرضوخ لسلطان الشهوة الآثمة».

قال مارتن: «هل تقصد أنّ جميع النساء في الغرب عاهرات؟ هل أمي امرأة عاهرة هي أيضا؟».

نظر عصمان أمامه مرّة أخرى ورفض الانجرار وراء مارتن في هذه الوجهة، ومضى يقول: «نحن نختن الفتيات لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد لإبعادهنّ عن الخيانة، فالطفلة ملك لوالدها، فإن تزوجت، أصبحت ملكًا لزوجها. لا بد من حمايتهنّ كي لا يجلبن العار إلى أهاليهن».

قال مارتن: «أنت إذن لا يضيرك أن تتزوّج من تحب وترغمها على تحمّل ألم جماعك بها».

قال عصمان: «عليها أداء واجباتها الزوجية تجاهي وعدم خيانتي مع رجل آخر».

لاحظ مارتن أنّ محمدا يتابع المناقشة باهتمام، ولكنه قرّر ألا يشركه فيها ريثما يتجشّأ عصمان ما في جعبته.

قال مارتن: «إذا أحسنت معاملة زوجتك، فربما لا تخونك».

قال عصمان وهو يصرّ على أسنانه: «واجبها أن تنجب لي ذرية كثيرة، وعندما أكسب ما يكفي من المال، تُصبح لي عدّة زوجات وكل زوجة تنجب لي ذرية أخرى وعندها يشتدّ ساعدي بهم جميعا».

تنهد مارتن وقال: «أفهم حرص الرجال هنا على ختان الإناث ولكني لا أفهم لماذا تحرص النساء على نقل هذه العادة إلى بناتهن وحفيداتهن؟! لماذا كل هذه المعاناة التي لا فائدة منها؟!».

قال عصمان بحنق: «كل أمّ تريد أن تجد ابنتها زوجًا، ومن سيقبل بفتاة غير طاهرة؟».

قال مارتن متجاهلًا ما قاله عصمان: «ولكنّ الختان يودي بحياة الكثيرات سواء بسبب مضاعفات يتعرضن لها مباشرة بعد إخضاعهن لهذه الممارسة، أو مضاعفات تظهر في وقت لاحق وتودي بحياتهن أثناء المخاض. وهذه الأسباب الصحية وحدها كافية لاعتبار الختان ممارسة تتنافى مع المنطق».

لاحظ مارتن أن عصمان أحسّ بما يشبه الوجع عندما سمعه يشجب الختان ويصفه بأنه عمل يأباه المنطق.

صاح عصمان قائلا: «هذا أمر سيبقي فينا ما حيينا ولا اعتراض على مشيئة الله».

قال مارتن: «إئتني بآية واحدة من القرآن تأمر بختان الإناث!».

احمرّت عينا عصمان من الغيظ وصاح قائلا: «ليس من عاداتنا الخروج عن سنّة الأوّلين».

قال مارتن: «هذا تسليم بأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، هذا موقف غير منطقي؛ يقتل روح المبادرة ويخنق الأنفاس ولا يساعد على الرقي».

صاح عصمان وأخذ يرغي ويزبد: «نحن لا نرى الأشياء بهذا الشكل، لا يحقّ لمخلوق الاعتراض على مشيئة الخالق، وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله». ثم صمت برهة وأخذ صدره يعلو ويهبط، وأضاف قائلا: «لا مرد لقضاء الله وقدره».

قال مارتن: «أرى أنّك لن تسمح بالخوض في هذه المسائل عندما تصبح شيخًا».

قال عصمان: «أنت لا تعرف ما هو دور الشيخ في مجتمعنا، الانشغال بهذه المسائل هدرٌ للوقت وعمل لا طائل من منه».

صمت مارتن وأحسّ بأنّ صديقه الفتى محمد يتحرّق للإدلاء بدلوه في النقاش، فالتفت إليه وسأله: «ما رأيك فيما أتناقش مع عصمان؟».

قال محمد: «يولد الناس أحرارًا ولا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، نحن نطيع الله ونتبع كلمته ونلتزم بما أنزله في القرآن. وفي القرآن مكمن قوّتنا ووجداننا، ومنه نستمدّ قيمنا الأبدية. ولكن، يجب ألا نرضخ لمن يريد توظيفه لاستعبادنا».

فجأة كفّ عصمان عن الكلام وأحسّ مارتن أنّ الفتى جفل كما لو أنّ قدمه أوشكت أن تطأ لغمًا، وإلا ما الذي جعله يكاد يتميّز غيظا؟

لم ينس مارتن ذلك اليوم، وظلّ لسنوات تلت كلّما استعاد مشهد عصمان وتعابير وجهه الغاضبة الممتعضة، إلا وقفزت إلى ذهنه

ابتسامة الفتى محمد وأسنانه البيضاء؛ وهي تبعث في نفسه دفقًا من الإحساس بالانشراح، وتستأثر بما احتفظ به من ذكريات تلك المحادثة.

في اليوم الذي غادر فيه مارتن دارفور عائدًا إلى بلده، رافقه الفتى إلى نفس محطة الحافلة التي تقابلا فيها لأول مرّة. وهناك تعاهدا مرة أخرى على أن يظلا على اتصال دائم رغم أنّ كلاهما كانا يعلمان جيدا أنّ الأمل في أن يلتقيا مرّة أخرى في المستقبل يكاد يكون معدومًا. ولمّا حانت لحظة الفراق، تعانقا وخنقتهما العبرات. وقد أدرك كلّ منهما كم تعلّم وكم حفظ من أشياء ما كان له أن يتعلّمها لولا وجود الآخر.

ترك مارتن لمحمد عند رحيله أعزّ ما يملك؛ كتبه التي جلبها معه عند قدومه، إضافة إلى عشرات الكتب التي أرسلها إليه أصدقاؤه وأقاربه أثناء المدّة التي أقام فيها في دارفور. فقد كان واثقًا أنّ كتبه ستكون في الحفظ والأمان وستظلّ لعقود من الزمن مصدرًا للتّباهي، تماما كما يتباهى قدماء المحاربين بأنواط وأوسمة الشجاعة، وأنّ كتبه ستترك أثرها في الكثير من الأجيال المتعاقبة.

بعد رجوعه إلى بلده بفترة وجيزة، وجد مارتن عملا في نيويورك في وكالة الأمم المتحدة للتنمية لإيجاد الوسائل الكفيلة بمساعدة من يريدون أن يغيّروا ما بأنفسهم.

وطوال عقدين ونصف من الزمن، أوفى مارتن بوعده للفتى وظل يرسل إليه من أمريكا بطاقات بريدية وصورا لعائلته ومنزله في نيوجرسي. وأرسل إليه صورة للمرأة التي اختارها شريكة لحياته

وهي طبيبة أطفال تعرّف عليها في الأمم المتحدة. وأرسل إليه صورا من حفل زفافهما وصورة أُخذت لابنتهما راكيل وهي رضيعة قد وُلدت لتوها. وأرسل إليه أيضا طرودًا من الكتب.

وكان محمد يردّ عليه برسائل يخطّها على ورق رقيق يضعها في رسائل تحمل بالبريد الجوي يودعها آخر أخباره حيث أبلغه في إحداها بوفاة أبيه، الشيخ، وحلوله محله وهو في سنّ التاسعة عشرة، وأبلغه في رسائل تالية بزفافه وميلاد أبنائه، وزيجته الثانية والثالثة وميلاد مزيد من الأبناء. ونعى إليه في إحدى رسائله زوجته الثانية التي توفيت وهي تضع حملها، ونعى إليه أخويه الأصغر منه سنًّا أولهما مات لإصابته بالملاريا والثاني لإصابته بإسهال.

وكثيرا ما كان مارتن يحدث محمدا في رسائله عن عمله ويستفسر منه عن أفضل طريقة للعمل في إطار الهياكل التقليدية بما لا يتعارض وطبيعة الثقافة الأفريقية. وفي المقابل، كان محمد يستفسر من مارتن في رسائله عن الأحداث العالمية ليدرك من خلاله الموقف الأمريكي من هذا الموضوع أو ذاك. وكان يخالجهما نفس الشعور كما لو أنّ رابطا أسريًّا يجمعهما ويقرّبهما رغم بُعد المسافات.

في أواخر القرن العشرين، حدّث محمد صديقه عن حفيدته زهرة، قال إنّه يرى فيها علامات النبوغ رغم صغر سنها. وهي أحبّ أولاده وأحفاده وأقربهم إلى قلبه وإن كان لا يبدي تفضيله لها أمام الآخرين وقد أسرّ له بأنّه يشعر أنّ هذه الطفلة «تقرأ في أعماقه».

في يوم من الأيام، وصلت إلى محمد رسالة من نيوجرسي لم يكن مارتن مُرسلها. ففتحها بيدين مرتعشتين، فإذا بها من ابنة مارتن راكيل تنعي إليه فيها أباها وتخبره بأنه قد توفي إثر تعرّضه لجلطة داهمته وهو في مكان عمله في الأمم المتحدة. ولم يبلغ مارتن من العمر سوى أحد وخمسين عاما. وقد بكاه محمد بحرقة. فقد كان أعزّ شخص يحترمه في هذه الدنيا.

غير أن حبل التواصل لم ينقطع بين أسرة مارتن وأسرة محمد حيث واصلت راكيل من حيث انتهى أبوها، وأصبحت ترسل إلى محمد على مرّ السنين بطاقات بريدية لأشهر مباني أمريكا وحدائقها الوطنية وبطاقات معايدة. وأرسلت إليه صورة أخذت لها يوم تخرّجها من معهد هارفرد لتدريس الطب وصورًا من حفل زفافها وصلت إلى مكتب البريد في الجنينة الذي كان محمد يذهب إليه رفقة أبنائه مرة في كل شهر وهو في طريقه إلى السوق.

وقد نقل محمد في رسائله إلى ابنة مارتن بفخر كيف أنه كان أول من أرسل إحدى بنات الأسرة إلى المدرسة، وكيف أنّ حفيدته تلميذة نجيبة ومتفوقة على أندادها وستكون أول فتاة من دارفور تذهب إلى الجامعة في الخرطوم.

فقد كتب لها يقول: «صدقيني يا راكيل، زهرة ستصبح طبيبة مثلك ومثل أمك، نحن ينتظرنا هنا مستقبلٌ زاخرٌ، نحن على مشارف قرن جديد، ويحدوني الأمل في بناء سودان جديد»

الفصل الرابع

المكان: قرية الشيخ آدم الواقعة على بعد تسعة عشر ميلا شرق قرية الشيخ محمد، وهي تقع غرب دارفور.
الزمان: تشرين الثاني/ نوفمبر 2004

كان الوقت فجرًا في قرية الشيخ آدم الذي تملك أسرته حقولا كثيرة في المنطقة، والذي تحمل القرية اسمه كما حملت في وقت سابق اسم أبيه قبل أن تنتقل زعامتها إليه بعد وفاته، ويصبح هو شيخها.
وفي مثل هذا الوقت من كل يوم، ينهض أحمد قبل مطلع الشمس بقليل في وقت لا يزال فيه الهواء عليلا نسبيا، فيلبس سرواله الرياضي القصير وجمازته وينتعل أعزّ ما يملك؛ حذاءه الرياضي. ثم يسير باتجاه المسلك الزراعي الذي يقطع الحقول الممتدة بين قريته وقرية السوق. وما إن يغادر هذا الفتى ذو الجبهة العالية والعينان العسليتان دوار أسرته المتواضع حتى يأخذ في الهرولة؛ هرولة سرعان ما تتحوّل إلى ركض يتحوّل إلى عدوٍ حثيثٍ ما إن يجد نفسه خارج القرية.
حدّث أحمد نفسه هذا الصباح، فقال: ما شاء الله المبدع المصور! من مثلي يعدو بسرعة البرق والريح؟ انظروا إلى هذا الجسم الممشوق المتوثّب وإلى عضلاتي التي نُحتت نحتًا. بالله عليكم ألا يحقّ لي

التباهي به؟ أم أنّني فتى مسكين قد أعمته النرجسية والغرور؟ لا أنا لست مغرورا، وقدرتي على العدو بهذه السرعة ليست ميزة متاحة لمن هبّ ودبّ، وإنّما أنا اكتسبتها بفضل التدريبات المضنية التي أواظب عليها يوميا بهمة لا تعرف الكلل».

وكان يعدّ خطواته وهو يعدو، يعدّها بالانكليزية كسبا لبضعة أشبار بين رقم وآخر لأن تعدادها بانكليزيته يستغرق منه وقتا أطول من تعدادها بلغته الأم. وعندما يصل إلى المائة، يتحوّل عدوه إلى ركض ويعيد تعدادها من البداية، وبعد المائة الثانية، يتحوّل ركضه إلى عدو من جديد، وبعد المائة الثالثة، يعود إلى الركض، وهكذا دواليك إلى أن يشعر بأنّ عضلات فخذيه تحترق وأنّ قلبه يخفق بشدّة، وعندها يجري ركضًا ويحسب إلى المائتين، ثم يهدأ من سرعته رويدًا رويدًا حتّى يصير ركضه أقرب إلى الهرولة. ويواصل جريه متنقلا بين العدو والركض والهرولة إلى أن يصل إلى قرية السوق البعيدة عن قريته ثلاثة أميال، وهناك يتوقف عن الجري لفترة قصيرة يبدأ بعدها النصف الثاني من رحلة عدوه.

وكان أحمد يعدو في طريقٍ يكاد لا يقاسمه فيها أحدٌ إذ لا أحد تقريبًا في المنطقة بِأسرها يملك سيارة خاصة، ولم يكن أحمد ينحرف عن مسار عدوه إلا ليفسح المجال أحيانًا لمرور شاحنة، وباستثناء ذلك، فإنه لم يكن يسير في الطريق إلا مزارعون يصحون مع طلوع الفجر ويستحثّون الخطى للوصول إلى حقولهم والشروع في فلاحتها قبل أن ترتفع الحرارة وتستنزف منهم قواهم. وكانوا يسيرون مشيًا لأنّ

معظمهم لا يملكون ثمن تذكرة ركوب لباص من الباصات القليلة جدًّا في المنطقة. لذا، فهم يتنقّلون مشيًا لمسافات بعيدة يقطعونها بهمّة وصبر كبيرين متسلحين بحكمة فلسفية لا تتزعزع، فتراهم يسيرون بصنادل بلاستيكية أو نعال قديمة وهم يحملون أدواتهم الزراعية على أكتافهم أو يضعونها فوق رؤوسهم فتبدو وكأنّها التصقت بِهاماتهم.

وكلما أرسل أحمد بصره حواليه، تراءت له على امتداد المسافات هذه الأرض المنبسطة إلى ما لا نهاية والتي شقي المزارعون في ري كل ذرة تراب فيها وتغلبوا على كل الصعاب، فأنبتوا في هذه البيئة المناوئة محاصيل من الذرة والبقوليات والفاصوليا وأشجار مثمرة تقوم هنا وهناك في حقول ممتدة على مرمى البصر سقوها بماء آبارهم وعرق سواعدهم.

وقد ألف رؤيته أبناء المنطقة الذين يمرّ بهم في طريق عدوه وأصبح مفخرة لهم إذ يرون فيه ظاهرة أنجبتها قريتهم لما حباه الله من قدرات جسمانية خارقة. فكلهم مولعون بكرة القدم، ومن منهم لم يشاهده وهو يصول ويجول في الميدان؟

وحتى الكلمات القليلة التي يردّدها بالانكليزية، فقد حفظها من المعلقين على مباريات كرة القدم في الراديو. أما مناهج التدريب، فقد تعلمها مما يتركه جنود الحامية وأفراد الشرطة السودانيون العاملون في دارفور من أعداد قديمة لمجلات كرة القدم، ومعظمها مجلات عربية. وكثيرا ما حمل إليه تجار من الخرطوم أعدادا حديثة منها.

ومن بين هؤلاء التجار؛ خليل، وهو صاحب دكان من أصول عربية. وقد دأب أحمد على الذهاب لرؤيته في فترة استراحته بين النصف الأول والنصف الثاني من رحلة عدوه، فيجده قد وصل لتوّه إلى دكانه وبدأ في تنضيد فاكهته من عناقيد العنب وثمرات الجوافة، فيقدم له خليل قارورة ماء وينصرف إلى تنضيد فاكهته ويتركه يستعيد أنفاسه. ثم يتحدث الصديقان نحو ربع ساعة عن نتائج مباريات الأمس، ثم ينطلق أحمد عائدًا إلى قريته جريًا على نحو ما فعل في النصف الأول من رحلة عدوه.

ولم يكن أهالي دارفور قد شغفوا نوعًا ما بِكرة القدم إلا حديثا حيث تزامن ذلك مع ظهور المذياع. ومن ثمّ، فقد كان أحمد وخليل يتابعان عن كثب مباريات فرق بلدان شمال أفريقيا، وإن كان أحمد أكثر اهتماما بمباريات فرق البلدان الأوروبية وبلدان غربي أفريقيا. ولقد أمكنهما أيضا أن يتعرّفا بفضل المذياع على لاعبي الأرجنتين والبرازيل والمكسيك، وأن يتقاسما كمًّا كبيرًا من المعلومات بِشأن مسابقات كرة القدم في المملكة المتّحدة.

وكان أحمد يحرص خصوصًا على متابعة المسيرة الكروية للّاعبين الأفارقة المنتدبين من فرق أجنبية. وكان يطلق العنان لخياله أحيانا، فيرى نفسه وهو يلعب لفريقه المفضّل مانشتر يونايتد.

وخطر لخليل أن يداعب صديقه هذا الصباح، فعمد كما يفعل معه كثيرا، إلى الخوض في موضوعه المفضل، وطفق يزين له المستقبل الباهر الذي ينتظره عندما يلتحق بفريق كبير، وكان أحمد يتساءل في

سرّه ما إذا كان صديقه يروم تشجيعه وشحذ همته، فيقول لنفسه إن خليل يخطئ إذ يظنّ أنّي مغرم بالرياضة من أجل الكسب.

خاطبه خليل هذه المرة قائلا: « أراهنك أنك ستحصد الملايين، وستشيّد قصرًا منيفًا، وتشتري سيارة فارهة، وستتجوّل بها رفقة حسنوات كواعب يلقين بأنفسهن في طريقك لتقبيل أقدامك».

وحرّك أحمد رأسه نافيًا عن نفسه ما يقوله عنه صديقه الذي سرعان ما استدرك قائلا: «أعني أنّ كل هذا سيحصل بعد أن تشيّدَ ملعبًا لفائدة أبناء القرية».

وإذ لاحظ خليل ردة فعل صديقه الفاترة، تركه وعاد إلى تنضيد فاكهته ثم أردف قائلا: « وتكون قد وزعت منحًا رياضية على المتفوقين من شباب القرية».

قال أحمد بعد أن شرب جرعة أخرى من الماء وراح يفرك عضلات رقبته ويحركها في جميع الاتجاهات: «الأولى من كل ما ذكرت بناء مدرسة للتعليم الابتدائي وأخرى للتعليم الثانوي في كل قرية من قرانا».

وانتقل خليل للحديث عن مباريات الليلة، والحقيقة أنه لم يكن يستريح للتحدث مع أحمد عن التعليم لا لأنه يخشى الدخول معه في سجال عقيم وإنما لعلمه بما قد يثيره هذا الموضوع في نفس صديقه من ألم. فقد ترك أحمد المدرسة في سن الثانية عشرة واستبدلها بالحقل والزريبة واستبدل القلم والممحاة بالرفش والمسحاة، وأصبح وجها مألوفًا في السوق يجلس فيها لبيع ما تيسّر من منتجات حقل الأسرة

وانقطع حضوره عن مقاعد الدراسة. وقد حصل هذا التغيير بعد أن توفي أبوه فجأة بسبب انفلاق الزائدة الدودية. ولما كان أحمد هو الولد البكر، فقد بات لزاما عليه أن يحلَ محله في تحمل أعباء الأسرة وتوفير قوتها.

وكان خليل ينظر إلى أحمد بعين العطف لأن الأقدار لم تكن رؤوفة به. فقد عرف من الأحاديث التي تجاذبها معه طوال سنوات صداقتهما أنه ما كان لينقطع عن الدراسة لو بقي أبوه على قيد الحياة. فما كان أبوه ليبخل بالغالي والنفيس مهما كلفه في سبيل أن يراه مواصلا دراسته. ولم يكن بمقدور خليل أن يساعد أحمد كثيرا، ولكنه لم يبخل عليه بمساعدات بسيطة تتمثل في مدّه بأعداد قديمة من مجلات كرة القدم، أو قارورة ماء، وأهمها الحذاء الرياضي الذي حرص خليل على جلبه له من الخرطوم والذي أصبح ملازما لأحمد؛ ينتعله في حصص عدوه الصباحية وفي كل مباراة لكرة القدم.

وتراهنا على نتيجة المباراة التي ستقام الليلة والتي سيتابعها كل منهما عبر مذياعه. ولم يكن باستطاعتهما أن يتابعاها سويا بسبب الظلمة التي تلف الطريق الفاصل بين بيتيهما ومسافتها ثلاثة أميال، ولا يستطيع قطعها سوى الميسورين من أبناء القرية الذين يعمدون إلى شراء بطاريات تنير لهم الطريق. ثم إنهما كانا يعلمان جيدا أنهما على موعد في صباح اليوم التالي وفي نفس هذا التوقيت وسيتوليان تشريح المباراة بالتفصيل وسيأتيان على كل كبيرة وصغيرة فيها.

وبعد أن استعاد أحمد أنفاسه وانتهى من شرب الماء، شرع في العدو على طريق العودة إلى قريته. وعندما وصل إلى منزله، دلف وراء حاجز صنع من أعواد القصب، فاغتسل واقفا مستخدما سطلا من الماء البارد وقطعة من الصابون الكاشط. وكان لا يزال يشعر بوخز في كامل أنحاء جسمه عندما جلس إلى جانب إخوته الصغار إلى منضدة صنعت أيضا من أعواد القصب، ومد يده إلى القصعة الجماعية ليأخذ منها حصته. وهناك كانت تجلس أمه أيضا وقد بدت بظهرها المحدودب وكأنها في الخمسين رغم أنها لم تتجاوز التاسعة والعشرين، فناولته رغيفا، وتجنبت أن تلتقي عيناها بعينيه. وخلافا للعادة، كانت أمه ذات الملامح الدقيقة والنافرة تلازم الصمت اليوم ولا تبدي ملاحظاتها أو تعليقاتها الصائبة على ما يحدث في عالمها الذي لا يتجاوز حدود القرية وسكانها، وعددهم بالتمام والكمال مائة وسبعون ساكنا. فقد كان سكوتها أشبه بصفير يمزق الصمت بأكثر حدة مما تمزقه صافرة حكم أهوج في مباراة لكرة القدم.

سأل أحمد أمه قائلا وهو يساعد أخاه الأصغر على ابتلاع ملعقة من شاي ممزوج باللبن والسكر «ما لي أراكواجمة على خلاف عادتك؟».

تحركت عينا أمه المحمرتان بسرعة بعيدا عن مرمى نظره وتيقظتا فجأة، ثم سرعان ما صوبتهما نحوه من جديد، وكررت ذلك مرتين كما تفعل في كل حركاتها على نحو لا يجاريها فيه أحد، وقالت وهي تحكم شدّ وشاحها الأزرق اللامع حول رقبتها: « عندما كنت عند البئر، سمعت خبرًا عن حواء»، إنهم يقولون إن الشيخ آدم وجد لها زوجًا».

وما إن سمع إخوته الصغار ما قالته أمهم وأحسّوا بصوتها الحزين حتى كفّوا عن عراكهم على شرائح المانغو وسعيهم للظفر بالنصيب الأوفر منها. فهم يكنون لحواء احتراما كبيرا، فهي تلوّح لهم بيدها كلما رأتهم يلعبون أو يتسابقون في أنحاء القرية، حواء ابنة الرجل القوي زعيم قريتهم الشيخ آدم، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا والفتاة الميساء الجميلة، ذات العينين الحلوتين والأنف الذي لا يخلو من فطس مليح، والمعروفة بحلاوة معشرها.

ولكن، أنّى لهم أن يعرفوا في أعمارهم هذه أنّها من شريحة اجتماعية غير شريحتهم، فأبوها الشيخ آدم هو كبير أسرة نافذة بينما هم من أبناء شريحة صغار المزارعين واللقاء بين الشريحتين مستبعد ولكنّه غير مستحيل.

تشاغل أحمد بِطعامه وتجنّب أن ينظر إلى وجه أمّه العبوس، وقال متسائلًا بِصوتٍ رتيبٍ ومتوتّرٍ: «ماذا سمعت؟».

«يبدو أنهم قد استقبلوا في بيتهم بالأمس الشيخ عصمان، ذلك التاجر السمين».

عصمان التاجر وشريك الشيخ آدم الذي يقطن على بعد عشرة أميال، ومعهما لا تجوز المقارنة إطلاقا بين وضعهما المادي ووضع أحمد الذي تقتات أسرته على محصول حقلها الزهيد، عصمان هذا الذي اعتاد الجميع رؤيته، على امتداد سنوات، وهو يغدو ويروح بينهم في قريتهم ليبرم صفقاته مع الشيخ آدم.

نكس أحمد رأسه، فقد كان يتوقّع أن تنتهي العلاقة بين الشيخين بترتيب هذه الزيجة، وواصل تناول أكله ولكنّه لم يعد يدرك له طعمًا. وخاطب أمّه قائلا: «أماه، أعرف عصمان، ولكنّني كنت مهتمًّا بأخت حواء الكبرى التي تزوّجت الآن كما تعلمين وخلّفت ولدًا».

تظاهرت أمه بأنها لم تسمع ما قاله وبأنّ أبناءها الصغار الذين تسمّرت نظراتهم عليها قد شغلوها عن سماعه، فصفّقت في وجوههم وصاحت فيهم قائلة: « هيّا انهضوا! جهّزوا أنفسكم للذهاب إلى المدرسة بدل البقاء هنا بلا عمل مفيدٍ، هيّا تحركوا!».

ونهض الصبية بتثاقل وكلهم أسف لأنّ أمهم حرمتهم من فرصة مشاهدة المأساة التي حلّت بأسرتهم. وبعد أن غادروا المكان، انتقت ثمرة من المانغو وقطعتها بحرفنة فائقة.

حدثته وهي تغالب، بطرف وشاحها، دمعة تكاد تفلت من مقلتها وهي تقول: «يبدو أنّ أحد أحفاد الشيخ عصمان، وقد غاب عني الآن اسمه، أنه سيتزوج حواء وأنّ موعد الزفاف بعد أسبوعين».

كانت أمه ترى في حواء منذ زمن طويل زوجة موعودة لأحمد غير آبهة بما يبديه ابنها من اعتراضات كاذبة متجاهلة استحالة أن يسمح الشيخ آدم الرجل المحافظ بأن يكون لابنته رأي في اختيار عريسها. فالشيخ آدم يحترمه أهالي القرية لخشيتهم منه ومن ملامح وجهه القاسية لا لأنهم يحبونه لشخصه، وحواء ليست في نظره سوى بهيمة يرى أنها ستعود عليه وعلى أسرته في يوم من الأيام بكسب وفير.

أطرق أحمد وكأنه لم يسمع أمه تقول متحسّرة: «كيف لصبية في جمال حواء أن تُبتلى بأسرة كتلك الأسرة وبتلك الأم المتعجرفة؟».

غير أنّ أمه لا تريد أن ينقطع حبل الكلام بينهما، فأردفت قائلة: «لا يُعرف عنها أنّها ابتسمت قط، بل يُقال إنّها لعنت المولى عزّ وجل لأنه لم يهبها ذكرًا».

أجابها أحمد قائلا وهو مستاء من خوضها في هذه الترهات: «ربما هي لا تعدو أن تكون مجرد امرأة سيئة الطبع».

قالت أمه: «لا أومن بوجود شخص سيء أو حسن الطبع، وإنما نحن جميعنا نحمل في داخلنا الصفح والغيظ ونرخي لهما العنان بمقدار».

نقل أحمد نظره بعيدا عنها وهو يشعر بالعجز عن إيجاد الكلمات التي ترتقي إلى رهافة حسها الإنساني.

وبالتوازي مع هذا المشهد، وعلى بعد خمسة ياردات من نفس القرية داخل دوار الشيخ آدم الأكبر والأفخم من محل سكنى أحمد وأمه، لم تكن حواء أسعد حالا. فقد كانت أمها النحيلة العنق وذات الأشفار السميكة تعد العدّة لزفاف ابنتها كما لو كانت تعدّ لصفقة تجارية لا مكان فيها للمشاعر الإنسانية فهي تضع عذرية ابنتها وطيبة سمعة أهلها في كفّة، وتضع مال الشيخ عصمان في الكفّة الأخرى.

وما زالت حواء تذكر شدّة دهشتها عندما شاهدت الصور التي أرسلتها ابنة عمها من كاليفورنيا وهي تقف إلى جانب المسبح في بيتها رفقة زوجها وهما وقد بدت عليهما سعادة عارمة؛ فقد كان الأمر محيرا لها فكيف لابنة عمها ألا تشعر بالخزي وهي التي لم تنجب له

ذرية؟ وكيف لزوجها أن يقبل بالظهور معها في الصور رغم أنها لم تنجب له ذرية، أو لديه زوجة ثانية قد أنجبت منه؟ وقد احتفظت حواء لنفسها بهذه التساؤلات حيث إنها كانت تعلم علم اليقين أن أمها سترى في مجرد طرح هذه التساؤلات تحديًا لسلطتها وخروجًا عن تعاليم التنشئة الاسلامية القويمة.

فالمرأة وفقا للشريعة الإسلامية هي ملك لوالدها ملكية تنتقل منه إلى الزوج الذي يختاره لها. وعليها أن تستأذن والدها أو زوجها قبل الذهاب إلى أي مكان خارج الدوار وأن تذعن لأي عقوبة يسلطها عليها مالكها سواء كان والدها أو زوجها. وإذا ما حرمها الله من الأمومة، فإنها تفقد صفتها الآدمية تقريبا ويصبح من حق زوجها أن يلقي عليها يمين الطلاق بالثلاث وأن يلفظها كما تلفظ النواة وأن يتركها تتضور جوعا. بل وحتى إذا ما أنجبت المرأة أولادا من زوجها، فإنه لا يحق لها أن تحتفظ بحضانتهم إذا ما طلقها.

وقد نشأت حواء في بيئة يحكمها فهم متشدد للإسلام لا تهاون فيه مع أي مظهر من مظاهر البهجة، فلقد لقّنها أهلها منذ نعومة أظافرها أن عليها المحافظة على عفافها لأنّ في ذلك شرفها وشرف الأسرة. أما الرجل، فمسموح له أن يتردد على بغي ويكفيه أن يعقد عليها قبل الاختلاء بها في ما يسمى بـ«زواج المتعة» وأن يرفع يديه إلى السماء قائلا: «اللهم اِشهدْ إني قد تزوجتها،» ثم يطلقها بعد الجماع ويرفع يديه ثانية إلى السماء قائلا: «اللهم اِشهدْ إني قد طلقتها». وفي مقابل ذلك، فإن حواء تدرك تماما أن مجرد نظرة منها نحو رجل غريب قد

تأتي بنهايتها على أيدي أفراد أسرتها غسلا للعار. وقد لقنها أهلها والمجتمع أيضا منذ أن فتحت عينيها على هذه الدنيا أن المرأة نصف الرجل وأن حظ الأنثى من الميراث نصف حظ الذكر وأن شهادة امرأتين أمام القاضي تعادل شهادة رجل واحد.

لم تتحدث حواء قطّ مع رشيد حفيد الشيخ عصمان، ولكنّها رأته ذات مرّة عندما جاء مع جدّه في زيارة لجدّها وقدّمت لهما الطعام والعصير ثم انسحبت من المجلس كما جرت به العادة في مثل هذه المناسبات.

وفي ذلك الصباح، سألتها أمها: «ماذا دهاك؟ الشيخ عصمان سيجزل الدفع ما دمت تحسنين معاملة حفيده وتسعدينه في فراشه كلما أراد أن يقضي منك وطرا».

انهمرت دموع الصبية وأجهشت بالبكاء وهي تتصور المشهد الفظيع.

قالت أمها: «الأمر بسيط، ستتعودين على رؤية زوجك وهو يلهث فوقك كل ليلة إلى أن يوافيه الأجل، صرّي على أسنانك وتحمّلي الألم وإياك أن تتأوّهي وسترين أنّ الأمر لا يستغرق إلا ثوان معدودات وستجدين أنه سرعان ما انقلب على جنبه. صدقيني ليس مهمًّا من يضاجعك. العملية مؤلمة وغير ممتعة، وإن شاء الله ستحبلين عدة مرات فيقلّ تواترها. وإياك أن ترفضي له طلبًا وإلا فإنّه سيبحث له عن زوجة أخرى».

وجحظت عينا حواء جزعًا وهي تتصوّر ما ينتظرها وسألت أمها ما إذا كان هذا الألم سيتكرّر في كل مرة.

قالت أمها وقد قطّبت جبينها: «يحقّ لك أن تفتخري بأنّك مختونة ولست كبنات المدن النجسات. فأنت لست طاهرة وشريفة فحسب، وإنما تهبين زوجك لذة زائدة يستمدّها من صغر فرجك وضيقه وهذا ما يريده الرجل، فافهمي وتبصّري»!

أشاحت حواء بِنظرها عن أمها وقد زادتها إيضاحاتها جزعًا.

وختمت أمها حديثها بالقول: «مهمتك في هذه الحياة أن تخدمي زوجك وأن تهبي له أكبر عدد ممكن من الأولاد».

دفنت حواء رأسها بين راحتيها راجية الله أن يعطيها القوة كي تتحمّل ما ينتظرها ويوفّقها في ألا تجلب العار لوالديها.

وسرعان ما اتّضح للشيخ آدم أنّ الظروف لا تشجّع على الاحتفال بزفاف ابنته في الموعد المحدّد. فما من أحد من أبناء المنطقة إلا وله أقرباء من بين الذين هاجمتهم قوات الحكومة السودانية. ولم يعد يمرّ يوم دون أن تزداد الغارات الجوية قربًا من القرية ودون أن يشهد أبناء القرية أعدادا أخرى من الناس وهم يسيرون غربًا على الطريق الرئيسية قاصدين مخيم اللاجئين قرب الجنينة وأمامهم حميرهم المحمّلة بما تيسّر حمله من أمتعة، ويسقي أبناء القرية هؤلاء البؤساء من آبارهم ويطعمونهم من حقولهم ويسمعون منهم روايات يشيب منها رأس الرضيع، فيرفعون أياديهم تضرّعًا إلى رب السماء أن يجنّب قريتهم شرّ ذلك المصير.

غير أنّ الشيخ آدم صمّ آذانه عن رواية اللاجئين رافضًا أن يصدّق وقوع ما لم يخطر له على بال. فقد كانت أمامه صفقة يريد إنهاءها

وزيجة يريد إعدادها.غير أن التصعيد الأخير في أعمال العنف جعله يصرف النظر عن أسابيع التحضيرات التي تسبق في العادة حفل الزفاف ويطلب من عصمان أن يوافق على أن تستمرّ احتفالات الزفاف خمسة أيام بتمامها وكمالها. فمدّة الاحتفالات جزء لا يتجزأ من هويّة الدارفوري وشخصيته وتقاليده الكثيرة المميزة في نظره، وهي مظهر من مظاهر رفعة مقامه بين أفراد عشيرته، وهو ما لا يمكن التفريط فيه بأية حال من الأحوال مهما كانت الأفعال التي قد يأتيها النظام الحاكم بحق أبناء دارفور، وآل على نفسه ألا يترك سواء هو أو أبناء عشيرته النظام ينتزع منهم هذه العادة حتى إذا كلفهم ذلك الدخول معه في صدام مسلح.

غير أنّ الشيخ آدم فاته أنّ الحرب قد أصبحت فعلا على الأبواب وأنّ تأجيل حفل الزفاف سيصبح عن قريب من آخر اهتماماته.

الفصل الخامس

المكان: قرية الشيخ محمد، ولاية غرب دارفور
الزمان: تشرين الثاني/ نوفمبر 2004

كانت المرأة البالغة حوالي ثمانية عشر عاما شبه ممددة على ظهر حمار يقوده شاب في مثل سنها، وكانت تبدو منها بطن مكورة تشي

بأنها حبلى في مرحلة متقدمة من الحمل، ورجلان متدليتان على جانب واحد من ظهر الحمار، فتبدو وكأنها على وشك السقوط من عليه في أي لحظة. وكانت أعين الزوجين زائغة من أثر أشعة الشمس والإعياء الذي أخذ منهما مأخذه كما يبدو جليا من نظراتهما التائهة وملابسهما المغبرة.

ولما وصل الغريبان إلى قرية الشيخ محمد، ترك الجميع جميع حوائجهم وما يفعلون وشخصوا بأبصارهم نحو القادمين، وهرع بعضهم إليهما لإسعافهما. فليس من الطبيعي أن تذهب امرأة بعيدا عن بيتها وهي في مرحلة متقدمة من الحمل. وغني عن القول إنها ما كانت لتقدم على ما أقدمت عليه إلا مكرهة.

وكان لحية الشايب، الرجل الذي سُمّي بهذه التسمية لشدة بياض شعر لحيته، أول من وصل إلى الشاب تسبقه إليه عبارات الترحيب. وبعد أن تبادل معه بعض الكلمات، اصطحب الزائرين الغريبين إلى دوار أسرته ونادى ابنته، فأخذت معها المرأة إلى داخل عُشّة لتحتمي فيها من أشعة الشمس، وقدمت لها ماء وطعاما تشدّ بهما أودها.

وفي الأثناء، جاء لحية الشايب بإبريق من الماء وقدح وأجلس الشاب في ظل شجرة وألحّ عليه ألا يقصّ عليه قصته قبل أن يروي ظمأه.

قال الشاب بصوت مرتجف: «بالأمس صباحًا، قدم إلى قريتنا تاجر، وأخبرنا أنّ الجنجويد يحشدون رجالهم في مكان ما على بعد ميل من القرية».

ويذكر أنّ كلمة «جنجويد» التي أخذت تتناقلها الألسن منذ بداية الحرب تعني باللغة المحلية؛ جنا يركب جوادا، ويقصد بها العرب الرُّحّل من أبناء المنطقة الذين كانوا في وقتٍ من الأوقات يعيشون في سلامٍ مع أبناء دارفور. أمّا الآن، فقد أصبحوا مسلّحين بتمويلٍ من النظام السوداني الذي يحرّكهم لتهجير المزارعين من دارفور. وكثيرا ما تسبق مشاهد التهجير غارات يشنّها سلاح الجو السوداني على قراهم، يليها هجوم الجنجويد الذين يقتحمون عليهم ديارهم ويجهزون على كل من خالف منهم صوت الحكمة وتمسّك بالبقاء وغامر بعدم المغادرة.

واصل الشاب حديثه قائلا: «أبلغت أفراد الأسرة بما أخبرني به التاج، فذهب في اعتقادهم أني أبالغ ولم أعد أعي ما أقول لشدّة ارتباكي بسبب الحالة التي عليها زوجتي». ثم ثقل لسانه ونكس رأسه وتحوّل صوته إلى ما يشبه الحشرجة.

سأله لحية الشايب قائلا: «ما الذي حصل بعد خروجك من القرية؟».

برقت عيناه واتسعت حدقتاه جزعًا وصرخ قائلا: «لقد حلّت بهم الفاجعة، لقد كانت الأرض تصطكّ صكًّا تحت وقع ارتطام القنابل التي كان دويّها يطبّق الآفاق، ويمكنك سماعه من أبعد المسافات. ولكم أن تتخيّلوا بقيّة المشهد. وكانت جحافل الجنجويد تتحرّك مباشرة إثر القصف، فتداهم القرية من كلّ جانب كقطعان هائجة في أرتال من ثلاثة صفوف قوام كل رتل نحو مائتي رجلٍ».

هزّ لحية الشايب رأسه وصمت، فلا فائدة من السؤال عما حل بأهله الذين تركهم في القرية، فلا فائدة تُرجى من السؤال. ثم قدّم له رغيفًا من الخبز الطازج وصحنًا من مرق الفاصوليا أتت بهما ابنته التي هبت لخدمة الشاب وزوجته. دعا لحية الشايب الشاب ليحلّ على أسرته ضيفا مبجلا على الرحب والسعة إلى أن تضع زوجته حملها وتستعيد قواها».

نظر الشاب في عيني لحية الشايب ثم خفض بصره واغرورقت عيناه بالدموع وقال بصوت تخنقه العبرات: « شكرا جزيلا». ثم أضاف: «عسى ألا يلحق بنا الجنجويد إلى هنا أيضا. لست أدري ما الذي دهاهم؛ لقد كانوا لنا وكنا لهم خير جيرة طوال دهور من الزمن، وها هم فجأة يتذكرون أنهم عرب وأنّنا أفارقة سود البشرة».

وأردف قائلا بنبرة إنكارية: «من أين جاءتنا هذه التقسيمات؟»، أومأ له لحية الشايب برأسه مصدّقًا على قوله. وأضاف الشاب قائلا: «النظام يستعمل الجنجويد لتنفيذ خططه القذرة، ولكنّ هؤلاء الكلاب الممسكين بالسلطة في الخرطوم سيتخلّون عنهم أيضا بعد الانتهاء من تهجيرنا من أراضينا وديارنا».

ولم يفت لحية الشايب أن يلاحظ للشاب أنه لا عزاء للجنجويد في تنكر النظام له في ما بعد. فهل يستفيد الضحايا إذا ما سقط الجنجويد في شرّ أعمالهم ودارت عليهم الدوائر؟ فتعمّد تغيير الموضوع وخاطبه قائلا: «يجب أن تأكل شيئا تسدّ به رمقك وأن تستريح الآن».

ثم ربّت على كتفه بحنان وأضاف: « سأخبر شيخ قريتنا محمد بالأمر».
لم يتغير مظهر محمد كثيرا عن الفتى الذي كان لا يزال تلميذا في فصل الأستاذ مارتن في الجنينة. فقد احتفظ بجسمه الفارع مثلما كان في السابق باستثناء بضعة أرطال إضافية. وظلت قسمات وجهه كما كانت لولا تجاعيد متقاطعة تسللت إلى جبينه وباتت فيه كجداول صغيرة نضبت وجفت مياهها. وقد احتفظ أيضا بلحيته الخفيفة التي غزتها الآن شعيرات بيضاء انتشرت هنا وهناك، ولكنه لم يفقد شيئا من استواء عوده الذي ظلّ كما كان في السابق أيام غدوه ورواحه مع مارتن.

عندما أقبل لحية الشايب على محمد، وجده يجلس في ظل شجرته المفضلة رفقة شيخ يعرفه محمد منذ أيام المدرسة وهو الشيخ عصمان الذي جاء إليه في زيارة عمل من قريته التي تبعد مسافة ساعتين إن كان راكبا. ويتمحور اللقاء حول قطيع من الجديان يريد الشيخ عصمان أن يبيعه للشيخ محمد ليغطي بثمنه مصاريف الاحتفال بعرس حفيده رشيد على حواء بنت الشيخ آدم.

لم يكن الشيخ عصمان في يوم من الأيام صديقا للشيخ محمد، حيث إنه، وكما ذكرنا في فصل سابق من هذا الكتاب، يؤكد في حديثه عن نفسه إنه يظل أولا وأخيرا تاجرا لا يقيم مع الآخرين إلا علاقات مصالح لا مكان فيها للصداقات، وإن الأسرة تغنيه عن الآخرين تماما.

ومن ثم، فإنه لم يكن يتعامل مع الشيخ محمد إلا لماما أو عند الحاجة لأن الشيخ محمد رجل ذو مال وجاه.

عندما قدم لحية الشايب، كانت زهرة حفيدة الشيخ محمد تحوم حول المكان محاولة ألا يلمحها أحد. فمعظم سكان القرية الذين يفتقرون إلى المستوى الراقي لتفتح الشيخ محمد لن يقبلوا أن تشارك امرأة الرجالَ، في جلسة عمل، طفلة كانت أوعجوزا.

وهناك تحت الشجرة، كان الشيخان يجلسان ومن حولهما مجموعة من رجال القرية وأطفالها. جميعهم كانوا يرتدون جلابيب فضفاضة طويلة بيضاء من القطن ويعتمرون عمائم في شكل قبعات متداخلة الأطراف. وكان معظمهم قد اطمأنّ إلى أنّ النساء يتولّين عنهم عبء العمل في الحقل والبيت وجلب الحطب والماء، فأقبلوا على مجلس الشيخ محمد لما فيه من مناقشات محتدمة وواظبوا على الحضور. غير أنه حضر يومها من بينهم من جاء بدافع الفضول لرؤية الشيخ عصمان أو لمجرد التسلية.

وصل لحية الشايب إلى المجلس يلهث، فحيّا الشيخ عصمان بإجلال، غير أن خطورة الخبر الذي كان يحمله أنسته أن يجلس على الأرض كالآخرين، فظل واقفا واتجهت نحوه أنظار الحاضرين وهو يحدثهم عن الشاب وزوجته الحامل اللذيْن فرّا من قريتهما قبل أن يقصفها سلاح الجو ويهاجمها الجنجويد.

قال رجل نحيل وهو ينكش الأرض بعصاه: «لا غرابة، فهذا هو فعل العرب»، ثم أضاف قائلا وقد تطاير الرذاذ من شفته السفلى:

«إنهم كسالى يستنكفون من الاشتغال بزراعة الأرض ولكنهم يتركوننا نشقى في زراعتها وعندما يحين أوان الحصاد، يغيرون علينا ويسرقون ثمرة عملنا، ثم يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا».

خاطبه الشيخ محمد قائلا: « إنك بتعميمك هذا بحق العرب، تتخذ موقفا رديئا لا يقل رداءة عن سلوك هؤلاء اللصوص، وشخصيا أعرف الكثير من العرب الذين يتبرؤون منهم ومن جرائمهم، ويضاف إلى ذلك أن نظام الخرطوم لا يتردد لحظة في تكميم أفواه كل من يعترض على الوجهة التي اختارها للسودان».

قال الشيخ عصمان وكأنه يقر حقيقة لا يتناطح بشأنها عنزان: «ما هذا الحظ العاثر الذي ابتليت به قبائل دارفور!».

أجابه محمد قائلا: «وما دخل الحظ في هذا؟».

نظرت زهرة إلى جدها متعجبة من نبرة صوته الحادة، فهزّ كتفيه معتذرا وأضاف قائلا: « المعذرة شيخ عصمان ولكن، أنظر إلى التشكيل العصابي المتحكم في رقابنا!».

طرطق عصمان أصابعه كما لو كان يتحسس قماشًا وقال: «ربما يتعين علينا ألا نلوم إخواننا في الإسلام وأن ننظر إلى ما يفعله الأجانب المغتصبون لأراضي هذه القارة منذ قرون».

زعق لحية الشايب قائلا: «ومن أرغم حاكم أوغندا على أن يشتري لنفسه طائرة أضخم من طائرة حاكم اليابان؟ هل أنّ الأجانب هم الذين أوعزوا إليه أن يشتريها؟».

قال الشيخ عصمان وهو يشير بسبابته محذّرًا ويصوّب نظراته نحو الشيخ محمد: «ربما كان عليك أن تزن كلماتك، فالتلويح بقلب نظام حكم أصدقائنا في الخرطوم لن يعود علينا إلا بالوبال».

قال الشيخ محمد: «ومن تحدّث عن قلب نظام الحكم؟ لكن، أليس من حقّنا أن تكون لنا حصة من ثروات هذا البلد؟ ثمّ إنّي أرفض أن ينصّبوا أنفسهم أوصياء على الإسلام والمسلمين وأن يفرضوا عليّ فكرهم وفهمهم للدين».

أجابه عصمان قائلا: «لست متثقّفًا مثلك ولا أحفظ ما تقوله الكتبُ التي تأتي منها بأفكارك هذه، فهي لن تفيدنا في شيء». ثم استدار وأشار ببنانه إلى حفيده رشيد البالغ من العمر خمسة عشر عاما وقد كان يجلس مسترخيًا خلفه وسأله قائلا: «ألست سعيدًا بِرعي الجديان والأبقار؟»، ودون أن ينتظر منه جوابًا، واصل كلامه قائلًا، وقد كانت نظراتُه مصوّبةً نحو الشيخ محمد: «لا أظنّك ستفضّل الجلوس في قاعة درسٍ معتّمةٍ على الانطلاق في المراعي بِحريّة».

وخُيل لزهرة أنّ غمامة لاحت على وجه رشيد العريض، وتساءلت ما إذا كان هذا الفتى سعيدًا بالفعل. وما إذا كان الشيخ عصمان قد استشاره في ما يريد أن يفعل بحياته؟ وخمّنت من خلال ارتخاء كتفيه والألم البادي في عينيه أنّه قد حزَّ في نفسه أن يستخف به جدّه.

واصل عصمان قائلا: «هو لا يريد أن يقترن بامرأة تستمد أفكارها من الكتب ولا تطيعه، فما أغناه عن ضربها ليلا نهارا!».

قال الشيخ محمد وهو يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال: «ولكن، ما الذي يدعو إنسانا ذكيًّا إلى الاقتران بامرأة جاهلة؟ فكيف له أن يتحمّل امرأة بلهاء؟»، همهم الشيخ عصمان قائلا: «لا خير في رجل لا يجد أحدًا يحدّثه غير زوجته!».

انفجر الحاضرون ضحكًا، فواصل كلامه مستفزًا حفيده قائلا: «حواء تعرف حدودها وستجتهد في خدمتك، أليس كذلك؟»، هزّ رشيد كتفيه غير آبه وظلّ مُطرقًا.

ولم يغب عن زهرة كيف استقرت نظرات الشيخ عصمان برهةً على حفيده غير مستسيغ انفصاله عما يجري من حوله. ثمّ واصل الشيخ عصمان قائلًا وهو يبتسم: «لا علينا، ما من مرّة أقابلك فيها يا شيخ محمد إلا وأتعلّم الكثير من هذه المناقشات، ولكني رجل بسيط كما لا يخفى عليك، لذا فلنعد للحديث عن جدياننا!». أجابه الشيخ محمد قائلا: «آسف لخروجي عن الموضوع، فنحن نواجه أوقاتًا عصيبة».

قال الشيخ عصمان وهو يهز رأسه موافقًا: «لن يمسّنا سوء هنا. علاقتنا طيبة بالسلطات المحلية وسنكون في حمايتهم من الجنجويد».

قال الشيخ محمد: « رجال السلطة المحلية وأجهزة المخابرات والجيش كلهم يا صديقي يأتمرون بأوامر السلطة المركزية في الخرطوم ولا يمكنهم أن يسلّحوا الجنجويد باليد اليمنى لينغصوا علينا حياتنا، ثم يكفوا عنا شرهم باليد اليسرى».

قال الشيخ عصمان وقد علت وجهه ابتسامة اقشعرّت منها جميع مفاصل زهرة: «أنحني تقديرًا لذكائك شيخ محمد، فأنت بطبيعة الحال

تفوقني علمًا». لاحظت زهرة أنّ عينيه جامدتان خاليتان من أيّ تعبير خلافًا لِعيني جدّها اللتين تمثلان نافذة تشعّ منها روحه الجيّاشة بالمشاعر والأحاسيس.

اتفق الشيخان على أن يأتي رشيد بالجديان في اليوم التالي، ونهض الشيخ عصمان متثاقلا ونفض الغبار عن جلبابه. ثم صافح الشيخ محمدا قائلا: «كانت فرحتي اليوم كبيرة» وابتعد وهو يجرّ رجليه.

تفرّست زهرة مليًّا في ملامح الرجل، فوجدت أنّ الابتسامة التي رسمها على شفتيه تفضح رياءها نظرة عينيه الجامدتين. وانتقلت بنظراتها إلى جدها لترى ما إذا كان هو أيضا قد تفطّن إلى ما خلصت إليه، فوجدت أنّ جميع حواسه قد انصرفت الآن لسماع سؤال طويل طرحه عليه رجل من الحضور يستفسره فيه يسترشده فيه عن طريقة تمكنه من مداواة بقرته من تقرّح في ركبتها.

وفي اليوم الموالي، أوفى رشيد بما وقع من اتفاق وأتى بالجديان. لكنّ زهرة كانت بصدد مساعدة أمّها في طهو الطعام، فلم تستطع التسلّل إلى الخارج لمتابعة الصفقة كما أرادت.

سأل رشيد الشيخ محمدا قائلا وهو يشير برأسه نحو الشمال: «إلى أين تريد نقلها؟ أتريدني أن أنقلها إلى حقلك الكائن هنالك؟». أجابه الشيخ محمد قائلا: «شكرا يا بني، سيأخذها حفيدي «نطاح السحاب» إلى حقل خارج القرية، وستكون هناك في مأمن وأمان». ويذكر أنّ نطاح السحاب قد سُمي بهذه التسمية بين أبناء القرية لطوله الفارع وقامته السامقة.

وكما كان مطلوبا، رافق رشيد نطاح السحاب إلى الحقول الواقعة بعيدا خارج القرية. وكانت زهرة لا تزال تحوم قرب باب العُشّة الذي يوجد فيه المطبخ عندما رأت رشيدا يمشي بخطواته المتثاقلة، فحدّثت نفسها قائلة: «رباه لماذا هو حزين كل هذا الحزن؟ ترى هل يشعر جده بحزنه هذا أم أنه يراه ولا يكترث؟ ما هذه العينان المخيفتان الغاضبتان التي لا أثر فيهما للحياة؟ وما هذه التعاسة الكبيرة التي تلازمه. ترى هل كان سيرفض الذهاب إلى المدرسة لو كان بإمكانه الاختيار؟ فلدى جده من المال ما لا يحول دون التحاقه بالتعليم، أم ترى هل أن خلفية أهله المتزمّتة وبخل جده الشيخ عصمان، مثلما أخبرها جدها ذات مرة، هو السبب الذي جعله يحكم عليه بألا يذهب إلى المدرسة ويحدد له سلفا المستقبل الذي ينتظره ويضرب بمشاعره عرض الحائط؟

كانت زهرة تعلم أنّ ما حدث في حالتها هو الاستثناء. فكثيرا ما كانت هي وجدّها يتندّران بما يحصل بينهما من توارد للأفكار، إذ أن كلّ منهما يستطيع أن يقرأ ما يجول في خاطر الآخر بسرعة فائقة.

وقد قال لها جدّها ضاحكا ذات مرّة إنه قرّر أن يصدقها القول لأنّها تشبهه تماما وتستطيع قراءة أفكاره بسهولة، وروى لها كيف أنّها كانت تنظر في عينه وهي لا تزال رضيعة فيشعر بأنّها تقرأ خلجاته وسكناته. وقد خطر لها الآن أنّ الشيخ عصمان أعجز من أن يقيم مع حفيده رشيد المقموع علاقة كالعلاقة التي تجمع بينها وبين جدها الشيخ

محمد، فرثت لحال الفتى وبدا لها أنّه لا يختلف في شيء عن نبتة مهملة لا أحد يتعهّدها أو يسقيها.

وقد سمعت زهرة بعدئذ وهي تقدّم الطعام إلى رجال الأسرة جدَّها الشيخ محمد وهو يسأل حفيده نطاح السحاب عما إذا كانت الجديان سليمة من الأمراض، ورأت علامات الارتياح تعلو محيّاه وهو يتلقّى إجابة حفيده على سؤاله. وسمعت نطاح السحاب يقول: «الأفضل يا جدي أن أمكث معها لحراستها، فهناك أسر كثيرة بدأت في نقل مواشيها إلى مسافات أبعد، فمن يدري فقد يغير علينا الجنجويد».

خاطبه جده محذّرًا: «خذ معك غطاء كافيًا وتدثّر جيّدًا!»، ثم جال ببصره في أرجاء القرية وأضاف قائلا: «غريب أمر الشيخ عصمان، كأنّي به لا يلقي للجنجويد بالا».

علّق على ذلك والد زهرة قائلا بطريقة ملؤها السخرية: «كأنّي به مطمئن أكثر من اللزوم إلى حسن علاقته بالسلطات، ألم تسمعه يقول ذلك؟».

عقّب الشيخ محمد على كلام ابنه قائلا: «وهذا ما يقلقني بالتحديد، ليكن الله في عونه إن كان فعلا يعتقد أنهم سيهبّون لحمايته!».

الفصل السادس

المكان: قرية الشيخ محمد، دارفور

استفاقت زهرة في اليوم التالي في الهزيع الأخير من الليل وهي ترتعد وأخذت تشد إليها لحافها بكلتا يديها. هرب النوم من جفنيها، فنهضت وظلت جالسة على فراشها رغم علمها من خيوط الفجر المتسللة إلى داخل العُشّة التي كانت لا تزال رمادية اللون رفيعة جدا، أن الوقت لا يزال باكرا جدا. واستفاقت معها أيضًا أختاها من أبيها اللتان تنامان معها في العُشّة وانهالتا عليها بالأسئلة لمعرفة ما يحدث، ثم تبينت ثلاثتهن في آن معا أن الذي أيقظهن وانتزعهن من سباتهن هو اصطكاك ووقع منتظم لحوافر خيل بالأرض، فوثبن باتجاه باب العُشّة بعد أن ألقت كل واحدة منهن على كتفها بلحاف فراشها تستر به جسدها.

استقبلهن مشهد غبار متصاعد يلف المكان، أحدثته حوافر جياد تركض في كل اتجاه فحجب عنهن الرؤية. وخيل إليهن للوهلة الأولى أن عاصفة رملية هبت على الوادي فحملت معها كل هذه الأتربة التي غمرت القرية لولا أنهن سمعن من وراء ستارها الكثيف أصوات أجشة صاخبة تزعق قائلة بالعربية: « انهضوا على قوائمكم أيها العبيد، اهجروا هذا المكان!».

وسمعت زهرة فحيحا وأحست بأوار شعلة يكاد يلتهم شحمة أذنها اليمنى عقبيه وقع ارتطام جسم بسقف العُشّة،وفي اللحظة التي ظنت فيها أنه سيغمى عليها من الخوف، اندفعت فجأة تجري بأقصى ما

أوتيت من قوة لا تدري من أين استمدتها وتبعتها أختاها وثلاثتهن لا يلوين على شيء.

وصادف أن كان أبوهن واقفا أمام مدخل عشته يقلب عينيه من حواليه مرتبكا، فشاهد شعلة النار تطير في الهواء وتهوي على سقف عُشّة بناته، فانطلق نحوهن كالسهم وتلقفهن بين أحضانه. وما هي إلا لحظات حتى التحقت به وبهن أمها وجدها، وأخذوا جميعهن في ملامستهن وملاطفتهن، والتهدئة من روعهن.

قال أبوهن والدموع تتراقص في عينيه العسليتين: «يا لشجاعتهن! ويا لسرعتهن الفائقة! الحمدلله على سلامتهن».

وشخص جميعهم بأبصارهم يراقبون أعمدة الدخان المتصاعدة من سقف عشة البنات، وشاهدوا خروج أعداد كبيرة من الحشرات من قراها داخل الكتل الصماء المعمولة من حشيش مجفف، وتحول تلك الأعداد من الحشرات المذعورة إلى سحابة تطوف حول نفسها بسرعة جنونية. وفجأة تحول الدخان إلى نار خافتة سرعان ما تأججت وامتدت ألسنتها لتلتهم كل ما جاء أمامها. ولم يحرك أي منهم ساكنا لمقاومة الحريق حيث إنهم أيقنوا أن النيران قد سبقتهم ولم يعد لهم من حيلة لإيقافها. وما هي إلا ثلاث دقائق حتى أتت النيران على السقف. ثم تحولت العُشّة في ظرف عشر دقائق من إلقاء الشعلة على سقفها إلى ما يشبه صَدَفة تلظت في مقلاة استعر زيتها فراحت تطقطق وتصدر صفيرا.

صاحت زهرة قائلة: «ماذا عن أخي نطاح السحاب؟»، فقد تذكرت أنّه قضّى الليل في حقل الأسرة خارج القرية لحراسة الجديان التي اشتروها في اليوم السابق. وشعرت بأنّ قلبها يكاد ينخلع، فماذا لو أنه بقي في مكان مكشوف للأنظار؟

انبرى أخوها الأكبر عبد اللطيف يعرض على جده أن يذهب إليه ليحذره.

أشفقت زهرة على أخيها عبد اللطيف، الفتى النحيل والطويل القامة من مواجهة محتملة مع الجنجويد، فتسارعت دقات قلبها. وحدثت نفسها قائلة: «هل يسمح له أبوهما بالذهاب فيعرّض للخطر ابنه عبد اللطيف الذي ما زال في الثامنة عشر، والذي معه كانت تحرص دائمًا على ألا تصارحه بأنها لا ترى فيه صفات الفتى المقاتل، وإنما تراه كطائر البلشوم الرشيق، طويل الأطراف، صغير الرأس، نحيف الرقبة وناتئ العظام». وتمنت أن تتوقف ساعة الزمن وتعود إلى الوراء كي توقف أحاسيس الخوف التي بدأ دبيبها يجتاح عروقها، فعصرت عينيها وأغمضتهما والتصقت بأبيها.

سألت زهرة جدها: «هل الطريق آمنة للخروج من القرية؟».

فأجابها جدها قائلا: «لقد انجلى الخطر الآن، رسالتهم إلينا واضحة لا لبس فيها».

شعرت زهرة بأن في صوت جدها توترا لم تألفه منه مطلقًا قبلًا.

وازداد فزعها عندما لمحت أخاها يغادر القرية بقامته الفارعة. وتمنّت لو يتراجع جدها عن قراره ولا يسمح له بالذهاب، ولكنّ جدها

كان مشغولا بتهدئة رجال القرية الذين تجمّعوا حوله عند مدخل دوار الأسرة.

خاطبهم الشيخ محمد وقد استعاد صوته الطبيعي والهادئ قائلا: «الحمد لله الذي نجانا ولم يُصب أحد منا بأذى، لن يعود الجنجويد اليوم. انصرفوا إلى دياركم وامكثوا مع ذويكم!».

هو ذا جدها يستعيد هدوءه بعد أن كان يتميز غيظا قبل قليل. وقد خالجته شكوك وتسرب الخوف إلى نفسه، ولكن، ها هو ذا يتغلّب على نفسه ويعود كما عهدتْه قويًّا أمام الآخرين. وبدأ رجال القرية يتخلّصون شيئا فشيئا من صدمتهم الجماعية، ثم أخذوا في الانصراف لتدبُّر شؤون يومهم.

وأثناء تناول فطور الصباح، شعرت زهرة وهي تهمّ بأخذ حصّتها من الثريد من القدر الجماعي أنّ يديها ما زالتا ترتعشان، فتجددت مخاوفها وأيقنت أنّ أيام الهناء قد ولّت وانتهت وأن قريتها لم تعد بمأمن من هجمات الجنجويد التي كانت تظن أنها لا تصيب إلا الآخرين والقرى الأخرى في المنطقة.

وجدت نفسها تقول في سرها: « كم نحن مخدوعون وعديمو البصيرة. سنهجر قريتنا وسيكون مصيرنا مثل مصير ملايين الآخرين من أبناء دارفور. لقد قُضي الأمر، وسننضمّ إلى قوافل المهجّرين التي رأيناها تمرّ بقريتنا في طريقها إلى مخيّم اللاجئين. لقد حان الأوان لأكون قويّة مثل جدي». وحملت قدر الثريد إلى عُشّة المطبخ وقد

عقدت النية على أن تتولّى بنفسها تنظيفه وإنجاز جميع الأعمال المنزلية الأخرى وألا تنتظر أمها حتى تطلب منها ذلك.

***

كان نطاح السحاب قد استيقظ لتوه وشرع في تناول فطور الصباح عندما ظهر الجنجويد أمامه. لم يعرف البارحة طعم الكرى لأنه لم يكن متعوّدا على النوم في الهواء الطلق دون دثار آخر غير البطانية التي أتى بها معه. غير أنه شعر بأنه في مزاج رائق هذا الصباح، فراح يدندن بكلمات أغنية مصرية على ترنيمة أغاني البوب وقد سمعها بالأمس في الراديو.

أخذ يستعد للرجوع إلى القرية حالما يأتي أحد أخوته ليستلم عنه حراسة الجديان. وعندما سمع طقطقة الأغصان وراءه، ظن أن القادم أحد أفراد أسرته. فالتفت مبتسما فإذا بجواد أمامه يركب على صهوته مراهق ملثم تمنطق ببندقية أكبر من حجمه. وبمجرد ما تلاقت الأعين حتى عرفه نطاح السحاب رغم لثامه وإن لم يستطع أن يستحضر اسمه. فقد كان من قرية مجاورة وسبق أن تنافسا في مباراة لكرة القدم. ألقى نطاح السحاب على الولد التحية فرد عليه وقد انبسطت أساريره قبل أن يتجهم وجهه فجأة ويتملكه الخوف، فرفع يده كأنه يدفع نطاح السحاب بعيدا عنه. غير أنه، وفي تلك اللحظة بالذات، ظهر من وراء الأشجار ثلاثة رجال وقفوا بجيادهم فجأة قبالته وبجانب جواد الفتى. وارتفعت في المكان أصوات وعلا صخب اختلط بوقع حوافر خيل.

صرخ في الولد رجل من الرجال الثلاثة قائلا: «ماذا تنتظر؟».
قال الفتى: «إني أعرفه، إنه صديقي».
بصق الرجل على الأرض تقززا ونهره قائلا: «إياك أن تضعف!».
ثم ودون تردد، رفع بندقيته بحرفنة فائقة وأطلق النار على نطاح السحاب، فأرداه قتيلا. ونهر الفتى مرة أخرى قائلا: «لا أريد أن أراك تتصرف على هذا النحو مرة أخرى، والآن، تعال معنا وهلم بنا نجمع هذه الجديان!».
رجع عبد اللطيف إلى الدوار وقد تعفر جلبابه بالتراب.
بادره جده بالسؤال عن سبب تأخره وما إذا كانت الجديان بخير، وقبل أن يلاحظ صمته فنهره متوجسا: «ما لك لا تجيب، ما الذي حصل؟».
أجابه عبد اللطيف وهو يتحاشى أن ينظر إليه: «جداه لقد أخذها الجنجويد جميعها، لقد سرقوها».
ابتعد عنه الشيخ محمد وهو يشد على قبضته ويهز رأسه غضبا.
ناداه عبد اللطيف وقال: «لديّ ما أضيفه؛ نطاح السحاب يا جدي!».
استدار جده نحوه مستفسرا وسأله قائلا وقد اتسعت عيناه: «ما به أيضا؟».
«لقد مات يا جدي، قتله الجنجويد»، قال عبد اللطيف ذلك ونظر بعيدا عن جده وقد امتلأت عيناه بالدموع.
انفجر الشيخ محمد بالبكاء وأخفى وجهه بيديه. ثم نظر بعد فترة باتجاه عُشّة زوجته الثالثة، أم نطاح السحاب، وأخذ يعد نفسه للمهمة

الرهيبة المتمثلة في الدخول إلى عشتها لينعي إليها وفاة ابنها نطاح السحاب.

شعرت زهرة بمغص في خاصرتها، وربت أبوها على كتفها لمواساتها، فتوجهت إلى جدها والتصقت به وأغمضت عينيها ودست رأسها في صدره وأنصتت إليه وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم. وانضمت إليه في صلاته على روح أخيها من جدها نطاح السحاب ودعت لجدها وزوجته الثالثة أن يلهمهما الله جميل الصبر والسلوان. رباه كم أنا خائفة! إني أستعين بك على القوم الظالمين.

التفتت أم زهرة نحو زوجها قائلة: « كيف عرفوا أين أخفينا الجديان؟»، ونظرت زهرة إلى أمها القصيرة القامة والتي يعطي حاجباها المعقفان وجبينها العالي انطباعا بأن وجهها أقرب إلى صورة بقيت في وضع ثابت لشخص لم ينهض بعد من هول فاجعة، فبدت أكبر من سنّها الحقيقية بعشر سنوات.

قال أبو زهرة لزوجته ردا على تساؤلها وهو يشير بيده إلى أهالي القرية: «لا يوجد غيرنا مما يعرف أين أخفيناها»

باستثناء أسرة الشيخ عصمان.

ربت الشيخ محمد على كتف زهرة قائلا وشفته السفلى ترتعش: «أرأيت ماذا فعلوا بنا؟». ثم مضى ليتفحص مخلفات النار التي أضرموها في عُشّة زهرة وأردف قائلا بصوت استردّ فيه فجأة صفاءه: « نحن مواطنون في هذا البلد ومطلوب من السلطات أن تحمينا».

وكأن بوالد زهرة يُباغَت بما قاله جدها، فشخر قائلا: «الأفضل أن ننضم إلى المتمردين ونقتل هؤلاء الكلاب تماما مثلما يفعلون».

قال جدها: «سأذهب إلى السلطات وأطالبها بأن تتدخل لحمايتنا».

لم تصدق زهرة أن جدها هو من يقول هذا الكلام. فمعظم السودانيين أيا كانت أصولهم عربية أم أفريقية وسواء كانوا رحلا أم مزارعين أو من سكان الحضر، شبابا أم شيوخا، يتجنبون، ومهما كان الثمن، الاتصال بممثلي نظام البشير من حملة الزي النظامي. فلقد زرع النظام الدكتاتوري العسكري أجهزة استخباراته في كل منطقة في دارفور، ودس عيونه بين الأهالي للتجسس عليهم والإبلاغ عنهم إلى عساكر البشير الديكتاتور المهوس بهاجس التمرد على نظامه. فعندما يتحدث الناس عن الأمن، فإنهم يقصدون بذلك الضباط المسلحين العاملين في جهاز الأمن القومي وجهاز المخابرات والجواسيس المتعاملين معهم بدعم من الجيش والشرطة، وكلهم يعملون سويا ويمثلون الذراع الطويلة لنظام الخرطوم الحاضر على الدوام في كل مكان.

وواصل جدها قائلا: «سنذهب إليهم مباشرة بعد مراسم الدفن».

تنحنح عبد اللطيف، ثم قال: «جدي، لقد واريت جثمانه الثرى لأدفع عنه الطير الذي التمَّ عليه». وإذ لاحظ الصدمة التي على وجه جده، أضاف قائلا: «ثم إن المكان لم يعد آمنا هناك».

رفع الشيخ محمد قبضته في الهواء وزمجر قائلا: «تكريم الميت دفنه، فهذه سنة حميدة راسخة فينا ولم يحدث قط أن انقطع حبلها على امتداد قرون، اللعنة على من كان السبب!».

وأحست زهرة وكأنّ الأرض تميد بها. فقد شعرت بأنّ جدها قد خرج فجأة عن طوره، وفقد توازنه. وأدركت زهرة رغم صغر سنها أن الحرب تخضع لمنطق آخر يختلف عما تعرفه من قبل، وأن الأشياء ستتغير تماما عما كانت عليه، وأن غريزة حب البقاء التي أرغمت أهلها على التفريط في طقوس إكرام الميت سترغمهم كذلك على التفريط في تقاليد راسخة أخرى. وبدا لزهرة أن ليس من الحكمة في شيء الذهاب إلى العدو في عقر داره ومناشدته أن يحمي ديارهم وأرواحهم.

وظل الشيخ محمد يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ثم انسحب ببطء إلى داخل عُشّة زوجته الثالثة، أم نطاح السحاب. وما هي إلا لحظات حتى تجمَّد الدم في عروق زهرة وهي تسمع نحيب الأم المكلومة على ابنها. وظل نحيب الأم يُظلم الدنيا في عينيها بالرغم من أنها كانت تحاول أن تطرده من ذهنها بالتشاغل عنه بمساعدة أمها على تقشير حبات الفاصوليا.

وبعد برهة من الزمن، خرج الشيخ محمد من العُشّة وقد انتفخت عيناه واحمرتا وتجعدت قسمات وجهه. ورأته زهرة وهو يجول ببصره في أنحاء الدوار، ثم ينتصب قائما من جديد وكله عزم على تقلد دوره القيادي.

سأل الشيخ محمد ابنه والد زهرة قائلا: «هل سترافقني إليهم؟».
أجابه قائلا: «سيسخرون منا».
قال الشيخ محمد: «من واجبي أن أسجل رسميا شكوى لديهم وأن أطلب منهم حمايتنا. سأحذرهم بأنهم إن لم يستجيبوا، فلن يبقى أمامنا من خيار سوى حمل السلاح والدفاع عن أنفسنا ومقاتلة الجنجويد إن عادوا».
أجابه إبنه قائلا: «ولكن ألست أنت القائل يا أبي أن الجنجويد وأجهزة المخابرات والجيش والشرطة كلهم وجوه لعملة واحدة؟».
قال الشيخ محمد: «أريد أن أسمع مباشرة منهم هذا الكلام».
ورأت زهرة كيف تجمّدت عينا أبيها كدليل على عدم الاقتناع، وكيف أذعن أبوها لإرادة جدها لعلمه أنه ليس صاحب الكلمة الفصل.
وقفت زهرة إلى جانب أمها تشيّع بعينيها جدها وأباها وقد ركب كل منهما حماره وقصدا مقر قيادة الجيش السوداني.
هتفت زهرة قائلة: «في أمان الله» وهي ترتعد في داخلها من فرط الخوف والتوجّس. وتفادت أمها الإبداء بأيّ تعليق على ذهابهما إلى مقرّ قيادة الجيش وتشاغلت عن ذلك كالعادة بالانصراف إلى قضاء شؤونها المنزلية، وقالت بنبرة حاولت أن تلبسها مسحة من المرح: «تعالي معي نعدّ لأبيك أكلته المفضلة!»، غير أن ذلك لم يخف عن زهرة التوتر الذي كانت تغالبه أمها حتى لا تنفجر في وجهها قائلة: «هيا، أغربي عن وجهي وآتني بآنية من العدس!».

امتثلت زهرة للأمر وظلّت تتضرّع في سرّها إلى الله بقلب مفعم بالمشاعر الجيّاشة أن يعيد إليها أباها وجدّها وأن يلحقا بِموعد تناول العشاء.

الفصل السابع

المكان: المقر الإقليمي لجهاز الأمن والمخابرات الوطني السوداني
الزمان: في وقت لاحق من نفس اليوم

«ما هذه المصادفة السعيدة؟»، كان ذلك هو أول ما فاه به القائد العسكري عندما ظهر في الغرفة بقبعته العسكرية الأنيقة ذات الحواف شبه الدائرية. ثم جلس إلى مكتبه قبالة الشيخ محمد وأنامله تلامس سطحه الخشبي. وأردف قائلا وهو يكتم بداية ضحكة عريضة تمدد بها شاربه الكثيف وانكمشت بها جلدة قصبة أنفه العربي المعقف«كنا سنأتي إليك، فإذا بك تأتينا وتكفينا عناء التنقل».

انحنى الشيخ محمد بجذعه وضيَّق عينيه استعدادًا لسماع ما سيقوله القائد العسكري. غير أنّ الرجل قهقه وطرقع أصابعه على الطاولة. تساءل الشيخ في سره: «ماذا عساه يخبئ لنا؟»، وأحس بأنّ التوتر الذي انتاب ابنه الجالس إلى جانبه قد تضاعف.

انفتح باب المكتب مرة أخرى. كان العريف هو القادم. رفع القائد العسكري رأسه صوبه وقال: «حسنا» وتابعه بعينيه وهو يذهب ليقف خلف الشيخ وابنه على مسافة متساوية فيما بينهما.

قال القائد العسكري مخاطبا الشيخ محمد: «كنا نقول إذن إنك تدعو إلى قلب نظام الحكم».

قال الشيخ وقد تجهَّم وجهه: «ما هذا الهراء؟».

قال القائد العسكري: «هناك شهود على ما نقول. لقد سمعوك تروج الأراجيف وتؤلب علينا أهالي قريتك السذج».

مال الشيخ نحوه ونظر إليه في عينيه وقد عقد العزم على ألا يرضخ لهذا الترهيب وخاطبه قائلا: «أذكرك بأن أهالي قريتي الذين تصفهم بالسذج مواطنون سودانيون مثلك، وأن الجنجويد اعتدوا علينا، وأنه كان من واجبك حمايتنا وتحمل مسؤولياتك».

قاطعه القائد العسكري قائلا: «أنت تدعو إلى الانفصال، وتدعو إلى التمرد وهذا خروج عن القانون».

اكفهرَّ وجه الشيخ وردَّد قائلا: «ما هذا الهراء؟».

أومأ القائد العسكري إلى العريف وما هي إلا هنيهة حتى ارتفعت عصا غليظة وهوت على قفا الشيخ محمد، فسقط من على كرسيه الذي انقلب به وأحدث انقلابه على الأرضية الأسمنتية قرقعة تردَّد صداها في الغرفة.

هبَّ إليه إبنه لإسعافه، فإذا بالعصا الغليظة ترتفع من جديد وتهوي عليه فتصيبه في معصميه. أحسَّ بألم شديد يحرق ذراعيه، فقوس

ظهره من شدة الألم وشعر بأن أنفاسه تكاد تنقطع من وقع المفاجأة، وإذا بالعصا تعاجله فتصيبه في أعلى ظهره بضربة ثانية طوحته بعيدا وطرحته أرضا. ثم تقدم منه العريف وباعد ما بين رجليه محاذرا أن يتعثر بجسمه الممدد على الأرض. ثم انتصب واقفا على مستوى صدر الرجل الطريح أرضا والألم ينهشه في كامل أنحاء جسمه، وسدد له بعصاه ضربة على صدغه أفقدته الوعي.

صاح الشيخ محمد وهو يحاول النهوض: « إبني لا دخل له في الموضوع، دعه لحاله، أنا من تتوجب محاسبته على ما يُنسب إلي».

قال الضابط بتهكم لم يعد يخفيه: « ها أنك تعترف بأنك تتآمر على قلب نظام الحكم».

قال الشيخ وقد اتقدت عيناه من الغيظ: « اتق الله في حق هذا الوطن!»، ابتسم الضابط متشفيا وجلس على كرسيه من جديد وخاطب الشيخ وقد تحول صوته إلى زمجرة ملؤها الاحتقار: «الآن أصبحت شريكا لنا في وطننا أيها الدخيل، لا بد من تطهير البلد منكم أيها العبيد وإحلال العرب مكانكم. لقد أمهلناكم كي تثبتوا أنكم مسلمون جديرون بهذا الدين، ولكننا نرى أنكم لا تزالون في غيكم القديم». حاول الشيخ النهوض وقال متبرّما: «تلك هي الديمقراطية ولا يوجد مطلقا ما يمنع الجمع بينها وبين الإسلام».

قال الضابط مقهقها وهو يرمق الشيخ الذي لم يستطع النهوض بعد: «لن يحدث هذا في السودان أبدا!».

ثم أردف قائلا: «ويحك أيها الرجل العنيد! كلّنا على ضلال وأنت الوحيد الذي يملك الحقيقة؟». أجابه الشيخ محمد قائلا وهو لا يزال يحاول النهوض: «من أجاز لك قتل الأبرياء بإسم الإسلام؟ أنت هو العبد الحقيقي لأنك دمية يحركها تشكيل عصابي يمسك بالحكم، وستلقى حسابك عندما تلاقي ربك، فتصبح على ما فعلت نادما حين لا ينفع الندم».

صرّ الضابط على أسنانه وغارت عيناه، فظن الشيخ أنه ربما ذكرته كلماته بحساب الآخرة، فخشي سوء العاقبة. غير أن الضابط عاد إلى كرسيه وأومأ إلى العريف بإشارة من رأسه. ثم نظر إلى الشيخ محمد نظرات تقطر ازدراء وتقززا.

***

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما سمعت زهرة هدير سيارة تدنو من الدوار. كانت جالسة هي وأمها القرفصاء جنبا إلى جنب تطهوان على نار هادئة حساء حارا من العدس وكانتا، بين الفينة والأخرى، تقلبانه بعصا داخل القدر حتى لا يتكتّل. وكانت زهرة وأمها قد فرغتا للتو من رقّ عجين الخبز، وشرعتا في لصق أقراص منه على جدران التنور الفخارية. وكانت المرأتان تنتشلان بعد ذلك من التنور أولا بأول الأقراص التي تستحيل إلى أرغفة.

أوجست زهرة خيفة عند سماعها هدير السيارة ورأت فيه نذير شؤم. إذ ليس من المألوف رؤية سيارة أو شاحنة في قريتهم. لذا، خرج الأهالي من عِشَاشهم بطم طميمهم لمشاهدة سيارة الجيب العسكرية.

وذهبت زهرة إلى مدخل الدوار تستجلي الخبر وقد تسارعت أنفاسها وقلبها يكاد ينخلع من أضلاعها. وأيقنت من هلع الجيران وفزعهم أنها ليست الوحيدة التي تملكها الرعب. ووقف أهالي القرية في شبه دائرة ولمعت في خيوط الشمس الغاربة الألوان الفاقعة والمزركشة لأوشحة النساء وعباءاتهن فنسجت منها لوحة مضيئة من الفسيفاء تجمعت فيها عدة ألوان بهيجة كالخوخي والوردي والفيروزي والزمردي والأصفر، في تناقض صارخ مع المزاج الكئيب المخيم على ذلك الجمع.

توقفت سيارة الجيب عند المدخل الضيق لدوار الشيخ محمد وقفز من بابها الخلفي جنديان تمنطق كل منهما بمدفع رشاش. ثم قام الجنديان بفك مزلاجي باب السيارة الخلفي فتدلى بابها إلى الأسفل وكشف عن كيس داخل السيارة يبدو أنه كان ثقيلا نظرا لما وجده الجنديان من عناء لجره وإنزاله من صندوق السيارة، بينما نزل السائق وضابط عسكري عبر البابين الأماميين.

تراجع أهالي القرية عدة خطوات أخرى إلى الوراء وهم يراقبون بصمت الجنديين وهما ينزلان الكيس. ظهرت من داخل الكيس قدم بشرية حافية، فسرت بين الجمع همهمة. كادت زهرة أن تنفجر باكية، ولكن الخوف ألجمها، فجفت دموعها في مآقيها. ثم شعرت بأنفاس لاهثة تلسع عنقها فحانت منها التفاتة نحو مصدرها، فطالعها وجه أمها المرعوب.

جرّ الجنديان الكيس نحو وسط دوار الأسرة، وبإشارة من الضابط أفرغا محتواه، فانزلقت منه جثة الشيخ محمد في جلبابه الممزق والملطخ بالدماء وبدا، من جثته الهامدة المثخنة بالكدمات والمخضبة بالدماء، وجهه المهشم الذي تحول إلى كتلة اختلط فيها لحمه بعظمه.

تجمدت زهرة في مكانها، وجحظت عيناها ولم تقو على الحراك وهي ترى جدها توأم روحها ومصدر إلهامها ملقى أمامها بلا روح.

ظل الضابط يراقب ردة فعل أهالي القرية، ثم خاطبهم قائلا وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ماكرة: «يبدو أن الشيخ قد باغتته نوبة قلبية».

حدقوا فيه وهم يحبسون أنفاسهم من الرعب. قال:

«لقد داهمته النوبة القلبية وهو في ضيافتنا، وها نحن نعيده إليكم، ونقدم لكم تعازينا لوفاته».

همهم الجمع بكلمات مبهمة غلب عليها الرعب والخوف من أن يصدر عنهم ما قد يستفز العساكر أو يفسر على أنه قلة احترام تجاههم. وفجأة سمعت زهرة صيحة شقت عنان السماء ورأت أم نطاح السحاب، ثالثة زوجات الشيخ وأصغرهن، وهي تدق صدرها وتندفع باتجاه الضابط وتزعق فيه قائلة: «ماذا فعلت بزوجي الطيب أيها الوغد الجبان!».

وظهرت، من بين الجمع، ذراع تحاول مسكها، فدفعتها عنها وواصلت اندفاعها نحو الضابط وهي تكيل له الشتائم وتصيح فيه

قائلة: «ما هذه القلوب الغليظة، تقتلون إبني أولا، ثم تقتلون زوجي بلا رحمة ولا شفقة، أيها الأوغاد!».

رآها الضابط وهي تقترب مندفعة نحوه شاهرة في وجهه قبضتين متوعدتين وقد تعالى صياحها فأطبق على الدوار بأسره. بادلها سبًّا بسبٍّ، ثم استل مسدسه وصوبه نحوها وأطلق منه رصاصتين استقرتا في بطنها.

أعاد مسدسه إلى غمده وزمجر قائلا: «أراحنا الله من عاهرة غبية سوداء». وصوب نظره عليها وهي تتخبط وتتأوه في بركة الدماء الآخذة في الاتساع، وصرخ بصوت ملؤه الشماتة والتشفي: « هذا جزاء من يهاجم ضابطا في جهاز الأمن الوطني السوداني».

تجمدت الدماء في عروق الحاضرين من هول الصدمة، فتراجعوا إلى الخلف في حين أخذت المرأة تحتضر وتتمتم بدعاء خافت تطلب فيه الرحمة من المولى سبحانه وتعالى، وقد تخضبت عباءتها الصفراء بالدم الذي نزف منها بشدة. وسرعان ما داهمتها سكرات الموت ولفظت أنفاسها الأخيرة. تكورت على نفسها فيما يشبه وضعية الجنين وهو في عالم الغيب الأمين. وقبل أن تسلم روحها لبارئها، وتصدر عنها أنة، قرّب الضابط طرف حذائه العسكري من رأسها وتأهب لركله، سمعتها زهرة تقول في همس: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله»، ثم أزاحت زهرة بصرها بعيدا عن المشهد الفظيع الذي لم تستطع تحمّله، فتعلقت بعباءة أمها وأخذت ترتعد وتنتحب تهيّبا من الركلة المحتومة. وعندما وقعت الركلة أغمي على

اثنين من الحاضرين، ثم سمعت زهرة الضابط يوجه للمرأة ركلة ثانية أجهزت عليها وأنهت مشهد احتضارها.

جال الضابط ببصره في الجمع الذين أصابهم الذهول وخاطبهم قائلا: «بلغوا شيخكم الجديد أنّه يسرنا أن ننظر في شواغله إذا ما شرفنا بالحضور إلى مقر القيادة». ثم صعد بدوره إلى السيارة وجلس في الكرسي المحاذي للسائق. وتحركت السيارة متمهلة عائدة أدراجها من حيث أتت.

استرجعت زهرة بعد فترة صوتها، فسألت أمها وقد اتسعت حدقتاها جزعا: «أين أبي؟».

ضمتها أمها إليها، ولم تحر جوابا، ثم التفتت إلى ابنها عبد اللطيف وخاطبته وهي تشير إلى الجمع قائلة بصوت خفيض: «إنهم ينتظرون منك أن تشير عليهم ما العمل».

أدرك الفتى ذو الثمانية عشر عاما أنه مدعو إلى تسلم القيادة. ودون تردد، توجه نحو الجمع الواقف قرب مدخل الدوار، وسمعته زهرة يتقبل تعازي من استطاع منهم أن يفك عقدة لسانه. وظل واقفا هناك يستمع إليهم وهم يبثون ما تعتمل به دواخلهم من مشاعر الغضب والخوف. ثم طلب منهم أن يساعدوه على حفر قبرين وأداء طقوس تكريم الميت بالتعجيل بدفنه.

سمعت زهرة أمها تهمس في أذنها وهي تضمها إليها بقوة وتقول: «جدَّك لم يمت، فعبد اللطيف بيننا وهذا الشبل من ذاك الأسد».

صرخت زهرة قائلة: «ولكن أين أبي؟».

في اليوم التالي، عاد شيخ القرية الجديد. نزل من حماره وخطا بضع خطوات وهو يعرج ولكنه سرعان ما خارت قواه، فسقط على الأرض وساعده ابنه عبد اللطيف على النهوض والوصول إلى عُشّته. جاءته ابنته بإبريق ماء وسقته منه عدة أقداح. غسلت أم زهرة وجهه فبانت ملامحه وآثار العنف على شفتيه اللتين أخذ الدم ينزف منهما من جديد ما أن بدأ يروي لهم ما حدث في مكتب الضابط ويقول:

«أغمي علي وغبت عن الوعي، غير أن صوت الضابط ظل يطرق أذني وهو يردد على مسامع أبي قائلا: «أنت تحرض على قلب نظام الحكم في السودان وتدعو إلى الإطاحة به ولنا على ما نقوله أدلة دامغة تدينك».

شُلَّت حركة زهرة وانحبست أنفاسها في حلقها وهي جالسة خلف أخيها عبد اللطيف تستمع بصمت إلى حديث أبيها.

وعندما وجدت زهرة نفسها بعدئذ رفقة إخوتها في عُشّة أم نطاح السحاب، ظلت مشاعر الخوف والحزن الشديد تتناوب عليها، فلم تغف لحظة واحدة طوال أربع ساعات ظل خيالها يتنقل بين صورة جثة جدها المهشمة وجثة زوجته أم نطاح السحاب وحذاء الضابط العسكري وهو يدوس على رأسها ويرفسها.

وعبثا حاولت أن تروض خيالها وتنأى به عن تلك الصور التي ظلت تلح عليها بشدة وتكيل لها في كل مرة طعنة نجلاء تنكأ الجرح وتزيده اتساعا.

وتذكرت زهرة كيف تعمد الشيخ عصمان تحريف كلمات جدَّها محمد وقوَّله كلاما يوحي بأنه يدعو إلى قلب نظام الحكم. أتراه طعن جدها في ظهره وتنكر لأصولهما المشتركة وخان أهله واتصل بالمخابرات. استبعدت هذا الاحتمال للحظة، ثم سرعان ما عاودتها الشكوك وحدثت نفسها قائلة: «ترى هل أنا الوحيدة التي تساورها شكوك فيه من بين الذين حضروا لقاءه مع جدها؟»، وقررت أن تسرّ بشكوكها لأبيها في الوقت المناسب.

في اليوم التالي، جاءت الأخبار تقول إن الشيخ عصمان وأسرته لديهم من المشاكل ما يغنيهم، فشعرت زهرة بوخز الضمير لسوء ظنها به؛ فأخوه المقيم في الجنينة مريض يحتضر، وحفل زفاف حفيده الكئيب رشيد ألغي في آخر لحظة. ويبدو أن الشيخ عصمان وكامل أفراد أسرته قد تركوا قريتهم وتوجهوا جميعهم على جناح السرعة للوصول إلى الجنينة في أقرب وقت ممكن.

غيرأنه في اليوم التالي مباشرة، روى أحد الجيران لعبد اللطيف أنه رأى أحد التجار يعرض جديانهم للبيع في سوق للماشية تقع على بعد عشرين ميلا عن قرية الشيخ محمد، وأن التاجر لم يخف أنه شراها من صديق من الجنجويد. ثم بدأت الألسن بعد ذلك تتناقل همسا أن الشيخ عصمان يتعامل مع المخابرات، ثم أصبح الناس يجاهرون بذلك ولم يعد الأمر خافيا على أحد بعد أن علم عبد اللطيف من تاجر آخر أن الجنجويد يتبجحون بأن شيخ قرية دارفورية هو الذي أبلغهم عن المكان الذي خبئت فيه الجديان. غيرأن زهرة كانت أعقل من أن تمطر

أباها وأخاها بالأسئلة لعلمها بأنهما الآن في حالة ترقب تحسّبًا لليوم الذي يعاود فيه الجنجويد مهاجمتهم.

الفصل الثامن

المكان: سوق القرية العربية قرب قرية الشيخ آدم، ولاية غرب دارفور
الزمان: تشرين الثاني/ نوفمبر 2004

كانت الشمس تقترب من كبد السماء عندما ذهب أحمد إلى السوق حاملا معه حبات الطماطم التي جمعها في سلة من قصب. وكان يأمل أن يجد لها شاريا.
ساءه أن يعود به إلى أمه، ستشعر حتمًا بخيبة أمل. عزاؤه في فشله هذا أن الأمر لن يفاجئها، لأنها تعلم مدى صعوبة أن يجد ابنها من يشتري بضاعته فقد غاب عن السوق رواده، بعد أن خلت البادية من السكان الذين أخذوا يهجرونها قاصدين أقاربهم في تشاد. وحتى من لا أقارب لهم في تشاد، فقد استكانوا للأمر الواقع، وأخذوا يعدون العدة للرحيل والإقامة في المخيم الكبير الذي أقيم في الجنينة لاستقبال اللاجئين.

سار أحمد في الطريق الزراعية التي دأب على الجري فيها فجر كل يوم، ومرّ على دكان خليل وتبادل معه الحديث كالعادة. بادره خليل قائلا وهو يشير إلى السلة التي وضعها أحمد على الأرض: «دعني أرى ما عندك داخل هذه السلة!».

انحنى أحمد وأزاح قطعة القماش التي كانت تغطي حبات الطماطم، وإذ بخليل يطلق صفير استحسان ويقول: «يا للمصادفة السعيدة! لقد طلبت مني زوجتي أن أعود إليها هذا المساء بحبات طماطم طلبتها لإعداد العشاء». ثم دس في كف أحمد بضع ورقات نقدية وهو يقول: «أريدها كلَّها».

لم يكن كلامه هذا ليقنع أحمد فحاول أن يدفع عنه يد خليل الممدودة لدس المقابل المالي لقاء حبات الطماطم، ولكنه سرعان ما رضخ دون مقاومة حقيقية. ثم افترق الصديقان وقد شعر كلاهما بالارتياح. وواصل أحمد السير راجعا إلى بيته.

لم يكد أحمد يغادر قرية السوق، حتى تجاوزته شاحنتان عسكريتان للجيش السوداني تقلان عساكر وتسيران بسرعة في الطريق المؤدية إلى قريته. وتساءل ما الذي جاء بهما إلى هنا. فمعظم سكان قرية السوق عرب، والجيش السوداني لا يقترب منهم في العادة. وذهبت به الظنون كلّ مذهب وأيقن أنهم يقصدون قريته وربما يريدون بها شرا باعتبار أن جميع سكانها من الفور.

غير أن الشاحنتين قطعتا عنه ظنونه، إذ استدارتا بعنف بعد مسافة قصيرة منه، وسارتا في طريق فرعية لا تؤدي إلا إلى مدرسة داخلية تؤوي بنات أسر فورية عريقة في المنطقة، ولم يكن أحمد يعرف أحدا في هذه المدرسة المشهورة بصرامة نظامها الداخلي وحرصها على فرض الانضباط على التلميذات وتحفيظهن القرآن الكريم.

لم يرتح أحمد لرؤية الشاحنتين والوجهة التي قصدتاها، فغير وجهة سيره وانحرف عن طريقه وقطع حقلا ليجد نفسه في منتصف الطريق الذي سارت فيه الشاحنتان. وما هي إلا بضع دقائق حتى التحق بهما ووجدهما مركونتين أمام بناية المدرسة، ولاحظ عند اقترابه منهما أنهما كانتا خاليتين من الجند.

تملكه القلق، فسار في ظل جدار المبنى الرئيسي والتصق به، ثم اقترب من نافذة مفتوحة وأرهف السمع. سمع في البداية همسات تسري بين البنات، وتلا ذلك وقع أحذية عسكرية غليظة على الأرضية الإسمنتية. وعرف أن ما يسمعه هو طابور متحرك من البنات يسوقهن العساكر عبر ممر. انحنى أحمد وانتقل بسرعة إلى النافذة الموالية وأرهف السمع من جديد. عرف أن العساكر قد جمعوا البنات والمدرسات في قاعة كبيرة، وسمع أصواتا فزعة عرف أنها أصوات المدرسات وهن يحاولن التهدئة من روع تلميذاتهن.

تسلق النافذة وشبك ساعديه حول طرفي عتبتها، ثم أرسل بصره إلى داخل المبنى، فرأى نحو مائة وخمسين تلميذة بزيهن المدرسي الأزرق اللماع وأوشحتهن التي تغطي رؤوسهن وقد وقفن في صف واحد

وأمامهن نحو عشر مدرسات عرفهن أحمد من نظاراتهن. وعرف أنهن يحاولن حماية التلميذات بالوقوف حاجزا بينهن وبين الجنود الواقفين قبالتهن وقد صوبوا نحوهن فوهات بنادقهم. جال أحمد ببصره متفحصا وجوه البنات، فشعر بقلبه يتمزق في صدره. فقد كن ينظرن إلى الجنود نظرات ملؤها الفزع، ورأى كيف شبكت أكثر من بنت ذراعيها مع أذرعة زميلات أخريات ورحن ينشجن بصوت خفيض.

نظر أحمد إلى العساكر، فرأى الشبق بادٍ في أعينهم، فهتف في سرّه: «اِبتعدوا عنهن أيها الأوغاد، عودوا من حيث أتيتم وغادروا المكان!».

لم يستطع أحمد تبيّن ما الذي كانت تقوله إحدى المدرسات لقائد الجند، ولكنه عرف من يديها الضارعتين ورأسها المستكين أنها تتوسل إليه ألا يؤذيهن. ودون سابق إنذار، تقدم الضابط نحوها وركلها ركلة أفقدتها توازنها وأسقطتها أرضا. وسارعت زميلاتها من جانبي القاعة لإسعافها وناولنها مناديل من ورق لتمسح بها الدم الذي أخذ ينزف من أنفها. غير أن الضابط أبعدهن وأشبعها ضربا، وساعده عسكريان في الاعتداء عليها بالعنف.

وعندما رأى أحمد الضابط يتوجه نحو اثنين من عساكره ويوشوش لهما بأمر ما، أدرك أنه من الضروري أن يفعل شيئا من أجل التلميذات وألا يظل مكتوف اليدين.

أحاط العسكريان بالمدرِّسة وأمسك كل منهما بأحد ذراعيها وأحكما تثبيتها على الأرض، بينما مزق الضابط ثيابها. تراجعت التلميذات إلى

الوراء وتملكهن الذعر ووضعن أكفهن على أفواههن من هول الصدمة وعلا صواتهن كثغاء قطيع أغنام مذعورة.

وما هي إلا هنيهة حتى كان الضابط قد اعتلاها وأطبق على أنفاسها وأخذ جسمه يعلو وينزل في حين تعالى صياحها من ألم الوطء. ورأى أحمد كيف كان العرق يتصبب من وجهي العسكريين الذين أمسكا بها كما يمسك بالشاة قبل نحرها وكيف سال لعابهما شبقا. ثم رأى قائد الجنود ينتصب واقفًا ويسحب سوسة بنطلونه ورأى عساكره يهمسون له بكلام تبين لأحمد أنهم يباركون له نيله من المدرّسة، ورآه يلتفت نحوهم ويبادلهم ضحكا بضحك، ثم رآه وهو يتوجه نحو مجموعة البنات في آخر القاعة.

تساءل أحمد في سره من جديد قائلا: «ما العمل؟» ثم أرخى ساعديه المتشبثين بعتبة النافذة، فلامست رجلاه الأرض من جديد. وما هي إلا لحظات حتى سمع صيحة تلميذة تقطع أنفاس الظهيرة الرطبة المثقلة بالحرّ والحشرات.

كان الأمر واضحا. تناهت إلى سمعه صيحات متلاحقة آتية من الغرفة. تملكه غضب شديد وتخيل بشاعة المشهد، فخطر له أن يقتحم على الجنود القاعة وينتزع من أحدهم بندقيته ويفرغ رصاصها فيهم، ثم تفكر أنه لن يقتل أكثر من نفر أو إثنين، ثم يلقى هو أيضًا مصرعه، وأنه من الأفضل أن يخبر مراقبي الاتحاد الأفريقي في دارفور الذين أوفدهم الاتحاد الأفريقي إلى دارفور في بعثة إقليمية كما توفد الأمم المتحدة قبعاتها الزرق في بعثات دولية،، علما وأن مراقبي بعثة

الاتحاد الأفريقي غير مخولين لسلطة استخدام القوة ولكن، بإمكانهم فقط إيقاف مثل هذه الأعمال التي تحدث الآن في المدرسة أمام ناظريه.

انسحب أحمد ببطء وهو يحاذر ألا يلمحه أحد العساكر من إحدى النوافذ، فينكشف أمره. وما إن ابتعد عن جدارن المدرسة حتى نزع صندله البلاستيكي وأطلق ساقيه للريح.

كان يجري بسرعة فائقة لم يعهدها في نفسه من قبل رغم الحرّ وقدميه الحافيتين. وعندما وصل إلى الطريق الزراعية، استدار باتجاه قرية السوق ومضى يعدو نحو مخيم مراقبي الاتحاد الأفريقي الكائن في أطراف القرية حيث تجري عمليات المناوبة بين دورية وأخرى على أمل أن يجدهم هناك، أو أن يدله خليل على مكان وجودهم أو لعله يجد من لديه هاتف فيتصل بهم. واستبعد أي خيارات أخرى واكتفى بمواصلة عدوه.

لم يجد في مخيم مراقبي الاتحاد الأفريقي سوى سيارة جيب، وكان غطاؤها مرفوعا وكان جندي يحاول عبثا تصليح خلل في محركها. خاطبه أحمد بالعربية فهز الجندي كتفيه مستفهما. وعرف أحمد أن الجندي من الكتيبة النيجرية من خلال صورة علم بلده مرسومة على بذلته العسكرية حيث إنه ألف رؤية أعلام البلدان التي لها منتخبات كرة قدم بارزة. وقف الجندي ينظر إلى أحمد اللاهث وإلى جسمه الرياضي المتصبب عرقا وسمعه يسأله هذه المرة بالانكليزية قائلا: «انكليش؟» فابتسم له.

أشار أحمد بذراعه باتجاه المدرسة وقال بانكليزية متقطعة: «مشكلة مشكلة، خطر خطر، الجيش الجيش، التلميذات التلميذات، مشكلة كبيرة، من فضلك المساعدة، من فضلك خبّر المراقبين!».

تحمس الجندي النيجيري في البداية لسماعه، ولكن حماسه سرعان ما فتر وظل يردد ويشير إلى خزان السيارة قائلا: «الوقود نفد» قبل أن يضيف: «ثم إن البطارية تلفت ولم تعد صالحة».

زمجر أحمد قائلا: «لا تقل هذا، أرجوك ساعدني!».

رفع الجندي يديه الملطختين بالشحوم داعيا أحمد إلى أن ينظر حوله ليتأكد من أنه لا يوجد جندي غيره يرافقه إلى المدرسة للاطلاع عما يحدث فيها، وقال: «كلهم ذهبوا وتركوني كي أتولى تصليح السيارة، ولكن لا فائدة ترجى، فقد نفد وقودها وتلفت بطاريتها. ويضاف إلى ذلك أن شحنات البطاريات التي أرسلنا في طلبها لن نستلمها لأن السلطات السودانية لا تزال تحتجزها في الميناء».

اتقدت من الغضب عينا هذا الجندي الذي وجد نفسه وحيدا عاجزا عن التصرف، فأردف يقول: «كم أكره هذه الوضعية، لا يسمحون لنا بحمل السلاح، وحتى إذا ما تركونا نحمل سلاحا، فلن يسمحوا لنا بأن تكون لنا سلطة التدخل والتصدي لعساكرهم».

ترك أحمد الجندي النيجيري المحبط وعاد جريا إلى دكان خليل الذي فغر فاها من شدة الدهشة وهو يشاهد الرعب المرتسم على وجه صديقه وصدره اللاهث، وذُعر وهو يسمعه يروي بصوت متهدج الوقائع التي شاهدها في المدرسة. وما هي إلا لحظات حتى كان مدير

المستشفى يتحدث على الهاتف إلى مكتب حاكم محلية الجنينة. فقد تذكر خليل أنّ بالمستشفى يوجد هاتف، فنادى ابنه البكر ليحلّ محلّه في الدكان بينما انطلق وصديقه نحو المستشفى.

وجد خليل صعوبة في مجاراة سرعة أحمد في سيره في طرقات القرية، ولكنه ما إن وصلا إلى المستشفى حتى تولى بنفسه الاتصال بالمسؤولين هناك وطلب منهم مساعدته على أن يتحدث إلى مدير المستشفى في الحال.

ظل أحمد يذرع المكان جيئة وذهابا وصورة المشاهد التي رآها في المدرسة لا تفارقه. وعندما كان مدير المستشفى ينتظر رنين الهاتف في مكتبه، قلّب خليل معه احتمالات الاتصال بالشرطة أو بأي جهاز أمني آخر ثم سرعان ما صرفا هذه الفكرة ليقينهما بأن الشرطة لن تهب لنجدة التلميذات ومجابهة العساكر، فهي جناح قوي في نظام الحكم وأذرعها ممتدة من الخرطوم إلى كل مكان في السودان، ولكنها تظل جهازا لا يراد به حماية المدنيين أو كشف الجرائم. والمواطنون العرب مثل خليل أو مدير المستشفى ليسوا في مأمن من بطشها مثلهم في ذلك مثل غيرهم.

قال أحمد وقد بدأ يفقد أعصابه: «لا بد لنا من وسيلة لاستقدام مراقبي الاتحاد الأفريقي إلى هنا، فهم لديهم طائرات عمودية، أليس كذلك؟».

شعر مدير المستشفى بالحرج وهو يجيب بأنه لا يدري.

وأخيرا، تحصل على رقم آخر للاتصال بثكنة المراقبين المرابطين في ضواحي الجنينة على بعد أكثر من ثلاثين ميلا منها. وفي انتظار

أن يرفع أحدهم السماعة، كان أحمد يكاد يقفز في مقعده من شدّة الاضطراب، وصياح التلميذات لا يزال يقرع أذنيه وهن يتعرضن للاعتداء من قِبَل العساكر. وكان يشعر بالنقمة على نفسه لعجزه عن نجدتهن. ثم استمع إلى المحادثة التي دارت بين المدير وبين مخاطبه بشأن ما إذا كان بالإمكان إرسال طائرة عمودية، غير أنه لم يلمس في صوت المدير وهو يشكر مخاطبه ويضع السماعة ما يستشف منه أنه تلقى ردا إيجابيا أو يبعث على التفاؤل.

زم المدير شفته السفلى وظل على تلك الحال لبضع لحظات ثم نطق قائلا: «سيرسلون سيارة جيب في الحال، ليس لديهم طائرة»، قبل أن يردف قائلا وهو يخفي عينيه وراء نظارته لكي لا تلتقيان بعيني أحمد: «وسيكون المستشفى جاهزا لاستقبال الضحايا ولكن للأسف ليست لدينا سيارات إسعاف لنرسلها إليهن».

غمغم أحمد قائلا وقد تدفقت الدماء في عروقه: «سيرسلون سيارة جيب، أهذا جوابهم؟ كم ستقل من جندي؟ وهل هم مسلحون؟».

حاول خليل تهدئته وترجاه أن يغادر معه المكان.

واصل أحمد قائلا: «لن يصلوا قبل عدة ساعات. وماذا عساهم سيفعلون، وهل هم مسلحون؟».

مسكه خليل من مرفقه وقاده بهدوء إلى خارج مكتب المدير وهمس في أذنه«ويحك! أتريده أن يحشر أنفه في شؤون الجيش السوداني؟».

صرخ أحمد قائلا: « ما هذا الجنون، لقد انقضى الوقت ووقع المحظور».

قال خليل وهو يدفعه بعيدا عن أعين الفضوليين: «سيبذلون قصارى جهدهم». لقد قمت بما عليك. والآن علينا الابتعاد عن هذا المكان قبل أن نلفت الانتباه إلينا».

قال أحمد محتجا: «ولكننا لم نفعل شيئا للتصدي لهم».

ظل صديقه يردد على مسامعه قائلا: «أرجوك لا تفقد صوابك، إنك بتصرفك هذا، لن تزيد الأمور إلا تعقيدا».

قال أحمد بصوت متهدج: «سأعود إلى المدرسة».

أجابه خليل: «لن أدعك تعود إلى هناك»، ثم دفعه إلى خارج المستشفى وسار به في الطريق، وأردف قائلا: «ستأتي معي الآن إلى دكاني ولن أتركك حتى تهدأ أعصابك. إنك تلقي بنفسك إلى التهلكة ولن تفيد أحدا بذلك، ومن سيعيل أسرتك، عد إلى ثوابك، أرجوك، أخفض صوتك!».

خفتت نبرة صوت أحمد فجأة وقال باستكانة: «لو كان للمراقبين طائرة عمودية لربما أمكنهم التصدي لهم، يا إلهي كيف يحدث هذا؟».

ظل خليل ماسكا بذراع صديقه وواصل دفعه في الطريق إلى أن وصلا إلى دكانه حيث ناوله قارورة ماء كما اعتاد أن يفعل معه دائما كلما جاءه صباحًا. وخاطبه قائلا: «استمع إليّ جيدا، لن أتركك تذهب لإنقاذهن، هل فهمت، هل تعدني بأن تأخذ برأيي؟».

والتقت عيناهما في النهاية، فقال أحمد وهو يرخي كتفيه مستسلما: «أمرك سيدي لن أذهب إلى هناك، ولكن لا بد لي من الإدلاء بشهادتي للاتحاد الأفريقي دحضا لأي مزاعم قد يدفع بها الجيش السوداني».

قال خليل: «عين الصواب يا صاحبي، سيأتي المراقبون إلى هنا، وسأعمل كل ما في وسعي كي يتصلوا بك ويأخذوا شهادتك».
قال أحمد وهو يفرك عينينه غير مصدق: «ما هذا الكابوس، ما حيلتي؟».
انعقد لسان خليل ولم يحر جوابا، فأومأ برأسه مصدقا ومؤيدا لكلامه.
لم يكن لأهل القرية من حديث طوال الأسبوع غير مدرسة البنات وما حدث فيها. فقد بقي العساكر هناك يومين اغتصبوا فيهما التلميذات والمدرسات في أكثر من مرة. وبعد أن غادروا المكان في النهاية، اقتادوا معهم عدة بنات ولم تعثر لهن أسرهن على أي أثر مذاك. وقد وقع تداول أن هناك من رآهن في مطار الجنينة وهن يصعدن تحت التهديد إلى طائرة من طراز انتونوف تابعة لسلاح الجو السوداني أقلتهن إلى الخرطوم. وقد عادت البنات الأكبر سنا إلى أهلهن الذين منعوهن لاحقا من مواصلة الدراسة. وقبل مغادرة المدرسة، أخذ العساكر جميع المدرسات إلى خارج المدرسة وأعدموهن رميًا بالرصاص.
أرسل المراقبون في الأخير سيارة جيب على متنها ثلاثة جنود من الكتيبة الرواندية ومترجم، وصلوا بعد أربع وعشرين ساعة من اتصال مدير المستشفى لأنه تعذر عليهم أن يأخذوا معهم احتياطيا من البنزين، فاضطروا للتوقف والانتظار لساعات طويلة ريثما يجدون بنزينا يتزودون به. وقد حاول الجنود الروانديون استجواب عساكر الجيش السوداني، غير أن هؤلاء منعوهم من دخول المدرسة، بل

وكادوا يفتكون بهم. وقد جاء تدخلهم متأخرا جدا، وهو ما حال دون التصدي للاعتداءات التي استهدفت التلميذات والمدرسات.

ولقد وجد الضباط الرونديون طريقهم إلى أحمد وسجلوا أقواله بعناية وأكدوا له أنهم سيحجبون هويته. وأوضحوا له أن الاتحاد الأفريقي لم يكلفهم إلا بإعداد تقرير، وهو ما فعلوه. وكان أحمد قد استشاط غضبا لتأخر وصولهم إلى مكان الحادثة، ولكنه كان يدرك تماما مدى التضحية الكبيرة التي أقدموا عليها بمجيئهم إلى المدرسة ومحاولتهم استجواب عساكر البشير.

وبعد أسبوع من ذلك، علم من صديقه خليل أن نشرات الأخبار تحدثت في الإذاعات العالمية عن الحادثة. فقد وصلت نسخة من تقرير الضباط الروانديين إلى عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي، فسأل كونغرس بلده عما إذا كان العالم سيقف مكتوف الأيدي إذا ما تكررت مثل هذه الانتهاكات، وتساءل عن السبب في عدم تمكين المجتمع الدولي مراقبي الاتحاد الأفريقي من أسباب الدعم اللازم لأداء مهمتهم وتركهم يحاولون التصرف وأيديهم مقيدة وتركهم يعملون بقدرات محدودة ودون سلطة حقيقية.

وظل الصديقان يتابعان لعدة أيام نشرات الأخبار العالمية على أمل أن يسمعا عن رد فعل من المجتمع الدولي. غير أن التقرير سرعان ما طواه النسيان وجرفه سيل الأخبار التي تتحدث عما يحدث هنا وهناك في العالم من مجاعات وحروب أهلية وهجمات إرهابية وعمليات

خطف وكوارث طبيعية وأعمال اضطهاد يرتكبها الإنسان بحق أخيه الإنسان.

الفصل التاسع

المكان: قرية الشيخ محمد
الزمان: تشرين الثاني/ نوفمبر 2004

في اليوم التالي، دعا والد زهرة وجوه القرية إلى اجتماع عُقد تحت شجرة جدها المفضلة. ولاحظت زهرة علامات التوتر البادية عليهم وكيف أنهم أحنوا رؤوسهم عندما أخذ أبوها الكلمة. لقد كانت تتوقع منهم أن يكونوا في قمة الغضب، فإذا بهم مثلها تماما قد استبد بهم الخوف.

قال أبوها في خاتمة كلمته: «إن الأوان قد حان لترك القرية والذهاب إلى تشاد». ثم أردف قائلا بصوت واثق: «أعرف أن للكثيرين منكم أقارب هناك، وبإمكانهم أن يعطوا انطلاقة جديدة لحياتهم». ثم أضاف قائلا بصوت آمر كما لو كان جنرالا يتلو بيانا عسكريا: «غدا صباحا، أخبروا نساءكم وأطفالكم وشيوخكم أن يجهزوا أنفسهم للرحيل».

قوبل كلامه بالصمت. ثم سمعت زهرة أحد جيرانهم يقول: «كيف نرحل ونفرط في ممتلكاتنا؟».

أجابه أبوها قائلا: «لن نحتفظ بها طويلا، سيقتلوننا جميعا».

قال رجل آخر نتأت عظام وجهه: «لعلهم لا يقدمون على قتلنا إذا ما امتنعنا عن التحرش بهم»، ثم أضاف: «مع احترامي الشديد له، الشيخ محمد لم يتعاون مع السلطات السودانية، لقد تحرش بهم، وهم فعلوا به ما فعلوا ليكون عبرة للآخرين».

رأت زهرة كيف اتقدت عينا أبيها العسليتين عندما سمع هذا الكلام، وجاء جوابه سريعا إذ صاح وهو يدق بقبضته على ركبته: «إنهم يريدون محونا من وجه البسيطة خدمة لفكرهم الإسلاموي المتشدد».

صاح فلاح أعور لم تبق في فكه سوى ثلاث أسنان مستنكرا: «إذا أرادوا الحرب، فنحن لها، سنقاومهم ولن نوليهم الأدبار».

نظرت زهرة إلى الرجل، وحدثت نفسها متسائلة عما إذا كان سيجرؤ على اتهام أبيها بأنه جبان ولا يصلح لقيادة قومه. وسمعت هنا وهناك همهمة وأحست بتململ وفهمت أن قوله قد لاقى تأييدا لدى البعض، وإن لم تستشف منه ما يمكن اعتباره تشكيكا في أهلية شيخهم الجديد باستلام مقاليد قيادتهم.

كان ردّ الشيخ الجديد على كلام الرجل جاهزا إذ أجابه: «ألا ترى أن كل قبيلة تدّعي أن أبناءها أشجع خلق الله جميعها؟ وتروي لأطفالها نفس القصص التي نرويها نحن لأطفالنا عن أنفسنا، لقد انتزع الجيش

منا كل الأسلحة التي كانت بحوزتنا، ولم يبق لدينا سلاح نذود به عن أهلنا وقريتنا».

يبدو أنّ هذه الحقيقة البديهية الصادمة التي ذكَّرهم بها شيخهم الجديد، قد أخرست ألسنتهم، قبل أن يضيف قائلا: «الدفعة الأولى تغادر القرية غدا، وسأمكث هنا مع الجماعة التي تريد القتال». ثم نهض ومشى يعرج نحو عُشّته غير آبه بتذمرات بعضهم.

جرت زهرة وراء أبيها وهي تصيح: « متى ستنضم إلينا في تشاد؟».

قال أبوها: «في وقت لاحق، لا بد لي من إعطاء المثل، أنت تعرفين هذا جيدا. لا تنسي مطلقا مركزنا وما يعنيه تبوّؤ هذا المركز».

طأطأت رأسها خجلا من نفسها واغرورقت عيناها بالدموع، فأضاف قائلا: «أنت يا زهرة ورثت عن جدك رجاحة عقله، وعليك أن تقتدي بسيرته وتحرصي على أن يحذو بقية الأطفال حذوك، هل اتفقنا؟».

أومأت له برأسها علامة الموافقة بينما ابتعد هو عنها متحاملا على نفسه كي يحتفظ بقامته المنتصبة كما كان يفعل جدها تماما. اتجهت زهرة بعد ذلك مباشرة إلى أمها لتساعدها على تحزيم الأمتعة، وإن ظلت بين برهة وأخرى تبكي بصمت كلما تصورت أباها ورفاقه وهم يجابهون الجنجويد وليس لديهم من سلاح سوى بضع بنادق قديمة.

قضت زهرة بقية النهار في مساعدة أمها في إعداد العدة للرحيل، غير أنها في الليل لم تذق للنوم طعما. وفي اليوم التالي، لم يكن قد

تجمّع عند دوار شيخ القرية سوى أربع أسر. وسرعان ما حان موعد الرحيل، فرأت زهرة دموعا غزيرة تنهمر من عيني أمها على خلاف عادتها، وسمعت أباها يقول لأمها: «لا تخافي، سيغيرون رأيهم بِشأن صمود الأبطال الذي يدّعونه ما إن تفتح عليهم طوافات الجيش السوداني نيران رشاشاتها». ثم أردف قائلا بتودد: «سأنضم إليكم في تشاد قريبا، وأرجو أن أجدك قد أعددت لي مرقي المفضل، المطبوخ بلحم الخروف»، ثم ابتسم لها وقال: «أظن أننا اتفقنا».

رأت زهرة كيف انتزعت أمها ابتسامة غالبت بها حزنها وجففت دموعها. وعندما جاء دورها لتوديع والدها، عانقته بقوة وهي لا تكاد تصدق أنهما قد لا يلتقيان ثانية. كانت تعرف أنه سيشعر بخيبة أمل لو لم تبد تجلدا وتثبت له أنه قد أفلح في تربيتها وأنها لن تسمح لنفسها بأن تبدو أمام الأطفال بغير مظهر البنت القوية، ولكنها كانت تشعر في داخلها بخوف شديد وتكاد تموت رعبا كلما خامرتها فكرة أنها قد لا ترى أباها ثانية.

وما هي إلا لحظات حتى كانت قافلتهم الصغيرة المتكونة من عدد من الحمير تغادر القرية. وكانت زهرة وأختاها من الأب يقدن القافلة لدفع الآخرين على حث الخطى، بينما سار أخوها عبد اللطيف وابنة عمها علية في مؤخرة القافلة للتأمين حتى لا يفوت الركب أحدٌ أو يشرد بعيدا عن مسار القافلة.

وخلال توقّفهم في الأيام القليلة التالية لنيل قسط من الراحة، كانوا يحرصون على ألا يبدوا أي تذمر أو إعياء. بينما كانت مكة، ابنة لحية

الشايب المعروف عنها حسن تقليدها للأصوات وقدرتها على التمثيل تبذل كل ما في وسعها لإدخال البهجة على الأطفال بما ترسمه على وجهها من تعبيرات تسلّيهم، وكانت كلما أطلقت ضحكاتها الرنانة، اهتزّ كتفاها المكتنزان بشكل يشيع جوًّا من المرح لدى الجميع. وقد تحمّل أفراد المجموعة مشاق الرحلة كأفضل ما يكون، وكانوا يغنون ويتبادلون الطرائف ويداعبون بعضهم بعضا لرفع معنوياتهم.

رأت زهرة كيف كانت أمها تثبت يوما بعد يوم صلابة عودها وتحتفظ بتجلدها دون أن تفقد ابتسامتها. ولم يسع زهرة إلا أن تشعر بالامتنان تجاه النسوة الأخريات اللائي كن يدركن حق الإدراك ما الذي يعنيه أن تكون الواحدة منهن زوجة شيخ القرية. ومن ثم، فقد كانت زهرة حريصة على أن تعانق أمها أول ما وجدت نفسها بمفردها معها بمنأى عن الأنظار، فكانت تلك هي المرة الأولى التي تنتبه إلى أن أمها صغيرة الحجم وضعيفة البنيان. وكان أثر الإرهاق قد لاح جليًّا على ملامحها الدقيقة وعمَّق التجاعيد المرتسمة على جبينها. ولم يسبق لزهرة أن ساورها الشك، منذ أن فتحت عينيها على هذه الحياة، في أنها حين تقصد أمها لأمر لا تجد عندها ضالتها، فهي الحضن الدافئ الذي تدفن فيه أحزانها وتكفكف فيه دموعها وتستمد منه جذوة حماسها وإقبالها على الحياة. فهي رغم ضعف بنيتها الجسدية، امرأة قوية العزيمة تصرّ على إخفاء ضعفها بوضع قناع على وجهها يوحي بالشجاعة، بينما هي في الواقع لا تقلّ عنها خوفًا ورهبة وتوجسًّا من هذه الرحلة المجهولة العواقب، وهي ليست أكثر منها استعدادًا لخوض

غمارها وتحمّل أخطارها. ومن خلال مراقبة أمها وتحليل دلالات ملامحها، شعرت زهرة أنها قد تكون قد بلغت مستوى من النضج الآن وانكشف لها أن الجميع يتظاهرون بأنهم يسيطرون على تصرفاتهم فيصدق عليهم قول الشاعر «أخفيته، فأذاعه الإخفاء».

وبعد ثلاثة أيام من سيرهم، هاجمت قافلتهم مجموعة من الجنجويد يركبون الجياد والجمال، ظهروا لهم فجأة من وراء صخرة وانقضوا على طابور الحمير شاهرين بنادقهم. ولعلع صوت الرصاص وانفرط عقد الأسر وتفرق أفرادها في كل اتجاه كسرب طيور أحست بخطر محدق، فانتفضت مذعورة.

أحست زهرة بأمها تدفعها وتصيح بها قائلة: «أهربي وإياك أن تتوقفي!»، أسقطت زهرة الكيس الذي كانت تحمله وانطلقت تعدو باتجاه كومة من نباتات شوكية على بعد ياردتين. وتناهى إلى سمعها طلق رصاص اختلط بأصوات فزعة ونهيق حمير جفلت وتملكها الرعب. وعندما بلغت وجهتها، ألقت بثقلها داخل ذلك الغطاء النباتي الهزيل غير عائبة بأشواكه التي انغرست في عدة أجزاء من جسمها. وقبعت هناك تترقب وتسترد أنفاسها. وتساءلت في سرها عن مصير من كانوا معها، فلقد كان واضحا أن لا أحد منهم ولا من الجنجويد قد تبعها.

زحفت بحذر وباعدت ما بين عدَّة أغصان متشابكة واسترقت النظر وهي ترتعد من الخوف. وتجمد الدم في عروقها لما رأت أفرادا من

الجنجويد يحملون عصيا غليظة ويتفقدون ما إذا كان من بين الجثث من لا يزال يتحرك، فيجهزون عليه بضربة من تلك العصي، ثم يفتشون جيوب ضحاياهم ويدسون أياديهم داخل أكياسهم المرمية إلى جانبهم. واشتد خوفها وارتعادها وهي ترى أحدهم يميل بجذعه فوق جسد ممدد بينما وقف ثلاثة رجال آخرين يرقبونه غير بعيدين وهم يتغامزون وينتظرون دورهم للنيل من ضحيتهم، وعندما فرغوا من صنيعهم، استل أحدهم سكينا ومرر نصله على رقبة الضحية فذبحها من الوريد إلى الوريد، ثم سدد لها ثلاث طعنات في صدرها قبل أن يبتعد عنها. سرت قشعريرة في كامل جسم زهرة وقد تخيلت أن أمها هي صاحبة الجسد الممدد الذي عبثوا به كيفما شاؤوا.

ربط الجنجويد الحمير إلى حبل وهي لا تزال بأحمالها واقتادوها غنيمة. وما هي إلا دقائق حتى ظهرت طيور كاسرة تحلق في السماء. وعندما شعرت زهرة بابتعادهم، خرجت من مخبئها بحذر شديد وسارت باتجاه ما تبقى من القافلة. لم تعد قادرة على تحمل خوفها الشديد ومشاعر اليأس والأمل التي تتنازعها وتصور لها تارة أنها عثرت على أفراد أسرتها بين أصحاب الجثث المسجاة وتصور لها تارة أخرى أنهم نجوا من المذبحة وستراهم أمامها فجأة، أحياء يرزقون.

اقتربت من ذاك الذي بدا لها ككوم من خرق بالية. رأت آثار دماء هنا وهناك وجيشا من الذباب. تعرفت بين أعداد الضحايا على عدة

جثث لأطفال جيرانها ولاحظت أن صدورهم وظهورهم تحمل ثقوبا غائرة استقرت فيها رصاصات قاتلة.

عثرت على جثة ابنة عمها علية، ورأت كيف أنهم مزقوا وانتزعوا عنها بعضا من ثيابها، فكشفوا عن صدرها الذى خربوه بطعنات سددت بنصل ذلك السكين الذي رأت أحدهم يستله ويجره على عنقها. لقد رفعوا عنها ثوبها إلى أعلى فانكشف أسفل جسدها وكانت الدماء لا تزال تسيل من بين رجليها. انحنت وسحبت الثوب إلى أسفل، وسترت عورة إبنة عمها، ثم غطت لها وجهها أيضا.

تنقلت بين الجثث الأخرى وقلبها يخفق بقوة متوجسة أن تقع عيناها بين لحظة وأخرى على جثة أحد أفراد أسرتها. عثرت على جثتي أختيها من أبيها. وكانت إصابات جميع نساء القافلة متماثلة. رأت زهرة ثلاث جثث لفتيات في سنها، فتخيلت نفسها مسجاة جثة هامدة مثلهن وهي لا تصدّق أنها أفلتت من هذا المصير!

وأحست فجأة بيد تمسك بها من كعب رجلها، فصرخت مذعورة ونفرت بعيدا، ثم سمعت صوتا يناديها باسمها، فاستدارت لترى يدا تلوح نحوها من بين كوم الخرق البالية. إنها مكة، ابنة شايب اللحية. رأت زهرة جسد مكة الملطخ بالدماء، وسمعت صوتًا ينادي بوهن: «ساعديني، أرجوك!».

انحنت زهرة وأمسكت بيد مكة الممدودة نحوها. كان وجهها يحمل آثار عدة كدمات ولكن المشكلة الأساسية كانت في الدماء النازفة من

بين رجليها. اقتطعت زهرة من ثوب قريب عدة قطع من القماش لفتها وناولتها لمكة التي تمكنت من وقف نزيف الدم.

خاطبت زهرة مكة قائلة وهي لا تزال تفكر في ما آل إليه مصير أمها وأخيها: «لا تتحركي، سأعود إليك بشربة ماء وثوب نظيف».

وعلى بعد عشرين ياردة، وجدت قارورة ماء سحبتها من تحت جثة أحد الضحايا. وقبل أن تأخذ إليها القارورة، كرعت منها أولا حيث إنها كانت هي أيضا في حاجة ماسة إلى أن تروي ضمأها لتتشد أزرها. وظلت زهرة تردد قائلة في سرها: «أين أخي، أين أمي، إني لا أراهما بين أصحاب الجثث؟».

ناولت زهرة قارورة لمكة، فإذا بها تعقد ما بين حاجبيها وتحدق في الأفق، والتفتت زهرة لتستجلي ما استرعى انتباه ابنة عمها.

رأت زهرة شخصين في حالة رثة يظهران من وراء أكمة صغيرة أحدهما يرتدي ثوبا لونه أزرق وأصفر تعرفت عليه على الفور. فهذا الثوب كثيرا ما جلست خارج عُشّة المطبخ تغسله في السطل البلاستيكي الكبير، وكثيرا ما نشرته فوق أشواك الشجيرات الموجودة في طرف الدوار، وكثيرا ما طوته بعناية وسلمته لأمها.

اندفعت زهرة نحوهما ونسيت تعبها غير آبهة بوعورة الأرض، وامتلأت عيناها بالدموع، دموع الفرح، وألقت بنفسها بين ذراعي أمها وهي لا تصدق أنها ليست في حلم. وأحست بذراعي أخيها يطوقانها، وهو يضمها إليه بقوة ويقبل شعرها.

تخلصت بسرعة من حضن أمها ونظرت في عيني أخيها وقالت له: «لا تقترب من الجثث!»، ثم أجهشت بالبكاء. لقد كان أخوها يحبُّ ابنة عمه علية، وكان من المفروض أن يتزوجها. وضعت يده في يدها وهمست في أذنه: « لا تذهب إلى هناك». أغمض عينيه، وأرسل تنهيدة. أضافت زهرة بصوت خفيض قائلة: «لم تنج إلا مكة».

ابتعد عبد اللطيف عنهما بسرعة وهو يخفي دموعه ويتجه ببصره نحو الفلاة الممتدة، في حين عادت زهرة وأمها لإسعاف مكة.

انضم إليهن عبد اللطيف واستأنفوا رحلتهم سيرا باتجاه الغرب. كانوا حذرين طوال سيرهم كي لا يباغتهم العدو مرة أخرى، ولم ينقطعوا عن السير إلا ليخلدوا إلى النوم. وصلوا بعد يومين إلى قرية سكانها من أبناء الفور، فاستضافهم شيخ القرية وأكرم وفادتهم. وعندما جلس عبد اللطيف مع كبار القرية حول مائدة العشاء ومد الجميع أيديهم إلى أرغفة خبز يغمسونه في مرق الخضر، حذَّرهم من أنّ سلاح الجوّ أو الجنجويد أو كلاهما ربما يهاجمون القرية في أي لحظة، فشكروه على نصحه، ولكنّ عبد اللطيف رأى في عيونهم كما رأى من قبل في عيون أهل قريته علامات تشي بأنهم لم يأخذوا تحذيراته على محمل الجدِّ.

لم يغمض لزهرة ومرافقيها جفن طوال الليل، فنهضوا باكرا واستعدّوا لاستئناف المسير.. عندها بدأ الهجوم على القرية، ظهرت في سماء القرية طائرات الانتونوف، وحلّقت على ارتفاع قريب، وألقت قنابلها المغلفة بأسلاك شائكة ومتفجرات، فأحدثت حفرًا في

الأرض وأثارت ستائر من الغبار. كانت زهرة ومرافقوها أول من أطلق ساقيه هربًا نحو الهضاب القريبة وتبعهم أهل القرية وهم شبه نيام واندفعوا هاربين لا يلوون على شيء، في حين علا صوات الماشية، وتخلص بعضها من وثاقه، ونفر يعدو في كل الاتجاهات. وتقيأت الطائرات أجساما معدنية لماعة حارقة تشقّ الأسقف المعمولة من القش فتحيلها في لحظات إلى عروش متفحمة. وفي وقت وجيز، خلت القرية من أهلها ولم يبق فيها سوى المسنين والعجز والصغار ومن هلك على عين المكان.

تخلفت مكة عنهم إذ لم تتعاف بعد؛ ولا زالت تعرج، فرجعت إليها زهرة وأخذت تجرها. غير أن سيلا من الهاربين انتزعها منها ودفعها إلى الأمام بينما سقطت مكة على الأرض وسمعتها زهرة تصرخ، فعرفت أنها وقعت وداستها أقدام الراكضين، فحاولت أن تعود إليها، غير أن هبّة سرت فجأة في الهواء، وإذ بطائرة تحلق على ارتفاع قريب وتحدث دويًّا يصمّ الآذان وتقذف من جوفها جسمًا اسطوانيًّا ضخمًا رأته زهرة يهوي نحوالأرض متمايلا في خيلاء.

شعرت زهرة بسحابة من الغبار تمرّ فوقها وتصرعها. نهضت متثاقلة ونظرت حولها، فرأت حفرة كبيرة قد انشقت في المكان الذي تركت فيه مكة. ترددت للحظة وهي تبحث عن أهلها وسط هذا الجمع، وإذا بأحدهم يجذبها بقوة ويحذرها قائلا: « ابتعدي، لقد عادت الطائرة!».

أخذت زهرة تعدو وراء الرجل وأسرته، فهم أدرى منها بشعاب منطقتهم، ثم إن أمها وأخاها ربما وُجدا في مقدمة الهاربين. تدرّعت زهرة بغريزة حب البقاء، واستنفرت جميع قواها وكل تركيزها للنفاذ بجلدها بأسرع ما يمكن.

وبعد قليل، وصل فوج الهاربين إلى منخفض ضيق لمجرى نهر قد نضبت مياهه ومكثوا، وقد لفهم صمت رهيب وظلت عيونهم وآذانهم مفتوحة لاستشعار أي ونونة. وحتى الأطفال كفوا عن العويل، وكأنهم أحسوا بخطورة الموقف، وربض الجميع هناك وكلهم تحفّز وتوثّب للانطلاق بعيدا مع أول إشارة.

وعندما تأكدوا من أنّ الطائرات قد ذهبت إلى غير رجعة، شرعوا في التحرّك وتسريح عضلاتهم لتخليصها من التمطط الذي ألمّ بها. وكانت زهرة تشعر بتخدّر في جميع أنحاء جسمها يمنعها حتى من الكلام، وظلّت تستمع إلى كبار القوم وهم يلقون نفس الأسئلة التي طرح أهالي قريتهم في الاجتماع الذي عقده أبوها معهم تحت ظلال شجرة جدها المفضلة. وقد استقر رأي الجماعة في الأخير على السير إلى تشاد، فقد كان من بينهم من دأب على الاستماع إلى الراديو وعلموا من ثمة أن الأمم المتحدة تقدّم مساعدات لمن يأتي إلى هنالك. ثم إنه كان من رأي معظمهم أنّ نظام البشير لن يتجرأ على مهاجمتهم وهم خارج حدود السودان.

تجمّع أهالي القرية استعدادًا لمسيرة طويلة، وهامت زهرة على وجهها وهي تبحث عن أمها وأخيها لعلها تجدهما بين الضحايا.

وتساءلت ما إذا كان عليها أن تنتظرهما في هذه الهضاب، أو تعود إلى القرية، فربما تعثر عليهما بين جثث ضحايا القصف، أو أنه يتوجب عليها أن تتبع الناجين من أهالي القرية الذين يبدو أنهم يعرفون إلى أين هم ذاهبون. تركت العنان لدموعها ولم تعد تعرف ماذا تريد، ولا يزال لديها بصيص من الأمل في العثور على أخيها وأمها بين هذا الجمع من الناجين المقبلين على السير مشيا في رحلة تقودهم إلى تشاد.

واسترجعت وقائع الهجوم على القرية، فرجحت أن يكون أخوها وأمها في عداد الهالكين، ولكنها في نفس الوقت، يحدوها أمل في أن يكونا قد بلغا بر الأمان في فج آخر ينتظران أن تنضم إليهما. ثم انهمرت الدموع بغزارة من عينيها وهي ترى أن الواقع المرير يحدثها مرة أخرى بعكس ذلك تماما.

بدأت المسيرة المرتقبة، وهرعت زهرة إلى حافة الفج لتلقي نظرة على القرية التي هربت منها، فأمكنها أن ترى رغم بعد المسافة، طيورا كاسرة تحلق في السماء ثم تنقض داخل العِشَاش الخاوية على عروشها بحثا عن أمر لا داعي لذكره. وسارت في آخر الطابور وحيدة صامتة ومنفصلة عمن حولها. ظلت تسير الساعة تلو الساعة واليوم تلو الآخر وظلت تفكر في أمها وأخيها طوال الوقت. وكلما زاغ ذهنها وفكرت في شيء آخر أقل تعاسة، طاردتها من جديد فكرة أن كل الذين أحبتهم حبّا شديدا قد انتقلوا إلى عالم الأموات على أغلب الظن، وتساءلت عن مصير أبيها وبقية الذين بقوا معه في القرية.

وفي اليوم الرابع، وبينما كان طابور الناجين من أهالي القرية يستعد فجرا لمسيرة يوم جديد، هاجمته طوافات الجيش السوداني. ولم تكن زهرة لتصدق أن هذا الأمر يحدث لها مرة أخرى، ووجدت نفسها مشلولة من الرعب، راحت تعدو وتعدو لتنجو بنفسها إلى أن وصلت إلى مجرى نهر جاف في ممر صخري في الجبال، والطوافة تحلق من حولها، وهو ما أجبرها على التوقّف عن العدو والاستراحة لاسترداد أنفاسها. واستندت إلى الجدار الصخري، فلمحت نعلها الوردي ملقى في العراء، فهالها أن ينكشف أمرها ولكنّها أقرّت العزم على النجاة بحياتها وألا تستسلم لقوى الشرّ.

الفصل العاشر

المكان: مخيم اللاجئين في الجنينة، ولاية غرب دارفور
الزمان: كانون الأول/ ديسمبر 2004

أخذت الأسر الدارفورية كأسرة زهرة تتوافد من كل حدب وصوب باتجاه مخيمات اللاجئين بعد أن هُجّرت من قراها وفرَّت نحو تشاد، وقد تكاثرت كالفطر، على طول مناطق حدوده المشتركة مع السودان، مخيمات لاستقبالهم. وفي مخيم منها غير بعيد عن مدينة الجنينة التجارية، كانت الحقوقية كارن فريمان تجلس على دكة خرشاء نُصبت

في ظل شجرة وارفة، وعلى ركبتيها دفتر فوقه قلم حبر جاف جاهز للاستعمال. وقد اضطرت إلى العودة إلى هذه الطريقة البدائية لتدوين أقوال الشهود. لقد تعطل جهاز التسجيل الصوتي الذي أتت به من بلدها حيث تسللت إليه الأتربة بعد أيام معدودة من مجيئها إلى دارفور ومنعت بكرتيه من الدوران والتسجيل.

جلس إلى جانبها المترجم الذي وضعته الأمم المتحدة تحت تصرّفها، وكان يجلس على الأرض أمامها جمع من سبع وعشرين امرأة دارفورية اختارهن المسؤولون عن عيادة المخيم عينة تمثل مختلف مناطق دارفور، ولكل واحدة منهن مأساة تلقي بِالأضواء على جوانب مهمّة مما حصل، حتى تتمكن السيدة فريمان من تأليف صورة دقيقة عن حقيقة الصراع الدائر في دارفور. تجمعت النسوة حولها وكانت كل واحدة تقريبا تحتضن رضيعا في حجرها، وعدة أطفال يحومون حولها كما لو أنها نجم وهم أجرام تطوف في مداره. وكان منظر هذه الإفرنجية بلباسها الغربي وشعرها الأشقر يثير فضولهن حيث لم يسبق لهن أن رأين أي أجانب من قبل. ومن المؤكد أنهن لم يلحظن ذلك التناقض الصارخ بين صورتها تلك بأظافرها المقلمة المطلية، وسروالها الكاكي المكوي المرتب، وبين الصورة النمطية لمراسلي الحروب أو ناشطي حقوق الإنسان. فقد كان نظام البشير يمنع وسائل الإعلام العالمية من الوصول إلى الأماكن التي ارتُكبت فيها أعمال القتل. لذا، لم يكن من المألوف رؤية افرنجي في دارفور؛ فالأيسر على وكالات المساعدة الإنسانية أن تعمل على طول الحدود مع تشاد

بعيدا عن مضايقات المسؤولين الحكوميين اليومية. أما كارن فريمان، فقد وصلت إلى الجنينة بفضل مثابرتها وتكتمها الشديد وحرصها على ألا تكشف عن رأيها الحقيقي أمام المسؤولين الحكوميين.

ألقت هذه المرأة الصغيرة الحجم القادمة من مدينة نيويورك كلمتها في ذلك الجمع، معددة أسباب زيارتها للمخيم فقالت مستعينة بمترجم فوري: «جئت لأجمع أدلة على ما يحدث في القرى، وسيأتي اليوم الذي سنتمكن فيه بفضل أقوالكن من إثبات جريمة الإبادة التي ارتكبها المسؤولون الحكوميون في الخرطوم بحقكم، وهي جريمة ينكرها نظام الخرطوم بإصرار ولكن، نحن نعلم أنه يرسل طائراته وطوافاته لقصف قراكم، وأنه يسلح الجنجويد».

أومأت النسوة برؤسهن تصديقًا لقولها. واصلت كارن قائلة: «نريد أن نحدّد مكان هذه الوقائع وزمانها، ونريد أن نتبيّن منكن حقيقة ما حدث. نريد أن نتبيّن هوية الذين داهموا أهاليكن في قراهم واعتدوا عليهم، وعدد المسلحين أو العساكر وماذا كانوا يرتدون وهل كانوا يمتطون جيادا أم جمالا أم مركبات؟ فهذه معلومات نحن بحاجة إليها لأنها ستساعدنا على مقاضاة الجناة وإنصافكم. والآن دعوني أقابل كل واحدة منكن على حدة كي تتحدث معي وجها لوجه رفعًا لأي حرج، وسأسجل أسماءكن ولا داعي للقلق، فسأحتفظ بها لنفسي ولن يطلع عليها سدنة النظام».

صمتت النسوة ربما لاستيعاب كلام كارن وهزت بعضهن برؤوسهن تأييدًا لكلامها. وقبل أن تشرع كارن في إجراء المقابلات الفردية، تكلمت عجوز صفراء العينين، فخرجت الكلمات من فمها الأدرد ببطء ومن بين شفتيها المشققتين.قالت: «لا بد من إقامة العدالة، يجب أن يقروا بأنهم أذنبوا في حقنا ويجب أن يطلع العالم على الفظائع التي ارتكبوها بحق أهالينا». سكتت برهة وراحت تحرك شدقيها كما لو أنها تمضغ فكرة لم تكتمل في ذهنها قبل أن تواصل قائلة: «تحدثي أنت بصوتنا، فنحن لا نملك صوتًا مسموعًا ولكن العالم ربما يستمع إليك. لذا، نطلب منك أن تنقلي قصتنا وأن تكوني ناطقة باسمنا فنحن نكرة في هذا العالم وليس لنا إلا الله العلي القدير».

انتظرت الأخريات أن تنتهي العجوز من كلامها. كنّ مترددات في البداية ومتأدبات في اختيار ألفاظهن، ثم ما لبثت عقدة ألسنتهنّ أن زالت تدريجيا كلما أوغلن في وصف الأهوال التي لاقينها.

قالت امرأة تحمل في خدها أثر جرح غائر لم يلتئم بعد: «جميل أن يرسل بلدك إلينا أغذية، ولكن، نحن نعيش في أفريقيا وقد تعوّدنا على الجوع. نريد منكم تجريد القتلة من أسلحتهم».

قالت امرأة أخرى: «لا بد لهم من الإقرار بما اقترفوه بحقي أولا، وعندها سأخبرك بما فعلوه بي».

كانت كارن تشكر كل امرأة تقابلها على حدة على تفضّلها بتخصيص البعض من وقتها والمجيء إليها للإدلاء بأقوالها، ولم تفهم النسوة عن أي وقت تتحدث هذه الإفرنجية، فليس أمامهن ولا وراءهن ما يشغلهن

أو ما يؤثثن به أوقاتهن في المخيم بخلاف الأعباء المنزلية، ومن ثمّ الانتظار والانتظار. ثم إنهن يفضلن البقاء هنا وانتظار دورهن للإدلاء بأقوالهن بدلا من مواصلة غسل الثياب أو تنظيف خيمهن وعِشَاشِهن.

خشيت كارن في أول الأمر أن تبدي النسوة احترازا من الحديث إليها دون حضور الصديقات اللاتي لا تجد حرجا في الحديث معهن وذلك في كنف التشاور والاحترام كما جرت العادة عندهن.

ثم سرعان ما نبذت عنها هذه الفكرة بمجرد مرور دقائق على المقابلة الأولى. غير أن كارن وجدت صعوبة كبيرة في كبح الأطفال الذين لا يدعون أمهاتهم يتحدثن في راحة. وعندما أحست إحداهن بما يسببه هذا الأمر لكارن من إحباط، خاطبتها قائلة وهي تشير إلى أطفالها: «لم لا تسأليهم، فهم مصدومون مما حدث لهم، وسيحدثونك عما شاهدوه وعما أدخل على نفوسهم الرعب، فأنا لم أعد مطمئنة عليهم بعد الذي رأوه من أهوال يشيب منها رأس الرضيع».

أخرجت كارن من حقيبتها مجموعة أوراق بيضاء وأقلام رسم وتلوين ووزعتها على الأطفال.

وطلبت من المترجم أن يطلب منهم ألا يرسموا إلا ما شاهدوه بأم أعينهم لا ما سمعوه من الآخرين.

وفي غضون عشرة أيام، تجمع لكارن عشرات الروايات المفصلة عن الاعتداءات على القرى وأسماء الضحايا وأوصاف المركبات والطائرات المستعملة في الغارات وقصص تسهب في وصف جرائم

الجنجويد وعساكر البشير وضروب التعذيب والاغتصاب والتنكيل التي سلطوها على ضحاياهم.

وتوفر لكارن أيضا أكثر من 500 رسم بين رسوم لطائرات انتونوف ترسل قنابلها وطوافات تصلي بنيرانها قرى وتحرق عِشَاشها، وأخرى لنساء يُقتدن سبايا ورؤوس مقطوعة ورضيع تلتهمه النيران، ورسوم لجثث رمست في قبور جماعية، ورسوم لأعمال سلب ونهب تشهد على جرائم الجنجويد، ولولا الحضور الطاغي في هذه الرسوم لتكنولوجيا القرن الحادي والعشرين لخالها المرء توثق لأحداث جدت في القرون الوسطى.

وعلى ضوء فانوس كهربائي، أخذت كارن تتأمل الرسوم وكأنها عثرت على كنز لا مثيل له. وكم كانت دهشتها كبيرة إذ لاحظت أن الأطفال رسموا سحناتهم وسحنات ذويهم باللون الأسود بينما اختاروا اللون الوردي لرسم سحنات الجنجويد وعساكر البشير لتمييزهم عن أهالي دارفور، علما وأن الدارفوريين يتقسامون الأرض مع العرب منذ قرون ويتزوجون فيما بينهم. وجميعهم في نظر كارن سود ولون سحنتهم واحد.

غير أن الرسوم يستشف منها أيضا تغير الصورة التي أصبح البعض يحملها عن أنفسهم وعن الآخرين. فالضحايا المستهدفون في دارفور أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أفارقة لا علاقة لهم بالعرب وينظرون إلى العرب على أنهم جلادوهم. ولا عجب والحال هذه، أن

ينظر الأطفال الفوريون إلى أنفسهم على أن سحنتهم تختلف عن سحنة أترابهم العرب.

ورأت كارن أيضا كيف رسم الأطفال أسلحة عساكر البشير بتفاصيل مذهلة؛ دبابات تحمل أعلاما سودانية تقتحم القرى، وهو ما يفند مباشرة مزاعم نظام البشير الذي ينكر أن يكون للجيش السوداني ضلع في ما حدث أو أن يكون قد نسق مع الجنجويد بشكل منظم.

فسكان القرى العاديون لا يمتلكون أجهزة فيديو يمكنهم أن يلتقطوا بها صورا للقنابل لحظة وقوعها على عِشَاشهم أو أن يصوروا لحظة اقتحام الجنجويد لقراهم وهم على صهوة جمالهم وجيادهم. ولم يكن أي من المراسلين يقدم على التوغل بعيدا داخل دارفور ويعرض نفسه للقتل إن هو وثق بالصورة وقائع قصف قرى أهالي دارفور. ومن ثمّ، كانت رسوم الأطفال أدق شهادة تصف أعمال الإبادة الجماعية التي ارتكبت في غربي السودان.

قبل أن تغادر المخيم، أخفت كارن الرسوم والأوراق التي دوّنت فيها أقوال النسوة في ما يشبه جيبًا سحريًّا خاطته بنفسها في باطن حقيبة سفرها على أمل أن تتمكّن من الخروج بها من دارفور إلى تشاد. كانت كارن تخشى أن تتفطن السلطات السودانية لهذه الرسوم، فتحتجزها وتمنع وصولها إلى العالم الخارجي.لذا، غادرت الجنينة، وكانت مضطربة طوال رحلتها وكان قلبها يخفق خوفًا من أن تتفطّن السلطات إلى هذا الذي أخفته في الجيب السحري داخل حقيبتها.

***

لوى رشيد ذراع الولد بعنف وبرمها إلى الخلف وعفر وجهه في التراب وصرخ فيه قائلا: «اسحب كلامك!».

كان الولد أقصر من رشيد كثيرا، وكان واضحا أن رشيدا أقوى منه بدنيا ولكنه، وخلافا لما كان يتوقعه رشيد، لم يكن الولد خائفا منه.

وجه الولد إلى رشيد كلامه قائلا، وهو ينفث الرمل عن شفتيه: «الجميع يعرفون هنا أن أسرتك تتعامل مع الجنجويد وتتعامل مع النظام أيضا». تخلّص الولد من قبضة رشيد وانفجر ضاحكًا.

كان رشيد يعرف أنه يجب عليه الالتحاق بالولد وضربه ضربًا مبرحًا، ولكنه شعر فجأة بأن قواه قد خارت، فجلس في ظل شجرة حتى تهدأ نبضات قلبه الجامحة.

فمنذ أن جاءت أسرته إلى مخيم اللاجئين خارج الجنينة، والألسن لا تكفّ عن الغمز واللمز. فهناك من يقول بأنه يوجَد من أبلغ جدَه عصمان مسبقا بتوقيت هجوم الجنجويد على القرية، فغادرها ومعه أسرته بطم طميمها إلى الجنينة قبل سويعات من قدوم القتلة.

كان رشيد يعلم أن الفتى ذوالوجنتين المكتنزتين يقول الصدق عندما وجه إليه شتائمه. فقد أبلغهم جده قبل عشرة أيام أنه يجب تأجيل موعد زفاف حفيده، وأشيع في القرية أن لعصمان أخا عزيزا قد حضرته الموت. ولم يجرؤ أي فرد في القرية على تكذيب هذا الإدعاء، بل كيف لمزارع بسيط أن يكذِّب الشيخ أو أحدا من أولاده أو أحفاده.

وأشيع في المخيم أيضا أن الشيخ عصمان أبلغ الجنجويد مسبقا بأنه سيبيع جديانه إلى الشيخ محمد المتنطع الكبير. كذلك تقول الألسن

الأكالة أن جدَّه قد أبلغ الجنجويد أيضا بالمكان الذي أخفى فيه الشيخ محمد الجديان التي اشتراها من الشيخ عصمان. وقد سمع رشيد الرواية أيضا من فتى آخر فاشتبك معه وضربه وكسر أنفه. وظنّ رشيد أنه بذلك قد أخرس الألسن إلى الأبد، ولكن، ها هوذا يرى اليوم أنّ الألسن لا تزال تلوك نفس الكلام.

وفي اليوم التالي لرحيل الشيخ عصمان إلى الجنينة، أحرق الجنجويد القرية ودمروها بالكامل. وبعد وصول الشيخ وأسرته إلى الجنينة بأيام قليلة، بدأ يتقاطر على المخيم الناجون من أبناء القرية وهم في حالة مزرية ليصطفوا في طوابير كل ينتظر دوره في أغذية الإغاثة التي كانت توزّع عليهم، أو يجلس تحت ظل شجرة ويتحدث عن آخر الجرائم الفظيعة التي اقترفها نظام البشير.

وخلال رحلته إلى المخيم، باع عصمان بقية رؤوس ماشيته. ويذكر رشيد كيف كان جده يفاخر طوال السنين بشبكة العلاقات الممتازة التي نسجها في كامل أنحاء المنطقة، وكم سمعه يشتكي مما بذله في سبيل نسجها من جهد ومال! وواضح أن شبكة علاقاته لم تكن لأغراض تجارية فقط، فحتى داخل المخيم، وُزعت على أسرة الشيخ عصمان عدة خيام من خيام الأمم المتحدة صادف أن نصبت في مواقع قريبة من نقاط توزيع المياه.

ويذكر رشيد كيف أنه كان يقف مشدوها أمام قدرة جدِّه على رفع الكلفة مع ضباط قوة الاتحاد الأفريقي المسؤولين في المنطقة، وهو ما يعطي الانطباع لدى الآخرين بعلو قدره لديهم. وقد عُرف منه في ما

بعد، أن المسؤولين السودانيين المنتدبين لإدارة المخيم يشعرون بأنهم مدينون له بتدخله لفائدتهم لدى ضباط قوة الاتحاد الأفريقي. فقد كان جدُّه في نظرهم قائدا محليا يمكن الاعتماد عليه لتهدئة الخواطر إذا ما توترت الأوضاع داخل المخيم.

وقد سمع رشيد جده بالأمس يقول ضاحكا: «لقد سألوني أي الفريقين تساند، فقلت أنا أساند نفسي، فأنا فريق ثالث قائم بذاته».

كان رشيد يرى اللاجئين يتوافدون من كل حدب وصوب على المخيم وقد أعياهم التعب وتلطخت أجسادهم بالدماء وما زالت فرائصهم ترتعد من شدة المعاناة التي عاشوها، وكان المسؤولون عن المخيم يخصصون لكل منهم مكانا في المخيم يقيم عليه عشة تؤويه، وإذا حالفه الحظ، تمده الأمم المتحدة ببعض الأغطية البلاستيكية تدرء عنه العواصف الرملية والأمطار. وتضطر النساء إلى الرجوع إلى الفلاة لجمع الأغصان وأعواد القصب وغير ذلك من الأعشاب الطويلة والمواد المستخدمة في بناء العِشَاش، وهن يعلمن أن ذهابهن إلى الفلاة قد يعرضهنّ إلى الوقوع ثانية بين أيدي الجنجويد الذين لن يترددون في اغتصابهن والتنكيل بهن من جديد. ومن ثم، لا تسل عن تبخر أمل من كان يتصور أن مخيم الجنينة سيحميه متى علم بوجود معسكر للجنجويد، معسكر لا يبعد عن المخيم سوى ثلاثة أميال أو أقل.

تقوم النسوة في المخيم بشد أعواد من القصب وأغصان تقيم بها حيطان العشة ثم تتخذ لها سقوفا هي خليط من الطين والأوراق والحشائش المجففة، بينما ينصرف أزواجهن لتسجيل أفراد الأسرة

لدى وكالة الأمم المتحدة التي تسند إليهم أرقاما ثبوتية. ثم تقضي النسوة بعد ذلك يومهن واقفات في الطابور في انتظار نصيبهن من مواد غذائية توزع عليهن في إطار برنامج الأغذية العالمي، أو يقضينه في رحلة محفوفة بالمخاطر لجلب الحطب لإعداد الطعام.

وعندما سأل رشيد والده لماذا لا يرافق الرجال النسوة لجلب الحطب عند خروجهن من المخيم، سخر منه ولم يخف امتعاضه وهو يجيبه قائلا: «جمع الحطب لا يصلح إلا للنساء».

هز رشيد رأسه وشعر بأنه أبله لأنه لم يفهم أن العادات لا تتغير حتى في زمن الحرب.

وأضاف والده قائلا: «ثم إنهم سيقتلوننا إذا ما ذهبنا إلى هناك، والأفضل في هذه الحال أن يقتلوا النساء فقط».

سأله رشيد: «لماذا لا يتولى المتمردون أو أفراد حفظ السلام الأفارقة حماية النساء اللاتي يذهبن لجلب الحطب؟».

زعق والده قائلا: «أراك تمزح! ليكن في علمك إنهم ليسوا أفرادا لحفظ السلام، إنهم مراقبون يحررون تقارير تقيم الدليل على أن الفرنجة يراقبون الوضع في دارفور».

أراد رشيد أن يقول شيئا آخر ولكن أباه قاطعه بامتعاض قائلا: «ماذا دهاك؟ أليس لديك ما يشغلك؟».

لم يكن لرشيد ما يفعله في حقيقة الأمر، فلجدِّه ثلاثة عشر حفيدا غيره. ولم يكن ثمة عمل كاف للذكور حتى قبل الحرب. فهو لم تعد لديه حيوانات ليحرسها. وعندما سأل عما إذا كان باستطاعته الذهاب

إلى المدرسة التي تديرها داخل المخيم مجموعة من الناشطين في مجال تقديم المساعدة الإنسانية، كان جواب جده الحازم أنها مدرسة يديرها أجانب لا يطمئن إلى أفكارهم ولن يسمح لأي من أحفاده بارتيادها.

وسمع رشيد أباه يقول له في ردّ نهائي وحاسم: «أنت يا رشيد كبرت ولن تتعلم شيئًا من الكتب، وعندما تنتهي الحرب، سنعود إلى القرية ونستأنف من حيث انتهينا. سيشتري جدك عددا آخر من رؤوس الماشية يفوق ما كان بحوزتنا، وستتزوج أنت حواء، ابنة الشيخ آدم وتنجب منها ذرية كثيرة.

كان الشيخ عصمان يمتطي حماره ويأخذ معه عدة أحمرة أخرى ويذهب إلى مدينة الجنينة الكبيرة، وهناك يحمِل أحمرته بما تيسر من أغذية وأطعمة ويعود بها إلى المخيم محاذرا ألا يرى أحد ما تحمله حميره. فقد كان المأكل في نظره الغاية الأولى والأخيرة في الحياة والمكافأة الوحيدة التي يسمح بها لنفسه وأبنائه وأحفاده على عملهم المضني، وكان يذكرهم بأنهم جديرون بهذه النعمة لأنهم يشقون في العمل خلافا لسائر أبناء قريتهم الفاشلين.

دأب رشيد على التسلي بالذهاب لرؤية النساء والفتيات في المخيم وهن ينظّفن عِشَاشهن الضيقة ويغسلن ثيابهن، ثم يذهبن للوقوف في الشمس الحارقة في طوابير طويلة، أو وهنّ يعتنين بصغارهن الرضع وبقية أطفالهن وبالعجّز من أفراد أسرهن. وكان بعضهن يحاولن زراعة بعض الخضروات أو الذرة في المساحات الضيقة المحيطة

بعِشَاشهن. ولاحظ رشيد أن معظمهن أرامل فقدن أزواجهن بسبب الحرب. ولاحظ أيضا أنّ من بينهن من تحمل جنينا في أحشائها جراء تعرّضها للاغتصاب على أيدي الجنجويد. ولقد أخبره جدُّه عصمان أنّ المرأة لا تحمل إلا إذا استسلمت لمغتصبها طوعًا. وكان مشهد تلك الحوامل يثير حفيظته، فيعمد في غفلة منهن إلى إتلاف زرعهن. وكلما وجد نفسه دون عمل يشغله، ازداد سخطه على هؤلاء الحوامل اللائي كان يعتبرهن نجسا ومصدرا للغواية. ولم يكن سعيدا بمشاعر الكراهية الجارفة التي تنتابه تجاههن ولكنه لا يعرف كيف يكبح مشاعره تلك.

في المساء، يعود عمال المساعدة الإنسانية إلى المخيم في الجنينة منهكي القوى من أثر الحر والعقبات البيروقراطية التي لا تنفك السلطات السودانية في اختلاقها لعرقلة جهودهم. وكان الأجانب في أمان نسبيا لأنهم يقيمون في أماكن تغلق بواباتها، ويحرسها رجال مسلحون، بينما يقيم اللاجئون في أماكن غير محروسة يستطيع الجنجويد اقتحامها على صهوة جيادهم إذا ما عنّ لهم أن يأتوا للتزوّد بالأغذية والأدوية.

ورغم أن المخيم قد يتعرض لهجوم في أية لحظة، فقد وجد فيه رشيد بعضا من الإثارة التي تبدأ بعد مغيب الشمس. فبمجرد ما يبتعد الأجانب في مركباتهم الرباعية الدفع وشاحناتهم تظهر في المخيم عدة جماعات محلية متمردة ينتقل أفرادها كالخفافيش متسترين بظلمة الليل. وهؤلاء يأتون بأخبار جديدة من جبهة القتال ويتحلق الناس حولهم لعلهم يظفرون بخبر عن قراهم التي هجروا منها قسرا.

فعندما اندلعت الحرب قبل ثمانية عشر شهرا، كانت هناك جماعتان متمردتان تلتزم كلتاهما بتحقيق بعض التوازن في تقاسم السلطة مع نظام الخرطوم. غير أنه وباندلاع الحرب، ظهرت جماعات عديدة أخرى كلها تقول إن مطالبها سياسية بحتة، وإنها تريد حماية أهالي دارفور من نظام البشير. غير أن الكثير ممن عرفوا أفراد هذه الجماعات يصفونهم بأنهم ليسوا إلا عصابات من اللصوص يتكسبون من حالة الفوضى التي أحدثتها الحرب وموجة تشرد الآلاف.

وقد نشأ رشيد كسائر أبناء دارفور، على القصص التي تروي شجاعة أجداده وإقدامهم وكيف تصدوا للقبائل الغازية والحيوانات الكاسرة لحماية أهاليهم. فالرجل الفوري من طينة المحاربين، جُبل على تحمل الجوع، ولا ينحني أمام العواصف الرملية، ولا يتراجع القهقرى إزاء هجمات الغزاة الذين يتصدى لهم بسيفه ورمحه دونما حاجة إلى أسلحة شديدة الفتك. فهو أعظم فارس وأشرس مقاتل في العالم وليس ثمة في الوجود بطل مقدام مثله.

كان رشيد يحلم منذ نعومة أظافره بأن يصبح جنديا يدافع عن شرف أهله وعاداتهم ومجدهم، يمضي على صهوة حصانه في الفجر ويواجه الموت دون وجل ولا شيء يثنيه، يركب الصعاب في سبيل الدفاع عن قبيلته وقريته. وكثيرا ما سرح بخياله في صغره وهو يحرس الماشية في قريته ليرى نفسه جنديا شجاعا. غير أن أباه وجدَّه أثنياه عن هذا التفكير مردّدَيْن على مسامعه مرارا وتكرارا بأن دوره أن يحرس الجديان لا أن يصبح جنديا.

وكان أول ما تبادر إلى ذهنه غداة اندلاع الحرب أن يلتحق بالمتمردين للدفاع عن دارفور. ولما كان جدُّه عصمان قد أجزل العطاء لفصيل عبد الله واكتسب احترام أتباعه. فقد التمس المتمردون من جده مساعدتهم في تشجيع الرجال والشباب على الانضمام إلى صفوفهم ومحاربة نظام الطاغية البشير. ولقد سمع رشيد جدَّه يخطب في قومه داعيا إياهم إلى أن يقتدوا به وألا يبخلوا بالغالي والنفيس في سبيل تحرير دارفور، متبجحا بأنه جاد بمعظم ماله من أجل هذه القضية ولن يتردد في إنفاق ما تبقى لديه من مال قليل لنصرة هذه القضية النبيلة.

ثم فوجئ رشيد باعتراض جدّه على التحاقه بالمتمردين خلافا لما كان يدعو إليه ويدعيه. واستجمع ذات مرة شجاعته؛ واجهه وذكره بأنه حث الآخرين على إرسال أبنائهم للالتحاق بصفوف المتمردين، وأجزل العطاء لقائدهم، فلماذا يعترض على خياره هو. فأجابه قائلا: «إنها مقتضيات التجارة يا بني، لا بد لك من أن تضع ساقًا مع معسكر وساقًا أخرى مع المعسكر الخصم».

وبالرغم من الدعم المالي الذي ييسره جده للمتمردين، فقد كانت تتناهى يوميا إلى مسامع رشيد همسات تتكرر هنا وهناك من قبيل ما تفوّه به ذلك الفتى اللعين، وهو ما اضطر رشيد إلى تأديبه. ولقد سأل رشيد أباه لماذا يتجرأ البعض على الطعن في شرف أسرته. غير أنّ أباه لم يحر جوابًا شافيًا، وإنما حرص كثيرا على معرفة هوية الفتى صاحب الفعلة. وطلب من إبنه أن يمدّه بأسماء الفتية المذنبين والذين لم

يفعلوا في الواقع سوى ترديد ما سمعوه من آبائهم وسيذهب هو رفقة أعمامه لتأديبهم.

ولم يكن رشيد يخالف أباه بتاتا. لذا فقد أمدّه بأسماء الأولاد الذين رددوا على مسامعه أن جدَّه عميل للعدو لدى سلطات الأقاليم السودانية. وعندما أسدل الليل ستائره، ذهب والد رشيد رفقة إخوته وأبنائه والكبار متسلحين بعصي غليظة لزيارة أسر الأولاد الذين شتموا رشيد. ولم يضع تدخلهم حدا للأقاويل. غير أن الناس أصبحوا يصمتون عن الكلام أو يغيّرون الموضوع كلما ظهر في مجالسهم أحد أقرباء الشيخ عصمان.

سمع رشيد والده يقول: «هم يحترموننا، ويحقّ لك أن تفخر بكونك حفيدًا للشيخ عصمان، خذها مني مسلّمة وثب إلى رشدك يا بني!»، شعر رشيد بالخزي ولم يعد أمامه ما يفعله سوى الذهاب إلى المسجد بانتظام. وكان حريصًا على أن يهابه الفتية الآخرون. ولكنه كان يعي جيدا أنّ خوفهم منه لا يعني تماما احترامهم له. وهو ما يتناقض مع الصورة التقليدية لمثله الأعلى أي صورة الرجل الدارفوري المحارب الشهم، صاحب البطولات على أرض المعركة، الشريف العادل النزيه القوي. ولطالما حلم رشيد بأن ينحت من نفسه شخصا يملك مواصفات تكون هذه هي مُثله العليا.

أضاف والده قائلا: «ثم إنه مهما يكن من أمر، لن يطول بنا المقام هنا، ستنتهي الحرب وسنصبح أصحاب نفوذ كبير في حكومة دارفور الجديدة. دع جدك يعمل من أجل هذا اليوم السعيد!».

أذعن رشيد لحكم أبيه وقمع أي سؤال أو تساؤل قد خطر له. وتذكر كيف كان جده يحذرهم من السير على الطريق الذي سار فيه الشيخ محمد الذي جلب البلاء إلى نفسه وإلى أسرته بطعنه في خيارات نظام الحكم، وانصرافه إلى مطالعة الكتب التي لم تسعفه في شيء. وتذكر أنّ جده قال بالأمس أنْ لا أحد سمع عن الشيخ محمد أو أيّ من أفراد أسرته منذ ذلك اليوم الذي هوجمت فيه قريتهم. وقال إنه يتوقع مقدمهم أو مقدم من تبقّى منهم إلى المخيم في أي لحظة الآن في مشهد مثير للشفقة بعد أن أصبحت أحوالهم رثة كما يتوقع أن يراهم يحومون حول عِشَاشهم البائسة في المخيم كأي مزارع أو لاجئ بسيط، قبل أن يضيف قائلا وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة: « انظروا عاقبة كتبهم الثمينة!».

ولتمضية الوقت، واظب رشيد على التجول كل يوم في المخيم محتفظا في ذهنه ببطاقة بيانات عن الوافدين الجدد حيث إنه كان يقف غير بعيد عن أي جمع ويرهف السمع لالتقاط آخر الأخبار. ثم يعود إلى أسرته وهو يشعر بأنه شخص مهم قادر على تزويد جدّه بأسماء الأسر التي وصلت اليوم إلى المخيم وما حدث لها ولِقراها. غير أنه لم يحصل قطّ أن شكره عصمان أو تذكر اسمه حيث إنه كثيرا ما كان يقول ضاحكا: «كيف لي أن أذكر أسماء جميع أحفادي؟ فهم كثر».

وكلما سمع رشيد جدَّه يردّد هذا القول، احمرّت وجنتاه خجلا وتسارعت دقات قلبه ووجد صعوبة في إخفاء مشاعر الضيق التي

تعتريه بسبب تجاهل جدّه له. وكان يقول لنفسه: «لو كان جدي يقدّرني لما منعني من الالتحاق بالمتمرّدين».

رسم رشيد على وجهه هذا القناع الخالي من التعبير الذي يضعه ليواجه به العالم الخارجي، ولكن، دون أن يتخلص من حقد دفين يستنزف قواه ويُشعره بالخزي في داخله لعلمه بأن من واجبه في جميع الأحوال أن يكون ندًّا لإخوته الكبار. وكان يخفي خلف صمته الظاهري وعينيه الجامديتن معركة ضارية تعتمل داخله يتنازعه فيها واجب الطاعة والتسليم والرضا بنصيبه من ناحية، ورغبته الجامحة في رفض الدور الضيق المسند إليه دون اعتبار رأيه، من ناحية أخرى. وكان يصبّر نفسه رغم كل شيء، بأنّ جدَّه سينتبه ذات يوم إلى أنّ حفيده رشيد شاب جدير باهتمامه واحترام الجميع.

ولم يجد رشيد طريقة للتغلب على الفراغ القاتل الذي يعاني منه سوى أن يهيم كل يوم على وجهه متنقلا بين أزقة المخيم كي لا يفوّت على نفسه أسبقية إبلاغ جده بمقدم حواء وأسرتها من أول لحظة تطأ فيها أرجلهم أرض المخيّم، ويضمن بذلك ألا تضيع منه عروسه ويضطر جده إلى أن يبحث له عن عروس أخرى في مقامه تكلفه مزيدا من المصاريف.

وظلّ رشيد يتجول يوميًّا في أزقة المخيم ويتعجب لأن أسرة حواء لم تصل بعد، وهو الذي أرسله جده لإبلاغ والد حواء بأنّ موعد زفافه من حواء قد تأجل وأنّ الجنجويد يعتزمون مهاجمة قريتهم، وكان ذلك قبل يوم من موعد الهجوم، فلماذا يا ترى لم يشكره الشيخ آدم على

تحذيره من الهجوم الوشيك ولماذا تغيّر فجأة مزاجه معه ولم يقدم له كوبًا من الشاي كما تقتضي آداب الضيافة.

حدث رشيد نفسه قائلا: «واضح أن الشيخ آدم لم يستمع إلى تحذير جدي وفضل ألا ينجو بنفسه وبأسرته، أو لعلهم قد ذهبوا إلى مخيم آخر، أو قرروا الذهاب إلى تشاد مثلما فعل كثيرون غيرهم».

ازداد عدد سكان المخيم كثيرا بعد حملة القصف الجوي الأخيرة ووصل عدد العشاش فيه إلى 25000 عُشّة وخيمة متراصفة لا تفصل بين الواحدة والأخرى سوى مسافة بضعة أقدام. وقد سمع رشيد أحد المزارعين يتذمر قائلا: «كانت تفصلني عن جاري مائة ياردة، فأصبحت تفصلني عنه أقل من ياردة واحدة».

أحس رشيد بتعاطف معه. فهو مثله يشعر بالضياع، فلم تعد لديه جديان يحرسها، ولم يحقق حلمه في أن يصبح محاربًا بعد أن مُنع من الالتحاق بالمتمردين، ولكن والده طمأنه بأن هذه الحال لن تطول بهم، وسيعودون قريبًا إلى ديارهم ويطوون هذه الصفحة.

عندما كان رشيد يتجول في أزقة المخيم على غير هدى لمح شالا ملفوفا حول كتفي امرأة جالسة على الأرض أمام عُشّة أقيمت كيفما اتفق، فخالها في البداية إحدى المومسات قبل أن يتذكر من لون الشال الأصفر والأحمر وتطريزه أن هذا الشال قد سبق له أن كان من ضمن الأشياء التي أهداها إلى حواء بمناسبة إعلان خطبته عليها.

نظر رشيد إلى المرأة التي كانت أقرب إلى كومة عظام ناتئة، وإلى ساقيها الطويلتين اللتين ضمتهما إليها في جلستها بحيث دفنت وجهها

بين ركبتيها وألقت بذراعيها الطويلتين حولهما. غير أنها كانت توليه ظهرها، فلم يكن بإماكانه أن يتفرس في وجهها.

خطر لرشيد أن الصعلوكة التي أمامه سرقت الشال من حواء في مخيم آخر. غير أنه استبعد هذه الفكرة عندما تعرف بها من طول أطرافها ومن الاستدارةالناعمة لِكتفيها وعنقها.

صاح في كومة العظام مناديا: «حواء» مرة أولى، ثم رفع صوته وناداها مرة ثانية، فإذ بكومة العظام تتحرك وتستدير وترفع نحوه عينين محاطتين بالزرقة والسواد وقد استحال بياضهما إلى صفرة، وإذ به أمام فتاة فقدت عدة أرطال من وزنها فنتأت عظام خديها وتشققت شفتاها. وكانت ترمش جفنيها على نحو متتال كما لو أنها قد خرجت لتوها من ظلام دامس.

خاطبها قائلا وقد شعر بسخافة الموقف: « أنا رشيد، فهل تذكرينني؟»، وسمعها تقول بعد برهة من الصمت: « أعرف من أنت».

شعر بالغيظ ودون أن يرق لحالها هاجمها مستفسرا: «خبريني ماذا دهاك؟»، ولكنها أشاحت بوجهها عنه ودفنت رأسها من جديد بين ركبتيها وأغمضت عينيها كما لو أن الحديث معه قد أجهدها».

سألها «أين أسرتك؟»، ظلت صامتة.

أضاف قائلا: «اسمعي يجب أن تبلغيني عن مكان والدك كي أراه وألقي عليه التحية».

رفعت رأسها وهمهمت باستنكار: «لقد قُتلوا ولم يبق منهم أحد». ثم دفنت رأسها من جديد بين ركبتيها.

شعر رشيد بالدم يتجمد في عروقه وصاح بفزع: «لقد حذرتكم وأبلغتكم بأنه يجب عليكم الرحيل قبل الهجوم» ثم قال في ما يشبه الهمس: «لماذا لم تغادروا المكان؟».

رفعت حواء رأسها نحوه ونظرت إليه بازدراء وقالت: «أبي بقي مع أهله وقاتل معهم ومات موتة رجل كما يفعل الرجال عندنا أو تُراك نسيت عاداتنا؟».

احمر وجه رشيد من الغضب وأجابها قائلا: «كيف تخاطبيني بهذه الطريقة؟ لن أسمح لك مطلقا بهذا التصرف بعد الزواج».

همهمت بكلام تقول فيه من خلال شفتيها المتورمتين: «لن نتزوج بعد الذي فعلوه بي». وراحت تحدق فيه لرصد وقع الخبر عليه، ثم أشاحت عنه بوجهها وقالت: «والآن دعني وشأني».

ظل رشيد واقفا أمامها وقد شلّت الصدمة حركته. كان يظن أن الجنجويد لا يعتدون إلا على الآخرين ولا يطالون الأسر الميسورة كالأسرة التي اختاروا له عروسه منها. ترى ما الذي فعلته حواء حتى تتعرض للاغتصاب؟ ومن المؤكد أنه يدرك جيدا ما سيقوله جدّه في هذا الشأن، سيقول إنها عرضت نفسها على الرجال المسلحين، بدل مقاومتهم والموت دفاعًا عن شرفها. حواء التي كانت ستصبح ملكا له تُدنس ويُعبث بها وتُلطخ وتتحطم حياتها!

كان أول ما تبادر إلى ذهن رشيد أن يصفعها ويعجن وجهها عجنًا. كان يريد أن يذلّها ويهينها ويسمعها تستجدي رحمته وغفرانه، ولكنها تجاهلته كما يتجاهله إخوته الكبار.

صرخ فيها: «لست سوى كومة من القمامة!»، ويبدو أنه لم يكن يتوقّع ردة فعلها غير المبالية، فصرخ قائلاً: «لن أتزوجك»، وتفل في وجهها عدة مرات.

استدارت وأولته ظهرها وتركته يتميّز من الغيظ، ولا يكاد يتمالك نفسه من أن يهوي عليها بقبضته. فهي لا تنظر إليه نظرة أفضل مما ينظر إليه جدّه. ولقد كان يأمل في أن يكون لديه بعد الزواج شخص يطيعه ولا يعصي له أمرًا. كان يتوقع من حواء أن تحترمه وتنظر إليه على أنه رجل مهم. وقد سلم سلفا بأنها ستهابه وتخدمه بإخلاص كما تفعل أي امرأة دارفورية تكون ربة بيت ممتازة، وأنها ستكون في خدمته ليلا نهارا وهي في مزاج رائق كما يقتضيه الواجب. كانت تعني الكثير في خططه التي رسمها للعيش في المستقبل مع زوجة نقية وشريفة.

نظر إليها، وكانت عيناه تتقدان شررا وقلبه يدق بعنف، وأخيرا سيطر على رغبته الجامحة في إيذائها وتحول غضبه إلى سلسلة من التساؤلات. فهو يعلم أن ليس في صالحه أن يخبر جده بما آل إليه أمر حواء، ولكن ما العمل إذا ما عرف جده بطريقة أو بأخرى بوجودها في المخيم وبما حصل لأبيها الشيخ آدم. ربما أساؤوا الظن به واعتبروا أنه لم ينقل إليهم رسالته التحذيرية. لعن رشيد في سره هذه

الورطة التي وجد نفسه فيها فجأة، وقفل أدراجه يمشي متثاقلا ورجليه لا تكادان تحملانه.

لم ترفع حواء رأسها المدفون بين ركبتيها إلى أن تيقنت أن رشيد قد غادر المكان. ثم دلفت إلى عُشّتها وارتمت على حصيرها. كانت تتحرك بحذر كما لو أنها تخشى على نفسها من أن تسقط على الأرض فتتهشم وتتطاير شظاياها في جميع الاتجاهات. فقد كانت لا تزال تعاني بشدة من أثر المأساة التي عصفت بها قبل ثمانية أيام. ولئن توقف النزيف أخيرا، إلا أنها ظلت تشعر بالإعياء وبوجع يخفق في أحشائها وبارتفاع في حرارة جسمها.

لقد سمعت أن هناك عيادة طبية في المخيم يديرها أجانب طيبون، ولكنها لم تر فائدة من الاستعانة بهم وهي التي أصبح الموت يمثل حلا لها يخلصها من هذا الشقاء الذي تردت فيه بعد أن فشلت في المهمة الوحيدة التي كانت لا تزال تستبقيها لمواصلة العيش. فقد مات هذا الصباح ابن أختها الحبيبة، وكانت حواء قد انتشلت الرضيع من بين ألسنة النيران التي ألقى به فيها قائد العساكر، وحملته طوال الأيام السبعة الأخيرة وبذلت كل ما في وسعها لحمايته من الحر والقر ولم تكن تغفو إلا لتصحو من شدة خوفها عليه.

قضت حواء البارحة ليلتها الأولى في المخيم هي والصغير. وعندما نهضت في الصباح، وجدته ميتا. لقد كان آخر ما يربطها باختها، صديقتها المفضلة، وبالحياة عموما والآن بعد ذهابه، وفشلها في المحافظة عليه، تكون قد فشلت في ضمان استمرار نسل أسرتها، فقد

كان رغم نصفه الذي أكلته النار، هو الخيط الأخير الذي يكفل استمرار نسل اسم أسرتها. وماذا عساها أن تفعل الآن بعد أن انتهى وضاع كل شيء ولم يعد ثمة في هذه الدنيا ما يستحق أن تعيش من أجله؟

كانت حواء ترتعش رغم حرارة الطقس وتجذب الشال إليها وتشده حولها وتغطي به رأسها لتنتحب في الخفاء. وكانت كلما طاردتها صور الرجال الذين تناوبوا على اغتصابها وخرقوا الواحد تلو الآخر أسوار دفاعاتها ودكوها دكا، ارتعدت فرائصها ودخلت في ما يشبه نوبة صرع.

الفصل الحادي عشر

المكان: قرية الشيخ آدم، ولاية غرب دارفور
الزمان: قبل ثمانية أيام

تقدم قائد الجند للنيل من حواء باعتباره هو من يحق له النيل أولا من فتاة لا تزال عذراء، ثم يتناوب عليها العساكر من بعده. ولما انتهى من قضاء وطره، تركها لهم فأمسكوا بها وطرحوها أرضا وأطبقوا على ثديها الأيمن بقضيب محمي. أحست بلسعة النار، فعلا صراخها وراحت تتلوى من الألم في حين تعالت ضحكاتهم.

خطب فيهم متفلسفا، فقال: «انظروا بالله عليكم إلى زرقة سوادها». أطلق ضحكة خليعة، ثم أكمل: «ولكننا لن نبخسها قدرها، وسنقذف فيها ماء دافقا يطهّر دمها الأسود الملوث الذي سنقطع بحول الله دابره من بلدنا إلى أبد الآبدين، نزرع به في أحشائها جنينا عربيا أصيلا». طاف العساكر حول جسدها العاري كذئاب جائعة تحوم حول فريسة. رفعوا عقيرتهم بالغناء وتحسسوا سستات سراويلهم تأهبا لإطلاق مياههم الحارة. نفذت رائحة شواء حلمتها إلى أنفها، ثم لم تشعر إلا والجنود يشدونها من جديد إلى الأرض ويكوون بالقضيب المحمّى ثديها الأيسر.

غابت عن الوعي لفترة لعلها طالت أو قصرت، وعرفت أول ما استعادت وعيها أن العساكر غادروا دوار أهلها إلى الدوار المجاور ليكرروا فعلتهم مع الضحية التالية. جثمت على يديها وركبتيها وراحت تردد في سرها: «لقد نجوت وانتهى الكابوس، ولكن، يجب أن أختفي من هذا المكان، فلا يجدوني عند عودتهم».

انتبهت إلى أنها لا تزال عارية وإلى الدم الذي كان لا يزال ينزف منها. أخذت تحبو باتجاه كوخ أمها في الطرف القصي والخفي من الدوار، وهناك توارت خلف الكوخ وقبعت متكورة على نفسها. حاولت أن تصمَّ آذانها عن أزيز الرصاص الذي سمعته يمزق الأجساد في الدوار المجاور، فيشتد هلع جيرانها ويتعالى صياحهم. غابت عن الوعي فترة أخرى لا تعرف مداها، وعندما استعادت وعيها، سمعت

لغط عساكر يقتربون من المكان. تملكها الفزع، فتضرعت إلى الله في سرها: «ها هم يعودون، اللهم إغشي أبصارهم!».

تسللت إلى خياشيمها رائحة احتراق قش أسقف الأكواخ. زحفت على ركبتيها واسترقت النظر من مخبئها محاذرة ألا يراها أحد.

شهدت كيف اكتسحت النيران قريتها وسرت من سقف إلى آخر مع هبة كل نسمة كما لو أن يدا شيطانية تحركها. شعرت بمغص تقلصت به أمعاؤها وهي ترى جثث أفراد أسرتها متناثرة في أرجاء الدوار كدمى تخلص منها بعد أن هشمها طفل انتابته سورة من الغضب.

كان من المقرر أن يكون اليوم موعد زفافها إلى رشيد، وقد أقبل أفراد أسرتها القريبة والبعيدة بمن فيهم أختها المحببة والمقربة إليها جدا إلى القرية بالأمس للاحتفال بزفافها. غير أن الشيخ عصمان أرسل البارحة حفيده رشيد محملا برسالة تحذير مشفرة. لم يصدق أبوها أن الشيخ عصمان ممكن أن يفرَّ بجلده رفقة أفراد أسرته في غفلة من الآخرين، فعامل رشيدا بجفاء وأبلغه أن ينسى إلى حين مشروع زيجته من ابنته حواء.

ظلت متحصنة وراء كوخ أمها على أمل ألا يعود العساكر إلى هذا المكان من الدوار. رأت جثة أختها مسجاة على بعد أقل من عشرين ياردة فقط، فألح عليها شعور بأنه لولا زفافها الذي كان من المعتزم الاحتفال به اليوم، لما جاءت أختها إلى القرية لتلقى حتفها على هذا النحو الفظيع.

كان قائد الجند قد تأخّر عن عساكره في دوار أسرتها ولم يلتحق بهم بعد إلى الدوار المجاور، ورأته حواء من مخبئها يتنقل بين أكواخ الدوار ويخرج من كل كوخ وقد ظفر بمذياع أو قدر أو ثوب أو كيس من الحنطة. ويبدو أنه بوصفه صاحب الرتبة العسكرية الأعلى قد اختار لنفسه نصيب الأسد من الغنيمة وترك الفتات لعساكره، فانتشروا في بقية أرجاء القرية وقاموا فيها بِالسلب والنهب.علا فجأة عويل الرضيع المسجى إلى جانب أمه، وهي أختها الكبرى وأقرب أفراد أسرتها إليها. وبالكاد كتمت حواء صيحة كانت تريد بها من هذا الصغير - الذي لم تكن تتصور أنه لا يزال على قيد الحياة - أن يكف عن العويل لئلا يثير الانتباه إليه.

تواصل عويل الرضيع، وفي تلك اللحظة بالذات ظهر قائد الجند وهو يحمل سجادة غنمها لتوّه، فتوقف وراحت عيناه تحملقان حوله كالصقر، ثم استقرتا على مكان الرضيع. صاحت فيه حواء قائلة في سرها: «ابتعد عنه أيها الوغد أما كفاك ما فعلته بنا!؟».

أسقط السجادة من يديه، وخطا خطوتين باتجاه جثة أختها المسجاة بلا حراك. ترجته حواء قائلة في سرها: «دعهما واذهب في حال سبيلك!»، رفع الرضيع وألقى به في النار كما لو أنه يلقي بكيس قمامة. ثم التقط السجادة التي نهبها وغادر الدوار وهو يمشي الخيلاء.

قبعت حواء في مخبئها متخفية وراء كوخ أمها، وما أن أدار قائد الجند ظهره، حتى انطلقت كالسهم وانتشلت الرضيع من اللهب. التقطت ثوبا من كومة ملابس ولفته حوله وعادت به مسرعة إلى مخبئها.

كان بلا حراك ولكنه كان لا يزال يتنفس. همست في أذنه: «سوف تحيا أيها الصغير، ولكن لا أريدك الآن أن ترفع عقيرتك ثانية بالعويل».

تفحصت جسده بيدين ترتعشان، كانت النار قد أتت على جانبه الأيمن. لفَّته من جديد وهي تدعو الله ألا ينفجر باكيا قبل أن يبتعد العساكر. لم تكن تدري كيف ستتصرف لإنقاذه، ولم يكن بوسعها أن تطمئنّ إلى سكونه الذي كانت تخشى أن يكون نذيرا بأنه قد لفظ أنفاسه.

سمعت خطوات العساكر وهم يغدون ويروحون في القرية وسمعت ما فهمت منه أنهم يجهزون على من لا يزال على قيد الحياة ويغتصبون النساء والفتيات. دنت من طرف الكوخ واسترقت النظر، فرأت بأم عينها كيف كان العساكر يحملون إلى مركباتهم أكواما من الغنائم ثم يعودون لجلب بقية مسروقاتهم، وكيف أنهم استولوا على كل ما أرادوا الاستيلاء عليه، ثم تجمعوا خارج دوار أسرتها وساقوا إلى هناك نحو عشرين امرأة وفتاة. لم يفتها أن تلحظ أجسادهن العارية والمثخنة بالدماء وآثار العنف، ناهيك عن علامات الفزع والخوف البادية على وجوههن. سمعت حواء قائد الجند يأمر عساكره بتكتيفهن وربطهن بحبل طويل الواحدة وراء الأخرى. ورأت العساكر يجرونهن بعد قليل بذلك الحبل كما تجرّ الدواب.

لم يكن يخفى على أحد ولا على حواء المصير الذي ينتظرهن. سيوزعوهن سبايا على ضباط الجيش السوداني وسيغتصبهن هؤلاء

أنَّى شاؤوا دون رادع ولا رقيب. وستنام المرأة أو الفتاة منهن على أرضية المطبخ في بيت مالكها وسيدها ولن يُقَدَّم لها من الطعام إلا ما يسدّ الرمق، وستُرغم على العمل على مدار الساعة وتُرمى على كاهلها جميع الأعباء المنزلية. وستتحول المسكينة أيضا إلى مصدر تسلية لأطفال الأسرة ولن يصدّهم عن مضايقتها وإهانتها أحد.

وإذا ما قيّض الله لإحداهن أن تعيش طويلا، فإنها تحبل حتما. وفي هذه الحالة، ينتزع منها وليدها ما إن يخطو خطواته الأولى ليقدموه هدية ثمينة لعرسان حديثي الزواج أو لأسرة أخرى تدربه على خدمتها حسب احتياجاتها. وكثيرا ما تغير منها زوجة الضابط، فتنكل بها أيما تنكيل لخشيتها من أن يغري زوجها صغر سنها وجسدها اليانع ومرآها وهي تبكي مستكينة، فيغتصبها على أرضية المطبخ.

ظلت حواء تسترق النظر إلى تلكم النساء والفتيات اللاتي عرفتهن طوال حياتها ورأت كيف اقتادهن العساكر تحت تهديد السلاح بعيدا عن ديارهن لتبتلعهن مجاهل البرية الواسعة. حمدت حواء الله على نجاتها من المصير الذي رأت الأخريات يُسَقْنَ إليه. وما إن غاب العساكر عن الأنظار حتى هرعت تتفقد الرضيع. كانت أنفاسه خافتة وغير منتظمة، ولكن جفنيه كانا يرمشان كجناحي فراشة. خاطبته بدلال قائلة: «تجلد أيها الرجل الصغير، سأصل بك إلى برّ الأمان وأبحث لك عن طبيب».

بحثت عن ملابس سترت بها نفسها وحسنت بها من مظهرها. أحكمت لف الصغير في الثوب الذي اتخذت منه قماشة لفته بها، ثم

شدت القماشة إلى ظهرها والصغير بداخلها. ذهبت إلى بئر القرية للتزود بالماء تحسبا لرحلتها، فوجدته مكتظا بالجثث. أجفلت فزعة ثم أخذت تطوف مرتبكة على الأكواخ بحثًا عن قارورة ماء. هدأ روعها قليلا عندما وجدت بضع قوارير من شراب الفانتا. خف اضطرابها عندما تحيلت أخيرا على الصغير وأقنعته بأن يمتص من إحداها. ثم ألقت في جوفها عدة جرعات متتالية من شراب الفانتا شدت بها عودها، واحتفظت ببقية القوارير في شبه سلة علقتها في كتفها. لم تكن قد أفاقت بعدُ تمامًا من هول الصدمة ويداها لا تزالان ترتعشان، ولم تدر إلا وهي تسير باتجاه أكبر مدينة في المنطقة، مدينة الجنينة التي نصح الشيخ عصمان أسرتها بأن تفرّ إليها طلبا للأمان.

خاطبت إبن أختها قائلة وهي تهمّ بالمسير: «لا تيأس أيها الرجل الصغير، أعدك بأننا سنصل إلى برّ الأمان».

ظلت تضرب في الفلاة المقفرة المترامية الأطراف وتسير بخطوات مثقلة وتحدث الصغير الملفوف في القماشة المشدودة إلى ظهرها مستنهضة همته ومزينة له الحياة التي تنتظره بوصفه القائد المقبل لعشيرتها وشيخ القرية، قبل أن تستفيق على واقعها المرير وتقول متحسرة: «ولكن أين هي القرية وأين هم أفراد الأسرة الآن، لقد ماتوا جميعا».

في اليوم الأول من سيرها الطويل، عرجت حواء على قرية أبى أهلها أن يضيّفوها لاسترابتهم فيها وعدم اطمئنانهم إلى سيرها دون رجل يرافقها. ثم توقفت بعد ذلك في قرية عربية لم تتعرض لسوء من

السلطات السودانية ولا من الجنجويد، فعطف عليها أهلها وأطعموها وسقوها وأفسحوا لها مكانًا قضت فيه ليلتها.
وبعد ساعات من المسير تحت أشعة الشمس الحارقة في اليوم الثاني، وصلت حواء قرية فورية. لم يكن قد بقي لها ما تسقيه للرضيع من شراب الفانتا، وكانت تدرك أنه لا بدَّ من ضخ بعض السوائل في جسمه، وإلا فإن قلبه الصغير سيتوقف عن النبض.
رأت حواء عجوزا نحيفة قصيرة القامة تفلح قطعة أرض صغيرة في محيط كوخها الواقع في طرف القرية، فاقتربت من مدخل البيت وظلت تحوم هناك في انتظار أن تلمحها ربة البيت وقد أعدت نفسها لتلقّي وابل من الشتائم. غير أنها لم تر في نظرات العجوز أي اعتراض على وجودها، وإنما لمحت بعض الاستغراب الذي سرعان ما تحول إلى تعاطف واضح حيث وضعت العجوز يدها على صدرها وصاحت قائلة: «يا للمخلوقة المسكينة، من أين جئت وماذا فعلوا بك؟».
أشارت لها العجوز أن تأتي إلى داخل كوخها، وأنزلت الرضيع من على ظهرها دون أن تنبس ببنت شفة ولم تكن بحاجة للسؤال عما فعله بها وبأهلها القوم الظالمون. وقالت العجوز بلهجة استنكارية: «كيف يفعلون بنا هذا؟ أهذا ما يأتيه المسلم بأخيه المسلم؟».
طلبت العجوز واسمها ماما مني من حواء أن تستلقي على ظهرها وتستريح وتتركها تعتني بالصغير. غسلته برفق وغنت له وهي تفركه. دعكت برفق المواضع التي تآكلت من جلده بمرهم هو خليط

من أعشاب تُدق وتُغمس في زيت السمسم. شعرت العجوز بالارتياح لمساهمتها في التخفيف من ألمه، ثم خرجت تبحث له في القرية عن أم مرضعة عادت بها إليه بعد نصف ساعة فألقمته ثديها. عرفت حواء من العجوز أن اسمها ماما مني في حين لم تلق العجوز والمرضعة أيا من الأسئلة التي كانت حواء تتوجس من سماعها من قبيل: «أين زوجك؟ ولماذا تسافرين بمفردك؟ ولماذا جئت إلى قريتنا؟».

كانت حواء لا تزال مستلقية على ظهرها، ولم يسعها وهي تنظر إلى هاتين المرأتين اللتين أحسنتا وفادتها إلا أن تقول لنفسها إنّ أمها ما كانت ستسقبلهما وتكرم وفادتهما لو أنهما وقفتا على بابها، وإن فعلت، فلن يكون ذلك إلا بدافع التبجح والتظاهر أمام أهالي القرية لتشهدهم على طيبة قلبها وورعها وتقواها.

استسلم الصغير للنوم، فانصرفت العجوز والأم المرضعة للعناية بحواء. قامتا بتحميمها وغسلها برفق، ثم أحضرتا مرهما دهنتا به حروقها وقروحها. وأطعمتاها مرقًا طبخ بلحم خروف لا يتيسّر حتى لأغنى الأسر وألحتا عليها أن تنام داخل العشة وألا تغادرها إلا وقد تعافت تماما.

لم تقم حواء إلا في صباح اليوم التالي. وكانت تشعر مع كل خطوة تخطوها بموجة جديدة من الألم تمزق أحشاءها، غير أنها ما إن نظرت إلى الصغير ورأته نائما في أمان وقد انتظمت أنفاسه حتى شعرت بالنشاط يدب في جسمها.

وعندما رجعت ماما مني، أعدّت لهما كوبين من الشاي باللبن والسكر. وسألتها عما حدث لقريتها. سردت حواء عليها بعجالة ما كان من أمر القرية وأمرها هي، وهي غير مطمئنة تماما إلى ما سيكون عليه رد فعلها. ولكن العجوز ربتت على يدها رفعًا لمعنوياتها وزمّت شفتيها وطقطقت بلسانها مستنكرة ما حدث لها ولأهلها.

حذرت حواء في خاتمة حديثها العجوز قائلة: «إن الجنجويد سيأتون قريبا إلى هنا ويكررون ما فعلوه بنا هناك، فلماذا لا تأتي معي إلى مخيم الجنينة؟». لم تكترث العجوز لعرض الفتاة وقالت إنها تتوقع مجيئهم وإنها تستعجل لذلك ذبح شياهها والتمتع بأكل لحومها لأنّها لن تغفر لنفسها لو احتفظت بها وانتزعوها منها، وإذا قتلوها بعد ذلك، فسيكون الموت أهون عليها.

شعرت حواء برغبة جامحة في أن تردَّ الجميل لهذه المرأة التي لم تكن تعرفها ولا كانت هي تعرفها فسألتها: «لماذا لا تأتين معي إلى مخيم الجنينة وتنفذين بجلدك؟».

ردت العجوز: «كيف أغادر أرض أجدادي وأترك نذلا من الجنجويد ينتزعها مني؟ لن أتزحزح من هنا قيد أنملة».

تطلعت إليها حواء منبهرة بروح التحدي الساكنة فيها.

واصلت العجوز حديثها قائلة: «لقد تعاقبت أجيال من أسرتي على هذه الأرض، ولم ندّخر جهدا في فلاحة هذه الحقول. لقد كان هذا المكان وكانت هذه الحقول في وقت من الأوقات جنة على وجه الأرض يطيب فيها العيش، ولكن الذي غيّر ذلك هو شحة الأمطار

وتواتر الجفاف». أطرقت برهة، ثم أضافت ضاحكة وقد لمع بريق في عينيها الذابلتين: «لم نعرف المجاعة أبدا. لقد كان بعض العرب يلعنوننا لكدِّنا وجدّنا ومحاصيلنا الوافرة. لم يكن من بيننا من ينام جائعا ومن لا يجد له سندا يسنده. كانت أعراسنا واحتفالاتنا هي الأفضل والأزهى وكان رجالنا خير من يستعرضون فيها مهاراتهم في فن الفروسية، وما زلت أذكر السباقات التي كنّا ننظمها. يا لتلك الخيول ويا لتلك الأغاني والرقصات! كانت تستمر أياما عديدة وكان الأهل يتوافدون من كل مكان للمشاركة فيها».

تأثرت حواء بحديث المرأة فقالت لها: «إنك تصفين لي تراثنا ونحن في حاجة إلى حكمتك لنقلها إلى إبن أختي هذا والأجيال القادمة من أبناء وبنات الفور. لذا أريدك أن تظلي على قيد الحياة وتنجي بنفسك».

هزت ماما مني كتفيها غير مبالية وقالت: «ربما سأموت قبل الموعد قليلا ولكني تمتعت بحياتي، يا عزيزتي، ربما يتعين عليك أنت أن تحافظي على نسلنا».

قالت حواء: «إبن أختي هو آخر ذكر في سلالتنا ولا بد لي من أن أوصله إلى برّ الأمان».

قالت ماما مني: «ولماذا استثنيت نفسك، ألست من نفس السلالة؟ كنت أعنيك أنت».

حركت حواء رأسها علامة النفي وقالت وهي تشيح بوجهها: «لم أعد كذلك بعد الذي فعلوه بي».

قالت العجوز وهي تحرك يدها كما لو كانت تدفع عنها ذبابة لحوحة: «ارحمي نفسك، نحن في حرب!»، وأي رجل شهم، سيتفهم وضعك. سيعرف أنك ضحيت بنفسك من أجل الرضيع ومن أجل قبيلتنا. دعك يا عزيزتي من قصص الشرف الرفيع، فلديك من الهموم ما يغني عنها.

عقدت حواء ما بين حاجبيها تعجبًا.

ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه ماما مني وخاطبت حواء قائلة: «لقد صدمك كلامي، أليس كذلك؟. لقد بلغت من العمر عتيا كي أكف عن تصنيف المليح والقبيح وإطلاق الأحكام الأخلاقية. فدماء الحياة تجري في شرايين المرأة، وهي التي تضحي وتشقى إلى آخر نبض. والمرأة الدارفورية شقت هذه الأرض طوال مليون سنة بدمائها وعروقها. لذا فهي تتساوى مع الرجل الدارفوري في أحقيتها بملكية هذه الأرض».

لم تكن حواء قد سمعت قط من امرأة مثل هذا الرأي الجريء غير المألوف، فتساءلت قائلة: «ولكن جرى العرف بأن يكون الرجل هو الذي يملك المال والجاه».

أجابتها ماما مني قائلة: «لا مال ولا جاه بعد اليوم إذا استمر الوضع على حاله ولم يأت الفرنجة لرفع الضيم عنا».

سألتها حواء مستنكرة: «الفرنجة؟».

قالت ماما مني وهي تبتسم: « ها أنّ كلامي يصدمك مرة أخرى، ولكن هل يعنيك ما لون بشرة اليد التي تمتد إليك لانتشالك من الغرق؟».

هزت حواء كتفيها وتذكرت أنها لم تسمع أمها بتاتًا تبدي رأيًا في أي موضوع آخر غير العمل المنزلي، لانتقاد أحدهم لقلة ورعه وتقواه. وشعرت حواء بالذعر لسماع امرأة تتحدث بكل هذه الثقة في النفس، فقالت لها باستحياء: «أنت امرأة واسعة الاطلاع».

قالت ماما مني: «كل ما أفعله هو الاستماع كثيرا إلى المذياع يا عزيزتي. وأعرف أننا بحاجة إلى الفرنجة العاملين في الأمم المتحدة. فهم إذا ما قدموا إلينا، لن يعجبهم طقسنا الحار والمزعج. ولن يطيب لهم المقام. وبالتالي فإنهم سيحرصون على إنجاز مهمتهم بأسرع وقت كما يقتضي الواجب والعودة إلى ديارهم وجليدهم حيث يجدون سعادتهم».

واصلت العجوز ماما مني حديثها الذي لم تكن حواء تصدق سماعه، فقالت: «يا لهؤلاء الشباب! إنهم أغنياء عن أموالنا، لا يقبلون رشاوانا ولن يغضّوا البصر عن مجازر تُرتكب بحق المدنيين ولن يتستّروا على اغتصاب النساء والفتيات. وبمجرد قدومهم، سترين عساكر النظام يتبوّلون في سراويلهم ويولون الأدبار عائدين إلى الخرطوم وسينكشف لك مدى جبنهم في الحقيقة».

انجذبت حواء لخطاب المرأة الرافض لروح الخنوع والاستكانة، فلم تنتبه إلى نفسها إلا وهي تضحك ملء شدقيها. ضحكت العجوز أيضا

ولوّحت بقبضتها مزهوة كما لو أنها كانت تحيّي جماهير تصفق لها تهليلا وترحيبا بها على إنجاز رياضي عظيم. وضحكت ماما مني وضحكت معها حواء حتى دمعت عيناهما.

استأنفت حواء رحلتها والصغير مشدود إلى ظهرها من جديد وخلت إلى نفسها، فانتبهت فورا إلى أنها لا تذكر متى كانت آخر مرة ضحكت فيها. فقد كانت أمها الكئيبة خلافا للأخريات تنهرها عن الضحك وترى فيه ضربًا من قلة الحياء. وكثيرا ما كانت تردد على مسامعها ومسامع أخواتها هذه النصيحة: «إذا أراد زوجك أن يتلطف معك واختار أن يروي لك طرفة، تبسّمي في وجهه، ولكن إياك من القهقهة وإلا فسيعتبرك امرأة داعرة».

سارت تجرُّ خطواتها جرًّا باتجاه الجنينة، وذكرى أختيها اللتين قتلتا لا تفارق خيالها. وجدت نفسها تردد قائلة في سرها: «لم يبق أحد غيري من أسرتي الواسعة والرضيع هو الذكر الوحيد المتبقي من الأبناء والأحفاد. وبصرف النظر عن رأي ماما مني، لا معنى لوجودي لولا وجوده لأن مهمتي في هذه الحياة تتمثل الآن في أن أحمله كما يحمل الحمار حمله راضيا قانعا بما كتب له».

نظرت إلى الحقول الواسعة والممتدة على مرمى البصر وفكرت في كلام ماما مني الذي زعزع قناعاتها، والذي حدثتها فيه عن دماء النسوة التي سقت أرض دارفور. شعرت بالاستياء من الأفكار النمطية التي نشأت عليها وطبعت حياتها وشعرت أنها تستمد من كلام العجوز شحنة معنوية جديدة، وصممت على أن تتحدى القوالب النمطية وأن

تستقل هي أيضا بأفكارها وتحذو حذو ماما مني. حدثت نفسها: «لست بقوّتها ولكني أريد أن أصبح مثلها». وواصلت سيرها نحو مدينة الجنينة.

***

كانت كارن فريمان تؤمن إيمان العجائز بأنّ الله قريب يستجيب لدعوة الداعي إذا ما دعاه. لذا، ما إن قربت من مركز الحدود بين السودان وتشاد حتى انطلقت تتمتم بكل ما حفظته من أدعية راجية المولى عز وجل أن يشدّ أزرها في اللحظات القادمة.

بعد نصف ساعة تقريبا، وطأت أرض تشاد وحمدت الله على السلامة وعلى دخولها إلى أرض تشاد وبحوزتها الرسوم والتدوينات التي أخفتها في جيب سري في باطن حقيبتها.

كانت رحلة عودتها إلى بلدها تمر عن طريق البر إلى تشاد، ثم بالطائرة من نجامينا إلى باريس. وقد قررت أن تمضي بضعة أيام في لندن قبل أن تواصل رحلتها إلى نيويورك. وما إن وصلت إلى مطار هيثرو حتى هاتفت جوليان لوسك وهي امرأة محترمة جدا خبيرة في الشؤون السودانية تصدر لها مقالات في النشرية البريطانية الموثوقة أفريكا كونفيدانشيل.

خاطبتها قائلة: «أنت لا تعرفينني، ولكنني عدت للتو من مخيمات دارفور ولديّ شيء ربما يهمّك أن تلقي نظرة عليه».

جلست جوليان في المقهى الذي تواعدت على اللقاء فيه مع كارن. اتسعت حدقتا عيني هذه المرأة القصيرة القامة المتوسطة العمر وذات

الشعر الذي اختلط فيه البياض بالسواد وهي تنظر إلى رسوم الأطفال التي وضعتها في حجرها وأخذت تتأملها الواحدة تلو الأخرى منتبهة إلى ما فيها من تفاصيل مذهلة خلافا لما تنمّ عليه صور المنازل والحيوانات من سذاجة وعدم اتقان لفن الرسم. رفعت جوليان هاتفها وطلبت رقم مدير الفريق المعني بحقوق الإنسان.

سمعتها كارن تقول: «ساندرين، معي ما أعتقد أنك تريدين الاطلاع عليه».

***

لم تكن كارن لتصدق كيف أنه لم تمض إلا شهور قليلة حتى كانت رسوم الأطفال قد نشرت في الصحف العالمية من ليتوانيا إلى جنوب أفريقيا. وعرضت الرسوم أيضا على تلامذة في إيطاليا وفي فصول يوم الأحد في كاليفورنيا وردّ عليها هؤلاء التلامذة برسوم أرسلوها إلى أطفال دارفور. وفي المكسيك، قام نشطاء حقوق الإنسان بخياطة لافتة عملاقة تحمل رسائل التأييد والتضامن التي تهاطلت عليهم. وقررت كارن أن تعود إلى دارفور ما إن تجمَع المال وتأخذ اللافتة معها ليرى أطفال دارفور أن الناس في جميع أنحاء العالم يقولون لهم بأصوات عالية وواضحة إنهم يريدون منهم أن يعرفوا أنهم يفكرون فيهم وأنهم تلقوا رسائلهم التي أرادوا تبليغها في رسومهم.

أحاطت محكمة العدل الدولية في لاهاي أيضا علما بهذه الرسوم التي نشرتها الصحافة. وأفتت في الإبان بمقبوليتها كدليل إثبات على وقوع جريمة إبادة جماعية في سياق الأحداث التي حصلت في دارفور. وأكد

رئيس فريق التحقيق لكارن أن الرسوم سوف تعرض ضمن الدفوع السمعية والبصرية خلال المرافعات التي ستقدم في محاكمة الماريشال عمر البشير، رئيس السودان.

لقد كان القاصي والداني يعلم أن البشير ليس سوى الرأس الظاهر من نظام الحكم وإن حزبه الأوحد هو الذي عيَّنه في منصبه وزرع أنصاره في مواقع الحكم في كل قرية في البلاد، حزب يتحكم في جميع جوانب الحياة المحلية والوطنية، يصادر وسائط الإعلام ويعقد الصفقات التجارية، ويحتكر لنفسه عائدات النفط ويعتقل ويكمّم أفواه المعارضين، ولكن البشير هو الذي ستوجه إليه تهم ارتكاب جرائم حرب وإبادة جماعية وجرائم بحق الإنسانية لأنه هو الوجه الظاهر الذي اختاره حزبه ليمثله أمام العالم.

غير أنه رغم ظهور رسوم الأطفال حتى على شاشات التلفزيون في أماكن بعيدة كالجمهورية التشيكية وهونغ كونغ، فقد ظل البشير في منصبه بينما ظل أطفال كارن الذين صوروا تلك الرسوم يعيشون يوميا في خوف من أن يهاجمهم ويقتلهم نفس الجناة الذين قتلوا آباءهم وإخوتهم وأعمامهم وأخوالهم وأبناء أعمامهم وأبناء أخوالهم.

حدثت كارن نفسها قائلة: «يجب أن أعود إلى دارفور لأطلعهم على ما حققته رسومهم. يجب أن يعرفوا أنهم قد ساهموا في توجيه اهتمام العالم نحو هذا الذي يجري في بلادهم. وهذا ما قد يمكّنهم من أرضهم ويخفّف عنهم عناء انتظار إنصافهم من القوم الظالمين.

كانت كارن قد انخرطت في الأثناء في حركة مواطنون من أجل إنقاذ دارفور/ مجموعة نيويورك. وقد أسست مجموعة نيويورك هذه وترأستها طبيبة في المدينة هي راكيل بينت التي صادف أنْ عمل والدُها في وقت من الأوقات معلمًا في مدرسة صغيرة في الجنينة.

انتقل إلى راكيل من أبيها حبه لأهالي دارفور واحترامه لهم رغم أنها لم تحتك بهم قط. فقد كانت تشعر بأنه ثمة رابطة تشدها إليهم. أخبرت راكيل كارن أن رسائلها الأخيرة إلى صديقها محمد لم تعد تصلها منه عليها ردود، ولكنها ظلت تراسله بانتظام، فمن يدري لعله بخير هو وأسرته ولا تزال رسائلها تصله. وكانت كلما قرأت خبرا عن الهجمات على القرى القريبة من الجنينة، سرت في أوصالها قشعريرة ينقبض لها قلبها.

كانت راكيل لا تنفك تردد على مسامع أفراد أسرتها كلما لاموها على انشغالها عنهم بحضور اجتماع لحركة «انقذوا دارفور» أو بالمشاركة في حشد أو مسيرة تأييد، أو كلما قضت الليل في تحرير رسائل إلى ممثليها المنتخبين أو إلى الصحف المحلية، تقول: «إني مدينة لهؤلاء الناس، يكفي أنهم جعلوا من أبي الإنسان الرائع الذي عرفت».

الفصل الثاني عشر

المكان: ولاية غرب دارفور
الزمان: كانون الأول/ ديسمبر

مرّ يومان على اختباء زهرة في الوادي هربا من نيران رشاشات الطوافة. وها هي تسير الآن باتجاه الغرب على أمل الاهتداء سريعا إلى مسار الطريق المؤدي إلى منطقة الحدود مع تشاد.
لم تتوقف لحظة أثناء سيرها عن الابتهال إلى الله أن يلطف بها وبأفراد أسرتها أينما كانوا. مرّ عليها يومان لم تذق فيهما طعاما، وقد مضت عدة ساعات على آخر جرعة ماء تناولتها. لم يعد لها من همّ غير بطنها الجائع وحلقها الظامئ الجاف ووحدتها الموحشة وخوفها الشديد.

سارت تجرُّ رجليها جرًّا، وشعرت بلسعات حارقة تتسلل إلى باطن قدميها. فقد اهترأ نعلها وتآكل ولم يعد يقيها من حرارة الأرض التي صهدتها أشعة الشمس. وبدأت قوة رجليها تخور وأخذ رأسها يدور. وفي خضم الأفكار المشوشة التي ازدحمت في رأسها، تذكرت فجأة راكيل ابنة صديق جدها، فشعرت بأنها لم تعد وحيدة في هذه الدنيا، وأنه بإمكانها إذا وصلت إلى تشاد بسلام، أن تقصد راكيل وتهاجر إلى الولايات المتحدة كما فعل الكثيرون من السودانيين على مرّ السنين، وهناك تواصل دراستها وتفتح لنفسها آفاقًا جديدة. راقت لها الفكرة وأخذ هذا الحلم المستبعد تحقيقه يكبر ويتّسع في خيالها لكنها كانت

تستيقظ بين الحين والآخر من حلمها اللذيذ، وتتذكر أنها لا تزال بعيدة عن برّ الأمان وأنّ طوافات النظام السوداني قد تباغتها في أية لحظة.

لمحت فجأة بطرف عينها شبحا يظهر لها، فانخلع صدرها، وقبل أن تسترد جفنها، استحال الشبح إلى امرأة تقترب منها.

تفرست فيها زهرة، فقدَّرت أنها تكبرها بعام أو عامين وسمعتها تطرح عليها السلام بتأدب كما لوأنها تتعرف عليها وهما في حفلة في مكان لطيف لا وجه للمقارنة بينه وبين هذا الخلاء المقفر. لاحظت زهرة شفتيها المكتنزتين وعلامات النباهة البادية في عينيها. كانت أقصر منها قامة. وبدا لزهرة أن ثيابها كانت من قماش رفيع غير متداول في المناطق الريفية والأغلب على الظن أنه من الخرطوم. ثنايا تلك الثياب كانت تصف تضاريس جسمها الفاتنة.

سألتها الفتاة بلهجة الفور قائلة: «هل أنت ذاهبة إلى تشاد؟».

فوجئت زهرة بتأدب الفتاة في حديثها رغم الظروف المحفّة بلقائهما في الخلاء، فسايرتها في تأدبها وأجابتها قائلة: «نعم، بإذن الله».

قالت الفتاة: «هل تسمحين لي بمرافقتك؟».

ابتسمت زهرة وقدمت لها نفسها.

أجابتها الفتاة وهي تناولها قارورة ماء بلاستيكية: «وأنا اسمي صفية، هل لك في جرعة؟».

انهمرت الدموع مدرارة من عيني زهرة وحمدت الله على استجابته لدعائها بإرسال من يؤنس وحدتها. ألحت عليها صفية أن تشرب.

أخذت زهرة جرعة طويلة. ثم اعتذرت لها عن انهمار دموعها معللة ذلك بقساوة الوحدة.

قابلتها صفية بابتسامة مشرقة وخاطبتها قائلة وهي تلف رأسها بوشاحها البالي الملون بالأزرق والأحمر: «ها أن الله قد فكَّ وحدتك، هلمّي بنا إلى تشاد!».

أومأت زهرة برأسها وهي لا تدري ما عساها تقول في هذه المرأة الشابة الواثقة من نفسها، وسارت معها جنبا إلى جنب، وهي تشعر بالارتياح لأنها لم تعد وحيدة. وانطلقتا تسيران مستمتعتين بتجاذب أطراف الحديث. وبعد أن تحدثت زهرة إلى هذه الفتاة طوال ساعتين، تأكدت من حسن تربية صديقتها الجديدة ومن تحضّرها، وأيقنت أنها درست في إحدى المدارس الداخلية في الخرطوم وأنها سليلة أسرة مهمة وإن كانت لم تأت على ذكر قريب غائب ولم تشر إلى السبب الذي جاء بها إلى هنا ولا إلى ما تركت وراءها أو ما تتطلع إليه أو تخشاه في المستقبل.

ثم، ودون مقدمات، مدت صفية يدها وشبكت أصابعها بأصابع زهرة وظلت على تلك الحال إلى حين، ثم شدت على يدها بحنان واستردت يدها سريعا وهي تقول: «أنا سعيدة بالتعرف عليك وبفكّ طوق الوحدة عني، لن نفترق مطلقا، أليس كذلك؟».

أجابتها زهرة في الحال قائلة: «طبعا، وهو كذلك» وقد فهمت أنّ صديقتها لا تقلّ عنها رعبًا وخوفًا.

وخلال الأيام الخمسة التالية، لم ينقطع حبل الكلام بين الفتاتين. فقد تحدثتا عن تاريخ أفريقيا الذي شغف به جد زهرة ووالدها، وعن الاحترار العالمي وكيف أنه على نحو ما تردد في الإذاعات يساهم في تمدّد الصحراء نحو الجنوب لتبتلع، ما كان ذات يوم، أرضًا صالحة للزراعة، وكيف أنّه يساهم في أماكن أخرى من أفريقيا في حدوث الفيضانات التي أصبحت تشهدها القارة، بل إنّهما تبادلتا المعلومات عن أفضل وصفة لطبخ لحم خروف عسير الهضم.

ولتبرير مجيئهما إلى الحدود مع تشاد، أخذتا في نسج رواية وهمية تركتا فيها العنان لخيالهما الخصب ليضيف إليها تفاصيل دقيقة وتشعبات وتفرعات اجتهدتا في إلباسها ثوبًا من الواقعية والمصداقية. وكانت البداية الأثيرة لدى صفية تنطلق من وصفها لنفسها بأنها فتاة تعيسة الحظ حيث إن والدها تزوّج من امرأة مجنونة وشريرة تسيء معاملتها. وظلتا تضيفان وتحذفان مقطعا أو آخر إلى أن استقرّ رأيهما على الصيغة النهائية للرواية. وكانتا تتوجّسان من أن يطالبهما حرس الحدود بوثائقهما الثبوتية التي ضاعت منهما أثناء فرارهما من الجنجويد، وكانتا غير مطمئنتين إلى إمكانية إقناعهم بروايتهما والسماح لهما بالخروج من السودان، فحرس الحدود هم في نهاية الأمر موظفون لدى الحكومة السودانية التي تطارد أبناء جلدتهم وتنكّل بهم.

مرّتا في رحلتهما بالعديد من القرى ودخلتا إليها طلبًا للماء وجالتا فيها وشهدتا ما تعرّض له أهلها من أعمال سلب ونهب على أيدي

الجنجويد، وكانت رائحة تحلل الجثث تزكم الأنوف وتثني حتى الطيور من الاقتراب منها. وكأنّ الفتاتين أبرمتا بينهما اتفاقًا ضمنيا يقضي بألا تتحدث الواحدة منهما عن رائحة الجثث ولا عما حدث في كل قرية اقتناعًا منهما بأنه لا فائدة ترجى من الخوض في هذا الموضوع وأنّ حديثهما فيه لن يغيّر شيئًا من الواقع المرير.

لم تتوقف الفتاتان عن تبادل الدعابات حتى وهما تبحثان بين الخرائب عن بقايا زاد تتزودان به لمواصلة رحلتهما، متناسيتين الواقع التعيس الذي كان يقفز من حين لآخر إلى ذهن زهرة ليذكّرها بمن أطردوهم من ديارهم وهجّروهم من أراضيهم. وكانت، مع ذلك، سعيدة بهذه الرفقة التي ألهتها قليلا عن هواجس تفكيرها المستمر في مصير أفراد أسرتها.

واستقرّ رأيهما أثناء ذلك على الصيغة المنقحة للرواية النهائية التي سيقدمانها إلى السلطات لإقناعهم بعدم التفريق بينهما. فقد اختلقتا صلة قرابة متينة لا تجيز فصلهما عن بعضهما. وأعدّتا رواية كاملة التفاصيل لإثبات هذه الصلة إذا شك أحدهم في أمرها وتساءل بشأنها. ومعروف في دارفور أنه حتى الناس الذين لا يعرفون مبادئ القراءة والكتابة يمكنهم أن يستعرضوا أسماء شجرة عائلتهم المتفرعة في عدة اتجاهات من ألفها إلى يائها بما يعود بها إلى عشرات الأجيال المتعاقبة.

غير أنهما حين وصلتا إلى الحدود، لم تكونا بحاجة إلى استعراض شجرة عائلتهما. فقد استقبلهما موظفون من الأمم المتحدة يديرون

المخيم، ولم تجدا حرس الحدود السودانيين في انتظارهما. وبدا لهما أن نصف سكان دارفور قد سبقوهما إلى هناك.

ذابتا في أكبر حشد رأته زهرة في حياتها، وكان الجميع لا يقلون عنهما إنهاكا وتعبا. وكان الغبار يكسو وجوههم وملابسهم. وكان من بينهم من تمكّن من الوصول إلى الحدود محتفظا ببعضٍ من متاعه، ولكن معظمهم وصلوا إلى هناك مجرّدين من كل ما كانوا يملكون باستثناء الملابس التي يرتدونها. وقد وقف الجميع في الطابور الطويل، كلّ في انتظار دوره.

وقفت زهرة وصفية تنتظران دوريهما وراء رجل كان يشهق حزنا على حماره ويقول بين شهقة وأخرى إن حماره قطع به البراري طوال أسبوعين حتى أوصله إلى الحدود دونما ملل أو تذمر أو عناد، ثم انهار جثة هامدة بعد أن اطمئن إلى أنه أدى المهمة على أحسن ما يرام وأوصله إلى بر الأمان.

وكانت تقف أمامهما أسرة فقد أفرادها القدرة على النطق. كانت عيونهم جاحظة ومحمرة، وكانت يدا الأب ترتعشان، وعندما جاء دورهم للإدلاء لمسؤول الأمم المتحدة ببياناتهم الشخصية، لم يستطع أي منهم أن يفصح عما يريد قوله. فقد كان صوت الأم ينحبس كلما همت بالكلام كما لو أن حلقها قد اختنق بلقمة غصت بها.

وعندما جاء الدور على زهرة، أدلت باسمها الثلاثي وتاريخ ميلادها واسم قريتها وأقرب مدينة إليها. وتعجب الموظف كيف لفتاة في سنها أن تستطيع تلاوة كل هذه البيانات والتفاصيل. ولكن كيف له أن يعرف

كم كان المرحوم جدها الشيخ محمد حريصا على تعليمها وتربيتها بنفسه؟

قال وهو ينكس رأسه متأسفا: «غيرك فقد الذاكرة تماما، ويؤسفني أن أبلغك أن القرية التي جئت منها قد هوجمت في مطلع الأسبوع، لقد بثوا الخبر في الإذاعة».

نظرت إليه زهرة متمنية أن تكون قد أخطأت التقاط مخارج حروفه قبل أن تنطق أخيرا وتسأله ما إذا وصل إلى الملجأ أي من الناجين من أبناء قريتها وما إذا كانت أمها سماح وأخوها عبد اللطيف من بين المسجلين لديه.

أجابها بأنه لا يوجد في سجلاته أحد من قريتها أو ممن يحمل أيًّا من الاسمين اللذين ذكرتهما، قبل أن يضيف مبتسما بلهجة غير واثقة: «لعلهم سجلوا لدى زميلي».

أعطى لزهرة رقم التسجيل وقسائم الطعام وخصص لها خيمة في مخيم فرشانا تتقاسمها مع صفية إبنة خالها.

أخذتا تتحسسان طريقهما في ذلك الحشد الكبير من الأفراد المتدافعين في جميع الاتجاهات بأعين مذعورة ووجوه فزعة كما لوأنهم استفاقوا لتوّهم من كابوس رهيب. طوابير طويلة في كل مكان. انتظرتا ساعة ونصف الساعة للتزوّد بالماء وملء الوعاء الذي أحضرتاه، وعثرتا في الأخير على الطريق نحو خيمتهما.

ما إن دخلتا إلى الخيمة حتى استلقتا على أرضيتها على جانبي وتدها. صاحت صفية قائلة: «سنكون سعيدتين جدا بوجودنا هنا، ما

هذا الترف؟»، أجابتها زهرة وهي تحاول التغلّب على انشغالها بما حدث لقريتها: «هذا قصر منيف».

قالت صفية وهي تتثاءب: «الحمد لله والشكر للأمم المتحدة». ثم ارتخى جفناها وزحفت إلى الحصير كما لو كانت عجوزًا طاعنة في السن وقالت: «أرجو المعذرة، النعاس يغلبني».

أجابتها زهرة قائلة: «حاولي أن تنامي، فأنت بحاجة إلى قسط من الراحة».

همست صفية قائلة: « لا تنسي نفسك، أرجوك تمددي على الحصير».

قالت زهرة: «فكرة طيبة» ولم تكن متأكدة من أنها ستجد إلى النوم سبيلا في الوقت الذي انصب فيه كل تفكيرها على الخبر الذي سمعته عن قريتها. تقلبت في حصيرها وشعرت بأن صدرها قد ضاق من الهم والغم. حمدت الله الذي جاء لها في الوقت المناسب بصفية صديقة وفية وأختا لم تلدها أمها. وقبل أن تسأل الله أن يصون أفراد أسرتها أينما كانوا، غرقت فجأة في نوم عميق خال من الأحلام وأضغاث الأحلام.

استفاقت زهرة في اليوم التالي، وأدركت أنها نامت نومًا عميقا للمرة الأولى منذ إلقاء تلك الشعلة اللعينة على سقف عُشّتها. وخُيل إليها أنها عاشت ذلك الكابوس منذ أعوام بالرغم من أن الحادثة لم يمرّ عليها أكثر من أسبوعين.

ولما استفاقت صفية، ذهبت زهرة لإيراد الماء، في حين ذهبت صفية للتزود ببعض الأغذية. ولدى عودة زهرة إلى الخيمة وجدت مسؤولا من الأمم المتحدة يذرع المكان جيئة وذهابا أمام مدخل الخيمة، وكان أول ما خطر ببالها أنهم كشفوا كذبتها بشأن قرابتها لِصفية وأنهم سيفرقون بينهما. بادرها الموظف الأممي بالقول: «أرجوك تعالي معي بسرعة!».

هرولت وراءه خائفة مما تخفيه هذه الدعوة، إلا أنها ما أن دخلت وراءه إلى خيمة الأمم المتحدة حتى توقف قلبها عن النبض وحمدت الله لما رأت أخاها عبد اللطيف واقفا في جانب من الخيمة وهو يرتدي سروالا إفرنجيا وقميصا طويل الأكمام، وكان مستغرقا في حديث على هاتف نقال مع أحدهم. وما أن لمحها حتى اندفع نحوها وحملها من الأرض وضمها بين ذراعيه دون أن يزيح الهاتف عن أذنه، ففهمت زهرة أن عليها أن تتركه يكمل محادثته الهامة وألا تقاطعه.

سمعته يقول بالعربية وهو يضعها على الأرض: «نعم، المملكة المتحدة هي الخيار الأمثل، فهي البلد الذي يعيش فيه إبن عمنا حسن، في دونكاستر، شكرا، شكرا!».

أعاد الهاتف إلى مسؤول أممي تعرق جلده الأبيض ورأسه الأصلع فاستأنف المحادثة الهاتفية بلغة لم تكن عربية ولا بلهجة قبلية محلية وإنما بلغة عرفت زهرة أنها انكليزية لكنها لم تفهمها لأن الرجل كان يتكلمها بسرعة لا قبل لها بمتابعتها.

سأل عبد اللطيف أخته زهرة: «أين كنت؟ لقد بحثنا عنك في كل مكان، فلم نجدك».

شعرت زهرة فجأة بأنها استعادت حيويتها وأجابته قائلة: « أين اختفيتما وأين أمي؟».

قال: «في خيمتنا، وأنت أين اختفيت؟ لقد أعيانا البحث عنك قبل أن نسلم بأنّك ربما ذهبت مع الآخرين».

سألته قائلة: «عن أي آخرين تتحدث؟».

قال: «أهالي القرية التي ضيَّفتنا، أولئك الذين كنا نسير معهم». غير أنه تنحنح وكف عن الكلام عندما رأى أخته تشيح عنه بوجهها وعلامات الحزن تعكر ملامحها، قبل أن يضيف قائلا: «يسوؤني أن أفهم منك أنهم لم ينجوا». ثم سألته ما إذا كانت مكة من بين الناجين. تجنّب أخوها أن ينظر إليها مباشرة في عينيها وأجابها بالنفي.

سألته عما حل بقريتهما وبوالدهما، فأجابها وهو يواصل تجنّب النظر في عينيها: « سمعنا من أحدهم مرّ بالقرية في اليوم التالي من الهجوم». سكت ولم يواصل حديثه. أخذ نفسًا عميقًا. ثم حرّك رأسه ذات اليمين وذات الشمال وخفض ناظريه ثم أخفى وجهه بين راحتيه.

وكان ذلك كافيا لزهرة كي تتأكد من وقوع ما كانت تخشاه ومن أنه لم ينج معها من أفراد أسرتها سوى أمها وأخيها. كانت تتنازعها الظنون ولكن، ها هي تقطع الشك باليقين وتعرف أن عليها أن تجابه الحقيقة المرة. وأحست كما لو أن أطنانا من الصخر أطبقت على

صدرها. وأنها لم تعد قادرة على التماسك فاستندت إلى أخيها وتعلقت به.
ربت عبد اللطيف على يدها وضغط على راحتها مواسيًا. تمتمت أدعية ترحمًا على كل أفراد أسرتها الذين رحلوا ولن تراهم ثانية. وظلا على تلك الحال كل يصلي ويطلب الرحمة لذويهما في صمت.
بعد برهة، قال عبد اللطيف وهو يحاول جاهدا أن يتحدث بصوت مرح قدر الإمكان: «يبدو أن وجود ابن عم لنا يقيم في بريطانيا سيرجح كثيرا احتمال ذهابنا إلى المملكة المتحدة».
رآها تضيّق عينيها بحثا عن ابن عم لها بهذا الاسم في ذاكرتها وهي تقول: «من حسن ابن عمنا هذا؟»، ثم سألته وهي تنظر بقلق إلى الرجل الإفرنجي الذي أنهى الآن مكالمته الهاتفية: «هل أنا أعرف هذا الحسن؟».
فسر لها عبد اللطيف بسرعة قائلا: «لقد غادر إلى هناك منذ زمن طويل، ولكن الترتيبات تقضي بأن احتمالات المكوث في المملكة المتحدة حتى تنجلي الحرب تقوى في حالة ما إذا كان لديك قريب مقيم هناك».
سألته: «هل قابلت هذا الحسن من قبل؟».
نظر إليها نظرة ذات مغزى وأضاف قائلا: «أنا لم أره إطلاقا، ولكن، إياك أن تقولي ذلك! اسمعي لقد مكثنا أنا وأمك في هذا المخيم ما يكفي من الوقت لندرك بأن المقام لا يطيب هنا. فالجنجويد بإمكانهم عبور الحدود والإغارة علينا في هذا المكان ولا يوجد من يؤمّن

حمايتنا». وتوقف فجأة عن الكلام، ورأت زهرة مسحة من الحزن في عينيه. ثم واصل قائلا: «ومن يدري إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ فالحكومة التشادية لا تريد أن يستمر وجود هذا الحشد على أراضيها، ثم إن سكان المنطقة بدأوا يتذمرون من وجودنا واقتسامنا معهم مواردهم الشحيحة. فليسوا أقل بؤسا وجوعا من اللاجئين، ويطالبون الأمم المتحدة بألا تفضلنا عليهم».

وفي هذه اللحظة نادى الرجل الفرنجي عبد اللطيف وانضم إليهما رجل ثالث تشادي ترجم لعبد اللطيف كلام الفرنجي إلى العربية. ورأت أخاها يدوّن عدة ملاحظات في دفتر، ثم يهز رأسه عدّة مرات متتالية علامة الامتنان، ويشكر الرجل الفرنجي عدّة مرات. وبعد أن صافح أياد عديدة حوله، أحاط ذراعه حول عنق زهرة وهمّ بالتوجه نحو مخرج الخيمة وهو يخاطبها بحبور كما لوكان طفلا صغيرا: «سنذهب إلى إنكلترا»، ثم يضيف والبسمة تعلو محياه: «حسنا فعل جدّنا بأن علّمك اللغة الإنكليزية». أجابته زهرة قائلة: «لا تتفاءل كثيرا، لم يعلمني إلا النزر القليل!». لم تكن زهرة مطمئنة إلى ذكره هذا الحسن الذي لا تعرف من عساه يكون كما لا تعرف إنكلترا، كانت فقط تريد الذهاب إلى نيوجرسي.

توقف عبد اللطيف واستدار وهو يجرها وراءه إلى داخل الخيمة من جديد وخاطبها متعجلا قائلا: «تعالي معي!». ثم اتجه نحو المترجم وأخذ يعتذر له عن شيء ما ويحدثه بهدوء. ضحك الرجل ورفع سبابته وكأنه يقول له: «صبرا جميلا يا أخونا». ثم توجه المترجم إلى

ركن من الخيمة وراح يبحث في كوم من صناديق مليئة ببطاقات وكتيبات ومنشورات أخرى.

سألت زهرة أخاها في الأثناء: «لماذا لا نذهب إلى نيوجرسي؟».

تساءل عبد اللطيف باستغراب: «نيوجرسي؟».

قالت: «إلى حيث تعيش راكيل، ابنة مارتن».

هزّ عبد اللطيف كتفيه، فهو لم يكن أبدا مغرما ببطاقات جده، وأجابها قائلا: «قلت لك إن لدينا إبن عم في المملكة المتحدة، ثم إن إنكلترا أقرب لنا عند العودة بعد أن تنتهي الحرب».

غير أنها ألحت عليه قائلة: «ولكن، لنا أصدقاء في نيوجرسي».

أجابها قائلا: «سننظر في هذا الأمر بعد أن نصل جميعنا إلى إنكلترا بأمان».

فجأة، تذكرت زهرة صديقتها صفية وشعرت بأنها غدرت بها وتخلت عنها، فرفعت صوتها قائلة: «ولكن، لدينا هنا إبنة خالنا صفية ويجب أن تأتي معنا».

أجابها عبد اللطيف: «ماذا تقولين، من هي هذه الصفية؟».

أحست زهرة بعيون موظفي الأمم المتحدة مصوبة نحوها، فقالت: «ألا تذكر صفية، البنت الخامسة لخالنا داوود؟»، لن أذهب إلى إنكلترا من دونها. كيف نذهب إلى هناك ونتركها هنا؟»، ثم أضافت قائلة وقد طفرت الدموع من عينيها وسالت من مآقيها: «إنها الوحيدة التي نجت من بين جميع أفراد أسرتها ونحن كل ما تبقى لديها في هذا العالم».

ذُعرعبد اللطيف، فتطلع في وجه أخته ثم رأت زهرة في عينيه بريقا وسمعته يقول وكأنه تذكر شيئا: «آه لقد تصورت أنك كنت تتحدثين عن صفية إبنة سليمان، تلك الفتاة الشبيهة بالناقة. هذا خبر سار يضاف إلى الأخبار السارة الأخرى التي حفل بها يومنا، والحمد لله على نجاتها».

عندما رجع المترجم يحمل عدة كتب لتعلّم الإنكليزية، رفع عبد اللطيف بصره نحوه وتنحنح، ثم خاطبه قائلا: «لقد علمت للتو من أختي أنّ ابنة خال لنا قد نجت هي أيضا وليس لها غيرنا في هذه الدنيا، فهل يمكنها المجيء معنا، رجاء؟».

قطّب الرجل الفرنجي حاجبيه عند سماع المترجم ينقل له الحكاية إلى لغته. ثم تزحزح قليلا وأخرج من جيبه منديلا مسح به جبينه. تنهّد وأخذ رشفة ماء من القارورة التي على مكتبه. ثم تمتم بكلام وصوّب نظره من جديد نحوالأوراق التي أمامه.

نقل المترجم عن الرجل الفرنجي قوله: «إنه تعب ولا يريد المجادلة، هاتوا له بياناتها بعد الظهر!»، ثم أضاف قائلا: «وقد طلبتما هذه الكتب مني وها أنا ذا قد جئتكما بها»، ثم ناول زهرة الكتب وخاطبها قائلا: «أخوك يقول إنّك أنجب منه، لذا عجّلي بتعلّم الإنكليزية كي تتمكّني من إلقاء التحية على ملكة إنكلترا بلغة سليمة عندما تلتقين بها!».

الفصل الثالث عشر

المكان: مخيم الجنينة، ولاية غرب دارفور
الزمان: كانون الثاني/ يناير: 2005

أحست حواء بساعدين يرفعانها من على الأرض. فتحت عينيها فطالعها لون أحمر متوهج. وجدت نفسها محمولة بين ساعدين قويين صاحبهما لم يجد عناء في حملها والسير بها بخطوات واثقة وهو مطمئن إلى أن هذه المخلوقة لن تسقط من بين ذراعيه، وقد ذاب وزنها وغدت أخفّ حملا من كيس من القش. أغمضت عينيها، ومن شدة إرهاقها واختلاط الأمورعليها، أسلمت نفسها غير آبهة بما عساه يحدث لها. فتحت عينيها من جديد، فأدركت أن ذلك الأحمر المتوهج لم يكن إلا قميص الرجل الذي يحملها. وكان أول شيء تتبينه في هذا القميص رسما لصليب يسهل التعرف عليه في تلك الربوع الأفريقية التي حملته إليها شهرة نادي مانشستر يونايتد الإنكليزي لكرة القدم الذي تحمل قمصان لاعبيه شعار شركة شوفريليه الأمريكية لصنع السيارات باعتبارها هي الراعي الرسمي لهذا النادي.

قالت: «أهذا أنت يا أحمد؟».

أجابها الفتى قائلا: «مرحبا حواء، عسى أن تكوني بخير».

فردت قائلة: «هل أنا في الدار الثانية؟».

قال بصوت هادئ: «ليس بعد».

قالت: «إذن، فأنت تحملني إلى الجنة؟».
قال: «بل مرحبا بك إلى الجنينة».
تأوهت وتركت رأسها يستريح على صدره من جديد وقالت: «إلى أين أنت ذاهب بي؟».
قال: «إلى العيادة. أخبرني جيرانك أنهم رأوك ترقدين مسجاة داخل العشة منذ عدة أيام».
نطقت اسمه ثم ترددت قليلا إذ لم تعد تعرف ماذا تريد قوله قبل أن تسأله أخيرا: «هل أنت بخير؟».
تريث قليلا، ثم أجابها: «لعلك تذكرين مؤهلاتي الرياضية وقدرتي الخارقة على العدو!».
قالت: «لقد فزت بجميع السباقات وستلعب في يوم ما ضمن فريق أوروبي لكرة القدم».
قال: «شفعت لي قدرتي الخارقة على العدو».
أدركت حواء ما يعنيه، فسألته متلهفة: « ماذا عن باقي أفراد الأسرة؟».
لم يحر جوابا، وسمعت أنفاسه التي تلاحقت فجأة وهو يحملها في طريقه إلى العيادة. وأخيرا سمعته يقول: «لقد خذلتهم سيقانهم».
قالت: «صبرا جميلا».
قال بعد تردد: «وماذا عنك، هل يوجد أحد غيرك في المخيم؟».

كانت تعلم أنه كان يحب أختها الكبرى ولكنها لم تجد طريقة أهون وقعا من أن تقول له: «ليس ثمة أحد غيري، نعم». صمت برهة، ثم قال: «الحمد لله على نجاتك».

قالت وقد أراحت يدها على صدره: «وجودك هنا مفاجأة سعيدة لم أكن أتوقعها». وساد بينهما صمت محرج لكليهما، وانتبهت حواء إلى أن هذا هو أطول حديث دار بينهما منذ أن عرفته. فلم يكن أحمد ينظر في القرية إلى أحد باستثناء أختها الكبرى.

وعندما وصلا إلى الخيمة التي يعلوها رسم كبير لعلامة الصليب الأحمر، أجلسها أحمد برفق على كرسي، ومكث ينتظر وراءها وهو جالس القرفصاء. وقال: «سأحاول أن أترجم عنك وإليك».

قالت: «لماذا جئت بي إلى هنا؟».

قال: «أنت مريضة ولا بد من إسعافك».

قالت بصوت واهن وهي تتجنب أن تلتقي عيناها بعينيه: «الأفضل لي أن تدعني أموت».

قال: «لقد نجوت لأمر أراده الله، وعليك أن تبذلي ما في وسعك لاستعادة عافيتك».

قالت: «لقد أنجاني الله كي أعتني بإبن أختي». وأجهشت بالبكاء وأشاحت بوجهها عنه. سردت عليه ما حدث في دوار أسرتها. وختمت بالقول: «ولدى وصولنا إلى المخيم أنا والرضيع، فاضت روحه إلى بارئها. أخذته إلى الطاقم الطبي فذكروا لي أن جسمه نشف لأنه ظل

طويلا من دون سوائل. لقد ناولته كل ما تيسر لي ولكن ذلك لم يكن كافيا. والآن انقطع نسل أسرتي وأنا السبب».

قال مصوبا كلامها: «بل المتسبب في موته هو قائد الجند الذي رمى به في النار، ثم كيف ينقطع نسل عائلتك وأنت حية ترزقين؟». قالت وهي تكتم ضحكة حزينة: «أنت لا تعرف ما فعلوه بي. لن يرضى بي أحد زوجة ينجب منها ذرية صالحة».

قال بصوت خفيض: «هل تظنين أنك الوحيدة التي فعل بها عساكر النظام ما فعلوا؟».

تطلعت إليه والتقت عيناها بعينيه لأول مرة وسألته قائلة وهي تجفف دمعها بطرف وشاحها: «ما قصدك؟».

قال: « لقد فعلوا ما فعلوه بك مع آلاف النساء والفتيات. إنهم يستخدمون هذا السلاح لمحو نسلنا من على وجه الأرض».

قالت: «يا لها من خطة جهنمية! هم يعرفون أن لا أحد سيرضى بنا بعد ذلك».

قال: «لا تعممي أرجوك...!» وقبل أن ينهي كلامه ظهرت ممرضة ترتدي ثوبا أبيضا ووشاحا لفّت به رأسها. بدا لزهرة أنها لم تر في حياتها أردافًا ضخمة ومستديرة كأحسن ما تكون الاستدارة كأرداف هذه المرأة الممتلئة الجسم بوجنتين بارزتين جميلتين. حدثها أحمد بالعربية، فقطبت جبينها والتفتت إلى حواء وسألتها: «ألا تتحدثين لغة أبناء الفور؟».

قالت حواء ما معناه«بلى»، فخاطبتها الممرضة قائلة: « دعينا نتحدث بها إذن!». ثم توجهت بكلامها إلى أحمد وطلبت منه أن يخلي المكان ويتركها تفحص حواء في كنف الستر على أن يعود عندما تنتهي.

قال أحمد وقد انتصب واقفا: «أنا آسف، ظننتك من الجنوب».

جحظت عينا الممرضة وهي تنظر إلى أحمد وأجابته: «بلى! أنا من الجنوب ولكني أقيم في الجنينة منذ عام 2002 أي قبل اندلاع الحرب».

حدّق فيها مشدوهًا: «تعملين في هذه العيادة منذ عام2002؟».

قالت وهي تضغط على لفظة «مسيحية»: «أنا مسيحية وهذه وكالة غربية لتقديم المساعدة الإنسانية» قبل أن تضيف « هل يزعجك هذا؟».

قال: « أبدا، بارك الله فيك، جميل جدا منك أن تأتي إلى هنا لمساعدتنا، بل كم أرثي لحالنا وأنا أرى أناسًا لا يدينون بديننا يأتون من الجنوب لمدّ يد المساعدة لنا بينما يقتلنا إخوة لنا في الدين نتنفس معهم نفس الهواء ونتقاسم معهم نفس الوطن».

هزت الممرضة رأسها استحسانًا لقوله، ثم طقطقت إصبعيها في إشارة منها إلى أنه يتوجب عليه أن يغادر المكان. ثم التفتت إلى حواء وأرادت أن تنزع عنها ثوبها، وإذ بعلامات الخوف تبدو على وجه حواء وإذ بها تمتنع وتتشبث بتلابيبه.

قالت الممرضة: «ماذا دهاك؟ لست هنا لأفترسك».

قالت حواء بين دموعها: «الأفضل لي أن أموت».
شبكت الممرضة ذراعيها ولم تخف تبرّمها من ردّة فعل حواء. جذبت حواء ساقيها إلى صدرها وظلّت على هذه الحال رغم الأوجاع التي يسببها لها بقاؤها في هذا الوضع. لاحظت الممرضة انقباض أسارير وجهها من الألم. وقالت الممرضة: «تفضلين العذاب على البقاء على قيد الحياة؟».

نظرت إليها حواء بعينين محمرتين قد تخثّر فيهما الدم.
فأضافت الممرضة: «الخيار خيارك يا أميرتي».
عبست حواء وسألتها: «لماذا تصفينني بهذا الوصف؟».
قالت الممرضة وقد جحظت عيناها: «لماذا أسميك أميرة؟ أما رأيت أنفك النافر المتعالي؟»، إنه يذكّرني بتصرف أبناء العائلات الملكية رغم مظهرك المزري ورائحتك العطنة وشعرك المغبرّ ووجهك المعفّر. ما هذا الصلف، فأنت لم تتكرمي حتى بكلمة شكر على الفتى الذي أحسن إليك وحملك إلى هنا».
قالت حواء بغضب وهي تشيح عنها بوجهها وتغالب دموع القهر التي اغرورقت في عينيها: «كيف تخاطبينني بهذه الطريقة الفجة؟».
قالت الممرضة: «هل لأنني لست بمثل رشاقتك، أم هل لأني من الجنوب؟ انظري حتى الفرنجة من موظفي الأمم المتحدة لا يميزون بيننا. ونظام البشير أيضا لا يميز بيننا ويحشرنا جميعا في نفس

الكيس. فنحن في نظرهم قوم واحد لا فرق بين أفراده، لون سحنتنا واحد».

اعتدلت حواء قليلاً في مجلسها لتصوّب نظرها نحو الممرضة وخاطبتها قائلة: «ماذا تقصدين؟».

قالت الممرضة: «أما سمعت بالحرب في الجنوب؟».

نكست حواء رأسها وقالت وقد ظلت ملامح وجهها محايدة تماما: «لست متعلّمة».

قالت الممرضة وقد تقوّس حاجباها تعجبًا من رقّة اعترافها: «لقد ظل نظام الخرطوم عشرين سنة يقتل في أهلي في جنوب السودان لطردنا من أراضينا وكان ينعتنا بالعبيد ويردّد على مسامعنا أن أتباعهم ومريديهم هم المالكون ولا أحد سواهم. لقد كان نظام الخرطوم يدفع المال لسكان المنطقة من العرب الرحّل لحثهم على الاعتداء علينا في قرانا والتنكيل بنا وارتكاب مجازر بحقنا».

تساءلت حواء في تردّد: «مثلما يحدث هنا؟».

قالت الممرضة وهي تهزّ رأسها: «إنهم يريدون افتكاك نفطنا».

قالت حواء: «إنه لأمر جائر، آسفة لم أكن أعرف هذا».

قالت الممرضة: « وصل عدد الضحايا من أهالي الجنوب إلى مليونين».

رددت حواء وراءها: «مليونان؟».

قالت الممرضة: «كما لو كان نصف كل برميل من النفط من دمائنا. وها هم يعلنون عن هدنة كي يطمئنّ الجميع إلى كون الحرب قد انتهت في الوقت الحاضر. ولكنّ هذا لا يمحي ويلات الحرب ومآسيها».

أحسّت حواء بنبرة الغضب في كلام الممرضة، فقالت: «أنا آسفة، لم أكن أعلم شيئا عن هذا، وصدّقيني، أنا لا أعتبر أنني أكرم منك نسبًا. ولكنّي لا أرى فائدة من بقائي على قيد الحياة ولا أريدك أن تضيّعي وقتك معي. كان عليّ أن أنقذ ابن أختي ولكني أخفقت في تحقيق الهدف الوحيد من وجودي على الأرض، وقد أراد لي الله أن أموت ولا مردّ لمشيئته».

قالت الممرضة: «وهل أنبأك الله بمشيئته هذه؟».

ضيّقت حواء عينيها بارتياب.

استرسلت الممرضة قائلة: «لا يهمني الدين الذي تدينين به، أيتها الأميرة، ولكن لا يجوز لأحد منّا أن يدّعي أنه يعلم ما قدّره الله له».

خضّها كلام الممرضة وذكّرها بحديث ماما مني، فأرخت قبضتيها المتشبثتين بتلابيب ثوبها واستلقت ومدّت رجليها وتركت الممرضة تفحص جروحها وحروقها بحنان ذكّرها بما فعلته معها ماما مني. وفعلا، فقد كانت الممرضة عطوفة عليها عطفًا يفوق عطف أمها. أحسّت حواء بعينيها تفيضان مرة أخرى بدموع الامتنان.

سألت حواء الممرضة عن اسمها في محاولة لطرد أخيلة البؤس التي بدأت تراودها. فأجابت الممرضة: «ماري».

قالت حواء: «أين يقيم أفراد أسرتك؟ في الجنوب، أليس كذلك؟».

قالت ماري وهي تطهّر قروح حواء: «معظمهم قُتلوا».
قالت حواء: «أنا آسفة جدا».
ركزت ماري انتباهها على تمسيد القروح بمرهم يخفّف من الأوجاع. وبعد برهة استأنفت الحديث فقالت وهي تجمع شتات أفكارها: «أعرف عصابة الخرطوم حقّ المعرفة، وأعرف يقينًا أنهم بعد أعمال التطهير العرقي هنا، سيستأنفون أعمال الإبادة الجماعية في الجنوب». وإذ لاحظت ماري علامات الاستفهام بادية على وجه حواء، أضافت قائلة: «يجب أن تشرعي في الاستماع إلى المذياع، وعندها تصبحين ملمّة بما يجري من حولك».
قالت حواء: «أخبرني أبي بأنّ المذياع للرجال فقط».
قالت ماري: «لا بد وأنّ أباك كان رجلا مهزوزًا يفتقد إلى الثقة في نفسه، وإلا ما الذي يدعوه إلى الاحتفاظ بامرأة جاهلة إلى جانبه؟».
قالت حواء: «كيف تقولين هذا عنه؟ لقد كان رجلا شجاعًا».
قالت ماري وهي تهزّ كتفيها غير آبهة بردها: «ألا تعرفين مبادئ القراءة والكتابة؟».
قالت حواء: «سمعت أبي يقول إني لن أجد رجلا يرضى بالزواج مني إذا بدأت الأفكار تغزو رأسي».
أردفت ماري قائلة: «وما رأيك الآن في ما كان يقوله لك والدك؟».
قالت حواء وهي تهزّ رأسها تأسفًا وقد امتلأت عيناها بالدموع: «كانت أمي تقول إنه لا أحد يريد فتاة ترفع صوتها وأنّ المرأة ناقصة عقلا ودينًا».

قالت ماري: «انزعي عنك هذه الترهات والأفكار البالية التي لن تأخذك بعيدا في القرن الحادي والعشرين، أيتها الأميرة».
قالت حواء: «لم أفهم قصدك».
واصلت ماري فحصها الدقيق للحروق التي لحقت عدة مواضع من جسم حواء دون أن تنقطع عن الكلام، فقالت: «هكذا كان حالنا في الجنوب أيضا. ولكن، إلى متى سيظل أهالينا من دون كتب وحواسيب وإلى متى سنظلّ نعيش بمعزل عن العالم المتحضّر؟».
قالت حواء: «ولكن هذه هي تقاليدنا».
قالت ماري: «تقاليد القرية ليست بالضرورة صالحة لكل زمان ومكان».
أحست ماري من ملامح حواء أنها تاهت واختلط عليها الأمر فسألتها: «هل سألت نفسك لماذا يجلس الرجال بلا عمل في ظل شجرة للحديث في ما بينهم ويتركون للمرأة مهمة إنجاز جميع الأعباء؟».
قالت حواء: «الرجال هم حماة الديار وهم من يقرّرون ما فيه صالحنا وصالح الجميع».
قالت ماري: «لماذا تبخسين قدرك وقدراتك؟».
احتدّ صوت حواء فقالت وهي تستعيد كلمات حفظتها عن أبيها: «وظيفة الفتاة أن تصون عرضها لتتزوّج رجلا وتنجب له ذرية صالحة وألا تدع الأفكار السيئة تطرق رأسها حتى لا تتفكك الأسرة».
قالت ماري بلطف: «من الخاسر من تعلّم المرأة كيف تفكر لنفسها وبنفسها؟ ليست المرأة قطعا! فحياة المرأة ستبدأ منذ بدئها في تعلم

مبادئ القراءة والكتابة وعندما يصبح بإمكانها قراءة كتاب والاطلاع منه على تاريخ استعبادها على مرّ القرون وعلى ما قاسته من قهر وعذاب لا فرق في ذلك بينها وبين الرجل».

قالت حواء وقد بدأت مشاعر الارتباك والخوف تدب إليها: «ومن سينجب الأطفال؟ وماذا عن الاعتناء بالمسنين المرضى، ومن سيفلح الأرض، لا يمكننا أن نطالب المرأة بمطالعة الكتب إضافة إلى كل هذه الأعباء».

قالت ماري: «حدثيني عن نجاحات الرجل في حماية المرأة؟».

أشاحت حواء بوجهها، وأغمضت عينيها وأخذت تبكي وهي تفكر في أختها القتيلة وابنها».

واصلت ماري قائلة: «تقاليدنا كانت صالحة لأوقات غابرة عندما كان رجال القبيلة يقاتلون رجالا من قبائل أخرى مستخدمين الدرع والرمح، أما في عصر الطوافات والرشاشات والصواريخ المسيّرة من وراء أجهزة الكمبيوتر، فلقد أصبح الأمر مختلفا».

هزت حواء رأسها: «أرجوك رفقًا بي، لقد اختلطت عليّ الأمور».

قالت ماري: «لم تختلط عليك الأمور، وإنما هي بداية الوعي أيتها الأميرة. لماذا لا تكون البداية بارتياد فصول تعليم مبادئ القراءة والكتابة في المخيم؟ ستتعلمين بسرعة».

هزت حواء رأسها علامة النفي وقالت بِما معناه إنها كبرت في السن ولم تعد قادرة على التعلم.

أنكرت عليها ماري أن تقول عن نفسها ما قالته وسألتها وهي تشدّ برفق ضمادة كبيرة حول مواضع القروح والحروق: « ما الذي ستفعلينه إذن، ستظلين في المخيم دون عمل تنفقين فيه أوقات فراغك الطويلة؟ يمكنك أيضا أن تقومي بعمل تفيدين به نفسك ويفيدك على الأقل في قراءة كلام الله بنفسك مباشرة دون واسطة».

لازمت حواء الصمت في حين واصلت ماري تضميد الحروق. فجأة، نطقت حواء وقالت: «سهل عليك أن تقولي هذا، فلو أصابك ما أصابني، لاختلف معك الأمر». لم تجد الكلمة المناسبة المرادفة لكلمة «اغتصاب» المرفوضة ثقافيا في مجتمعها، فأضافت: « لم يعتدوا عليك، ولا تعرفين ما تعرضت له ولماذا لم أعد صالحة لأحد إطلاقا».

فكت ماري ببطء أعلى زري زيها النظامي وكشفت عن أثر حرق على حلمة ثديها الأيسر، وقالت: «كانوا أربعة رجال تداولوا عليّ» ثم تحوّل صوتها إلى ما يشبه الهمس وقالت: «وسموني كما توسّم الدواب وتركوني بين الحياة والموت».

تأملت حواء أثر الوسم الشبيه تمامًا بما طبعوه على حلمتيْ ثدييها. ثم قالت وهي لا تصدّق ما تراه: « ولكن كيف أصبحت ممرضة بعد هذا؟».

قالت ماري: «نلت شهادة جامعية وتزوجت رجلا، إن كان هذا ما يصعب عليك تصديقه».

قالت حواء: «رضي بك رجل زوجة له بعد هذا الذي جرى لك؟ خبريني كيف هو هذا الرجل؟».

قالت ماري وهي تمرر من فوق رأس حواء ثوبًا نظيفًا وتساعدها على أن تمرر ساعديها في أكمامه: «إنه طبيب يعمل هنا في الجنينة».

فغرت حواء فمها وحاولت ماري أن تخفي ابتسامة ارتسمت على شفتيها، وهي ترى ردة فعلها، وقالت: «أنت أيضا، أيتها الأميرة بإمكانك أن تبني حياتك من جديد حتى بعد هذا الذي أصابك».

حركت حواء رأسها ذات اليمين وذات الشمال وفاضت دموعها.

ألحت عليها ماري قائلة: «استمعي إليّ جيّدًا، بإمكاني أن أعالج إصاباتك وبإمكاننا مداواتك من الإيدز إن كنت مصابة به، ويمكننا التخلص من أثر الحروق والحيلولة دون تسبّبها في أية أخماج، ولكن يعود إليك وحدك القرار في ما تريدين فعله بحياتك بعد أن انقلبت الآن رأسًا على عقب».

قالت حواء بصوت طفولي محتجّة: «من أين لي أن أتدبّر أموري بنفسي؟ ما زلت صغيرة وغير ناضجة».

عبست ماري في وجه حواء وقالت: «لماذا أنت جبانة هكذا؟».

تكوّرت حواء على نفسها وظلّت تنشج. وقالت: «لم أبك حتى حين اعتدوا عليّ وقتلوا أختي، فلماذا تنعتينني بالجبن، أم هل يرضيكِ بكائي؟».

قالت ماري: «حان الوقت لتذرفي دموعك ولكي تصبحي امرأة».

هزت حواء رأسها ولسان حالها يقول إنها لن تقوى على طي الصفحة والمضي قدما.

قالت ماري وهي تمسك بيد حواء وتضغط عليها عدة مرات متلاحقة: «المرأة الحقيقية ليست متاعًا لأحد، تأتمر بأمره، هي لا تقبل أن تعيش حبيسة أعراف بالية تحرم عليها أن تكوّن رأيها بنفسها وأن تفصح عنه».

قالت حواء في ما يشبه الهمس: «ولكنّي أريد أن أحافظ على ديني».

قالت ماري وهي تناولها حبة وقدحًا من الماء: «ما وجه التناقض في ذلك، أعرف نساء كثيرات مسلمات يجمعن بين الورع ورجاحة العقل، ناجحات في حياتهن المهنية والخاصة ومستقلات في تفكيرهن».

قالت حواء وهي تعيد القدح إلى ماري: «أحقا ما تقولين؟».

قالت ماري: «في البلدان الإسلامية نساء كثيرات يرتدن الجامعات ويتخرجن منها طبيبات ومحاميات ومدرّسات وسيدات أعمال».

قالت حواء: « أرجوك، لا تعيدي على مسمعي هذا الحديث، لا تربكيني!».

أطلقت ماري تنهيدة وقالت وهي تمسح يديها بمنديل: «آه، لو تدرك المرأة الأفريقية أنها أمل المستقبل في هذه القارة».

هزّت حواء رأسها ذات اليمين وذات الشمال والدموع لا تزال تطلّ من طرفي حدقتيها.

قالت ماري: «لن أثقل عليك، سأتركك ترثين لحالك وتندبين حظك العاثر كيفما طاب لك».

أغمضت حواء عينيها وشدت إليها ثوبها النظيف، وتمتمت بدعاء تطلب فيه أن تساعدها الحبة التي تناولتها على الإخلاد إلى النوم.

قالت ماري: «أخبريني عندما تقررين أن تصبحي عضوا صالحًا للمجتمع يساهم في تقدّم الإنسانية!». سمعت حواء خطوات ماري وهي تغادر الخيمة. ثم وما هي إلا فترة حتى سمعتها تتحدث إلى مريض آخر.

ثم سمعت حواء نفسها تقول قبل أن يغلبها النعاس وتستسلم للنوم: «إلهي خذني إلى جوارك، فقد ضقت ذرعا بهذه الحياة!».

الفصل الرابع عشر

المكان: مخيم الجنينة، ولاية غرب دارفور
الزمان: شباط/ فبراير: 2005

لم يطل المقام بأحمد في المخيم بعد قدومه إلى الجنينة حتى بدأ ينظّم مباريات في كرة القدم للترفيه عن أولاد المخيم الذين كانوا في أمسّ الحاجة إلى ملء أوقات الفراغ القاتل داخل حبسهم الكبير في هذا المخيم الذي تحوّل إلى مدينة مكتظة بالأكواخ والخيام. وكانت المباريات تقام يوميا في حصتين، حصة صباحية، وتبدأ عند مطلع كل شمس وتتواصل حتى الساعة الثامنة والنصف تقريبا عندما ترتفع حرارة الشمس، وحصة مسائية تبدأ قبل مغيب الشمس عندما تعتدل حرارة الطقس وتتواصل إلى أن يسدل الظلام ستائره.

بدأ أحمد بفريق من الناجين من أولاد منطقته يتبارون فيما بينهم، ولقيت مبارياتهم اهتماما كبيرا قاد إلى تنظيم بطولة تتبارى فيها عدة فرق. وبعد شهرين، وجد نفسه مدربا أكثر منه لاعبا، ولكنه كان سعيدا بانكبابه على تدريب الأولاد ومساعدتهم على كسر الملل ورتابة حياتهم اليومية في المخيم وتبديد مشاعر عدم اطمئنانهم إلى ما تخبّئه لهم الأيام القادمة.

كان رشيد ينظر بعين الحسد إلى أحمد وكان يستكثر عليه دوره القيادي في تنظيم دوري بطولة هذه المباريات. فمن هو وما أصله وفصله لتعلو كلمته على كلمة حفيد الشيخ عصمان. غير أنه كان يعلل النفس بقرب انتهاء الحرب وعودة الجميع إلى ديارهم وعودة الحياة إلى سالف عهدها، وعندها، يستعيد هو مكانته وسطوته، ويعود أحمد إلى سالف مكانته الاجتماعية الوضيعة.

وهناك جوانب من حياة اللاجئين في المخيم لم تتغير عما كانت عليه. فقد ظلت عدة شرائح اجتماعية وعمرية متقوقعة على نفسها ولا يتحدث أصحابها إلا بلغتهم القبلية. فقد دمرت ديارهم وسرقت مواشيهم، ولكن الرجال منهم ظلوا يلتقون يوميا، فيتناولون آخر الأخبار ويستمعون إلى تعليق المذيعين على مباريات كرة القدم. ولعل التغير الوحيد الذي طرأ في هذه الأوساط حسبما لاحظه رشيد، هو أن الأولاد أصبحوا أقل طاعة لآبائهم، بل وبدأوا يتجرؤون عليهم على نحو ما كان ليخطر على البال قبل اندلاع الحرب.

ولئن لم يعد بإمكان نسائهن أن يواصلن العمل في حقول الأسرة، فإن حياتهن لم تتغير كثيرا. فهن يغادرن يوميا عشاشهن لغسل الثياب والذهاب إلى البئر لجلب الماء حيث يتبادلن هناك الحديث فيما بينهن إلى أن يأتي دورهن لملء أوعيتهن. ويعدن من البئر إلى عشاشهن لإعداد الطعام، والاعتناء بالرضع والمسنين. ويضاف إلى ذلك خروجهن عند الحاجة من المخيم والتوغل بعيدا عنه لجمع الحطب في غير مأمن من هجوم عدو متربص.

لم يكن يحرس المخيم جنود من أفراد حفظ السلام، ولم يكن المخيم مسيجا ولم يكن هذا الأمر ليخفى على أحد من اللاجئين الذين لم يكن انتشار عساكر النظام السوداني وأفراد أجهزته في أكثر من مكان ليطمئنهم على سلامتهم. ولقد كان هناك من بين الناجين من أصبحت تنتابه سورات من الفزع بعد أن عرف أن الجنجويد الذين أغاروا على قريته ونكلوا بأهله يرابطون في محيط المخيم وأنهم ربما يتحيّنون الفرصة للفتك به.

دأب الرجال على الالتقاء صباح كل يوم تحت شجرة للاستماع إلى الراديو. فهم معدمون لا قبل لهم بدفع ثمن قهوة يحتسونها أو بضعة سجائر يدخنونها، وإنما يتمددون هناك في ظل الشجرة في خمول وهم يحاذرون القيام بأي حركة قد تسلبهم المخزون القليل من طاقتهم التي يحرصون على ادخارها وعدم تبديدها لمواجهة الحرارة التي لم تكن تقل في منتصف الصباح عن 32 درجة.

كان أحمد ورشيد من المواظبين على هذه اللقاءات ولا يفوّتون أي نشرة اخبارية يبثها القسم العربي لإذاعة البي بي سي علما وأن معظم الرجال يفهمون البعض من هذه اللغة لأنها لغة القرآن. وقد تعجب رشيد من إجادة أحمد للحديث باللغة العربية التي لم يكتف فيها بالنزر القليل الذي تعلمه في المدرسة وإنما أثرى رصيده منها بالاستماع إلى التعليقات على مباريات كرة القدم. وحيث إن الشيخ عصمان، جد رشيد، لم يكن يرى من داع لتعلم اللغة العربية لمن قرر له أن يرعى الماعز والجديان، فقد وجد رشيد نفسه لا يجيد هذه اللغة. وكان المسكين كلما ذهب مع إخوته لبيع رؤوس من الماشية، تولى إخوته الكبار مساومة الشارين على سعرها وبقي هو يحرسها لردع من يحاول أن يشرد منها. وقد اغتاظ رشيد من الدور الذي حبسه فيه إخوته الكبار، فعقد العزم على أن يتعلم بنفسه العربية بالاستعانة بالراديو، فاكتسب منها على مر السنين ما يجيز له فهم ما تقوله النشرات الاخبارية التي تذاع في المخيم.

ولم يكن الشيخ عصمان من بين الذين يرتادون هذه الحلقات. وكان المانع المعلن هو انهماكه في محادثات مع وكالات تقديم المساعدة الغوثية وكان المانع الثاني شبه الخفي وشبه المعلن أنه يجري محادثات مع ممثلي فصيل من المتمردين يقوده رجل نافذ ومهاب الجانب من شمال دارفور اسمه عبد الله.

وكان رشيد يذهب من حين لآخر إلى خيمة جده وينقل إليه ما يشهده ويلتقطه من أقوال الناس أثناء جولاته في المخيم. كان يعرف أنّ

بحوزة جده مذياعا وهاتفا ساتليا من طراز ثريا يعمل بواسطة الأقمار الصناعية يدير به مصالحه، وبخاصة استثمارات أودعها في بنك اسمه غير معهود؛ لم يسمع به رشيد من قبل.

ولم يكن ليغيب عن رشيد أن جده يتسلل بانتظام إلى الجنينة لإدارة مصالحه التجارية واحتساء القهوة مع الوالي في مقر الولاية. ولم تكن الأسرة لتجاهر بهذه العلاقة خشية أن يسيء اللاجئون تأويل دوافعها. لذا، كان الشيخ عصمان يجزل العطاء لفصيل عبد الله. فقد كان الشيخ يردد مقولته الأثيرة إلى نفسه: «التجارة شطارة أو لا تكون».

ويذكر رشيد أن جده دعاه ذات صباح ليصطحبه إلى الجنينة وطلب منه أن يحمّل الحمار بصندوقين وأن يلقي عليهما غطاء يخفي شعارا عرف رشيد على الفور أنه شعار الأمم المتحدة من كثرة ما طالعه هذا الشعار على خيام الأمم المتحدة وأكياس الحبوب والمركبات التي تجول في أنحاء المخيم. واستنتج من ذلك أن جده قد حصل على تلك الأكياس بفضل علاقاته التي نسجها مع المسؤولين داخل المخيم.

لقد كلفه جده في ذلك الصباح بأن يحاذر ألا يزيح الغطاء عن الصناديق إلى أن يصلا بها إلى مقر الولاية. وعندما دخلا إلى المقر، وأُغلقت الأبواب، أزاح الشيخ الغطاء، وأمر رشيد أن يتبعه بها إلى مكتب الرجل المهم. ويذكر رشيد أنه قام يومئذ برحلتين وأنزل الصناديق في ركن من المكتب وأعقبت ذلك عدة مصافحات صاحبتها عدة عبارات بالعربية تبادل فيها جده والوالي آيات التأدب والشكر والامتنان. وكم كان بود رشيد أن يبقى في المكتب. كان يريد أن يجلس

صامتًا يتأمّل ما يحتويه المكتب من مقتنيات لم يسبق له أن رأى مثلها في حياته. نفحه جده بضع ورقات نقدية وأمره أن يشتري لنفسه سندوتش كباب، وأن يعود إلى المخيم. شعر رشيد بخيبة أمل ولكنه امتثل للأمر وتمنى ألا يصرفه جده في المستقبل بهذه السهولة التي يصرفه بها دائما.

***

جاء في النشرة الأخبارية للقسم العربي لإذاعة بي. بي.سي تقرير عن تحقيق انفراج في عملية إحلال السلام في دارفور. فلقد وقّع المتمردون فصيل عبد الله، أصدقاء الشيخ عصمان، اتفاقا للسلام مع نظام الخرطوم. اعتدل الناس ومنهم رشيد في جلستهم كما لو كان ذلك سيرهف سمعهم. واستمعوا إلى حديث لسياسي بريطاني عن هذ الاتفاق الذي أعرب فيه عن ارتياحه للنتائج المتوصَّل إليها وأدلى بالتصريح التالي:

«على إثر الاجتماع الذي عقدناه اليوم، اتفقنا على خطة من أربع نقاط تكفل استتباب الأمن في دارفور في المستقبل، ونحمّل الحكومة السودانية مسؤولية الوفاء بالالتزامات المنوطة بها».

وتلت ذلك، كلمة خاطفة يتحدث فيها الماريشال البشير عن خطة صهيونية لاستعمار السودان من جديد والاستيلاء على ثرواته النفطية. وقال البشير إنه رجل سلام ومتمسّك بالسلام وأنه لم يدخر أي جهد لإعادة إحلال السلام في بلده بأن وعد أهالي دارفور بتحقيق الرفاه لهم والرقي.

ثم انتقلت النشرة سريعًا إلى خبر آخر وتركت الجميع في حيرة من أمرهم شيبًا وشبابًا.

قال قائل منهم: «ليست هذه الخطة الأولى التي يوقعها البشير، وأبله من يصدقه». وقال رجل آخر: «لماذا لا يتوقف الأجانب عن بيع السلاح لنظامه، ولا يعلنون عن إنشاء منطقة حظر للطيران في سماء دارفور لمنع طائراته من قصفنا».

حرك الحاضرون رؤوسهم استحسانا لكلام الرجل ثم دخلت كل مجموعة في أحاديث جانبية يسلمون فيها كالعادة، وفي الأخير، بالحقيقة المرة القاضية بأنّ لا أحد سيأتي إليهم لنصرتهم.

***

بعد العشاء، عندما كان رشيد يهمّ بالخروج من خيمة جده حيث يجتمع رجال الأسرة لتناول العشاء، ناداه جده قائلا:

«انتظر لحظة»، ثم التفت إلى والد رشيد وقال له: «لا تدعه يخرج الليلة، مره ألا يخرج!».

لم يشأ رشيد أن يسيء الأدب مع جده الذي نسي اسمه مرة أخرى. وكان يعلم جيدا أن كليهما، سواء والده أو جده، لا يعرفان أين يذهب كل ليلة. كان رشيد يريد الالتحاق بأحمد وببقية أفراد فريق كرة القدم. كان ذلك هو الوقت المفضل لديه للتنفيس عن نفسه وكسر طوق الشعور بأنه حبيس المخيم مثله مثل مئات اللاجئين. شعر رشيد بخيبة أمل، فعاد إلى جانب أبيه وظل يستمع إلى حديثه مذعنًا صاغرًا.

***

لم ينتبه أحد إلى غياب رشيد، فقد كان فريق أحمد يضم في العادة عددا من اللاعبين الاحتياطيين. وكانت الكرة أو الطابة مثالا حيًّا على قدرة أبناء أفريقيا على الخلق والإبداع، فهي مجموعة من عشرات الأكياس البلاستيكية خيطت وشدت إلى بعضها بعضا بمهارة فائقة فغدت كُبة من الخيوط المتداخلة والمتشابكة، وصارت كرة خفيفة تركلها أرجلهم الحافية في غنى تام عن نعالهم المهترئة التي لا تصلح لترويضها والتدرج بها وتناقلها وتسديدها في مرمى المنافس. ورغم أن قلة قليلة منهم فقط أكلت خلال النهار ما يشد أودها، فقد كانوا يتناقلون الكرة بسرعة البرق من ركن إلى آخر من أرضية ملعب هو عبارة عن أرض جرداء. وكان الجمهور يتألف من بضع مئات من شباب متحمسين يتقافزون ذات اليمين وذات الشمال ويصدحون بأهازيج منها ما يشجعون به فريقهم ومنها ما يحاولون به تثبيط عزيمة الفريق المنافس.

وبعد انطلاق المباراة بقليل، ذوى ضجيجهم فجأة وارتفع محله هدير محركات وإذ باللاعبين ينصرفون الواحد تلو الآخر عن ملاحقة الكرة ويلتفتون من حواليهم بحثا عن مصدر الهدير. ففي هذا الوقت المتأخر من النهار، لا تبقى في المخيم شاحنات ولا سيارات جيب حيث يكون عمال الإغاثة الإنسانية قد غادروا المخيم منذ فترة طويلة ورجعوا إلى مجمعاتهم السكنية في المدينة.

تراقصت فوق أسطح الخيام خيالات الأضواء الكاشفة للمركبات وهي تسير على الأرض المحفرة وتدكها. وتناهى إلى الأسماع صرير

مكابحها، تلته أوامر بالعربية، ثم وقع أحذية جنود على السطح المعدني للقسم الخلفي من شاحنة تقلّهم.

بدأ أفراد الجمهور في العدو وتعثر بعضهم وسقط أرضا بسبب ارتباكهم وستار الغبار الذي أثارته الأقدام. تعالى صياح البعض من الذين داستهم الأقدام فسحقت عظامهم. توجه أحمد نحو عشة حواء تطير به رجلاه بسرعة البرق لتجتاز به الحقول وصولا إلى ثنايا وأزقة المخيم. سمع أحمد استغاثات البعض ومزيدا من الزعيق باللغة العربية، وسمع ما يشبه الفرقعة وأصواتا أخرى لأشخاص يستغيثون.

وإذ ببلدوزر تغشي أضواؤه الأبصار يندفع محطما ومبعثرا كل ما أمامه من خيام وعشاش حيطانها من عيدان القصب لا قبل لها بصد هذا الوحش الحديدي الذي حمل عليها وترك وراءه شريطا من بقايا ملاءات بلاستيكية مخبلة وبضعة أمتعة هزيلة. وكانت تتبعه عدة سيارات جيب وشاحنتان عسكريتان قذفتا من جوفهما بنحو أربعين جنديا أشهروا عصيا غليظة في وجه الناجين. وكان العساكر يندفعون ويطلقون الرصاص فوق رؤوس الهاربين من خيامهم وعشاشهم. وكانوا ينخسون كل أم مرضعة أو شخص مقعد وكل من يتلكأ، فسقط كثيرون فانهال العساكر عليهم ضربا مبرحا فطغى صراخهم على هدير البلدوزير الذي كان يواصل اقتلاع الخيام والأكواخ.

غيَّر أحمد اتجاهه متجنبا العساكر وسيل الناجين المذعورين الفارين من وجوههم. وجد أحمد حواء واقفة أمام مدخل عشتها مشدوهة العينين وقد أحاطت خصرها بذراعيها.

صاح فيها قائلا: «إنهم يقتلعون الخيام والعشاش، هلم بنا!».
قالت وهو يجذبها معه: «لماذا يقتلعونها؟».
قال: «أظنهم يريدون تخويفنا وتذكيرنا بأنهم لا يزالون هم الأسياد هنا».
قالت: «هل يعتزمون تقويض المخيم بأسره رأسا على عقب؟».
قال: لن يتمادوا في ذلك، وأرى أن موظفي الأمم المتحدة سيحلون بالمكان قريبا وسيمنعونهم من مواصلة تقتيلنا. الحمد لله».
وفي تلك اللحظة انقطع هدير البلدوزيرفجأة بينما تعالى صراخ الناس المذعورين. وسمعت حشرجة مكبر صوت أعقبها صوت يقول بالعربية:
«تعالوا لن نمسكم بسوء، واستمعوا إلى ما نريد قوله لكم».
وفي تلك اللحظة ظهر عدد من العساكر وهم يرفعون بعصيهم في الهواء ويلوحون بها بما يشبه قوسًا واسعًا ويصيحون: «تحركوا أيها العبيد» وسيروا باتجاه الحشد!»، وأخذوا يسوقونهم باتجاه البلدوزير. جذب أحمد حواء بعيدا عن مسار العساكر ولكنه وجد نفسه ومعه حواء في خضم السيل السائر باتجاه مكبر الصوت. مسك أحمد بذراع حواء وأخذ ينظر حواليه لعله يجد مخرجا يبعده عن هذا الحشد. قال لها: « جهزي نفسك لإطلاق ساقيك للريح!». استبد بها الفزع فالتصقت به.

قام عدة عرفاء من الجيش السوداني برفع ضابط إلى القسم الخلفي من شاحنة عسكرية وصعد وراءه اثنان منهم سلماه مصدحا ووقفا على بعد خطوة وراءه في وضع استعداد عسكري.

تحدث الضابط بالعربية وقال: «لقد حان الأوان لكي تعودوا إلى دياركم. لقد وقع المتمردون اتفاق سلام وقد انتهت الحرب، فعودوا إلى دياركم حالا!». وبعد برهة من الصمت، أضاف قائلا: «سنغلق هذا المخيم».

وترجمت كلمته إلى لغات قبائل الفور والمساليت والزغاوة وهي اللغات الرئيسية الأخرى في المنطقة مصحوبة بإنذار نهائي في ما يلي نصه: «يجب أن تغادروا قبل منتصف النهار غدا. هذا إنذار نهائي».

وقف الجمع في مكانه لا يحرك ساكنا من شدة المفاجأة، وطفق الحاضرون يقلبون نظراتهم غير مصدقين ما سمعت آذانهم لعلهم يجدون من يوضح لهم ما سمعوه ولم يستوعبوه. شخرت محركات المركبات وصعد إليها العساكر وعادت إلى الجنينة وشوهدت وهي تبتعد وتدوس على بقايا الخيام والعشاش التي اقتلعها البولديزار وبعثر محتوياتها.

شعرت حواء بيد أحمد تجذبها من ساعدها وتنتزعها من حيرتها وخوفها وجاءها صوته يقول في ما يشبه الفحيح: «هيا بسرعة!».

سارت وراءه تتبعه عن قرب وهو يشق طريقه في ذلك الجمع نحو القطاع الذي دمره البلدوزير. وكان هناك الكثير من الناس المسجين على الأرض وأقرباء لهم يحومون حولهم ويحاولون إسعافهم

ومواساتهم أو يريدون نقلهم دون تعريضهم للأذى. وأحصى أحمد خمس جثث غطيت ببقايا ملاءات بلاستيكية.

أقعى أحمد إلى جانب امرأة يبدو أنها وحيدة، كانت تمسك بين ذراعيها رضيعا. سألها: «هل لديك أحد من أقربائك هنا؟».

حركت رأسها علامة النفي

قال: «هل تستطيع أن تتحركي؟».

أخفت عينيها بيد مرتعشة.

قال بلطف: «دعيني أرى إصابتك!».

قالت حواء: «دعيني أمسك عنك الصغير!».

سلمت المرأة إلى حواء الرضيع وهو في لفافته. ثم رفعت ثوبها وكشفت عن ساق تشوه أسفلها وتلف ونتأ منها عظم أبيض بين أنسجة ممزقة ومخضبة بالدماء، وعن رِجل قد اِلتَوتْ وحادت عن اتجاهها الطبيعي.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى كانت حواء تحمل الرضيع وتمشي وراء أحمد الذي حمل المرأة المصابة والمستكينة بين ذراعيه وأخذ يشق بها طريقه بين الجموع إلى حيث وجدوا مئات المصابين إصابات متفاوتة الخطر يفترشون الأرض أمام خيمة العيادة. كان من بينهم من هو فاقد للوعي وكثيرون آخرون يمسكون بخرقة يحاولون أن يوقفوا دما نازفا وحولهم أقرباء ساخطون. وكان هناك رضع يصرخون وأطفال يتفرجون على المشهد وقد اتسعت أحداقهم خوفا وهم لا يفقهون شيئا مما يحدث حولهم.

وضع أحمد المرأة برفق على الأرض وطلب من حواء ألا تفارقها وألا تكف عن محادثتها وملاطفتها خشية أن تتعرض لصدمة.

ورأته حواء يشق طريقه محاذرا ألا يدوس مصابًا ويدخل إلى الخيمة. ثم جلست وقد أسندت ظهر المرأة إلى ظهرها كي تستريح عليه وتحافظ على توازن جذعها، فلا ينتكس رأسها.

خاطبتها حواء قائلة وهي تنظر إلى وجه الرضيع: «ها أنا أمسك به، اطمئني عليه، وحدثيني عنه!».

قالت المرأة بصوت كأنه يأتي من قاع بئر أو من وراء حائط: «ماذا تقولين؟».

أجابتها حواء: «حدثيني عن صغيرك هذا، ومن أين جئتم؟، إروي لي قصتك»!

رجع أحمد ومعه ماري، الممرضة أصيلة جنوب السودان التي ألقت نظرة متفحصة على إصابة المرأة، ثم طلبت من أحمد أن يحملها إلى داخل خيمة العيادة قائلة: «لنرَ كيف يمكننا اسعافها».

تابعت حواء أحمد بنظراتها وهو يحمل المرأة ويضعها على حشية ضيقة تقاسمتها مع امرأة أخرى بحيث كان رأس هذه جنبا إلى جنب مع عقبي تلك. جلست حواء على الأرض قرب المرأتين وتوجهت بكلامها إلى المرأة أم الرضيع قائلة: «اطمئني، فصغيرك لا يزال معي، وهو بخير».

خاطبها أحمد قائلا: «لن أتأخر عليك، اعتني بالصغير وأمه»!

رافقته بنظراتها وهو يغادر الخيمة غير مطمئنة لابتعاده ومتمنية لو أنه يبقى معها مدركة في الآن ذاته أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا حتى وإن ترجته أن يبقى. غير أن ما حيرها هو أنه ظل يواظب على المجيء لزيارتها في عشتها للاطمئنان عليها. وكانت تتشوق لزياراته ولكنها كانت تتساءل ما لم يكن مرد ذلك هو أنه آخر خيط يربطها بأختها الكبرى المحببة إليها.

التفتت ماري ناحية حواء وخاطبتها قائلة: «خذي الرضيع وناوليه حليبا وسأحاول في الأثناء اسعاف الأم. أخبري الزملاء أن ماري هي التي أرسلتك». وبعد قليل، كانت حواء تعد حليبا لإثني عشر رضيعًا آخر جيء بهم جميعا صحبة أمهاتهم المصابات، وإذ بإحدى الممرضات تخاطبها بصوت حازم وآمر وتقول وهي تعتقد قطعا أن حواء إحدى المتطوعات: «لا تنسي أن تحمميهم وتغيري ملابسهم، وتأكدي أن ليس من بينهم من يحمل إصابة!». اضطربت حواء في البداية، ثم شرعت في تحميمهم وهي تتعجل رجوع أحمد.

قضت حواء الليل وهي تعتني بمجموعة الرضع والبالغ عددها ثلاثة عشر رضيعا، فهذا تهدهده ليكف عن العويل، وهذا تطعمه ثم تحممه، وهذان تضمد لهما إصابتيهما. رجع أحمد يحمل بين ذراعيه امرأة مسنة، فوضعها على الأرض، ثم سأل ماري كيف يمكنه أن يساعدها. نفدت من العيادة كل الحبوب والحقنات المسكنة للألم باستثناء حبوب الأسبرين، فعهد إلى أحمد بأن يوزع الأسبرين على المرضى عند الحاجة وبأن يسقيهم مع كل حبة من إبريق جماعي، وأن يساعدهم

على الاسترخاء قدر الإمكان. فقد ظل يمسك بيد رجل مسن ويلاطفه إلى أن أسلم الروح وهو يدعو معه الله أن ينال رحمته وغفرانه، ثم حمله إلى شاحنة الصليب الأحمر التي تأخذ الجثث كلما لم تعد تتسع لمزيد.

كان من المتوقع أن تأتي في اليوم التالي طبيبة افرنجية على الساعة السابعة صباحا ولكن الشرطة منعتها من أن تقود سيارتها إلى داخل المخيم بدعوى أن ليس لديها ترخيص يشترطه قانون لم يكن موجودا قبل البارحة. وعندما جاءت بعد توقيت النوبة الليلية بساعتين، جاءت ممرضة لتستلم العمل وأمكن لأحمد وحواء أن يغادرا خيمة العيادة برأسين مثقلين وأرجل مترنحة في ساعة كانت الشمس فيها قد طلعت واستوت في السماء.

التفت أحمد إلى حواء التي كانت تسير إلى جانبه وقال: انظري، لا أحد غادر المخيم!».

قالت حواء: «إلى أين سيذهبون؟».

قال: تشاد» وهو يعرف أنها ستهز رأسها اعتراضا، وأضاف قائلا: «اذا لو رجع العساكرعند الظهر؟».

نظرت حواء حواليها في الخيمة التي دبت فيها الحياة كالعادة وقالت: دارفور بلدنا».

قال أحمد: «ألا تريدين مغادرتها؟».

قالت وهي تتذكر كلمات ماما مني: «كل ما أملكه أرض تركها لي جدودي الأولون وقد ورثوها عن جدودهم الأولين، بل ورثتها في

الحقيقة جدتي الأولى عن جدتها الأولى، فهما من زرعتاها وتعهدتاها».
وفي هذه اللحظة، ظهرت ماري إلى جانبهما، وعيناها ترمشان اتقاء أشعة الشمس. دنت منهما وخاطبتهما قائلة: «يبدو أننا في حاجة إلى مدد الليلة أيضا وسأراكما من جديد هنا». وأشارت إلى حواء وقالت لها بلهجة آمرة، أنت على الساعة السابعة، وأنت بعد مباراتك في كرة القدم»، ثم أضافت قائلة قبل أن تعود إلى الخيمة وقد اشرأب عنقها: «والآن اذهبا وخذا قسطا من الراحة، وإلا فلن نستفيد منكما كثيرا!».

***

قبل انتهاء النوبة الموالية، أصبحت حواء قادرة على تنظيف جرح وتضميده بالرغم من أن قيامها بهذا العمل ينافي القواعد المتبعة من المنظمة غير الحكومية التي تمول أنشطة العيادة. وكان التفسير الذي قدمته ماري أن النقص الحاد في عدد موظفي الإطار الطبي وكثرة الأعباء، تضطر العيادة إلى الاستنجاد بأفراد محليين لأداء أعمال طبية كرتق الجروح.
عرضت ماري أمام حواء المجموعة الصغيرة من الأدوية المتاحة وفسرت لها متى تستخدم هذه أو تلك الحبة وقالت لها: «لدينا دائما نقص في الأدوية لأن السلطات تحتجز الشحنات في الموانئ وتعترض قافلاتنا. كما أن الجنجويد يسرقون منا الأدوية، مما يزيد من النقص الفادح، ونحاول أن نخفف على مرضانا آلام الاحتضار، فنناولهم

حبات من الأسبرين». ستتعلمين قريبا جدا التمييز بين المريض الذي حضره الموت ومن ما زال به رمق».

لم تكن حواء تستطيع قراءة أسماء الحبوب، فاستعاضت عن ذلك بحفظ شعار العلامة التجارية ولون الحبة وشكلها. قالت لها ماري: «يجب أن نعلمك مبادئ القراءة والكتابة». نكست حواء رأسها وهمهمت قائلة: «صعب جدا عليّ أن أتعلم»، ولكن ماري أجابتها قائلة وهي تنظر في عيني حواء الفزعتين: «ليس صعبا، كنت تظنين أنك لن تستطيعي تضميد الجراح وها أنك الآن أفضل من يضمد جرحًا».

هزت حواء كتفيها، فقد كان تركيزها منصبًّا على قنان الأدوية وكلها فزع من الخلط بينها وارتكاب خطأ يكون على إثره طردها. فهي من ناحية، لم تعد تطيق الرجوع إلى عشتها والبقاء هناك دون رفيق ولا أنيس، ومن ناحية أخرى، فهي ما زالت لا تملك من الثقة في نفسها ما يجعلها تقدم دون خوف على التطوع للقيام بعمل صالح تفيد به الآخرين. وتذكرت حواء كيف أثنى أحمد عليها لكفاءتها في التعامل مع المرضى ومعالجتهم.

لقد قال لها في صبيحة ذلك اليوم: « أنت تعاملينهم باحترام وتتعاطفين معهم». قالت حواء في سرّها وقد اعتراها بعض القلق: «متى عرف أني لست بمثل كفاءة أختي، فلن يلتفت إليّ بعدها أبدا».

وعندما جلس فيما بعد كل من ماري وحواء وأحمد والمتطوعون الآخرون لشرب الشاي، سأل أحمد ما إذا كان من بينهم من يعرف هل

نفذ الجيش تهديداته بإخلاء المخيم بالقوة لأن العساكر لم يأتوا في الظهر ولأنه لم يغادر أحد من اللاجئين المخيم.

قالت ماري دون تردد: «ضغوط سياسية أثنته، الأمريكان أحدثوا ضجة، مما اضطر البشير إلى التراجع كما يفعل دائما عندما يتصدى له أحدهم، لقد أعلنوا عن ذلك في النشرة الإخبارية».

سألت حواء متعجبة: «تحدثوا عن مخيمنا في الأخبار؟».

قالت ماري: «تحدثوا عنه في «فويس أوف أمريكا»، إنها إذاعة صوت أمريكا، زوجي يستمع إليها، فهي أفضل من يغطي مباريات كرة السلة». وأضافت قائلة وهي تحكم قبضتها على قدح الشاي: «لقد روى لي زوجي أن أحد الأجانب الذين زاروا المخيم اليوم هاتف صحفيا أمريكيا ومكنه من لقطة للبلدوزير صورها بهاتفه الجوال، لم تدم اللقطة أكثر من ثوان ولكنها كانت كافية لفضح ما يفعله عساكر البشير. تناقلت وسائط الإعلام الأمريكية اللقطة، فخاطبته الحكومة الأمريكية وطالبته بالتوقف عن إخلاء المخيم، فامتثل صاغرا».

تعجبت حواء ولم تعرف من أين تبدأ كلامها فقالت: « لقد كنا محظوظين جدا بوجود هذا الأجنبي صدفة لأني لا أرى الكثيرين منهم هنا».

قالت ماري وهي تترشف الشاي: «النظام لا يسمح لهم بالاقتراب، لا يريدونهم أن يطلعوا على ما يحدث داخل المخيم وحتى إذا ما حصل طبيب على تصريح بزيارة المخيم، فإن العساكر يعترضون طريقه

ويتجادلون معه بشأن تصاريح الدخول ويحاولون منعه من جلب أدوية إلينا».

قالت حواء وهي تقرُّ بأنها لم تعد تفهم من الأمر شيئا: «إذا كانت مكالمة هاتفية أوقفت البلدوزير، فلماذا لا تسارع جميع الدول إلى مهاتفة البشير؟».

قالت ماري وهي تحتسي شايها وتتمطَّق بشفتيها: «إنها السياسة كما هو حال أشياء عديدة أخرى في أفريقيا».

قالت حواء وقد قطبت حاجبيها: «ماذا تقصدين؟».

قالت ماري: «كبار القوم في أفريقيا يحتفظون بصداقاتهم مع بعضهم بعضا تحسّبًا لعقد صفقة تجارية. فربما يأتي يوم ويحتاجون إلى تلقي دعم من الأمم المتحدة. كلهم يعرفون قواعد اللعبة».

قالت حواء وقد برقت عيناها: «هل هي لعبة كما في مباراة في كرة السلة أو مباراة في كرة القدم؟».

قالت ماري وهي تبتسم لانفعال حواء: «هي في نظر حكامنا الأجلاء لعبة لا أكثر ولا أقل».

همهم أحمد قائلا: «الأغلب على الظن أنها لعبة لا يأخذونها على محمل الجدّ كما كانوا سيفعلون لو خاضوا مباراة في كرة القدم».

قالت حواء وهي تضرب على ركبتيها بقبضتها: «يجب علينا أن ندفع قادة الدول إلى أن يهاتفوا البشير في كل لحظة».

ضحكت ماري وقالت: «قابلت صحفية من كندا عندما كنت في الجنوب أثناء الحرب. روت لي أنها ظلت تبعث مقالات تصف فيها

الفظائع المرتكبة ولكن رئيس التحرير كان يجيبها: «انتظري حدثا جديدا يستحق النشر». وعندما أرسلت له تقول: «جئتك بخبر جديد عن خمسمائة طفل فروا من ديارهم وألفيّ شخص قتلوا هذا الأسبوع، أجابها هذا ليس بالخبر الجديد، وقد أصيبت المراسلة بخيبة أمل وأصبحت تبحث له عن أخبار متفرقة غرائبية مسلية وهو ما يريده رئيس التحرير منها».

سألتها حواء ما معنى: «غرائبية؟».

قالت ماري: «أخبار تثير الدهشة كأن تتحدثي عن شيوخ يجترون ذكرياتهم ويصفون آخر مرة اصطادوا فيها أسدا برمح أو يصفون طعم لحم فرس النهر أو رجل أرغموه على أن يتزوج من ماعز».

قالت حواء وقد اتسعت عيناها دهشة: «ماعز؟».

قالت ماري: «حكمت محكمة على رجل بذلك لأنه كان يعتدي عليها جنسيًّا».

قالت حواء: «ما هذا الخور؟ كيف ينقل الأجانب عنا قصصا من هذا القبيل؟».

قالت ماري: «أو خبر عن أفريقي وقدرته الخارقة على تذليل الصعاب. لا أحد يريد أن يعرف عن خمسمائة طفل ولكن الصحفي الحصيف يمكنه أن يجعلهم يهتمون بطفل صغير إذا ما عرف كيف يثير عواطفهم ويستدر تعاطفهم معه».

قالت حواء وقد ظهر عليها الارتباك: «لماذا؟».

قالت ماري: «لأنهم لا ينظرون إلينا على أننا أناس مثلهم، ولكن، إذا ما رويت لهم قصة بطلها طفل صغير ذو ملامح إنسانية واضحة، انتبهوا إلى أننا بشر مثلهم».

تأملت حواء قدح الشاي وكأنها تساءله عما يخبئه المستقبل بينما ظل أحمد يراقبها، ثم التفت إلى ماري وقال:

«سأتأخر غدا لأني سأذهب لحضور اجتماع».

قالت ماري: «أظنني أعرف عن أي اجتماع تتحدث».

قال أحمد بصوت هادئ: «سيأتي المتمردون للقائنا».

قالت ماري وهي تهز رأسها: «أيّ من المتمردين تقصد؟ اللصوص أو أولئك الذين يقولون عن أنفسهم أنهم يقاتلون من أجلنا؟ لقد خبرنا هذا في الجنوب، صدقني يا أحمد ولا أخالك تريد أن تزجّ بنفسك في مثل هذا المطبّ».

قال أحمد: «لولا أولئك المتمردون لما توصلتم إلى توقيع اتفاق سلام في الجنوب».

قالت ماري: «نعم بعد عشرين سنة من سفك الدماء».

وفجأة ناولت ماري قدحها الفارغ إلى حواء، إيذانًا بانتهاء فترة الاستراحة وخاطبتها قائلة: « بعد أن تغتسلي، أريدك أن تساعديني على تثبيت ذلك الرجل على الأرض ريثما أستخرج الرصاصة وأنتزع من ذراعه الرصاصة التي استقرت فيها». هزت حواء رأسها وسمعت ماري تضيف قائلة: « أريدك أن تجهزي قائمة بأسماء

المتناوبين وتحرصي على أن يكون تحت تصرفنا في جميع الأوقات عدد كافٍ من المتطوعين الجاهزين لتقديم يد المساعدة».

قالت حواء وهي لا تصدق ما تسمعه: «ولكنني لا أعرف كيف سأكتب أسماءهم».

قالت ماري: «أنت المكلفة منذ الآن بتجهيز قائمات فرق المناوبة، وتدبّري كيف تكتبين الأسماء بسرعة يا عزيزتي».

ظلت حواء مشدوهة من وقع المفاجأة وصاحبت بعينيها المفتوحتين ماري وهي تتجه عائدة إلى داخل خيمة العيادة وتجرّ أردافها الضخمة.

حدثت حواء نفسها قائلة وهي تسير ببطء عائدة إلى عشتها في جو ضبابي: «سأسقط حتما في هذا الاختبار الأول، ستطردني إلى الأبد، ولا مكان لشخص مثلي في العيادة». شعرت بحزن عميق عندما دخلت إلى عشتها الصغيرة وخيل لها أنها ستقضي فيها بقية حياتها وحيدة بلا رفيق ولا أنيس.

كانت تقول لنفسها: «أريد أن أعمل في هذه العيادة وراحت تقلب حظوظها في البقاء في هذا العمل، سأستعين بأحمد لعله يرق لحالي ويشفق علي، وماذا لو رفض؟ لا أريد أن أخيب حسن ظن ماري بي» ثم غلبها النعاس فأحست بأنها تغرق في نوم عميق لن تستفيق بعده.

***

في اليوم التالي، توجه أحمد لحضور الاجتماع حالما انتهت المباراة. التحق به رشيد وهو يشق طريقه في الأزقة الفاصلة لصفوف العشاش.

سأله رشيد: «ألا زلت تعمل في العيادة كل ليلة؟».

قال أحمد: «هم في حاجة إلى من يساعدهم».
قال رشيد: «كم أجرك؟».
قال أحمد وهو يسرع الخطى لعله يتخلص منه: «أجري على الله».
قال رشيد: «أراهنك أنك تمزح معي، هل جننت؟ لا بد أن تطالبهم بأن يدفعوا لك أجرا».
طقطق أحمد بلسانه وأجابه قائلا: «ليس لديهم مال يشترون به ضمادات، فكيف تريدهم أن يدفعوا لشخص مثلي لا يمتلك مهارات؟».
قال رشيد بعد أن أطلق ضحكة لا تخلو من استخفاف: «لديهم المال لشراء سيارات رباعية الدفع وتسديد رواتب ضخمة للأطباء».
قال أحمد: « هم لا يكسبون الكثير مقارنة بما كانوا يكسبونه في بلدانهم».
قال رشيد: «حسنا، فلماذا يأتون إلينا؟».
قال أحمد: « يأتي بعضهم لقناعات دينية لمساعدة إخوانهم في الإنسانية، ويأتي من بينهم من يرون أنّ ما يفعلونه هو عين الصواب. إنهم يعرّضون أرواحهم لخطر الموت إعلاء لكلمة الحق وانتصارًا لقوى الخير».
كف رشيد عن الكلام لأنه كان يحاول جاهدًا اللحاق بأحمد قبل أن يكرّر قوله: «يجب أن تطالبهم بأن يدفعوا لك أجرًا».
قال أحمد: « أنا سعيد بالعمل معهم لأنّي أشعر بأنّي أقوم بعمل صالح، ثم ألم تلاحظ أننا نموت هنا من الضجر؟ فليس أمامنا ما نفعله باستثناء الجري هربًا بأرواحنا كلما جاءوا لقتلنا».

لم يحر رشيد جوابا، وعاوده شعوره بالضآلة والتفاهة؛ شعور لطالما أحس به كلما احتك بأحمد.

ومضى أحمد يقول: «أشعر بالخزي لأن الأساتذة في هذا المخيم يرفضون أن يدرسوا مجانا، فهم يفضلون الجلوس بلا عمل والتذمر والحال أنّ حولهم مئات الأطفال، وكان الأولى بهم أن يعلّموهم مبادئ القراءة والكتابة».

قال رشيد: «لم كل هذا التعليم؟ جدي عصمان يقول: «التعليم لا يصلح لأفريقيا».

سأله أحمد وهو يتعمد أن يضفي على صوته نبرة بلاغية: «لماذا ينهض في أفريقيا إذن الملايين على الساعة الخامسة صباحًا ويقطعون مسافات طويلة للذهاب إلى المدرسة؟ يجلسون هناك وبطونهم خاوية للتعلم طوال النهار ثم يقطعون نفس المسافة للعودة من المدرسة ليجدوا أعباء أخرى تنتظرهم في المنزل، ولماذا يتوسلون لتمكينهم من فرصة لارتياد المدرسة؟».

لم يسمع إجابة من رشيد، فواصل قائلا: «أسرتك ميسورة، فأنت تحصل على كل ما تريد ولا حاجة لك بالتعليم».

قال رشيد: «كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة!».

قال أحمد: «هل ستجري إلى جدك وتشتكيني كما يفعل الصغار؟».

قال رشيد: «ماذا تقصد؟».

قال أحمد بدون انفعال: «أنتم خونة، ولهذا يكرهكم الناس».

قال رشيد: «أسرتي نافذة والجميع يحترمها».

قال أحمد: «أنا لا أخافك ولا أخاف أسرتك، الجنجويد وجبروتهم لم يقدروا علي وأين أنت منهم؟».
صمت رشيد، فأضاف أحمد قائلا: «لو كان والداي في يسر لما ادّخرا جهدا أو مالا كي أواصل دراستي».
غرق رشيد في صمت مطبق، وعندما اقترب مع أحمد من الحشد، مال أحمد نحو رشيد وخاطبه قائلا: «لا أعتقد أن حواء فخورة جدا بتطوّعها للعمل في العيادة».
قال رشيد وقد أمسك بذراع أحمد وحاول ليَّها: « الكلب أشرف منها».
قال أحمد وهو يسحق أصابع رشيد بقبضته القوية: «لقد واجهت الجنجويد في حين هربت أنت محتميًا بجلباب جدك، أتصوّر أنك جئت إلى هنا لتتجسس على المتمردين، أليس كذلك؟».
بصق رشيد في ظهر أحمد وقال: «جدي يمولهم، إنه كريم جدا معهم».
قال أحمد وقد اتّقدت عيناه واندفع صوبه متوعدا: «نعم، هو كريم بمدّهم بالأدوية والأغذية التي يفترض أن تذهب إلى اللاجئين ولكنّ جدك يعطيها للخونة أتباع عبد الله».
صاح رشيد فيه قائلا: «هذا افتراء!».
قال أحمد: «لقد باع عبد الله أهله لقاء كيس من الذهب. لقد نصّبوه نائبًا لرئيس التشكيل العصابي».
شقّ أحمد طريقه وأخذ له مكانًا في الصفوف الأمامية.

ولسوء حظ رشيد، استهلّ قائد المتمردين كلمته بمهاجمة اتفاق السلام الذي وقّعه عبد الله الذي ساءت سمعته. وسرعان ما التهبت الحبال الصوتية، فتعالت هتافاتهم المنددة بعبد الله وجماعته الخونة والمطالبة بشنقهم. وكان الخطيب يرتدي بدلة عسكرية وقميصًا عليه صورة الممثل ارنولد شوارزنيغر ويتحرك بخيلاء ويشهر بين الحين والآخر قبضته ويوجه لكمات باتجاه عدو وهمي.

انتصب فيهم خطيبا، فقال: «يجب أن نكثف جهود المقاومة وألا نستسلم الآن». نحن في حاجة إلى زيادة عدد مقاتلينا، وها قد دقت ساعة الالتحاق بنا، فنحن بحاجة إلى أكبر عدد من المتطوعين لنيل شرف إنقاذ شعبنا».

فجأة، فتر حماس الحشد وضجيجه بعد أن أفاق من تخمره وأحس أن المطلوب الآن تقديم تضحية شخصية.

واصل خطابه قائلا: «نحن بحاجة إلى المال والسلاح والذخيرة وإلى رجال شجعان لمساعدتنا على الدفاع عن قرانا ومنع الجنجويد من مهاجمة نسائنا». ثم أضاف قائلا بحركات مسرحية: «دعوني أرى بعض الشباب الشجعان الذين يريدون الانضمام إلينا للدفاع عن دارفور!».

صاح أحد الشباب قائلا: «أريد التطوع» ورفع يده. وقف وصفق له الحاضرون وقد تنفسوا الصعداء لأنّ أحدهم رفع عنهم الحرج. دعاه قائد المتمردين إلى التقدم ليراه الجميع ووصفه بالرجل الهمام والهزبر الذي سيرسي أسس دارفور الجديدة».

وقف شاب آخر فأفسحوا له الطريق ليتقدم إلى الصفوف الأمامية بين تصفيق الحاضرين وهتافهم. وتواصل الحال على هذا المنوال حتى بلغ عدد المتطوعين سبعة عشر رجلا وقفوا إلى جانب قائد المتمردين وكلهم انتشاء باحتفاء الحضور بهم.

انسحب رشيد قبل أن ينتفض الاجتماع وهام على وجهه عائدا عبر القطاع الذي تبعثرت فيه البقايا الممزقة لمئات الخيام والعشاش التي دمرها البلدوزير.

حدث رشيد نفسه قائلا: «لماذا لم ألتحق بهم؟ فلعلي بذلك أغسل عن أسرتي العار الذي لحق بها».

غير أنه أجفل عندما تذكر كيف سيواجه جده، فكر بنفسه. وتذكّر كيف أنه استجمع ذات يوم شجاعته وأبلغ جده بمجيء حواء إلى المخيم وأبلغه أنها كانت الناجية الوحيدة من أسرتها، فلم يكترث للأمر ولم يعره اهتماما. لقد مات أبوها، الشيخ آدم، وبموته، انتهى اهتمام الشيخ عصمان بزيجة رشيد من حواء. ومن يومها، طويت في أسرته صفحة مشروع زيجته من حواء.

حدث رشيد نفسه وهو يدنو من خيام الأسرة وخيمة جده قائلا: «ستغيرون رأيكم يوما ما عندما ألتحق بالمتمردين وأصبح بطلا».

غادر أحمد الاجتماع أيضا قبل انتهائه وذهب مباشرة إلى العيادة، وقدم سردا بأهم ما دار في الاجتماع إلى كل من ماري وحواء اللتين وجدهما تحاولان تحويل بقايا خرق بالية إلى ما يشبه ضمادات طبية.

قالت ماري: «كم أخشى أن تتخذ قرارا طائشًا بالإنضمام إلى هؤلاء المتمردين وأدعو الله أن يبعدكم عنهم، لأننا بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى بحاجة إلى وجودك معنا هنا». ونظرت تجاه حواء ولسان حالها يقول: «أليس كذلك يا حواء؟»، فأومات حواء لها برأسها تأييدًا لقولها.

قالت حواء مخاطبة أحمد وهي لا تجرؤ على النظر إليه في عينيه: «يجب أن تبقى معنا، أرجوك». هز أحمد كتفيه ولم يبد تجاوبًا، وعندها أحست حواء بخيبة أمل وقالت في سرها: «أظن أن اهتمامه بي أو على الأقل بذكرى المرحومة أختي ليست إلا أوهاما زينها لي خيالي».

تشاغل أحمد عنهما بتنظيف سطل يُستخدم قصرية يتبول فيها المرضى. غير أن ماري تسمرت أمامه مصرة على ألا تتركه يتخلص منها بسهولة وخاطبته قائلة: «عملك معنا هنا أجدى نفعا من أي عمل آخر تقوم به مع هؤلاء المتمردين».

قال أحمد وهو يتجنب نظراتها المصوبة نحوه: «معظمهم يقومون بعمل جيد، ليسوا جميعهم أنذالا، ولكن إذا كنت تريدين لي أن أبقى معكم، فالأفضل ألا تتركيني لحظة واحدة مكتوف الأيدي».

وفي تلك الليلة، توفي عدد من المرضى من الذين أصيبوا في واقعة البلدوزير والذين جلست حواء طوال الوقت إلى جانبهم تعتني بإصاباتهم أو تمسك بأياديهم. وفي الفجر، نال التعب من الموظفين والمتطوعين فأخذوا فترة استراحة جلسوا خلالها على مقاعد خشبية

خارج خيمة العيادة يحتسون الشاي. وجلست حواء معهم في طرف منزو تتأمل قدح الشاي الذي كانت تمسكه بين يديها.
كانت حواء شديدة الخوف من أن تخيب ظن ماري إذا ما عجزت عن إعداد قائمات المناوبة، فطلبت من أحمد أن يساعدها على حفظ أسماء المتطوعين بالعربية، فكتب لها أحمد جميع أسمائهم خلال النهار قبل بدء نوبتهما. وكم كانت دهشتها وهي ترى نفسها قد جدولت نوبة وكتبت أسماء أفراد الفريق المناوب. وعندما جلست ماري إلى جوارها على الدكة الخشبية، انتاب حواء خوف من أن تنتقدها ماري على اعوجاج خط يدها الأقرب إلى خط طفل صغير.
توجهت إليها ماري في الأخير بالحديث قائلة: «شكرا على قائمة المناوبة، حبذا لو تكفلت من هنا فصاعدا بإعداد جداول المناوبة. أريدك أن تسجلي فيها أسماء المتطوعين والموظفين المدعويين للتناوب على العمل».
انتشت حواء بهذا الثناء، فأومأت إليها برأسها بهدوء وجلستا هناك صامتتين بضع دقائق قبل أن تقطع حواء حبل الصمت بينهما وتسألها فجأة قائلة: «من أين تستمدين كل هذه العزيمة؟».
قالت ماري وقد ندت عنها ضحكة خفيفة: «ليس ثمة سر في ذلك أيتها الأميرة، هذه صفة ورثتها عن والدي، رحمه الله».
قالت حواء: «حدثيني عنه، أرجوك!».
قالت ماري وهي تستوي في جلستها على الدكة: «لقد علمني أن الله خلقنا جميعا أحرارًا لا فرق بين هذا أو ذاك حتى وإن كنّا من أعراق

وأمم وأديان شتى، فنحن جميعنا أحفاد سيدنا إبراهيم، ويجب ألا نتقاتل وأن نتعلم كيف نتعايش في وئام».

قالت حواء متسائلة: «سيدنا إبراهيم؟».

قالت ماري: «أحفاده هم الذين حملوا إلينا الرسالات السماوية - الإسلام واليهودية والمسيحية وثلاثتها يؤمن أتباعها بالعهد القديم.

قالت حواء: «إنك تخبرينني بما لم يكن لي به علم».

قالت ماري بعد أن أطلقت تنهيدة: «يبدو أن الناس غفلوا عن هذه الحقيقة. فقبل تسعمائة سنة خلت عندما كان للعرب إمبراطورية مترامية الأطراف، كانوا يسمحون لليهود والنصارى بأن يمارسوا طقوسهم الدينية. كانوا يفرضون عليهم الجزية ولكن، كانوا متسامحين معهم. لقد حدثني أبي عن كل ذلك». ثم ابتسمت لنفسها وأردفت قائلة: «كنا نتحلق أنا وأخواتي حوله كل عشية ونستمع إليه يفسر لنا وقائع وأسباب حرب الجنوب وويلاتها وضحاياها. كان يقول لنا إن معظم المسلمين يريدون السلام باستثناء الجماعة الممسكة بالسلطة في السودان. ولم يكن أبي بشخصيته المعروفة يخشى في قول الحق لومة لائم».

قالت حواء: «ما الذي حصل له؟».

قالت ماري: «كان مسيحيا مؤمنًا ومن سادة قومه. ومن ثمّ، فكثيرا ما كان رجال الأمن يعتقلونه ويشبعونه ضربًا. فقد كان النظام يريد تطبيق الشريعة في الجنوب غصبًا عن الجميع رغم أننا لسنا مسلمين. وكان أبي يرفض أن يمتثل لتعاليم دين غير دينه هو. لم يكن يناصب

المسلمين العداء، كما ترين، وإنما يطالب بحقه في اتباع دينه بسلام. وهو ما جعله يدفع الثمن». كفت عن الكلام برهة وارتشفت شايها وحدقت في الظلمة قبل أن تسترسل قائلة: «أتوا ذات يوم واقتادوه ولم نره ثانية منذئذ».

تذكرت حواء كيف ضحى والدها بحياته وهو يدافع عن قريته. إنها تجلّه ولكن، هل هي تفتقده فعلا؟ ثم خاطبت ماري قائلة: «أراهنك أنّ أباك سيكون فخورا جدا بك لو رأى كل الأعمال الحسنة التي تنجزينها الآن».

قالت ماري بعد أن ندت عنها ضحكة رقيقة: «أبي وأمي وإخوتي وأخواتي كلهم يعلمون علم اليقين ما أنجزته طوال هذه السنين».

نظرت حواء إليها مستغربة.

واصلت ماري قائلة وقد رق وانشرح صوتها: «إنني أحملهم معي بين ضلوعي، إنهم أحياء بداخلي أحدثهم ويحدثونني ولا يتخلون عني ولا يبخلون علي بالنصح وقت الضيق ولا يدعون اليأس يتسرب إلى نفسي إطلاقا».

قالت حواء: «كم أود لو كانت أختي معي هنا!».

قالت ماري دون تردد: «ولكنها هي معنا، ولم تفارقك بتاتا، افتحي قلبك وسترين أنها لم تتخل عنك مطلقا».

شبكت حواء يديها حول عنقها وأرسلت العنان لدموعها. ظلت تبكي وظلت ماري تربت على ظهرها بحنان إلى أن هدأت. ثم انتصبت

واقفة وقالت وهي تبتسم في وجه ماري ابتسامة خجولة: «أختي تقول إن الوقت قد حان للعودة إلى العمل».

الفصل الخامس عشر

المكان: دونكاستر، إنجلترا
الزمان: أيلول/ سبتمبر: 2005

استخدمت الفتاة الإفرنجية العجفاء لفظة «Paki» العنصرية التي تطلق على الباكستانيين، في سؤالها الاستفزازي لزهرة التي كانت لا تزال تجد صعوبة في فهم أهل البلد عندما يتحدثون بسرعة إذ لم يكن قد مر عليها وعلى أفراد أسرتها منذ مجيئهم إلى بريطانيا سوى ستة أشهر. طلبت زهرة من الفتاة في لغة إنجليزية متأدبة أن تكرر سؤالها.

انتفخت وجنتا الفتاة الرماديتان واستحالتا إلى اللون الوردي وأعادت سؤالها بصيغة أكثر فجاجة. لاحظت زهرة أن لون فتحتي أنفها كان بمثل إحمرار البثور المنتشرة في جبينها. أزاحت الفتاة عن عينيها خصلات شعرها الأشقر الضامر الطويل، فإذا بها ترتد وتسقط مباشرة على عينيها من جديد، وهو ما لم يزدها، على ما يبدو، إلا اغتياظا، فزعقت في وجه زهرة «تبا لك، كأن بك صمم أو ماذا!».

جفلت زهرة ورجعت خطوة إلى الوراء وقد تفاجأت بهذه النبرة العدوانية والكلام القاسي، ووجدت نفسها تقول تلقائيا: « أنا من دارفور، بلد مزقته الحرب».

كانت زهرة حريصة على حفظ هذه الجملة التي رددتها كثيرا منذ قدومها إلى بريطانيا في شباط/ فبراير. كانت ترتدي زيا مدرسيا نظاميا يتسق مع وشاحها الأزرق، غير أن ذلك لم يكن كافيا ليصرف نظرة أهل البلد عنها على أنها غريبة قادمة من بلاد بعيدة. قالت زهرة في سرها: «إن ما يحيرني أن للباكستانيين سحنات قوقازية يسهل تمييزها عن ملامح الأفارقة، فهم أقل اسمرارا من الأفارقة، فكيف تشابه الأمر على الفتاة الشرسة وظنت أني باكستانية؟».

انتصبت الفتاة أمامها في ما يشبه وضع استعداد عسكري وأرغت قائلة: «أظن أنه حان الأوان لكي تعودي من حيث أتيت بدل التمعش هنا على حسابنا». لاحظت زهرة أن الفتاة كانت تمسك بإحدى قبضتيها كيسًا أبيض من البلاستيك غاصًّا بالمشتريات وتمسك في يدها الأخرى سيجارة تحتضر، وسمعتها تضيف قائلة بحنق شديد وهي تطوّح بشعرها إلى الوراء بحركة عنيفة: «لا بد من تطهير بريطانيا منك ومن الإرهابيين أمثالك وإعادة بريطانيا إلى البريطانيين».

وقبل أن تحر زهرة جوابا، حملت الفتاة نفسها وابتعدت تاركة زهرة ترتعد من وقع الصدمة الذي أثاره في نفسها هذا الكلام المجاني. سارعت بالعودة إلى الشقة التي تقيم فيها في مجمَع للرعاية السكنية وهي تتساءل ترى ما الذي بدر منها وأثار غضب تلك الإفرنجية.

وأعيتها الحيلة وهي تحاسب نفسها على كل ما صدر عنها لعلها تجد الخطأ الذي ارتكبته وأثار حفيظة تلك الفتاة الشرسة.

واضح أن الفتاة كانت معها في المتجر الكبير، ترى هل لمحتها هناك ورأتها تأتي عملا خاطئا بشكل من الأشكال؟ تذكرت زهرة أنها ابتسمت بأدب عدة مرات في وجه المرأة الجالسة عند جهاز استخلاص ثمن المشتريات ولعلها ارتكبت هفوة في طقوس التعامل الاجتماعي التي ما زال يفصلها عنها سد منيع. أكيد أنها ارتكبت دون شعور منها إثما اجتماعيا تجاوزت عنه المرأة الجالسة عند الجهاز وغفره لها الرجل العجوز الذي كان يقف خلفها في الطابور، بل وتبسط معها وخاطبها قائلا وقد لمعت عيناه: «أتوقع أنك قد تعرفت الآن عن أحوال الطقس في بلدنا»، وشتان ما بين سلوكه وردة فعل الفتاة الشرسة التي كانت تقف بعيدا عنها تدخن سيجارة أمام كشك تذاكر اللوتو.

حدثت زهرة نفسها قائلة وهي تسير بين بقايا القمامة المتناثرة على طول الرصيف المحاذي للطريق وصولا إلى مدخل شقتها: «يا للعدد المهول من الناس التعساء!»، وجوه مكفهرة، وسماء مكفهرة، وأرض مكفهرة، وبنايات مكفهرة. كانت سماء دونكستر تعج بمئات الأبراج من البنايات المتفاوتة العلو في غير ترتيب، وهو ما يعطي لسمائها صورة أقرب إلى ما يشبه طاقم أسنان وأنياب قذرة ومهشمة - عمارات قبيحة المنظر من الاسمنت المتسخ ليس فيها ما يضاهي

إشراقة بناية كرايسلر التي طالما متعت بها ناظريها كلما ناولها جدها مجموعة بطاقاته البريدية لتقلبها بين يديها وتمعن النظر فيها.
كان باب العمارة التي توجد فيها شقتها قد اقتلع من محوره، وكانت أرضية المدخل قد تناثرت فيها، هنا وهناك، كرتونات فارغة من تلك التي تستخدمها مطاعم الأكل الصيني لمن يريد من سكان العمارة أن يحمل طعامه أو يؤتى به إلى شقته. اجتازت زهرة الردهة بأقصى سرعة فرارا من رائحة البول والقيء التي كانت تفوح منها وتثير الغثيان، ولم تكن السلالم أفضل حالا حيث كانت تتراكم في عتباتها أكوام من كرتونات ملوثة بأثر الأكلات السريعة الغنية بالدهون والزيوت، إضافة إلى إبر زرق للحقن تحت الجلد وعلب سجائر فارغة وواقيات ذكرية استعملها أصحابها وألقوا بها. ويبدو أن هناك من لم يتورع حتى عن التغوط في السلالم، وهو ما استعصى على زهرة فهمه في بلد لا يخلو فيه بيت من مرحاض مجهز بطرادة ماء.
وكان المصعد معطلا كالعادة. صعدت زهرة درجات السلالم الكثيرة جدا كما تفعل كل يوم بعد انتهاء الدوام المدرسي عند عودتها من المتجر وهي تحمل مشترياتها من المواد الغذائية. فقد كانت أمها تخشى الذهاب إلى المتجر الكبير إذ صادف أن أشار أحدهم ذات مرة إلى بطنها المنتفخ وفاه تجاهها بملاحظة قاسية جدا. لم تفهم زهرة ما قاله الرجل ولكنها تذكّرت كيف دفعهما من أمامه وكيف كان سلوكه يقطر عدوانية تجاههما. لقد كان الأمر يتعلق بمصافحة اجتماعية محيرة وخطإ آخر وقعت فيه الوافدتان حديثا من السودان.

لم يكن قد مرّ وقت طويل على وصول زهرة إلى إنكلترا وإقامتها فيها مؤقتا رفقة أمها وأخيها وصفية في مأوى لملتمسي اللجوء، وإذ بأمها سماح تعلن أنها حامل. لقد أسرت بذلك إلى ابنتيها إذ نقلت إليهما أنها حبلت من زوجها في الليلة الأخيرة التي قضتها معه في القرية. خشيت زهرة على أمها من هذا الحمل؛ فصحتها ليست على أحسن ما يرام لتتحمل مشاق الحمل، وستتعب نفسانيا لأن ذكرى زوجها الراحل ستلازمها يوميا. ويبدو أن مخاوفها كانت مجافية للحقيقة، إذ غمر أمها الفرح والابتهاج، واستمدت من حملها نفسا جديدا وأقبلت على الحياة. لقد رأت في الجنين هدية من الله وامتدادا لزوجها الحبيب. لذا، عقدت العزم على أن تحافظ على الجنين وتعيش من أجله. كانت تردد على مسمع زهرة وصفية وقد فاضت مدامعها: «لقد أرسله الله إلي لِيشدّ أزري».

وصلت إلى الطابق الخامس، وصادف أن كانت في الرواق جارة لها تدعى مسز إدواردز. عرفت زهرة اسم هذه الجارة من رسائل دفع بها ساعي البريد إلى داخل شقتها عن طريق الخطإ. ذهبت زهرة في الأسبوع الماضي لتسلمها الرسائل، فطرقت عليها الباب. فتحت المرأة فطالعها وجه زهرة تعلوه ابتسامة مشرقة.

انتاب المرأة الذعر. خطفت الرسائل من يدي زهرة وخاطبتها قائلة: «أتصور أن يديك تستوليان على ما يمكن التقاطه من الأرض»، وصفقت الباب في وجهها.

في اليوم التالي، حاولت صفية أن تساعد المرأة على حمل أكياس مشترياتها والصعود بها في السلم وعدد درجاته إثنتان وتسعون درجة بالتمام والكمال، فوصفتها الجارة بأنها لصة ورفضت أن تصعد السلم برفقتها.

مسكت زهرة بباب الرواق مفتوحا في انتظار وصول مسز ادواردز. تسمرت المرأة على بعد مسافة من زهرة وراحت تقلبها كما لو كانت ترى أمامها حيوانا متوحشا.

حيَّت زهرة المرأة قائلة: «مساء الخير» ورسمت على محياها ابتسامة ساحرة لتبديد ارتياب المرأة في أنها ربما إزاء شخص إرهابي أو سارق.

غير أن المرأة مرقت بسرعة من الباب وراحت تطوي السلالم طيا كما لو كانت زهرة ستطاردها وتحز عنقها.

تساءلت زهرة متعجبة وهي تبحث في حقيبتها عن مفاتيح الشقة عن سبب تلك النظرات العدوانية! لقد بثت قزحية عيني المرأة الجامدتين المائل لونهما إلى الأزرق والأخضر، في أوصالها قشعريرة لم يحدث قط أن بثتها فيها العيون الأفريقية المائلة إلى اللون البني.

فلقد حير زهرة أن ترى الناس في دونكاستر يمشون في الطريق ويحاذرون أن تلتقي أعينهم، حيث إن كل واحد يمضي في حال سبيله متجاهلا من يعترضه فلا يلقي عليه التحية كما لو كان يعيش وحيدا في هذا الكوكب ويصارع بمفرده مشاعر وحدته. وإذا ما سمع لهم صوت، فاعلم أن الحافلة قد تأخرت عن موعدها. عندها وعندها فقط،

تسمع لهم غمغمة سرعان ما تخمد ما إن تظهر الحافلة، فيعود كل شيء إلى سالف حالته. ومما حيرها أيضا أنهم ميسورون من الناحية المادية، ولكن لا تسمع أحدهم يرفع ذات صباح عقيرته بالغناء.

فحتى في أشد القرى الأفريقية فقرا، يستهل الناس يومهم بالغناء. فهم يغنون أول ما يغادرون عشاشهم، ويغنون وهم في طريقهم إلى البئر. ثم إن العجّز منهم يجدون في جميع الأوقات شخصا يتحدثون إليه حتى وإن كان رضيعا يهدهدونه ويقصون عليه، إذا عن لهم، رواية من الموروث الشعبي أو طرفة محببة.

كانت زهرة تستعجل اليوم الذي تغادر فيه هذه المدينة الباردة والحزينة الواقعة في شمال شرقي إنكلترا وتفضل أن تغادرها في اتجاه نيوجرسي، المدينة التي يبتسم سكانها، ووجوههم نيرة ومشرقة.

غير أن همومها انقشعت بمجرد أن دخلت إلى الشقة وطالعها وجه أخيها عبد اللطيف الذي دعاها وهو يشير بيده ناحية التلفزيون أن تسرع وتلتحق به وبأمها وصفية على الكنبة.

ظهر على الشاشة رجل أسود يرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق وضعت أمامه صفيحة معدنية كتب عليها«الأمين العام للأمم المتحدة».

تركت أكياس المشتريات تسقط على الأرض وجلست على الكنبة إلى جانب أمها. وأرهفت السمع لكي لا تفوتها أي كلمة من حديث الرجل فسمعته يلفظ عبارة إبادة جماعية. ثم استعانت بشريط أسفل النشرة يقول: «خبر عاجل. كوفي عنان يقول: «لن نسمح بتكرار ما وقع في رواندا».

تسارعت نبضات زهرة وترقرق الدمع من عينيها. فجأة تحولت عدسة الكاميرا عن الرجل الأسود وعادت إلى الأستديو. ظهرت في الشاشة، وراء المذيعة، ومن الناحية اليمنى لكتفها، صورة لمخيم لاجئين تتأرجح في الهواء.

قالت المذيعة: «تلخيصا لما تقدم، يقول الأمين العام للأمم المتحدة إنه عملا بمسؤولية الحماية الجديدة المنوطة بالأمم المتحدة التي أقرتها الجمعية العامة اليوم، يصبح من حق وواجب الدول التدخل لوقف جرائم الإبادة الجماعية أينما وقعت».

التفتت سماح ناحية زهرة وسألتها: «خبريني ماذ يقول!».

دمعت أعين عبد اللطيف وصفية وسماح لسماع إيضاحات زهرة.

قال عبد اللطيف من خلال دموعه: « هذا ما كنا نتوق إليه، الآن ستنقذنا أمريكا، ستنهار الدكتاتوريات وستشيع في بلدي الديمقراطية وحرية التعبير كما في أمريكا!».

أمسك عبد اللطيف هاتفه الخليوي واتصل باسماعيل، صديقه الدارفوري الجديد الذي هو في مدينة ليدز القريبة. وكان قريبهم حسن الذي ضمن فيهم لدى سلطات الهجرة قد أعطاه رقما للاتصال باسماعيل، هذا المهاجر الوافد حديثا والناشط في أوساط الجالية السودانية في شمال إنكلترا. وها هم الآن جميعهم أعضاء في مجلس الجالية الدارفورية في بريطانيا. تذكر زهرة أنها سعدت بانضمامهم إلى المجلس الذي رأت فيه فرصة تدفع عن أخيها عذاب الفراغ القاتل.

لا تذكر زهرة أنها رأت أخاها منذ شهور فرحًا كما تراه الآن وشعرت أن فرحه قد أزاح عنها عبئا ثقيلا. هي أيضا فرحت بالبيان الذي تلاه كوفي عنان رغم أنها لا تزعم أنها فهمت ما وراء مفرداته المنمّقة. لم تكن تريد استباق الأحداث أو الإفراط في التفاؤل. فهي تعيش كل يوم أولا بأول ولا تنفك تثري يوميّا رصيدها من المفردات الانكليزية، وتحمد الله على النجاة وعلى نعمه التي أسبغها عليهم.

لقد قادتهم إلى إنكلترا رحلة مضنية تواصلت ثلاثة أيام توقفوا خلالها في عدة محطات تلتها خمس ساعات من الانتظار في مطار لندن لإجراء مقابلة مع مسؤول من دائرة الهجرة. كان يتعين عليهم إقناعه من خلال مترجم بوجاهة طلبهم اللجوء لدواع سياسية وتكرار أسباب دعواهم بأنهم قد يتعرضون للاضطهاد والقتل إن مكثوا في بلدهم. كان مسؤول دائرة الهجرة يعاني يومئذ من نزلة برد، ويبدو أنه كان أكثر اهتماما بأنفه المزكوم وبالرسائل الالكترونية الواردة عبر هاتفه الجوال من اهتمامه بمقتل أسرة زهرة وقرابتهم بحسن الذي أصبح الآن مواطنا بريطانيا يعيش في دونكستر.

وأخيرا، تقرر إرسالهم إلى دار لملتمسي اللجوء حيث مكثوا هناك طوال سبعة أسابيع انكبت فيها زهرة وصفية على تعلم الانكليزية سويا. ثم قضوا شهرا في دار أخرى قبل أن يعثروا لهم عن مسكن اجتماعي لا يبعد عن محل سكنى حسن في شمال إنكلترا.

وحالما انتقلوا إلى مقر سكناهم الجديد، ألحقوا زهرة وصفية بصف دراسي أدنى بعدة أعوام من صف أندادهم، فأقبلتا على التعلم بكل نهم

وكانتا فخورتين جدا بزيهما المدرسي. وخلال الصيف، اغتنمت الفتاتان أي فرصة للتعلم مجانا وتعزيز ملكة اللغة الانكليزية. غير أن عبد اللطيف ظل فريسة للضجر. كان يريد أن يجد عملا كي لا يبقى عالة على الحكومة البريطانية، ولكن القانون كان يحظر عليه العمل. كان يريد التعرف على أناس من بني جلدته في المملكة المتحدة غير قريبه حسن، ولكن، لم يكن يملك ثمن تذكرة ركوب الحافلة إلى لندن البعيدة مئات الأميال عن دونكستر.

في اليوم التالي، ذهبت صفية بعد انتهاء الدوام المدرسي لشراء لوازم البيت بينما ذهبت زهرة رفقة عبد اللطيف إلى المكتبة العامة لمطالعة الصحف واستقاء مزيد من المعلومات عن بيان كوفي عنان. كان عبد اللطيف بحاجة إلى مساعدة من زهرة لتترجم له ما تقوله الصحف، ومن ثمة، فقد أصبحت المكتبة العامة محطة يتوقفان فيها بانتظام.

بعد أن أعياهما البحث في صحيفة الاندبندنت البريطانية الوحيدة التي تغطي أخبار دارفور بما يشفي الغليل، يئست زهرة من البحث وقالت لعبد اللطيف: «دعنا نبحث في صحف البلدان العربية في الانترنت، الانترنت مجانا هنا».

رحب عبد اللطيف باقتراحها وطرح اسم الدايلي ستار اللبنانية باعتبارها الصحيفة الوحيدة التي يثق بها من بين الصحف التي تصدر في البلدان العربية.

بعد ساعة، ارتد إلى الخلف مذهولا والتفت ناحية زهرة وشفتيه ترتعشان قائلا: «يقولون إن اتخاذ الأمم المتحدة لقرار لا يعني أن القرار سينفذ وأنها ستقوم بأي عمل في صالح دارفور. فالأمم المتحدة تصدر دائما قرارات تلو القرارات التي تظل حبرا على ورق».

أظلمت الدنيا فجأة في عيني زهرة وكادت تسقط من على كرسيها. ثم سرعان ما استعادت توازنها وسخرت من نفسها كيف أنها صدقت أنه ثمة من سيهبّ لنجدة دارفور. قالت في سرها وقد أحست بالغمّ: «نحن لا نطمع في أن يرسل المجتمع الدولي قوات إلى دارفور، نحن نريد منه فقط أن يمنع تسليح النظام السوداني، فهل هذا مطلب صعب المنال؟».

قالت وهي تصلح أكمام قميص أخيها: « هيا بنا إلى الشقة فأمنا تنتظرنا هناك، ولكن دعني أرسل هذا المقال إلى إسماعيل!». لقد تعلمت زهرة في ظرف عدة أسابيع فقط كيف تستعمل الكمبيوتر.

عندما رجعا إلى الشقة أحزنها أن ترى أخاها يغير القناة التلفزيونية ليشاهد برنامجًا ترفيهيًّا بدل التواصل مع أصدقائه الدارفوريين على شبكة الويب.

ظلت زهرة في الغرفة التي تتقاسمها مع صفية وقد ركزت كلتاهما على واجباتهما المدرسية وكلهما همة ونشاط. وفي الساعة العاشرة، أطفأت الفتاتان أنوار الغرفة، وعندها تناهت إلى سمعهما أصوات وضحكات تنبعث من التلفزيون وتتسلل إليهما من خلال الجدار الرهيف الذي يفصل غرفتهما عن غرفة الجلوس.

شعرت زهرة بموجة من الخوف تكتسحها لا تعرف مأتاها. كتمت شهقة ودفنت وجهها في الوسادة من شدة قهرها مما حدث ويحدث لأسرتها وأهلها. كانت تريد أن ترى أخاها قويًّا متماسكًا يشدّ ساعدها ولا يتركها تجابه المشاق بمفردها.

ثم سمعت صوتًا أليفًا يخاطبها من داخلها ويطمئنها بأن كل شيء سيكون على ما يرام. إنه صوت جدها. قالت في صمت: «أتمنى ذلك يا جدي». ثم استعادت تنفسها الطبيعي واستسلمت للنوم كما تستسلم ورقة لتيار نهر يتهادى بها.

الفصل السادس عشر

المكان: مخيم الجنينة، ولاية غرب دارفور
الزمان: أيلول/ سبتمبر 2005

تركنا كارن فريمن وقد عقدت العزم على العودة إلى دارفور في أقرب وقت ممكن. لذا، وبمساعدة من راشل بينت وأصدقاء راكيل في منظمة «انقذوا دارفور»، جمعت المال اللازم لشراء تذكرة الطائرة. وكانت كارن قد جمعت قصاصات من صحف العالم تتحدث عن رسوم الأطفال. وطبعت تقارير عنها نشرت في الإنترنت، على أمل أن تعرض على المقيمين في المخيم نفحات من الإثارة التي أحدثتها

رسومهم. أخفت الرسوم في الجيوب السرية لحقائبها وبدأت رحلة العودة إلى الجنينة.

كان أول ما استرعى انتباه كارن عند مجيئها إلى المخيم هذه المرة أن المخيم قد تعاظم حجمه ثلاثة أضعاف ما كان عليه في زيارتها السابقة، وأنه أصبح يضم عددا أكبر من عمال المساعدة الإنسانية الأجانب. وترسب لديها هذه المرة انطباع بأنه ثمة حالة من التوتر في أجواء المخيم خلافًا لروح التضامن والتكاتف التي كانت سائدة بين أناسٍ وحدتهم المعاناة والعذابات وغريزة حب البقاء. فقد أصبح الشباب يتحدون على نحو سافر سلطة الشيوخ ولا يلقون بالا لهياكلها التي عمرت دهورًا، وأصبحت هناك جماعات متمردة لا تتورع عن دخول المخيم وتجنيد الأطفال ومطالبة المقيمين في المخيم الذين باتت تتجاذبهم الفصائل المتمردة بأن يؤيدوا بياناتها السياسية دون غيرها من الجماعات. ولم يغب عليها أيضا أن شيئا هاما جدا قد ضاع بمقدم هذا الكم الضخم من اللاجئين الجدد.

في أول مصافحة صباحية لكارن في المخيم، جمعت الأطفال الرسامين وأمهاتهم الذين أجرت معهم مقابلات في زيارتها السابقة. لم يكن من السهل عليها أن تفسر لهذا الحضور الذي يجهل تماما كل ما هو تقارير اخبارية تنقلها قنوات تلفزيونية أو مجلات، ولكنها، بالاستعانة بمترجم، أمكنها أن تنقل إليهم الصدى الذي تركته الرسوم في عالم لم يكن يعرف الشيء الكثير عما يحدث في هذا البلد الأفريقي النائي.

كانت تتحدث وهي تعرض أمامهم خارطة استخرجت صورة منها من الأطلس تظهر فيها دارفور في وسط أفريقيا. ثم أشارت إلى كل بلد من البلدان التي ورد فيها ذكر الرسوم في تقارير إخبارية عرضتها قنوات تلفزيونية.

وزعت كارن القصاصات على الأمهات وراحت ترصد ردود أفعالهن. عم الارتباك وخلت وجوههن من أي تعبير بينما ظل الأطفال يحدقون في إبداعاتهم وكلهم مندهشون في حين قهقه بعضهم، إما لوقع المفاجأة أو لارتباك قد اعتراهم. ثم أخذت في الأخير تظهر ابتسامات على وجوههم.

كان من بينهم طفل عمره ثلاثة عشر عاما ظل فاغرا فاها غير مصدق أن ما يراه في القصاصة هو الصورة التي كان رسمها هو بنفسه. سأل الطفل كارن قائلا: «هل قلت أنك أتيت بهذا من إيطاليا؟».

أومأت له برأسها.

قال: «إيطاليا، مثل أي. سي. ميلان؟»، وهو فريق إيطالي شهير لكرة القدم.

أومأت له برأسها مرة أخرى.

قال«الناس في إيطاليا يعرفون ما حدث هنا لأني رسمت هذه الصورة؟».

قالت وقد تهللت أساريرها وهي تتلمس موجة الفخر التي غمرته: «وهو كذلك!».

عندما تيقنت كارن من أنهم استوعبوا عظمة الإنجاز الذي حققوه، أشارت إلى هولاندا في موقعها على الخارطة وخاطبتهم قائلة: «هنا يوجد مقر محكمة الأمم المتحدة، المحكمة الجنائية الدولية». سيعتقلون الجناة الذين يقتلون أهاليكم. سيحيلونهم على أنظار المحكمة بتهمة ارتكاب جرائم بحق الإنسانية وجرائم الإبادة.

لم يكن لكلامها أي أثر على وجوههم، فأنى لهم أن يستوعبوا أن تستطيع محكمة في بلد بعيد أن تخنق في المهد جبروت العصابة الممسكة بالحكم في السودان.

واصلت كارن قائلة: «لقائل منكم أن يقول إن المحكمة لن تعيد إلي أخي أو زوجي الذي قتلوه، ولكن المحكمة تريد أن تتأكد من أن الرؤوس المدبرة لهذه الجرائم سينالون عقابهم».

أرهفت الأمهات والأطفال السمع.

قالت كارن: «لقد جمع قضاة المحكمة الأدلة التي تدين النظام في الخرطوم وسيستندون إلى رسوم الأطفال لإثبات الوقائع التي جدت هنا. ستدفع المحكمة بهذه الصور عندما تبدأ المرافعات في هذه القضية. سيعلنون للعالم أن البشير وبقية القائمين على الحكم هم المسؤولون عن المعاناة التي تسببوا لكم فيها هنا».

سأل أحد الحضور غير مصدق ما سمعه: «هل معنى كلامك أنهم سيعرضون هذه الرسوم أمام القضاة؟».

أومأت كارن برأسها، وأوضحت أن الصور مهمة لأنها توثق التواريخ التي هوجمت فيها هذه أو تلك القرى، وتبين ما فعل سلاح الجو والجنجويد في كل قرية، ونوعية الأسلحة التي استخدمت.

وأضافت قائلة: « أطفالكم أبطال، لقد أحسنوا رسم الدبابات والطوافات، فأفحموا بها نظام البشير الذي لم يستطع أن يثبت أن قواته لم تكن في مكان الجريمة».

بدأ الحضور يهزون برؤوسهم تصديقا على كلامها.

قالت كارن: «هل أدركتم الآن أهمية الدور الذي قام به أطفالكم؟».

ضج الحضور بالتصفيق وتهللت وجوههم، ومسحت إحدى الأمهات دمعة من طرف عينها وهي تقول للأخريات: «إبني بطل».

قالت كارن موجهة كلامها للحضور: «كلكم أبطال».

***

في تلك الأثناء وفي جانب آخر من المخيم، كانت حواء قد استيقظت كعادتها ككل صباح وقد خيل لها للحظة أنها عادت إلى سالف حياتها. فهي في اللحظات التي تسبق استفاقتها من نعاسها، يخيل إليها أنها ليست في مخيم اللاجئين القريب من مدينة الجنينة، وتنسى أنّ حربا تدور رحاها حواليها.

في تلك اللحظات التي تسبق انبلاج الفجر، تكون الرؤية ضبابية، وتجد حواء نفسها في ما يشبه برزخا يأخذها إلى قريتها. ثم ترى نفسها وهي تستعد لبدء يوم جديد، وتستحضر قائمة الأعمال الاعتيادية التي يتعين عليها إنجازها وعلى رأسها الذهاب إلى البئر لجلب ماء

منها، والخروج إلى الفلاة لجمع حطب توقد به نارا تطهو عليها طبيخًا من الفاصوليا والحبوب.

ثم تشعر بعصف من صور متلاحقة تعيدها إلى وقائع الهجوم الذي استهدف قريتها. كان هناك ما يشبه قوة تطوح بها صباح كل يوم، فيرتطم جسمها بجدار، ويرتد بعنف ككل صباح وقد تعددت فيه الكدمات، وإذا بجراحها قد نكئت مرة أخرى وإذا بها فريسة من جديد للخوف والحزن والشعور بالذل والمهانة. كانت تتنهد ارتياحا كلما هبت واقفة ونفضت عن عينيها تلك الصور. ولكن الصور تأبي أن تفارقها حيث إنها سرعان ما كانت تعود إليها كلما حاولت أن تغمض عينيها. ولطالما تساءلت عما إذا كانت هي الوحيدة التي تلاحقها هذه الكوابيس وما إذا كانت تلاحق أحمد وماري وجميع المقيمين في المخيم أيضا، ولطالما سألت نفسها لماذا لا يتحدثون في هذا الأمر؟ ولكنها كانت في كل مرة تنهر نفسها بحزم لتكفّ عن التمحص والتفحص.

مرت الآن ثمانية أشهر منذ أن اقتلع بلدوليزر الجيش السوداني خيام وعشاش المخيم ومنذ أن عادت حواء إلى تقديم يد المساعدة في العيادة يوميا، وكلها ارتياح لأنها وجدت طريقة تشغل بها نفسها. لم تعمل مطلقا أقل من إثني عشر ساعة يوميا على مدار الأسبوع. وكان الإرهاق الذي ينتابها في آخر النهار خير ضمان للنوم نوما عميقا طوال الليل.

ساعدها أحمد على حفظ الحروف العربية وعلى إثراء رصيدها من مفردات اللغة العربية وقواعدها. وفي لحظات الراحة، كانت تجلس في ركن من العيادة وتمسك بكتاب من كتب الأطفال المُتبَرَّع بها للمخيم وتحاول قراءته. وكانت تشعر بالإحباط لبطئها الشديد في استيعاب المعاني وتحس بنفسها تائهة كمن يخبط خبطات عشوائية في أرض غارقة في الأوحال.

غير أن الأمر يختلف في أيام أخرى، إذ تأتيها المفردات سراعا، فتشعر بدفعة معنوية. لقد انتبهت فجأة لأول مرة في حياتها إلى أن الحروف توجد في كل مكان، وكلما تعرفت على كلمة جديدة، ازداد شعورها بأنها في سبيلها إلى الانضمام إلى ناد لا ترتاده إلا نخبة محظوظة، وأحست بأن أسرارا جديدة تتكشف أمامها، بل وقد يعتريها أحيانا شعور خفي بالتفوق على الآخرين.

كانت تريد أيضا أن تثبت لأحمد أنها تستطيع إنجاز الأعمال التي يطلبها منها، فتتعلم عددا أكبر من المفردات والجمل. كانت لا تزال تشك في أن اهتمامه بها لا يعدو عن كونها تذكّره بالمرحومة أختها الكبرى. ولكنها كانت تقول لنفسها إنه يكفيها منه أن تتمتع بصحبته قدر الإمكان، بصرف النظر عن العلاقة التي يحبّذها معها.

وكانت تجد متعة كبيرة أيضا في أن تشهد لها ماري بقدرتها على فهم المشاكل الطبية مهما كانت معقدة وعلى تنظيم عمل المتطوعين، وفي أن تشعر بأن ماري تثق بها وبمهاراتها ثقة كبيرة. ورغم أنها لا تزال تخشى أن تفشل فشلا يسبب متاعب للعيادة، فإنها كانت تشعر

بأن حرصها الكبير على إرضاء ماري يظل حافزا كبيرا على إنجاز عملها بإتقان.

في المرة الأولى التي وقفت فيها حواء أمام طابور من دزينتين من المتطوعين للعمل في العيادة، كاد أن يغمى عليها من الرهبة، وخشيت أن يتجاهلوها وبخاصة الرجال منهم. غير أن خوفها انقشع، بمجرد أن بدأت تشرح لهم العوامل التي وضعتها في الاعتبار عندما أعدت جدول الأوقات وتوزيع المتطوعين وتحديد من منهم سيتعلم هذه المهارة أو تلك. استمع لها الجميع باحترام واستفسروا منها عن عدة أشياء كما لو كانت خبيرة.

ويضاف إلى ذلك أن المتطوعين والملتحقين حديثا بموظفي العيادة كثيرا ما كانوا يلجؤون إليها خلال نوبات عملهم طلبا للمشورة والنصح وما كانوا يلتفتون ناحيتها إذ أخذت الكلمة في الاجتماعات. ويبدو أن هذا الأمر لم يغب عن ماري التي واصلت اسناد المزيد من المهام والمسؤوليات إليها وأخذت تدربها على إجراء عمليات أخرى أكثر تعقيدا في مجال التمريض.

في الشهر السابق، أعلنت ماري أن المنظمة الألمانية الخيرية تريد توظيف حواء وأحمد على أساس مؤقت لقاء أجر بسيط. لم تصدق حواء أن المنظمة تقدر عملها وشعرت بانشراح وفخر كبيرين.

أصبحت تشعر بأنها تتحول رويدا رويدا إلى شخص جديد. وقد أرهبها في البداية هذا التحول ولكنها أصبحت تحس في المقابل أنها

تخطو كل يوم خطوة جديدة تفتح لها عوالم كانت مجهولة تماما. فلم يكن يمضي عليها يوم واحد إلا واكتسبت فيه معلومات جديدة.

كان أحمد لا يبخل عليها بالمساعدة ويجلس إلى جانبها ليذاكرا سويا. كان وجوده في العيادة حافزا إضافيا لتطوعها للعمل هناك وإن كانت تنكر حتى في سرها أن يكون له دخل في ذلك. استهلت ماري عملها يومئذ بنقل فحوى بيان صادر عن المسؤولين عن المخيم يحذرون فيه الجميع من أي متطوع أجنبي يعرض عليهم خدماته.

حاول أحمد أن يعقب على كلامها، فقال: «ماذا لو كان المتطوع الأجنبي صاحب مهارات نحتاج إليها؟»، إلا أن ماري أسكتته بنظرة رادعة. ثم أخذت لها مكانا على حافة المقعد الخشبي وأضافت قائلة:

«اسمعوا جيدا، أغرب هؤلاء الرهط من يريد التطوع تزامنا مع الحالات الطارئة. والمشكلة الكبيرة التي لا بد من الانتباه إليها في هذه الحالة أن بعضهم يتطوع بهدف الاعتداء على الأطفال الميتمين وغير المصحوبين بذويهم أو اختطافهم».

قال أحمد وقد ظهرت عليه علامات الذعر: «شيء مقرف».

قالت ماري: «يبدو أنهم أصدروا هذا التحذير بعد حادثة جدت في إحدى المخيمات».

قالت حواء وهي تنظر إلى ماري مصدومة: «لم أعد أتحمل سماع مثل هذه الأخبار الفظيعة».

قالت ماري وهي تنظر في عيني حواء: «فكري في الأشياء الجميلة والناس الطيبين في بلدان بعيدة وهم الذين لا ينفكون يذكرون قادة بلدانهم بأنّ عليهم أن يساعدوا دارفور».

أومأت حواء برأسها وقد تذكرت تقريرا عن مظاهرة ضخمة في الولايات المتحدة حيث سار أناس من جميع الديانات والأعراق سويا في مظاهرة تطالب المجتمع الدولي بالتحرك لوقف الحرب في السودان.

ومضت ماري تقول: «فكروا في الأرامل المعدمات اللاتي يواصلن بالرغم من ذلك تبني الأيتام، وفي الرجال الذين يضحون بأرواحهم لتعطيل هجمات الجنجويد ريثما إفساح الفرصة لذويهم للنجاة من كيدهم!».

أومأت حواء برأسها، ثم أطرقت وقد تذكرت كيف بقي والدها في القرية وفضّل أداء واجبه بوصفه شيخ القرية على أن يفرَّ وينفذ بجلده.

بعد انتهاء ماري من تقديم هذه الإيضاحات، جلست إلى جانب حواء، ثم ضيّقت عينيها وتفحصت ملامحها الجادة وسألتها قائلة: « ماذا دهاك؟».

قالت حواء: «ألا ينتابك الخوف أبدا؟».

قالت ماري وقد تقوس حاجباها وحركت رأسها بدلال مداعبة حواء: «لم يفارقني الخوف مطلقا». يلاحقني الخوف من أن تلفّق المخابرات تهمًا لي أو لزوجي وتأتي لاعتقالنا، ويلاحقني الخوف من أن يقتحم

الجيش المخيم ويقتلنا جميعا أو أن يأتي سلاح الجو ويقصفنا، ويلاحقني الخوف من أن يأتي الجنجويد إلينا ويفتكوا بنا».

قالت حواء: «ولكنك تبدين....»، بحثت حواء عن الكلمة المناسبة ولكنها لم تجدها.

قالت ماري بصوت خفيض: «إنه قناع تلبسه نساء كثيرات، يتصنّعن الثقة في النفس والهدوء والاحترافية، والحال أنهن يتساءلن ما إذا كن سيتحملن طويلا الضغوط الواقعة عليهن».

كررت حواء قولها: «قناع، بمعنى قناع تتحصنين وراءه؟».

قالت ماري: «تماما، أيتها الأميرة، ولنعد الآن إلى حجر الرحى!»، ثم ناولتها وهي تبتسم في وجهها بدلال سطلا من الضمادات المضمّخة بالدم.

وعندما ظهر أحمد إلى جانب ماري، أضافت قائلة: «ورد في النشرة الأخبارية أن سلاح الجو قصف بالأمس مواقع تقع على بعد عشرين ميلا شرقًا، لذا نتوقع قدوم مزيد من اللاجئين إن نجا منهم أحد ولم يلق حتفه وهو يحاول المجيء إلى هنا».

تمتم أحمد قائلا: «كان الله في عونهم» ثم أضاف قائلا وهو يسحب السطل من يدي حواء: «دعيني أستهلّ عملي بهذه الضمادات» قالت حواء: «أمرك سيدي أنت الآن من أصحاب الأمر والنهي في العيادة، أرجوك أن تنجز هذا العمل بسرعة». ابتسم لها وردت عليه الابتسامة بحياء.

الفصل: السابع عشر

المكان: دونكستر، إنكلترا
الزمان: أيار/ مايو 2006

كانت زهرة وصفية منكبتين على المذاكرة أمام المكتب الذي تتقاسمانه عندما طرق عليهما عبد اللطيف باب غرفة نومهما. كانت الفتاتان قد شبكت في دبابيس غرزتاها في الجزء الأعلى من الجدار المقابل للمكتب، العديد من القصاصات التي أحكمتا اقتطاعها من صفحات الجرائد البريطانية التي نقلت رسوم الأطفال التي أتت بها كارن فريمن من المخيمات.

سألهما عبد اللطيف قائلا: «ما الموضوع الذي تذاكرانه الليلة؟».

قالت زهرة بنبرة جادة وقد لمعت عيناها العسليتان على نحو ذكَّر عبد اللطيف بنباهة جده محمد: «نذاكر درسًا عن الحرب العالمية الثانية وما فعله الإنسان بأخيه الإنسان، وبخاصة ما فعلوه ببعض الأقليات». ألقت نظرة على أوراقها وقالت: «تصور أنهم أبادوا نحو ستة ملايين نسمة بين يهود وغجر وأقليات أخرى!».

افتر ثغره عن نصف ابتسامة وقال: «من فعل بهم ذلك؟».

قالت زهرة: «ألمانيا النازية التي كانت عقيدتها السياسية أشبه ما يكون بنظريات الإسلام السياسي المتشدد هي التي فعلت ذلك. كانت

مثلهم تريد إخضاع الجميع لإرادتها. لقد قتل الحكم النازي الملايين منهم، والكثيرون قُتلوا لا لشيء إلا بسبب دينهم أو عرقهم أو لون بشرتهم في جريمة إبادة جماعية لم يشهد التاريخ مثيلا لها من قبل، لقد اقتادوهم إلى معاقل الإبادة بدعوى أنهم من جنس دون البشر».

قال عبد اللطيف الذي فارقت الابتسامة محياه منذ زمن بعيد: «كأني بالفكر النازي قد انبعث في بلدنا متدثّرًا بمسوح إسلاموية». ثم عقد ذراعيه ومال ناحية عارضة الباب وأخذ يحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال تحسّرًا. ثم توجّه بالكلام إلى زهرة مذكرًا إياها بأن تصطحبه بعد دوامها المدرسي في اليوم التالي إلى مدينة ليدز. غير أنه لم يرغب في إخبارها بأنه لا يعرف كيف يتدبّرأمره دونها، يخشى التواصل بالانكليزية ولا قبل له باقتناء تذاكر السفر والاهتداء بنفسه إلى مكان اجتماع مجلس الجالية الدارفورية في بريطانيا.

أضاف عبد اللطيف قائلا: «أمي وافقت على مجيئك معي». قالت زهرة وقد تهللت أساريرها: «عظيم!».

ابتسم عبد اللطيف وسمعت زهرة خطاه وهو ينسحب باتجاه الكنبة، ثم وهو يجلس يشغّل شاشة التلفزيون. تغيرت علاقته بأخته، منذ أول يوم غادرا فيه القرية. لم يعد بإمكانه أن يملي عليها أوامره. فقد انقلبت المعادلة وأصبحت هي التي تمسك بزمام الأمور كما تبين أثناء وجودهما في المخيم، وفي مركز الاحتجاز في إنكلترا حيث ارتهن مستقبل الأسرة بإجراءات وإملاءات بيرقراطية لا سبيل للالتفاف عليها. وهي تعلم جيدا كيف يشعر الرجل السوداني إذا ما وجد نفسه

يعيش عالة على غيره، لا حول له ولا قوة، ولا يملك لنفسه نفعا. لقد وجد نفسه تحت رحمة دافعي الضرائب البريطانيين، لا يستطيع أن يرأس أسرته، بل ولا يستطيع أن يشتري رغيف خبز دون أن يكون قادرا على تذليل ما ينطوي عليه مثل هذا العمل البسيط من صعوبات لغوية وثقافية جمة.

سمعت زهرة أخاها يتحدث في الهاتف مع لاجئين آخرين من أبناء دارفور عما يجب عليهم أن يفعلوه على وجه التحديد عند عودتهم إلى البلد، غير أنها لا تنفك تتساءل الآن متى يستتب الأمن في بلدهم ليتمكنوا العودة إلى ديارهم. فهي لا تنكر أن الانشراح يغمرهم كلما طرحت مسألة دارفور على جدول أعمال مجلس الأمن على أمل أن يفصل فيها أخيرا. ثم يتابعون على الإنترنت أنباء تتحدث عن سير الطلبة الأمريكيين في مظاهرة تضامن مع أبناء دارفور، وعن مشاهير من عالم سينما هوليود يستنكرون انتهاكات حقوق الإنسان المرتكبة في دارفور ويطالبون بإنهاء الكابوس الجاثم على صدور أهاليها.

ثم ها هو الرئيس البشير يدعو إلى فض المشاكل الأفريقية في نطاق الأسرة الأفريقية. وها أن زملاءه رؤساء الدول الأفريقية الأخرى أمثاله من الديكتاتوريين يؤيدون اقتراحه، بدعوى أن أمريكا القوة الاستعمارية الجديدة هي أكبر من ينتهك حقوق الإنسان. أما البلدان العربية، فسيدعون بوجود مؤامرة صهيونية ضد الإسلام والمسلمين، وهي أسطوانة تلقى رواجا وقبولا في أسواق السياسة العربية. ثم

وباستثناء بعض الحالات، تنتقل الصحف سريعا إلى التركيز على كارثة جديدة في العالم.

عندما انتهت زهرة من إنجاز واجبها الدراسي المنزلي، دخلت على أطراف أصابعها إلى غرفة الجلوس، فوجدت أخاها نائمًا كعصفور على الكنبة، وكانت ملامح وجهه الدقيقة تظهر وتختفي كلما سطع أو خفت النور المنبعث من شاشة التلفزيون الذي تركه مفتوحًا واستسلم للنوم. التقطت جهاز التحكم عن بعد وضغطت على زر الإطفاء.

لم تكن زهرة تحب برامج التلفزيون وكانت لا تتابع إلا نشرات الأخبار. فالمنوعات التي يعرضها تتسم بتفاهتها وحتى ألوان ديكور الاستديو قبيحة. أما فرسان الشاشة، فكلهم زيف وحتى الضحكات المجلجلة التي يطلقونها بمناسبة ودون مناسبة، فكلها يغلب عليها التصنع، إضافة إلى الملابس غير المحتشمة التي تظهر بها النساء، ومبالغتهن في استعراض عواطفهن الكاذبة. وقد حارت زهرة في فهم التناقض الصارخ بين ما تراه من البريطانيين على الشاشة وما تراه منهم في الشارع أثناء النهار. فهم أبعد ما يكون عن المخلوقات الصاخبة التي تراها على شاشة التلفاز.

ألقت نظرة على أخيها الذي انخسف جسمه في وثار الكنبة الميثودية كما تسميها باعتبارها من عطايا كنيسة الحي الميثودية التي جاءت لهم بجميع قطع الأثاث الموجودة في الشقة. ففي أول صباح يوم سبت منذ قدومهم إلى دونكستر، زارتهم مجموعة من أتباع هذه الكنيسة جاءوا

بصناديق حملوا فيها لوازم المطبخ من صحون وأوان ومناديل، وملاحف، إضافة إلى صوفة ومائدة سفرة وأفرشة.
قدمت سماح لأفراد المجموعة قدحا من الشاي وبعضا من الكعك الصغير الذي يأكله الإنكليز في جميع المناسبات. وطلبت كبيرتهم من زهرة أن تترجم أسئلتها الموجهة إلى سماح) أحس عبد اللطيف بأن البساط سحب من تحت قدميه وأنه يتلقى طعنة في ذكورته ولكنه تحامل على نفسه (وظلت القسيسة والآخرون يستمعون باهتمام إلى زهرة وهي تروي ما حدث لهم وقد اغرورقت عيناهم بالدموع.
قالت القسيسة بصوت حزين وهي تمسح دموعها: «كنت أظن أن هذه الفظائع لن تتكرر بعد الذي حدث في رواندا، صدقوني هذا هو الجنون بعينه، كم أنا حزينة بسبب ما أصابكم».
طلبت سماح من ابنتها أن تبلغهم أنها تشكرهم على مساعدتهم وعلى معاملتهم معاملة الأخ لأخيه.
ترجمت زهرة ما طلبته منها أمها أن تترجمه، فاغرورقت عيون أتباع الكنيسة مرة أخرى. وأسفت سماح لرؤيتهم على تلك الحال، خاصة بعد أن لمست فيهم كل تلك الطيبة، فطلبت من زهرة أن تغير الموضوع. امتثلت زهرة لطلب والدتها وسألت القسيسة على سبيل المداعبة: « أنت كبيرتهم، حسب ما فهمت، فهل يطيعك الرجال أيضا؟».

ضحك الآخرون ودقوا بأياديهم على ركبهم من شدة المرح، وقال أحدهم مازحا: «نحن نرتعد خوفًا منها»، فأثار موجة أخرى من القهقهة.

قالت القسيسة: «إنهم يمزحون، نحن لا نملي على الناس ما يتوجب عليهم فعله. لدينا أسلوب حياة نشير به على الآخرين ولكن، لا نرغم أحدا على اتباعنا. نستمع إلى أسئلة الآخرين ولا ندعي أنّ لنا إجابة على كل سؤال».

أومأت زهرة لهم برأسها وتبسّمت لهم تأدّبًا. ولكن بعد أن غادروا، تحدثت مع أمها وأخيها وصفية في الموضوع فتساءل جميعهم عن الحكمة في اتباع دين يخلو من مفهومي الحرام والعقاب ولا يجيب عن جميع الأسئلة التي تخامر ذهن المؤمن. فالقسيسة امرأة لطيفة وعذبة المعشر ومهذبة جدا ترتاح لها النفوس، وهذه خصال ربما تغري البعض باتباع دينها. ولكن هل بإمكانها أن تؤم الناس من غير أن تكون من أهل الحل والعقد؟

أعلنت زهرة لهم أنها تعتزم التعرّف عن كثب على خصوصية كل كنيسة، وأنه من الأفضل الإلمام بها لتجنب أي سوء فهمٍ باعتبار أنه من المؤكد أن تكون هذه المذاهب المختلفة موجودةً أيضا في نيوجرسي».

قال عبد اللطيف: «لن نذهب إلى نيوجرسي، سنعود إلى بلدنا».

لم تكن زهرة متأكدة من رغبتها في العودة إلى دارفور، ولكنها احتفظت بأفكارها لنفسها رغم أنها كانت تشعر بأنّ أمها وصفية لا

تريدان العودة إلى بيوت الطين حيث لا كهرباء ولا مدارس ولا حواسيب ولا ماء.

وعندما قرب موعد وضع سماح لمولودها، رجع أتباع الكنيسة الميثودية وجاءوا بملابس ولعب للرضيع وأشياء أخرى لتأثيث البيت، وهو ما أدخل البهجة على سماح. ووجدت القسيسة هذه المرة الوقت الكافي للرد على أسئلة زهرة وطرحت عليها بدورها عدة أسئلة عما وصلت إليه مساعيهم في الحصول على حق اللجوء. ولم تفقه زهرة أيا من تلك الأسئلة. أعطت القسيسة لسماح رقم هاتفها وطلبت منها الاتصال بها عندما تداهمها آلام المخاض. وعبر لها أفراد الأسرة عن امتنانهم على العرض الكريم، وحاولوا أن يفسروا لها أن المرأة الأفريقية متعودة على تحمل آلام المخاض والوضع في ظروف صعبة.

عرفت سماح أن أعراض المخاض قد باتت قريبة، وهي التي سبق لها أن حملت وولدت ست مرات. فرافقتها زهرة وصفية إلى المستشفى المحلي الكائن على بعد ميل واحد، وهو أمر هين عليهن باعتبار أن معظم النساء الأفريقيات يسرن لساعات طويلة مشيا على الأقدام للحصول على حبة أسبرين. وبعد ساعتين من ولادة يوسف، جلس عبد اللطيف وزهرة وصفية حول سرير سماح وقد انبهروا بمرافق المستشفى التي تلمع من شدة النظافة وبحسن معاملة الممرضات والأطباء.

قالت سماح للطبيب، وترجمت له ابنتها كلامها: «شكرا جزيلا على العناية التي أوليتموني إياها، بارك الله فيكم».

في نهاية الأسبوع، قدم أتباع الكنيسة الميثوليدية ومعهم ملابس للرضيع وفراش جدير بالأمير الصغير.

وعندما رآهم عبد اللطيف يغدون ويروحون في الشقة ويتناولون الشاي والكعك مرة أخرى، قال مستغربا بصوت مرتفع: «كأني بهم يطمعون في أن نعتنق ديانتهم».

ترجمت صفية على الفور إلى القسيسة ما قاله عبد اللطيف.

وكم كانت دهشة أصحاب البيت الدارفوريين وهم يرون موجة الضحك التي سرت بين أتباع الكنيسة، قبل أن تطمئنهم القسيسة قائلة: «نعرف أن لكم دينكم، ولكن تفضلوا بزيارة كنيستنا والتعرف على طقوسنا وشعائرنا، وثقوا أننا لن نساومكم على دينكم».

وكم كان بود زهرة أن تقول لهؤلاء الزوار الإنكليز إنه يسرها أن تزور كنيستهم لتتعرف على شعائرهم من باب حب الاطلاع لا غير، ولكنها تخشى غضب الله وسخط أمها وعبد اللطيف عليها إذا ما فعلت ذلك. إذ تعجبها واجهة الكنائس القديمة، وكلما مرت بها في شوارع مدينتهم لا تتردد في الوقوف أمامها طويلا وتشعر برغبة في الدخول إليها لاستكشافها.

كانت زهرة قد شغفت حبا بالفن المعماري وملك عليها هذا الفن اهتمامها. فلقد أصبحت تستهويها أكثر فأكثر هذه المباني الجميلة والجديدة عليها بالرغم من أنها تدرك أن أمنية جدها أن يراها طبيبة

تداوي المرضى. وكانت تذهب في أوقات فراغها إلى المكتبة لتتصفح كتب الفن المعماري. وقد ظلت زهرة تعتقد قبل ذلك أن لا شيء يضاهي الفن المعماري لبناية كرايسلر في نيويورك إلى أن اكتشفت في يوم من الأيام الفن المعماري القوطي المميز للكتدرائيات القوطية. وعندها أدركت أن بناية كرايسلر ليست إلا فرعا من أصل وغيضا من فيض. وقد قادها هذا الاكتشاف إلى الاطلاع عن كثب على أعمال كبار المعماريين في اليونان وروما واليابان ومصر وصولا إلى أوروبا والأمريكتين.

كانت زهرة تعشق الأسلوب المعماري الغربي ولكنها ظلت تتصفح أيضا في كل مرة تذهب فيها إلى مكتبة المدرسة ألبوما ممزقا يوجد فيها ويتضمن صورا لأشهر المساجد في العالم. فقد كانت أماكن العبادة في اصفهان واسطنبول والقاهرة ودمشق وسمرقند وهيبتها تثير رهبة في نفسها تجعلها تتساءل لماذا لا يوجد مثلها في دارفور التي لا تختلف مساجدها عن أي مبان عادية أخرى، فهي أقرب إلى مرابض ومربعات قبيحة كأي مبنى من المباني الحديثة. وكانت كلما هاجمها السهاد أو أفاقت من كابوس، أمسكت قلمًا ورسمت صورة لمسجد مهيب.

ليدز مدينة ضخمة مترامية الأطراف تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا شمال شرق دونكستر. مرت رحلة الحافلة التي استقلتها زهرة وعبد اللطيف عبر منازل ممولة من دائرة الرعاية اجتماعية وعبر مخازن قديمة مهجورة وشوارع مكتظة تصطف على جانبها الدكاكين.

ولاحظت زهرة أن أسنان الواقفين في طوابير محطات الحافلات أسنانًا مخضرة رغم أن الماء متوفر في كل مكان. وتذكرت أن الناس في أفريقيا يسيرون على أقدامهم عدة أميال لبلوغ نقطة ماء، وتذكرت أن معجون تنظيف الأسنان في غير متناول أيدي الكثيرين، فيستعيضون عنه بمعجون الأعواد. ولم تر حواء من يستخدم عودا لتنظيف أسنانه بعد الأكل. طبعا، ليس من عادة البريطانيين تنظيف أسنانهم بأعواد بالرغم من توافرها مجانا.

وجدا في انتظارهما زوجين من دارفور قدما إلى إنكلترا قبلهما بشهر واحد؛ المرأة واسمها حليمة كانت ممشوقة القوام وأطول من زوجها البدين. كان وجهها نحيفا ولكنّ وجنتيها كانتا في غاية الجمال. أما زوجها، فكان يرتدي نظارة طبية وفي إحدى عينيه حول طفيف يجعله يبدو دائما وكأنه منفرج الأسارير. وقد استظرفته زهرة على الفور. قال إسماعيل أن إبنه البكر البالغ عشرة أعوام هو الذي يترجم لهما كل ما يحتاجان عند قضاء شأن في المدينة. وضحك وضحك معه عبد اللطيف على انقلاب الأدوار بين الكبار والصغار، ولكنّ زهرة لم تكن واثقة من أنهما راضيان على هذا الوضع . فقد خبرت في الرجل الدارفوري نخوته لتستشف من وراء ضحكتيهما ألمًا ساكنًا في عينيهما.

ساروا في طريقهم وهم يتجاذبون، بحماسة، أطراف الحديث عن أناس يعرفونهم في دارفور وليس بينهم من لا تربطه صلة قرابة أو نسب بهم . كان حديثا دارفوريا قلبا وقالبا، فأهالي دارفور حريصون

على اقتفاء شجراتهم العائلية. لفحتهم نسمة باردة، وتذمر عبد اللطيف من الطقس البارد طوال السنة، وأيّده اسماعيل في ذلك. قالت زهرة في سرّها أنها تفضل البرد على العواصف الرملية والحرّ في دارفور.

في الاجتماع، طاف عبد اللطيف واسماعيل على الحضور يصافحانهم فردا فردا بينما أخذت زهرة لها مقعدا إلى جانب حليمة. توقعت زهرة أن تتذمر حليمة من صعوبة الحياة في بريطانيا، كما فعل زوجها. غير أنها فوجئت بها تقول: «عندنا في شقتنا غسالة، كنت وفي البداية أتهيب من استعمالها وإغراق الشقة بالماء، ولكن بعد أن تعودت عليها ، شغفت بها حبا. فهل لأمك مثلها؟».

- «نحن نذهب إلى غرفة غسيل جماعية. أمي تقول إنها تنظف كل الملابس هناك».

قالت حليمة ضاحكة: «معها حق أمك. ليتهم يسألونني عن رأيي لأصدّع به مباشرة على شاشة التلفزيون في تلك اللقطات الإشهارية التي تظهر فيها النساء أمام غسالاتهن وهن يتغنين بمزايا هذا المسحوح أو ذاك من مساحيق الغسيل». ثم أضافت قائلة: «ولدينا ميكروويف أيضا. يا لفوائده، يا ليتني أعود به معي إلى البلد!».

قالت زهرة: « هناك أشياء كثيرة هنا أود أن أراها في بلدي كالمدارس والمستشفيات والمكتبات العامة».

قالت حليمة ضاحكة: «اِبني يقول أنه يريد أن يدرس الطب». ثم خفضت صوتها وأضافت قائلة: «الحقيقة أني أفضل أن أبقى هنا إلى أن ينهي أبنائي تعليمهم».

أومأت زهرة برأسها مؤيدة قولها. فحتى أمها أسرّت لها بمثل هذا الكلام بعيدًا عن مسامع عبد اللطيف. أضافت حليمة قائلة أنها تأمل أن يستفيد ابنها يوسف من نظام التعليم الغربي مثله في ذلك مثلها هي وحليمة.

سألت حليمة زهرة : «وماذا عنك أنت؟ هل ستصبحين طبيبة؟ تبدو عليك علامات الذكاء؟».

ابتسمت زهرة لسماع هذا الثناء وشكرتها، ثم أضافت بعد قليل قائلة: «في الواقع أريد أن أصبح مهندسة معمارية».

كانت هذه هي المرة الأولى التي تتحدث فيها زهرة عن أحلامها بصوت مسموع، بل المرة الأولى التي تقرّ بذلك لنفسها. تساءلت ماذا سيقول جدها وهو في جنة خلده عن رفضها مهنة الطب، وشعرت بوخز الضمير كما لو أنها خذلته.

أُعلن عن بدء وقائع الاجتماع وعاد عبد اللطيف وجلس إلى جانب أخته. واتضح سريعًا أنّ رئيس الاجتماع كان معنيًّا بالصراع بين مختلف الفصائل الدارفورية، بِمن سينال منها هذه الحقيبة أو تلك، معنيّا بالحكومة الدارفورية المستقبلية، أكثر مما هو معني بوقف الحرب.

التفت عبد اللطيف ناحية إسماعيل وقال له : «لقد نسي هذا السيد أن هناك أناسا يتعرضون هناك الآن للذبح في الوقت الذي نجلس فيه نحن هنا مكتوفي الأيادي».

قال اسماعيل : «وجّه كلامك إليه، إرفع يدك وآطلب الكلمة!». نظر عبد اللطيف إلى زهرة فهزت إليه برأسها مشجعة، فرفع يرده متردّدًا.

قال عبد اللطيف: «ربما يتعين علينا أن ننظر في سبل الاستفادة من وجودنا هنا في بريطانيا. فالأولى بنا ربما أن نعمل من أجل التعريف بقضيتنا لدى أصحاب القرار هنا كالقيادات الروحانية أو الحكومة».

قال اسماعيل بصوت مسموع: «ملاحظة وجيهة».

توقعت زهرة أن يستشيط الرئيس غضبًا ولكنه ابتسم وقال: « إن الأمر ليس بالسهولة التي يتصوّرها الناس. المهم هو ما يقوله الأمريكيون، ونحن على اتصال معهم على أعلى المستويات. أما بريطانيا، فهي ليست سوى حليف تابع لأمريكا لا يخالف لها أمرًا».

هتف اسماعيل قائلا: «ولكن بالنسبة لنا نحن الذين نعيش في بلد هذا الحليف الوفي، يهمنا أن يظل وفيًّا لسيده ولا يخالف له أمرًا».

أشاح الرئيس بوجهه ولم يعر لقول اسماعيل اهتمامًا.

تنحنح عبد اللطيف وقال: « علينا أن نستعين بالمجتمع المدني ومجموعات الضغط الذين يمثلون أقليات تعرّض أفرادها من يهود وآخرين لمظالم تاريخية سواء، خلال الحرب العالمية الثانية أو غيرها وسقط منهم الملايين ممن قتلوا أيضا في جرائم إبادة جماعية. وينبغي لنا أن نتصل أيضا بالقادة الروحانين لمختلف الكنائس المسيحية. فلا أتصور أنّ أسرتي هي الوحيدة التي هبّ لمساعدتها منذ قدومها، وهي مُعدمَة تمامًا، أعضاء من إحدى هذه الكنائس».

ردّ اسماعيل: «هناك أيضا عدة معابد يهودية، إذا ما كسبنا تأييد البريطانيين سيستمع السياسيون إليهم إذا ما وقع الضغط عليهم».

هز رئيس الاجتماع كتفيه ولم يعر للاقتراحات اهتمامًا. واقترح رجل آخر تشكيل فريق توجيهي يتصل بالطوائف الدينية، وسرعان ما انتخب الحضور اسماعيل وعبد اللطيف على التوالي: رئيسًا للفريق ونائبًا له. وقبل أن ينتفض الاجتماع، تبادل الحاضرون عناوين بريدهم الإلكتروني وأرقام هواتفهم الجوالة. وشعرت زهرة بالانشراح وهي ترى حولها وجوهًا دارفورية مائة بالمائة مفعمة بالحيوية. ثم رأت عيني رجل كعيني زلزم صغير يقترب من عبد اللطيف ويصافحه ويأخذه على جنب ليتبادل معه كلمات خاطفة.

وما هي إلا دقائق حتى رجع عبد اللطيف إلى جانب زهرة وقد سرت فيه فجأة روح جديدة مفعمة بالحيوية لم ترها فيه منذ أسابيع وقال لها: «هذا الرجل يقول أن صاحب مطعم سوداني في دونكستر يبحث عمن يعمل لديه بالسر ويدفع له أجره نقدًا».

رجعوا فرحين إلى بيت اسماعيل حيث قضّوا ليلتهم. ظلّ عبد اللطيف واسماعيل ساهرين إلى الفجر، وهما يتحدثان عن مشاريعهما. تابعت زهرة حديثهما باهتمام وعينها على الساعة خشية أن يستغرقها السهر، فأغمضت عينيها ونامت على حشية هوائية في غرفة الضيوف. وكان لزامًا عليها وعلى أخيها أن يذهبا باكرًا لركوب رحلة الساعة السادسة والعودة إلى دونكستر إذا ما أرادت زهرة أن تلتحق بمدرستها في الموعد. أما عبد اللطيف فقد نام في الحافلة في الصباح

التالي، بينما ظلت زهرة تتأمل المناظر من النافذة وكلها فضول للاستفادة من كل تجربة جديدة، وانشراح لأنّ أخاها قد وجد ما يستحق البقاء في هذا البلد.

الفصل الثامن عشر

المكان: الجنينة، ولاية غرب دارفور
الزمان: أيار/ مايو 2006

كانت جميع الأنشطة في مخيم اللاجئين في الجنينة قد شُلّت بسبب عاصفة رملية ظلت تهب طوال ستة أيام على كامل المنطقة. فلقد شهدت السنوات الأخيرة زيادة في تواتر هذه العواصف التي كانت تستمر لعدة أيام. فترى أهالي المنطقة يتذمّرون من الارتفاع المطّرد للحرارة والمتزايد من سنة إلى سنة في ظاهرة يسميها العارفون«الاحتباس الحراري» ويقولون عنها إنها هي سبب تمطط فترات الجفاف من موسم إلى آخر وزحف رمال الصحراء باتجاه الجنوب وابتلاعها مساحات شاسعة جديدة من الأراضي.

وكان سكان المخيم قد أرسلوا إلى موظفي الأمم المتحدة بمخيم الجنينة وفدا من أصحاب العزائم الصادقة لإقناعهم بتزويد سكان المخيم بملاءات بلاستيكية يلفون بها خيامهم وعشاشهم. غير أن هذا

الحل لم يدفع عنهم سيل الأتربة التي ظلت تعكر عليهم صفوهم وتغمرهم أثناء نومهم وصحوهم، ولا تدعهم يأكلون ولا ينامون في راحة.

وأفسدت هذه العاصفة على أحمد مزاجه وحرمته من التمتع بلعب كرة القدم في المباراتين اللتين كان يخوضهما يوميا. وأمام سيل الأتربة المتدفق إلى داخل خيمة العيادة، طلبت ماري من الجميع أن يحكموا إسدال ستار مدخل الخيمة لمنع تسرب الأتربة منه إلى داخلها. غير أن هذا الإجراء لم يجد نفعا، ولم يوفر على حواء ما أصبحت تلاقيه من عناء وإضاعة للوقت في تلقين المتطوعين مرارا وتكرارا كيف يزيلون الأتربة ويدثّرون المرضى على النحو السليم حتى لا تتسرب الأتربة إليهم في فُرِشهم وتفعل فعلها في جروحهم وقروحهم.

وكأن بالعاصفة لم تأت معها بالأتربة والمتاعب فحسب، بل وكأن رياحها هبت كذلك على الأخبار المتناقلة فطارت وأصبحت تنتشر بسرعة انتشار النار في الهشيم. فقد نما إلى علم حواء وأحمد أن فصيلا من المتمردين أعدّ مخبأ للأسلحة داخل المخيم. وإزاء كثرة الأقاويل والتفاصيل بشأن هذا المخبأ، بدأ أحمد وحواء يتوجسان خيفة من مداهمة رجال المخابرات المخيم في أي لحظة وهدمه على رؤوس الجميع.

فلقد قدم إلى العيادة في منتصف صباح ذلك اليوم، فتى نحيل فارع الطول. وعندما نزع عنه العمة واللثام، تبين لأحمد أن الزائر لا يعدو أن يكون قلب الهجوم مراد. وهو شاب له من العمر سبعة عشر عاما

يلعب للفريق الذي يدربه أحمد. انتحى الفتى بأحمد مكانًا قريبا من مخرج الخيمة، وأسرَّ له بأن اجتماعا سيعقد في المساء لمناقشة الوضع في المخيم. فنظر إليه أحمد غير مصدّق، واقترب منه لمزيد الاستفسار، فإذا به يضيف قائلا: «الأمم المتحدة خذلتنا، فهي لا تحرك ساكنا، ولا بد لنا من أن نحمي أنفسنا بأنفسنا». ثم نظر ناحية صف المرضى، فرأى الدم السائل عبر الخرق البالية المستخدمة لتضميد جراحهم، وقال: «لقد طفح الكيل، فدمنا أصبح حلالا مباحا!».

صرَّ أحمد على أسنانه وقال وقد تجهم وجهه: «دعني أخبرك بأن الكارثة ستنزل بنا جميعا إن جئت تحدثني عن أسلحة أخفيتموها في المخيم».

أجفل مراد وأجابه قائلا: «نحن نذود عن أهالينا».

غمغم أحمد مستنكرا بكلمات غير مفهومة، فرغم أنه لم يكن يشك في نبل نوايا هؤلاء الشبان وصدق رغبتهم في التصدي لنظام البشير الجائر، فلقد كان يخشى أن يقوموا بعمل طائش يعود بالوبال على الجميع، فهو يعي جيدا أن ميزان القوى يميل كليا لصالح النظام الذي أخذ يزود الصين بالنفط، وفي المقابل، هي تزود عساكره وأجهزة مخابراته بآخر ما في ترسانتها من عتاد حربي وأسلحة فتاكة، وليس بحوزة المتمردين سوى قطع أسلحة خفيفة مشتتة بين عدد من المجموعات المقاتلة التي يحارب في صفوفها أبطال جديرون بهذا الوصف، شديدو البأس يرفضون الاستكانة داخل مخيمات يبقون فيها مكتوفي الأيادي مكممي الأفواه. غير أن ما يعاب على هذه

المجموعات، إضافة إلى ضعف تجهيزاتها، فهو سوء التنظيم وغياب التنسيق فيما بينها. وكان أحمد يعرف أولئك الأبطال ويراهم ويتحدث إليهم كلّما أتوا تحت جنح الظلام إلى العيادة لإسعاف زميل لهم من إصابة والعودة في الهزيع الأخير من الليل لاستلامه قبل أن تطلع شمس النهار وتتفطن إليهم عيون النظام المدسوسة في المخيم وفي كل مكان.

قال أحمد بعد أن وجد نفسه مضطرا إلى أن يرضخ للأمر الواقع: «سأحضر اجتماعكم هذا، وسأحاول ثنيكم عما تعتزمون القيام به من أعمال طائشة وإقناعكم بالتزام جادة الصواب، فأنتم تعرضوننا جميعا للخطر، وأراهنك على أن جواسيسهم على علم مسبق بمكان اجتماعكم وتوقيته».

قال مراد متجاهلا ملاحظة أحمد: «سأعود لآخذك معي إلى المكان السري لانعقاد الاجتماع». ثم لف لثامه بعناية حول عنقه ووجهه ورفع ستار مدخل الخيمة وتسلل خارجا.

جلس المتطوعون للعمل في العيادة يستمعون إلى إذاعة البي. بي. سي. الإنكليزية، خلال فترة استراحة الغداء، وكانت ماري تترجم لهم. كان الخبر الوحيد عن دارفور في نشرة اليوم يتعلق باقتراح طرحه الرئيس البشير في الخرطوم يدعو فيه قادة مختلف فصائل الأجنحة السياسية إلى الاجتماع في مكان سري للتفاوض على خطة لإحلال السلام.

عادت ماري وحواء إلى العمل وتركا أحمد يطالع الأخبار الرياضية. وبعد عشرين دقيقة جاء شاب آخر يطلب مساعدة لإسعاف اِمرأة داهمتها آلام المخاض مبكرا وأصيبت بنزيف، ويخشى ذووها أن تحصل لها مضاعفات إن جاءوا بها إلى العيادة. أخذت ماري عدة التوليد وقالت لحواء: «ستستقبلين بدلا مني وفدا من موظفي الأمم المتحدة يُتوقع أن يحلّ ركبه الآن بين لحظة وأخرى».

كانت حواء تقيس ضغط دم أحد المرضى، فقفز قلبها إلى حلقها عندما سمعت ماري تطلب منها أن تحلّ محلها في استقبال الوفد الأجنبي الذي سيأتي لزيارة العيادة وتقييم احتياجاتها.

وإذ لاحظت ماري على حواء علامات التردد والارتباك، أضافت قائلة: «سيصطحبون معهم مترجما».

حاولت حواء الاعتراض على هذا التكليف وحركت يدها باتجاه أحمد الذي كان يوليهما ظهره، وقالت: « أظنه أقدر مني على أداء هذا الواجب».

قالت ماري وهي تهزّ رأسها بالرفض: « ستؤدين هذا الواجب وسيمر كل شيء على أحسن ما يرام». سكتت برهة، ثم نادت أحمد قائلة: « تعال ورائي، أريدك أن تساعدني في شيء، رجاء»! ثم تبسمت في وجه حواء وانحنت لترفع الستار وتغادر الخيمة. تبعها أحمد وأمسك قبل خروجه من الخيمة بيد حواء خفية وضغط عليها برفق.

كان أحمد وحواء متلازمين لا يفترقان البتة تقريبا. وكان أحمد أقرب الناس إلى حواء، ولكن، لا يمكن القول بأنهما كانا خليلين بالمعنى الغربي للكلمة. فهما يعيشان في مجتمع مسلم محافظ يشجب أي تغازل بين رجل وامرأة. وقد تعطلت الحياة الطبيعية جراء الحرب ولم يعد بمقدور الشباب تحمل تكاليف الزواج، فضلا عن تقلص عددهم بحكم أعمال القتل التي أودت بالكثير منهم، بينما التحق آخرون منهم بصفوف المتمردين.

وفي بيئة كهذه، لم يكن بإمكان حواء وأحمد أن يتبادلا كلمات الإعجاب. فهنا لا الفتاة، مهما كانت جرأتها، تستطيع أن تفاتح رجلا بإعجابها به، ولا الشاب، مهما بلغ من الطيش، يجرؤ على مفاتحة فتاة بافتتانه بها ما لم يكن مطمئنا إلى قدرة أسرته على دفع مهرها وتحمّل مصاريف حفل زفافهما. غير أن هذا الواقع لم يكن يحول دون تجاوبهما ولا كان يمنع حواء من الشعور كل صباح بتوتر شديد كلما رأت أحمد مقبلا إلى العيادة.

تابعت حواء بعينيها ماري وأحمد وهما يغادران وتساءلت لماذا تزج بها ماري في أكثر من مرة في معمعة دون سابق إنذار. غير أن ماري لم تمهلها هذه المرة متسعا من الوقت كي تحترق أعصابها من الخشية والتوجس لأنه لم يمض على خروج ماري وأحمد إلا قليلا، حتى سمعت هدير عدة سيارات رباعية توقفت خارج خيمة العيادة. أصلحت غطاء رأسها وذهبت لاستقبال القادمين ومرافقتهم.

مرت المقابلة بسلام وبسرعة لم تتوقعها حواء. فقد وجدت نفسها تلقي على الضيوف كلمة الترحيب بسهولة ودون تكلّف، ثم تقودهم في جولة إلى العيادة وتتحدث معهم عن المرافق التي يمكنهم توفيرها، وتعبّر بكل يسر عمّا كان ينقص العيادة من معدات ولوازم أساسية، وتجيب عن أسئلتهم دون تردّد. وعندما همّوا بالمغادرة، التفت إليها كبير الوفد ورفع إبهامه علامة الاستحسان وخاطبها قائلا: «شكرا حواء على ما قدمتِه لنا من إيضاحات ممتازة».

رجعت حواء إلى عملها وفي نفسها بعض مرارة تنغّص عليها إحساسها بالفخر. كم ودّت لو كانت أمها حاضرة ورأتها وهي تتحدث إلى المسؤولين بكل ثقة، وكم تمنّت لو أن أمها موجودة وسمعت ورأت كيف أثنى عليها كبيرهم. ثم ابتسمت عن استحياء وأسرت لنفسها قائلة: «ربما كانت أختي حاضرة وشهدت نجاحي».

عندما انتهى أحمد من نوبة عمله، وجد مراد في انتظاره. سارا معا يشقان ظلمة الليل وسط مسالك اكتسحتها رمال العاصفة، يتحدثان عن كرة القدم، وعن مباراة توتنهام هوتسبير الأخيرة بالتحديد وخيبة الأمل التي خلفتها نتيجتها لدى أنصار النادي. وفي الطريق انضمّ إليهما ثلاثة فتيان آخرين، وواصلوا السير معا يقودهم مراد دون أن يعرف أحد منهم إلى أين كان يأخذهم. حتى توقف فجأة أمام خيمة كبيرة يستخدمها موظفو الأمم المتحدة خلال النهار لتصريف شؤون إدارة المخيم. قال مراد: «رجال الأمم المتحدة لن يعودوا وسيخلوا لنا المكان تماما هذه الليلة».

اشتدت دهشة أحمد، وقال بحدة وعصبية: «إنك بهذا الصنيع قد تتسبب في طرد الأمم المتحدة من المخيم، إذا ما سمع العسكر أن مرافقها تُستخدم في مثل هذا النشاط».

قال مراد بسخرية غير خافية: «وماذا تراهم يفعلون لو علموا؟».

صرخ فيه أحمد قائلا: «رجال الأمم المتحدة يقومون بدور بطولي في المخيم، فهم الحاجز الوحيد الذي يمنع الجيش من اقتحام المخيم وهدمه على رؤوسنا والإجهاز علينا جميعا».

لم يكترث مراد بكلام أحمد. فقد أصبح ازدراء الأمم المتحدة والاستخفاف بالأنشطة الخيرية للمجتمع الدولي أمرًا مألوفًا في أوساط الشباب. ولقد بات هذا السلوك جزءا من تعبيرهم عن رجولتهم ومواقفهم المتجذرة، إضافة إلى أن هؤلاء الشباب لا يترددون في وصف كل من يتعاطف مع الأمم المتحدة بالجبن والعقم.

ومما زاد من حنق أحمد على هؤلاء الشباب، هو سلوكهم العدواني تجاه الضحايا من النساء اللائي تعرضن للاغتصاب على أيادي الجنجويد. فهم لا يتورعون عن تعنيفهن. وإذا عاتبهم آباؤهم على هذا الصنيع، فإنهم لا يخجلون من الافتراء عليهن وإنكار ما فعلوه بهن، ثم يعودون إلى ضربهن وإهانتهن رغم تنبيه أوليائهم عليهم بعدم التعرض لهن. ولم يكن هؤلاء الشبان قبل عامين فقط ليأتوا بهذا التصرف الأرعن. غير أن شعورهم بأنهم محبوسون داخل المخيم جعلهم يتمرّدون على سلطة آبائهم ويطلقون العنان لطيشهم دون رادع. وقد سمع أحمد أحد الآباء يتذمر مما آلت إليه طباع الفتية ويقول: «بعد

أن تفتّحت عيونهم على مظاهر الحياة في المدينة وجربوا العيش فيها، سيصعب علينا كثيرا كبح جماحهم والسيطرةعليهم عندما نعيدهم معنا إلى قرانا بعد انتهاء الحرب».

وجد أحمد أكثر من خمسين فتى ينتظرون داخل الخيمة التي نصبت فيها مصابيح تمرجح الريح أنوارها الخافتة. وكان بين الحضور بعض الرجال الكبار جاءوا بدافع الفضول لاستجلاء ما يجري من وراء ظهورهم وهم غافلون. قال واحد منهم محذرا: «الأكيد المؤكد أن أمر هذا الاجتماع سيتناهى إلى سمع جهاز المخابرات في المدينة»، قبل أن يضيف بصوت منكسر: «ستجد السلطات في هذا الاجتماع ذريعة سانحة طالما بحثت عنها، فمن أذن لكم أيها الأطفال بهذه الحماقة؟».

احتج عليه عدد من أصدقاء مراد وانبرى له أحدهم قائلا: «انتم من سمح لهذه السلطات بأن تتلاعب بكم كيفما شاءت بسبب مواقفكم العرجاء، لم نعد نحتمل تنكيلها بأهالينا وتقتيلها فيهم، بينما أنتم، كلما جدت ساعة الجد، تفرون كالنساء».

أثار كلامه بين الشباب الآخرين موجة من الضحك ضاعفت من حنقه. فلقد أحس الرجل وهو أحد أبناء الشيخ عصمان بالمهانة لقلة احترامهم لشخصه، فانتصب واقفًا وخاطبهم وهو يرتعد من شدة الغضب ويتفحص وجوههم متوعدا: «إياكم واللعب بالنار، فحديثكم أيها الحمقى عن تكديس أسلحة لوقت الحاجة أمر سخيف، أنتم لا تقدرون عاقبة أعمالكم، اتركوا الخبز لخبازه».

علق أحد الشباب ساخرا منه: «طبعا نتركه لك وستأكل نصفه، بل ستأكله كله».

فغر الرجل فاهه من شدّة الصدمة، وتوجّه إلى صاحب التعليق بقوله: «كيف تتجرأ على مخاطبتي بهذه الطريقة!».

أجابه الفتى باستهانة: «انظر إلى الحال التي أوصلتمونا إليها لما تركنا لكم الخبز لتخبزوه».

صرخ الرجل صرخة حيوان أصيب في مقتل قائلا: «أنا ابن الشيخ عصمان، ألا تخجلون من أنفسكم؟ ألا تقدّرون المقامات؟». ويبدو أنه خرج عن طوره ولم يعد يستوعب ما يحدث حوله وهو يرى جميع مسلماته وثوابته تتهاوى أمامه فجأة ويتضح له زيفها وبطلانها، فغادر المكان وسار متعثّرًا مدحورًا.

خطر لأحمد أن يحذّرهم من مغبة اندفاعهم، غير أنه عدل عن ذلك أمام حماسهم المفرط الذي أعماهم وحجب عنهم رؤية التفاوت الصارخ في ميزان القوى بينهم وبين آلة البطش التي يمتلكها النظام في جيشه وجهاز مخابراته، فقرر بعد قليل مغادرة المكان مغلوبا على أمره، وهو يقول في سره: «من أكون لينصتوا إلي، فأنا لست سوى نجم محلي في لعبة كرة القدم، لو كنت زعيم عصابة، لاختلف الأمر».

كان أحمد في طريق عودته إلى عشته يفكر في أمر هؤلاء الشبان، فرجّح أن تكون مواقفهم المتشددة نتاجا لشعورهم بالإحباط، وأن يكون تعبيرهم عنه بعنف هو من باب التنفيس عن غضبهم، ولعلها سورة

غضب عابرة. واستبعد أن يعتمد أي فصيل من فصائل المتمردين على هؤلاء الشباب الأهوج لاستمالته داخل المخيم.

بعد يومين، خمدت العاصفة الرملية، وجاءت ماري إلى العيادة محملة بأخبار غير سارة. قالت وهي تغسل يديها: «طائرات النظام هاجمت المكان السري لاجتماع المتمردين. هل تذكرون أني كنت حدثتكم عن اجتماع سيعقد بينهم وبين ممثلين عن النظام؟»أخرست الصدمة كل من زهرة وأحمد، فكانت إجابتهما أن هزّ كل منهما رأسه وعقد ذراعيه وتأهب لسماع الخبر المشؤوم. قالت ماري: «أرسل المتمردون كبار قادتهم إلى مكان الاجتماع، فانتهز نظام البشير الفرصة وأرسل إليهم طائراته التي قصفت المكان، فسقط منهم العشرات».

قالت حواء بتعجب: «لم يكن الاجتماع إذن سوى كمين نصب لهم».

قال أحمد وقد تشنجت أعصابه: «النظام هو الذي طلب إجراء هذه المفاوضات، فماذا سيقول الأجانب عنا؟».

هزت ماري كتفيها وقالت وهي تقفل أزرار بلوزتها البيضاء: «وصف المتحدث الرسمي باسم الرئيس البشير أن ممثلي قيادات الفصائل العسكرية يُعتبرون إرهابيين يريدون قلب نظام الحكم بقوة السلاح، ومن يستخدم القوة، جاز استخدام القوة ضده».

شرع أحمد ذراعيه من وقع الخبر وهتف قائلا: «الأكيد أن المجتمع الدولي لن يقف مكتوف اليدين ولن يسكت عن هذا العمل».

بدت على ملامح ماري علامات الانشغال، فقالت وهي تسوي غطاء رأسها وتحكم شدَّه: « الدبلوماسيون لن يعلنوا الحرب على نظام البشير، هؤلاء الأجانب لن يضايقوا نظام البشير لأنهم لا يريدون لمحادثات السلام أن تفشل».

أحس أحمد بموجة من اليأس والقنوط تكتسح جسمه. فانهار على أول مقعد صادفه وارتخت ذراعاه تماما وراح يتساءل في سره عما يدعو الدول الكبرى إلى الامتناع عن تسليح نظام البشير ولماذا تقف مكتوفة الأيدي ولا تفعل شيئا لإنشاء منطقة لحظر التحليق في سماء دارفور تساعد بها مراقبي الاتحاد الأفريقي على أداء مهامهم.

عقدت ماري ما بين حاجبيها واستطردت قائلة: « الشيخ عصمان وحده من تحرك ولم يبق مكتوف الأيدي. فلقد اتصل على الفور ببعض المتمردين من أتباع فصيل عبدالله البارحة في الجنينة».

قال أحمد: «كنت متأكدا أنه لن يسكت عن الإهانة التي تعرّض لها أحد أبنائه بسخرية الشباب منه في اجتماع البارحة».

قالت حواء وهي تنقل نظرها بين أحمد وماري: « ما الذي سيحدث؟». لا أحد منهما أجابها أو حتى نظر إليها، فذهبت بها الظنون كل مذهب.

قالت ماري وهي تتصنع المرح كما تفعل دائما لتصرف عنهما أي هواجس: «العمل ينادينا، يا أميرتي حواء، ستنتزعين رصاصة هذا الصباح. سيأتون بطفلة صغيرة استقرت رصاصة في فخذها. ستشدها أنت يا أحمد، وستأتي لها بغُصين تعض عليه لتحمّل الألم».

أفاق أحمد في تلك الليلة على وقع أحذية عسكرية خارج عشته. ثم لم يشعر إلا وأربعة أذرع تمتدّ إليه وتمسكه من طوق جلبابه وتنتزعه من فراشه.

سمع أحد الممسكين به يقول: « إياك أن تفتح فمك، وإلا سندق عظامك».

جروه جرا وهو لا يكاد يميز موضع رأسه من رجليه نحو المخرج الخلفي للمخيم البعيد عن الطريق المؤدي إلى الجنينة. وعندما بلغوا به ملعب كرة القدم، رأى نحو ثلاثين وجها مألوفا. رأى زملاءه في الفريق يجلسون القرفصاء وأيديهم على رؤوسهم، تحت حراسة عناصر مسلحة. دفعوه بشدة، فتعثر في مشيته وسمعهم يأمرونه قائلين: «ضع يديك على رأسك كما الآخرين ولا تنبس ببنت شفة»، ثم تركوه وذهبوا لجلب غيره.

أراد أحمد أن يسأل الفتى الجالس إلى جانبه عما يحدث، غير أنه سرعان ما غير رأيه بعد أن رأى حالة الفزع الشديد التي كان عليها فأدرك أنه لا يعرفه ولم يره من قبل. ولكنه عرف من سحنات حراسهم المكشوفة وجوههم أنهم دارفوريون، وكانت رؤوسهم معممة ويرتدون سراويل وقمصان عادية.

وكانوا يأتون كل مرة بشباب آخرين يضيفونهم إلى أقرانهم الذين جمّعوهم بأرض الملعب. ولم يكن بإمكان أحمد تبيان وجوههم بسبب الظلام الحالك، ولكن خُيّل له أنه رأى معظم أصحابها في اجتماع ما قبل البارحة. واشرأب بعنقه فرأى مرادًا جالسا على بعد بضع ياردات

منه وهو يضع يديه المترتعشتين على رأسه. أمرهم الحراس همسا أن ينهضوا وأن يقفوا في طابور طويل الواحد وراء الآخر. فامتثلوا وسيق بهم في صمت إلى وجهة غير معلومة.

***

في اليوم التالي، تناقل الناس خبر اختطاف فصيل عبد الله لأربعة وخمسين فتى انتزعوهم في ظلمة الليل من أفرشتهم. قضت حواء كامل دوامها الصباحي وهي نصف غائبة عن الوعي من شدة الرعب الذي كان ينتابها كلما مر أحد المعارف بالعيادة وتوقف ليقص روايته للأحداث. لازمت حواء الصمت على أمل أن تفيق من هذا الكابوس وظلت تدعو الله أن يعيد إليها أحمد سالما وهي تتوقع أن تراه بين لحظة وأخرى وهو مقبل إلى العيادة كالعادة وكأن شيئا لم يكن.

وفي استراحة الغداء، ذهبت ماري لمقابلة موظفي الأمم المتحدة لعلها تستقي منهم خبرا عن أحمد وبقية الفتية. غير أنها رجعت من هناك بعينين غائرتين ووجه مكفهر خلافا لما عليه مظهرها في العادة. توجهت مباشرة نحو حواء وانتحت بها ناحية بعيدة عن المرضى.

قالت دون مقدمات: «لقد باعوهم».

سألتها حواء وقد شعرت بأن الأرض تميد بها وأنها ستسقط مغميا عليها: «ماذا تقولين؟».

قالت ماري: «القصة وما فيها أن شيوخا باعوهم بضاعة إلى فصيل من المتمردين كان يريد تعزيز صفوفه بمقاتلين جدد. لقد كانت بالنسبة

إليهم فرصة سانحة للتخلص من عناصر مشاغبة تتحدى سلطتهم في المخيم».

ابتلت عينا حواء بالدموع وأجابتها محتجة: «حاشا أن يكون أحمد من المشاغبين»، ثم سألتها في صوت يشبه الهمس: «الشيخ عصمان هو صاحب الفعلة، أليس كذلك؟».

قالت ماري وهي تربت على كتفيها مواسية: « هذا ما تشيعه الألسن». ثم احتضنتها وأضافت قائلة: «يا لحظك التعيس!».

قالت حواء بين دموعها: «سيكون القتل مصيره، إنهم سيضعونه في فوهة المدفع وسيدفعون به إلى واجهة معاركهم ضدّ الجنجويد».

قالت ماري وهي تحتضنها وتضمها إليها بشدة مرة أخرى: «لن يقاتلوا أحدا، فنصفهم لم يقاتلوا أحدا على الإطلاق، وإنما هم يمتشقون البنادق ويركبون سيارات الجيب ويتظاهرون بمظهر المقاتلين الأشداء ولكنهم في الواقع يخشون الاشتباك مع عساكر البشير والجنجويد، بل يتجنبون الاحتكاك بهم والظهور أمامهم.

صاحت حواء: «لقد عيل صبري وتصبري، لم أعد أتحمل المزيد».

ابتعدت عنها ماري وأخلت سبيلها وقالت لها بلهجة حازمة: «لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام ثانية، يجب أن تتدبري أمرك بنفسك لكي يجدك جاهزة عندما يعود ويكون بحاجة إليك لشدّ أزره».

هزت حواء كتفيها وقالت: «ربما لا أعني له شيئا سوى أني أذكره بخيال المرحومة أختي الكبرى».

قالت ماري وهي تنظر مباشرة في عينيها وتسبرهما سبرا: «إنك تبخسين قدر الرجل، فهل هو الذي أخبرك بأنّ حب المرحومة أختك لا يزال ساكنًا فيه؟».

نكست حواء رأسها وعصرت عينيها وأغمضتهما كمن يريد إنهاء المحادثة.

قالت ماري: «ثقي أيتها الأميرة في ما أقوله، إنه يحبك أنت ولا أحد سواك، وإلا هل كان سيعلّم شخصا آخر فارق الحياة ومبادئ القراءة والكتابة؟».

قالت حواء وهي تخفي عينيها بيديها: «لست أدري».

قالت ماري بشراسة: «أنا أدرى منك، وإياك أن تقولي له إنه يعطف عليك لأنه يحب أختك الكبرى، فستجرحين مشاعره كثيرا وستحطمينه».

أحنت حواء رأسها خفرا وهي تحاول كبح جماح دقات قلبها المتسارعة.

وأضافت ماري قائلة: «يجب أن يجدك في انتظاره عندما يعود، نحن معشر المسيحيين، من السهل علينا الإفصاح عن مشاعرنا خلافا لكم، وإني لأرثي لهؤلاء الذين تمنعهم عاداتهم وتقاليدهم من إبداء مشاعر الحب تجاه من يحبونه والبوح بها».

قالت حواء وهي تحاول جاهدة احتواء الغصة التي خنقتها: «لقد حرصت والدتي في تربيتي على ألا أفرّط أبدا في شرفي ولم تكن تلقي بالا لمفهوم السعادة. ولو كانت لا تزال على قيد الحياة، لاعتبرتني فتاة

فاشلة لأني لم أقاوم العساكر دفاعا عن شرفي حتى الرمق الأخير. فهي تؤمن بأن المرأة لا يحق لها أن تعيش إذا ما فرطت في شرفها، أما الرجال فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا ما نقلوا هواهم كيفما شاؤوا».

حدثتها ماري بصوت اختفت منه نبرة التوتر التي كانت تعتريه: «ولكن أحمد لا يفكر بهذه العقلية، وأنت أهل له وأرجو أن تثقي في نفسك. فمكانتك التي ارتقيت إليها تجعلك جديرة به. وهو فخور بك جدا. ونحن جميعا فخورون بك ويُفترض بك أن تكوني، أنت أيضا فخورة بنفسك».

ضحكت حواء وقالت وهي تجفف دموعها بطرف وشاحها: «الفضل يعود إليك، هل تذكرين اليوم الذي أبلغتني أنه ينبغي ألا أظل مكتوفة اليدين لا شغل لي ولا عمل سوى التحسر على قلة حيلتي وحظي التعيس؟».

رقت أسارير ماري وقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة: «نعم، والله، فأنت أكبر قصة نجاح أنا صاحبتها. والآن حان الأوان لاستئناف العمل».

امتثلت حواء بإيماءة من رأسها، وانهمكت طوال النهار في العمل وأمسكت نهائيا عن الحديث عما عساه قد حصل لأحمد بالرغم من أن خياله لم يكن ليفارقها لحظة واحدة. وفي طريق عودتها إلى عشتها، لمحت رشيدا عائدا من مباراة كرة القدم اليومية التي كان يُفترض أن

يكون أحمد قد شارك فيها. فتملكتها سورة من الغضب، فأخذت تعدو للحاق به.

وما هي إلا لحظات حتى كانت تصرخ في وجهه: «لقد فعلها جدك وباع خيرة الفتية الشجعان ولم يبق إلا على الجبناء من أمثالك».

تظاهر رشيد في الأول بأنه لأغبى من أن يدرك أن جده لا يتورع عن بيع أي شيء.

ثم تسمر في مكانه وصاح فيها: اغربي عن وجهي!».

علا صياحها حتى أثار انتباه المارة الذين تعجبوا كيف لهذه الفتاة البسيطة أن تقلل الأدب مع حفيد الشيخ عصمان وأن تقول له: «يسرك هذا الذي فعله أهلك؟ يا لقلة شرف أسرتك! خبرني كيف ستغسل عارك أيها الجبان؟».

وأردفت تقول: «جدك باع الفتية وأنت تتسكع هنا كصبي مدلل لا يعكر صفوه شيء في هذه الدنيا».

انتبه رشيد إلى أن الناس بدأوا يتجمعون حولهما، فحاول التخلص منها، ولكن حواء ظلت تصيح وتلاحقه بلعناتها وأوشكت أن تمسك بتلابيبه وصرخت تقول: «ألا تشعر بالخزي أيها الجبان؟ ألا تخجل من نفسك! كيف تقبل لنفسك الظهور أمام الناس، وكأن شيئا لم يكن؟».

جذبها إليه وصفعها وصرخ فيها قائلا: «دعيني لحالي!». ثم دفعها فأسقطها أرضًا.

واصل رشيد طريقه وهو يوسع الخطى خشية أن يعترضه أحد غيرها فيستوقفه ويتحداه بدوره. إذ لم يكن ليخطر له على بال أن

يكون ثمة في المخيم من يستطيع أن يتحداه بعد أن طهره جده الشيخ عصمان البارحة من العناصر المناوئة. كما وصفهم جده. غير أنه لم يقرأ حسابا لحواء وردة فعلها الهستيرية. وكان صوتها لا يزال يصله وهي تصيح وراءه قائلة: «يا جبان» ولم يستطع أن يطرد عن ذهنه نظرات الكره الشديد التي لمحها في عينيها. حث خطاه مبتعدا بسرعة كما لو أنه يريد الهروب من صوتها الذي كان لا يزال يتنامى إلى سمعه وهي تصيح: «قف أيها الجبان!».

هرعت إليها امرأتان لمساعدتها على النهوض. شعرت بأثر كدمات في إحدى وجنتيها تسبب لها ألما ووجعا، ولكنها لم تشعر بأي رغبة في البكاء، وإنما شعرت براحة غريبة أقرب إلى النشوة والانتشاء. فلقد انتشت برؤية علامات الخوف مرتسمة في عيني رشيد حتى وهو يصفعها، فأيقنت أن أثر كلماتها قد كان كسفر الخنجر وغلغلة السكين.

قالت حواء موجهة كلامها إلى المرأتين: «سأدمر هذا الجبان». ثم استدارت عائدة نحو عشتها منتصبة القامة غير عابئة بوجنتها المنتفخة من أثر الصفعة، وقد سرى في جسدها المنهك حماس ونشوة، فكم ستستمتع في قادم الأيام بمعايرته بجبنه على مشهد ومجمع الجميع أينما وجدته. وكم ستتلذّذ بنظرة الخوف وعلامات الذلّ والهوان التي ستراها مرتسمة على وجهه كلما كالت له الشتائم، وأقرت العزم على أن تدرج إهانته بندا دائم الحضور في جدول أهدافها المستقبلية.

***

في حدود الساعة السادسة والنصف من اليوم التالي، توقفت مدرعة بألوان عسكرية تابعة لجهاز المخابرات قرب باب أزرق شعشاع وفي نهج هادئ في أم درمان، في إحدى ضواحي الخرطوم. نزل من الباب الخلفي للمركبة ثلاثة رجال يرتدون أزياء نظامية لونها كاكي وأحاطوا بقائدهم الذي كان رجلا قصير القامة مكتنز الجسم يرتدي نظارات سوداء. قرع الباب وجال بنظره في النهج وتأكد من أنه لم يبق أحد من الجيران إلا وتملكه الخوف.

أطل بعض الجيران من الشبابيك لاستجلاء من الزائر صاحب المركبة الغريبة ولكن، سرعان ما تراجعوا إلى الوراء وتواروا عن الأنظار.

فتح الباب رجل في منتصف العمر يرتدي جلبابا طويلا أبيض. لمعت عيناه وفغر فاهه من الفزع كمن انقطع عنه النفس فجأة.

سأله الضابط: «ألديك أخ يقيم في انكلترا اسمه اسماعيل؟».

أومأ الرجل برأسه، فتراجع الضابط إلى الوراء وأفسح المجال لعساكره الذين كانوا يحيطون به في شبه دائرة، فاقتحموا المنزل وأزاحوا الرجل من طريق قائدهم وأسقطوه على الأرضية الاسمنتية، ثم جروه جرا إلى داخل حجرة جلوس متواضعة. تولى عسكريان تثبيته في الأرض بأن ضغط كل واحد منهما عليه من جانب فسمراه في الأرض وشلا حركته بينما أغلق العسكري الثالث النافذة وفتح النور الكهربائي.

ظهرت اِمرأة وصبيَان في الممر وأخذت أعينهم تتنقل بين القادمين والرجل المطروح أرضا. تشبث الصبيَان بقفطان والدتهما بينما كانت هي تحاول عبثا اقتيادهما نحو المطبخ.

ابتسم الضابط ابتسامة كانت أقرب إلى التكشيرة وطرح عليهم السلام. طوى نظارته ووضعها في جيبه الأعلى.

ردت صاحبة البيت السلام بطريقة آلية في ما يشبه الهمس.

توجه الضابط بكلامه إلى الرجل وقال بصوت أخن وهو يعبث بهراوته العسكرية: «أراك بعيدا عن دياركم».

رفع الرجل عينيه نحو الضابط وقد اتسعت حدقتاه.

أضاف الضابط قائلا: «وقد علمت أن أخاك اسماعيل يقيم في مدينة ليدز شمال انكلترا وهي أبعد عن العاصمة بعد دارفور عن الخرطوم، وليس فرق المدينة لكرة القدم ليس من فرق النخبة. ولست أدري لماذا يذهب الواحد فينا إلى انكلترا أصلا إن لم يكن سيقيم في ليفربول أو مانشستر؟».

أخرج الضابط من جيبه منديلا تمخط فيه، وقال: «لدي حساسية مفرطة»، ثم طوى منديله بتريث وأعاده إلى جيب سرواله. وأردف قائلا: «ماذا عسانا نفعل بأخيك هذا الذي يروج عنا الأراجيف في بلد أجنبي. هذا ليس بالعمل الوطني، أليس كذلك؟ ترى ما الدافع على صنيعه هذا؟».

ظل الرجل الطريح أرضا ينظر إلى الضابط ولا يرمش له جفن.

واصل الضابط قائلا: «كأني بك لا تريد أن تدلني على دوافع خيانة أخيك». ثم حول نظره نحو زوجة الرجل وخاطبها قائلا: «لعلك لا ترفضين أن تتولي أنت إبلاغ رسالتنا لأخيه».

رفع الضابط هراوته نحو إبنها المحتمي بها، وقام العسكري الثالث بانتزاعه منها وجره إلى وسط الغرفة. حاولت الأم أن تمنع عنه الصبي ولكن العسكري دفعها بعيدا، فارتطم رأسها بالجدار وأحدث صوتا مكتوما.

نظر الضابط حوله، فرأى منضدة بجانب الكنبة، فانحنى بصعوبة وجذبها إلى وسط الغرفة، ثم طلب من العسكري أن يفرش يد الطفل على سطح المنضدة. حاول الطفل أن يخلص نفسه من قبضة العسكري دون جدوى، فقد أمسك العسكري بيده بقوة وفتح راحته وفرشها على سطح المنضدة.

صاح الأب: «اتركه، لا تفعل به هذا!».

قال الضابط بازدراء: «لم أكن أظن بأنك تتحدث العربية، فأنت منذ قليل لم تفهم أسئلتي التي وجهتها إليك».

تقدمت الأم خطوة إلى الأمام وهي تقول: «إن كان لا بد من إيذاء أحد، فخلوا سبيل الطفل، وعاقبوني بدلا منه رجاء، فهو صغير عمره لا يزيد عن أربعة أعوام ولا ذنب له».

قال الضابط وهو يتحسس أرنبة أنفه: «كان على اسماعيل أن يضع هذا العامل في الحسبان قبل أن يقدم على إشاعة الأراجيف».

وتوسلت إليه الأم أن يترك الصبي وشأنه، ولكن الضابط لم يستجب لتوسلاتها، وأشار إلى العسكري أن يمسك بالطفل ويفرش له راحته الصغيرة على سطح المنضدة بالقوة. ثم رفع هراوته وهوى بها بسرعة. وقبل أن ينطلق صراخ الصبي، سمع الجميع طرطقة عظامه وهي تتهشم.

أومأ الضابط من جديد إلى العسكري، فأخلى سبيل الطفل وتنحى جانبا، فهرعت أمه إليه.

صاح فيها الضابط الذي ضايقه صراخ الصبي: «خذيه إلى خارج الغرفة». ثم نظر إلى والده الذي كان يبكي وهو لا يزال طريحا، فخاطبه قائلا: «لست متيقنا أنكم فهمتم ما أريد إبلاغكم به أيها القردة، فأنتم من الغباء بحيث لا حل لي سوى أن أكرر لكم عدة مرات».

أومأ الضابط برأسه نحو العسكري، فجذب هراوته وانهال على الوالد ضربًا مبرحًا بينما ابتعد الضابط حتى لا تتلطخ بزته بشلال الدم الذي فجرته الهراوة في جسم الرجل. جلس الضابط على كرسي وراح يمخط أنفه تارة ويحكّ عينيه تارة أخرى ويتنفس بصوت مسموع بين الفينة والأخرى.

كان الصبي يبكي في المطبخ بينما كان أخوه يجري بين المطبخ وغرفة الجلوس وهو يبكي بأعلى صوته. وكان صراخهما الحاد يقرع الآذان، وتمنى الضابط لو يصم أذنيه بدلا من الظهور بمظهر الضعيف أمام عساكره. غير أن الصراخ لم يكن ليزعجه كما كان سيزعجه أن يطلب أحد الجيران تدخل الشرطة لوقف الضجيج. فقد

علّموا الناس ألا يحشروا أنوفهم فيما لا يعنيهم. ثم إن الشرطة أنشئت كي تثير الرعب في المدنيين لا أن تحميهم وتسترد دراجاتهم المسروقة.

وعندما كفّ الرجل الطريح أرضًا عن التنفس. مسح العسكري الثالث بعناية الدم عن هراوته بوشاح كان مفروشًا على الكنبة. واستخدم زميلاه طرفي الوشاح لإزالة بقع الدم من على وجهيهما ومن على الجانب الأمامي من قميصيهما. وظل الضابط ينظر إليهم بفخر وهو يرى حرصهم على أناقة مظهرهم العسكري وعنايتهم ببعضهم بعضًا.

وعندما غادروا المنزل، لم يتجشم أي منهم عناء غلق الباب وراءه.

الفصل التاسع عشر

المكان: دونكستر، إنكلترا
الزمان: أيار/ مايو 2006

اقترب ثلاثة مراهقون من زهرة وجلسوا إلى الطاولة التي كانت تجلس إليها في مكتبة المدرسة على المقعد المقابل لمقعدها.عرفت زهرة من سحنتهم الداكنة نسبيا وملامحهم النافرة أن إنكلترا ليست بلد منشإ أبائهم وأنهم من قوم ليسوا من بلد قريب من السودان. ألقى عليها

أحدهم التحية وعرفها بنفسه، فقال إن اسمه طارق.لاحظت وهي ترفع نظرها نحوهم أنه ترك زغبا ينمو على شاربه وذقنه وخديه تعجلا لإطلاق لحيته تشبها ببعض الإسلاميين. دفنت زهرة رأسها في الكتاب الذي كانت تطالعه، على أمل أن يلتقط هؤلاء الصبيان الإشارة ويدَعوها لشأنها. فقد حذرها أخوها عبد اللطيف من مغبة الاختلاط بفتيان البلد. ثم إنها لم تكن لتهتم بهم وبلباسهم غير المرتب ووجوههم وجباههم المثخنة بالبثور وتسريحات شعرهم المترع بمواد لزجة لماعة.

تجاهل طارق إعراضها عنه ومال نحوها وسألها قائلا: «أراهن أنك صومالية، أليس كذلك؟».

سألته بالعربية إن كان يتحدث اللغة العربية، فلم يبد عليه أنه فهم ما قالته، فأردفت قائلة بالإنكليزية: «أنا سودانية من دارفور».

قال: «أين تقع دارفور؟».

قالت: «شرق أفريقيا».

قال وقد برقت عيناه: «الصومال تقع هناك».

قالت: «دارفور تبعد مئات الأميال عن الصومال».

نظرت إليه لترى إن كان قد استوعب جوابها، فإذا به يقول وهو يشير إلى حجابها: «أنت مسلمة، أليس كذلك؟».

قالت بهزة من رأسها: «وهو كذلك».

قال متفاخرا: «وأنا مسلم أيضا».

قالت: «ما هو بلد أسرتك الأصلي؟».

قال: «باكستان».
قالت: «كيف تقرأ القرآن وأنت لا تعرف اللغة التي نزل بها؟»، وسرَها أن تلاحظ انزعاجه من سؤالها الاستفزازي الذي كانت تأمل أن تتخلص به منه ومن رفاقه لتعود إلى المذاكرة.
وشوش قائلا بنبرة ملؤها التحدي: «لقد قررت أنا ورفاقي الالتحاق بالمجاهدين في الصومال».
قالت وقد قطبت جبينها: «ستجاهدون في الصومال ضد من؟».
أجابها وقد كشَّر عن أسنانه: «سنحارب أعداء الله واتحاد المحاكم الإسلامية، التنظيم التوأم للدولة الإسلامية في العراق والشام إن كنت لا تعلمين».
قالت: «سمعتهم يصفون الصومال في إذاعة البي. بي. سي. بالدولة الفاشلة والمارقة».
قال متهكما: «دعاية غربية، ونحن معشر المسلمين يجب علينا ألا نقعد عن الجهاد، وأن نهبّ لنصرة حركة اتحاد المحاكم الإسلامية في الصومال».
اتسعت عينا زهرة دهشة عندما انتبهت إلى وجود شعيرات في وجنتيه لم تتحول بعد إلى نبت وإنما تشي بأن صاحبها يريد أن يطلق لحيته كما يفعل المجاهدون، فسألته غير مصدقة: «تريد الالتحاق بالمجاهدين؟».
قال: «سأسافر أنا ورفاقي إلى معسكر تدريب، ومنه ننطلق إلى الصومال لطرد الشيطان الأعظم وتأمين قيام الدولة الإسلامية الحقة».

قال الفتى الجالس على يمينه وقد برقت عيناه من فرط الإثارة: «خبّرينا عن الوضع هناك!».
هزت كتفيها وكأنها تقول: «من أين لي أن أعرف كيف الوضع هناك؟».
قال: «ولكن ألست من شرق أفريقيا، وباستطاعتك الإجابة على سؤالي».
وشوشت قائلة على أمل أن يحذوا جميعهم حذوها ويخفضوا أصواتهم: «حرّ قائظ في النهار وبرد قارس في الليل. وعليك أن تسير أميالا وأميالا لتوريد الماء. وهناك أزمة شبه دائمة في المواد الغذائية، أما عن المسكن، فانسَ شبكات توزيع الكهرباء المياه وقنوات الصرف الصحي!».

ارتد إلى الوراء كما لو أن قوة خفية دفعته إلى الخلف وعلق على قولها مستنكرا: «أراك تمزحين».
تدخل طارق قائلا: «في الصومال، يكرمون وفادة المجاهدين ولن يبخلوا علينا بكل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب».
قال فتى ثالث وهو يغمز بعينه غمزة لا تخلو من مغزى: «حدثينا عن الحياة الليلية هناك!».
مالت زهرة برأسها وأراحت صدغها على كفها واستندت إلى مرفقها وظلت تنظر إليهم مليا، ثم خاطبتهم قائلة: «أعيد وأكرر أن لا كهرباء في الصومال والناس ينامون باكرا وليس باستطاعتهم شراء الشموع

والمصابيح. فهم ينهضون يوميا مع طلوع الشمس أي بين الساعة الرابعة والنصف والساعة الخامسة فجرا».

قال أحد الفتية: «لا برامج تلفزيونية ولا أقراص دي. في. ديز؟».

قالت زهرة وهي تغالب نفسها كي لا تنفجر ضاحكة: «هل تظنون أن هناك محلات كمحلات بلوكباستر ستؤجر لكم أقراص دي. في ديز؟».

خيم عليهم الصمت وكأن على رؤوسهم الطير وبدت على وجوههم علامات الامتعاض.

سكتت زهرة برهة، ثم أردفت قائلة وظلت تتوقف عن الكلام بين الفينة والأخرى لتسترد أنفاسها: «في الصومال، وداعا للهامبرغر والدجاج المقلي وألعاب الكمبيوتر وأدوات التوصيل الكهربائي، في الصومال، ليس أمامكم سوى الصلاة والتقرب إلى الله آناء الليل وأطراف النهار».

قال أحدهم وقد انتفض مذعورا: «لا يا حبيبي، لن أذهب إلى الصومال، فاذهبوا أنتم، إن شئتم!».

صوب طارق نحوها نظرات تتقد حقدا وكراهية وخاطبها قائلا: «أبي يقول إنه يجب على أمثالك الرحيل إلى أفريقيا لأنكم تزاحموننا على لقمة العيش هنا».

قالت: «شكرا له على تضامنه مع إخوانه المسلمين». ثم عادت إلى مطالعة كتابها.

أجابها وهو ينهض وينصرف ويتبعه رفاقه: «ارحلي عنا وعن هذا البلد وعودي إلى أدغال أفريقيا!».

***

في اليوم التالي لاحظت سماح علامات الإعياء البادية على إبنها عبد اللطيف، فخاطبته قائلة: «لقد رجعت في ساعة متأخرة البارحة».

كان عبد اللطيف قد شرع منذ فترة قصيرة في العمل عند سليم، وهو رجل سوداني يعيش في المنفى ويملك في دونكستر محلا لبيع البيتزا. وكان عبد اللطيف يرفض الحديث عن طبيعة العمل الذي يقوم به في المطعم، وهو ما لم يطمئن أخته زهرة. فلقد عرفت أنه كرجل دارفوري يشعر بالحرج لأنه يقوم في المطعم بأعمال هي في دارفور أعمال متروكة للبنات والنساء. بيد أن سليم أخبره بأنه سيسدد له أجره نقدا بعيدا عن أعين سلطات الهجرة، ونصحه بأن ينتقل بالسكن في منزل لا تعرفه سلطات الهجرة في حالة ما إذا قوبل بالرفض طلب اللجوء الذي تقدّمت به أسرته. ولم تستحسن أمه فكرة الانتقال إلى محل سكن آخر ورفضتها جملة وتفصيلا بثقة في النفس ما كانت لتتيسر لها لو أنها كانت لا تزال تعيش في قرية الشيخ محمد. فلقد أصبحت أمه تعتبر الشقة التي تقيم فيها بمثابة قصر منيف لن تتركه إلا مرغمة.

قطبت والدته جبينها وقالت وهي لا تخفي قلقها عليه: «ألم تخش على سلامتك من الرجوع إلى البيت مشيا على الأقدام في تلك الساعة المتأخرة من الليل؟».

تظاهر بالتركيز على تحريك ملعقة السكر في قدح الشاي الذي كان أمامه، ثم أجابها: «أماه، لا تقلقي!».

قالت وهي تهدهد رضيعها الذي أجلسته على ركبتيها: «هل سيطول بك هذا الأمر؟».

قال: «لا تنسي أننا بحاجة إلى المال، ثم إننا لن نظل هنا إلى الأبد». تبادلت النساء بينهن نظرة سريعة حيث ما عادت الواحدة منهن ترغب في العودة إلى القرية وإلى حياة الحرمان هناك. وساد صمت محرج قطعته قهقهة انطلقت من حنجرة الرضيع.

غيرت صفية الموضوع وسألت عبد اللطيف: «لماذا لا يبيع سليم طعاما سودانيا؟».

ابتلع عبد اللطيف ملعقة من ثريده السوداني الذي كان حريصا على ألا يتناول طعاما غيره في الصباح خلافا لما تفعله نساء البيت اللائي أصبحن يفضلن عليه التوست والمربى. ثم قال وابتسامة صفراء تعلو محياه: «صدقوني اسم السودان لا يوحي بأي شيء جميل، فهو ليس إيطاليا التي يحلم الكثيرون بزيارتها، بل مَن المجنون الذي سيذهب إلى السودان للسياحة؟»، ثم أشار برأسه تجاه فطورها الصباحي المتألف من التوست والمربى، وأردف قائلا: «أنت خير مثال على الدارفوري الحريص على عدم استبدال طعامه السوداني بآخر».

قلبت صفية عينيها وقالت غير آبهة بقوله: «يعجبني أن أجرب أشياء جديدة». سكب عبد اللطيف لنفسه مزيدا من الشاي وأردف قائلا: «مهما يكن من أمر، الإنكليز يحبون كثيرا البيتزا. وهذا ما يبيعهم

سليم طوال النهار بثمن بخس للشريحة الواحدة من فطيرة من عجين يرشونها بكميات كبيرة وكبيرة من جبن مذاب وصلصة طماطم، ولست أدري كيف يهضمونها».
قالت صفية بابتسامة بلهاء: «لا غرابة أن تهاجمهم السمنة».
تنهد عبد اللطيف وقال: «لا أستطيع التمييز بينهم، فكلهم يشبهون بعضهم بعضا».
قالت سماح وهي تنظر في عيني الرضيع وتداعبه: «ثم إنهم لا يكفون عن التذمر. أتذكرون المستشفى الرائع الخاص بالأطفال الذي طلبوا مني أن أحمل يوسف إليه بغرض تحصينه ضد عدة أمراض أخرى لم أسمع بها من قبل؟ فحتى خدمات تلك المنظومة الصحية لم تسلم من تذمراتهم التي سمعتها منهم وهم ينتظرون أدوارهم في قاعة الانتظار».
كان عبد اللطيف يعلم أن أمه لا تعرف اللغة الإنكليزية، وظن أنه قد ضبطها متلبسة بجرم، فسألها بنبرة لا تخلو من بعض التهكم: «كيف عرفت ذلك؟»، فإذا بها تفحمه بقولها إنها علمت بتذمرهم من صفية وأشارت برأسها ناحية صفية وقالت عنها: «مترجمتي صفية هي التي أبلغتني».
قال ضاحكا: «أراهم أسعد منّا وأفضل حالا بالفعل وهو يأكلون البيتزا». ثم دعدغ أخاه الرضيع وأردف قائلا: «ولكني متأكد أنهم جميعا قد سُرّوا بمرآى هذا الرجل البهيّ الطلعة». وعندما أشرق وجه

سماح، لاحظت زهرة أنّ أمها قد استعادت شبابها وأنّ حب الحياة قد عاد إليها بعد أن زهدت فيها لسنوات طويلة.

وفي تلك اللحظة رن هاتفه الجوال، فانتحى به ناحية النافذة، فطالعته الأنهج المبتلة بماء المطر. وواصلت نساء البيت تناول فطورهن في صمت كي لا يشوشن عليه محادثته الهاتفية يقينا منهن أن في الطرف الآخر من الخط أحد أعضاء مجلس اللاجئين الدارفوريين. ولاحظت زهرة أن أخاها قد تحول إلى شخص آخر منذ ذلك الاجتماع الذي حضرته معه في ليدز. فقد أصبح الآن جهة اتصال مهمة في شبكة علاقات متشعبة تربط بين أبناء دارفور المقيمين في بريطانيا.

بعد انتهاء عبد اللطيف من مكالمته، وجلوسه إلى الطاولة من جديد، خاطبهن قائلا: « أزف لكنّ خبرا سعيدا، لقد قرر الخاخام الأكبر لمنطقة لندن التوقيع على رسالة مفتوحة موجهة إلى رئيس الوزراء. كما أننا تحصلنا من قبل على توقيع القس الأكبر لكتدرائية كانتربيري وكاردينال الكتدرائية الرومانية الكاثوليكية».

سألته زهرة: « ماذا عن القيادة الروحية العليا للكنيسة الميثوديست؟».

قال عبد اللطيف: « شخصيا لن أدخر جهدا للحصول على تأييد الزعيم الروحي أو الزعيمة الروحية لهذه الكنيسة، بل والحصول على تأييد أتباع بوذا إن كان هذا سيسعدك».

قالت صفية وهي تدق الطاولة كما لو أنها تعلن عن افتتاح جلسة عمل: «هذه الرسالة، توجهونها إلى توني بلير، ثم ماذا بعد؟».

قال عبد اللطيف: «نعممها على وسائط الإعلام»، ثم سكت برهة وأردف قائلا: «إننا بصدد الاتصال بالكنائس والمعابد اليهودية لحثها على ذكر مأساة دارفور في خطبهم الوعظية».

قالت صفية وقد عقدت ما بين حاجبيها من جديد: «ماذا عن خطب الجمعة في المساجد؟».

قال عبد اللطيف دون مبالاة: «هذا ليس بالأمر الهين».

قالت صفية بتقزز: «لماذا يؤيد القادة العرب سفاكي الدماء ويقفون ضدنا. فهم ليسوا كلهم من الإسلاميين ولا يرغمون شعوبهم على تطبيق الشريعة، أليس كذلك؟ وهم ليسوا جميعهم كالنظام السعودي يعدمون الناس رجما ويقطعون يد السارق. ثم إنه في معظم البلدان العربية هناك قضاة ومحاكم لا عصابة من الموالي الأميين المتحكمين في رقاب الجميع».

أجابها: «القادة العرب يتحدثون عن التضامن الإسلامي متى كان ذلك لفائدتهم. غير أنهم ليسوا أول ولا آخر من وظفوا الدين لتأجيج مشاعر الكراهية وصرف النظر عن سوء أفعالهم». ثم سكب لنفسه قدحا آخر من الشاي وأضاف قائلا مخاطبا زهرة وصفية وهو في طريقه إلى غرفته: «أعتقد أنه قد حان موعد ذهابكما إلى المدرسة. أما أنا فيجب أن أجري بعض المكالمات الهاتفية».

قالت أمه بصوت حرصت على أن يكون مسموعا: «أرجو ألا يقتل نفسه من كثرة العمل، سيصبح بإمكانه الالتحاق بمعهد من المعاهد وتعلم مهنة نافعة ما أن نسوي وضعنا مع سلطات الهجرة».

قالت صفية: «مهنة كالسباكة»، وذلك لعلمها أن أخته زهرة تتمنى أن يتعلم هذه المهنة فقد سبق وأن سمعتها تقول: « بالأمس، في مستشفى «الرضيع الموفور الصحة»، كان الجميع يصفون هذه المهنة بالمجزية يقولون إن خدمات السباكين مطلوبة جدا يتعذر الفوز بها لقلة عددهم».

أومأت زهرة برأسها تأييدا لكلام صفية ولكنها كانت تخشى أن يقرر أخوها عاجلا أو آجلا العودة إلى دارفور. وحدثت نفسها قائلة وهي تجمع كتبها للذهاب إلى المدرسة: « أريد الذهاب إلى نيوجرسي، أعرف أن هذا ما كان جدي يريده لي. كل ما أريده هو الوصول إلى هناك». ثم تبعت صفية لنزول السلم وعدد درجاته اثنتان وتسعون درجة بالتمام والكمال، تفوح منها روائح كريهة وهي تتساءل في سرها: «كل ما يلزمني هو الاهتداء إلى الطريق الذي سيوصلني إلى هناك».

***

عندما رجعت زهرة بعد الظهر من المدرسة إلى البيت، وجدت جارتها مسز ادواردز أمام المتجر الكبير. لم تنتبه إليها العجوز التي كان كل اهتمامها منصرفا في أكياسها المشاغبة التي لا تريد الانصياع لها. فقد انكسر إسار أحدها واستحال عليها الاحتفاظ بمحتوياته داخله والحيلولة دون تبعثرها على الأرض.

خاطبتها زهرة قائلة وقد ارتسمت على محياها ابتسامة خجولة: «دعيني أساعدك!».

ذعرت المرأة وابتعدت عن زهرة.
قالت زهرة: «أرجوك، لن أسرقها منك، دعيني أحملها عنك!».
ترددت المرأة لحظة ثم أومأت برأسها علامة القبول وقالت: «شكرا لك».
بعد قليل، كانتا تسيران جنبا إلى جنب عائدتين إلى البناية التي يقطنانها. تمهلت زهرة في مشيتها مجاراة لمشية العجوز التي تشكو من آلام في مفاصل ركبتيها.
بادرتها زهرة بالحديث قائلة: «كيف حالك؟».
بان الذعر من جديد على ملامح مسز ادواردز وأجابت قائلة: «لم يعد هناك من في سنك يسأل هذا السؤال. تنتابني آلام على مستوى الورك وهذا الطقس التعيس لا يصلح لشخص يعاني من آلام في مفاصله. أتصور أنّ طقس بلدنا قد مثّل لك مفاجأة غير سارة».
قالت زهرة مكررة جملة حفظتها عن ظهر قلب لترديدها على مسامع أهل البلد: « الطقس لا يضايقني فأنا على الأقل أشعر هنا بالأمان».
قالت المرأة بترو: « أتفق معك ولا يسعني إلا أن أحمد الله على جيرتكم السعيدة. فأنتم لستم كأولئك المدمنين الذين كانوا يقيمون في شقتكم من قبل. كانوا لا يكفون عن إحداث الضجيج ليلا نهارا».
وعندما دخلتا إلى بهو البناية، تبين أن المصعد كان معطلا، فأخذت زهرة عنها برفق بقية الأكياس وقالت بحزم: «سأحملها عنك، انتبهي إلى وركك!».

قالت العجوز: «لقد أصبحت طاعنة في السن وضاربة في القدم».

قالت زهرة بلهجة جادة وهي تصعد درجات السلم: «لا تقولي عن نفسك ضاربة في القدم، فأين أنت من قدم كتدرائية شارتر؟!».

قالت العجوز وهي لا تصدق ما سمعته من زهرة: «هل زرت تلك الكتدرائية؟».

قالت زهرة: «لا، ولكني قرأت عنها» قبل أن تضيف مقلدة لهجة ونبرة العجوز: «وأنت هل دخلت إليها؟».

قالت مسز إدواردز: «نعم، زرتها منذ سنوات طويلة، كان ذلك بمناسبة شهر العسل الذي قضيته مع زوجي، رحمه الله، الذي انتقل إلى جوار ربه منذ إثني عشر عاما تقريبا، لقد أخذني في شهر العسل إلى باريس ومن ثمّ أخذنا القطار في رحلات تدوم يوما واحدا زرنا فيها شارتر وريمس وفرساي».

قالت زهرة: «لقد كانت رحلة رائعة، أليس كذلك؟».

توقفت المرأة عن صعود السلالم والتفتت إلى زهرة ونظرت إليها قبل أن تطلق ضحكة وتضيف قائلة: «آه، وهو كذلك، لقد كانت رحلة رائعة».

لاحظت زهرة أن وجه المرأة قد تغير حيث لم يعد يحمل أيًّا من علامات التوجس التي كانت تشوبه وأنّ عينيها كانتا تبرقان من فرط الانشراح. وعندما افترّ ثغرها عن ابتسامة عريضة، لاحظت زهرة أن وجنتي المرأة لا تزالان يانعتين وتغبطها عليهما أي امرأة حتى وإن كانت أفريقية مثلها.

واصلت مسز ادواردز قائلة، وهما يصعدان درجات السلم ويحاذران تجنب ما يعترضهما من قاذورات: «لا أحد في حَينا سبقني إلى ذلك في ذلك الزمن، أي في الخمسينيات حيث كان الناس آنذاك يذهبون إلى المناطق المطلة على البحر لقضاء شهر العسل، غير أني قررت أنا وزوجي كسر هذه العادة، والإقدام على عمل يظل محفورا في الذاكرة، فركبنا السفينة إلى فرنسا. وحق المسيح لقد كانت رحلة رائعة. أما الطعام، فمهما وصفت، فلن أفيه حقه».

سألتها زهرة وهما يصعدان السلم بعناء لا يقل في شيء عما تعانيه البغال لصعود المسالك الجبلية الوعرة: « وماذا عن الكنائس والقلاع؟».

قالت مسز ادواردز: «هي أيضا عجيبة من عجائب الدهر، ما زلت أحتفظ بالخرائط وبالأدلة السياحية التي اشتريناها في كل مكان زرناه. هل تريدين أن أطلعك عليها؟».

قالت زهرة بلهفة: «نعم، أرجوك».

قالت مسز ادواردز: «تفضلي بالدخول لتناول قدح من الشاي إذن. آه نسيت أن أسألك عن اسمك».

- أنا زهرة

- اسم جميل وما اسم بلدك؟

- انا من دافور من السودان وهو بلد مزقته الحرب.

- دافور؟ يا للهول، يا له من أمر فظيع، لقد حدثتني حفيدتي عن هذا البلد.

- حفيدتك؟
- نعم، إنها تدرس في مجال العلاقات الدولية في جامعة لندن، إنها ذكية جدا.
تحسست المرأة طريقها نحو باب شقتها وبحثت عن المفتاح بينما وضعت زهرة الأكياس على الأرض وهي تقول: «سأذهب لإبلاغ أمي بأني في شقتك».
قالت مسز إدواردز: « طبعا،عودي بسرعة، سأترك لك الباب مفتوحا!».
وما هي إلا دقائق حتى كانت زهرة تتصفح كتيبا يتضمن صورا قديمة بالأبيض والأسود لكتدرائية شارتر. شربتا عدة أقداح من الشاي وظلت مسز إدوارد تتحدث عن شهر العسل وعن زوجها جورج الذكي جدا والذي يعرف كل كبيرة وصغيرة عن ملوك فرنسا والخلفية التاريخية للمباني التي زاراها.
سألتها زهرة وقد لاحظت وجود صور أطفال موضوعة على طاولات صغيرة في غرفة الجلوس: «أين هم أفراد أسرتك الآن؟».
قالت العجوز: «في الجنوب، في مدينتي سوندون وبيتربورو، انتقلوا إلى هناك بحثًا عن عمل، وكما ذكرت لك، الجامعة التي تدرس فيها سارة توجد في لندن، واسمها كنغ كوليدج». ترددت قليلا قبل أن تضيف: «اسمك زهرة قريب من سارة، يا لها من صدفة طريفة!».
ابتسمت زهرة وواصلت المرأة تقول: «سأسألها عن دارفور في أول فرصة أتحدث فيها إليها، هي مشغولة جدا بطبيعة الحال وليس لديها

في هذه السن متسع من الوقت أو الصبر للاستماع إلى جدتها ولكن، سأهاتفها الليلة وأحدثها عنك. فهي تهتم كثيرا بحالة حقوق الإنسان وكثيرا ما تشارك في المظاهرات المنددة بحالات حقوق الإنسان في بلدان كبورما والصين».

قالت زهراء: «أتمنى لو كانت إنكليزيتي أفضل لأتواصل معك على نحو أعمق».

قالت العجوز: «أراهنك أن علاماتك في المدرسة أعلى من علامات أقرانك من مواليد البلد من سكان هذا المشروع السكني الاجتماعي».

قالت زهرة إنها لا تنكر أنها تجتهد كثيرا وأنها الأولى في صفها مثل صفية التي تسبقها بفصلين.

سألتها العجوز عن أسرتها وما إذا كانت أمها هي تلك السيدة التي تسكن معها في الشقة وسألتها عن أحوال أمها.

فأجابتها بأنها فعلا هي أمها وأنها بصحة جيدة والحمد لله، واسمها سماح وأخبرتها أن لها أخا رضيعا اسمه يوسف وأخا أكبر منها اسمه عبد اللطيف.

سألتها العجوز أن تبلغ تهانيها إلى أمها بمناسبة ولادة أخيها يوسف، وأضافت قائلة: «أسرة وديعة، أليس كذلك»؟

قالت زهراء بصوت منكسر: «البقية كلهم قتلوا».

قالت العجوز: «يا إلهي، تقصدين والدك؟».

قالت زهرة: « أبي وجدي وبقية إخوتي وأخواتي وأولاد وبنات أعمامي وأخوالي».

تأملت العجوز قدحها الخالي من الشاي، ثم نظرت إلى زهرة وقالت: «مسكينة أيتها المخلوقة، كبرت قبل سنك ورأيت ما فيه الكفاية من الأهوال» ثم أضافت قائلة بسرعة: « أنت أشبه ما يكون بجيل «البتلز» عندنا الذي عايش محنة الحرب العالمية الثانية».

قالت زهرة وكأنها تردد شيئا حفظته عن ظهر قلب: «ستة ملايين من الضحايا اليهود، ثمن معركة دحر النازية».

جلست العجوز في مقعدها من جديد وقد تعجبت من نباهة الصبية. ثم خاطبتها قائلة: «يا لك من فتاة ذكية!». ثم ترددت لحظة وكأنها تريد أن تنتقي كلماتها وقالت: «لا يسعني إلا أن أثني على شجاعتك وقدومك إلى بلد غريب عنك».

ابتسمت زهرة وقالت: « جدي قال لي يجب أن تكوني قوية وأن تجتهدي في دراستك كثيرا. لقد قتلوه هو أيضا. كان رجلا شديد الذكاء ومتفتحا جدا، أرسلني إلى مدرسة في دارفور حيث كنا قلة من البنات».

قالت العجوز: « أنا متأكدة من أنه كان رجلا شديد الذكاء، وأنا متأكدة من أنه فخور بك كثيرا».

فجأة، اغرورقت عينا زهرة بالدموع. فخفضت رأسها لتخفي عن المرأة دموعها. ناولتها المرأة منديلا من الورق وهي تقول: «كم أبكي زوجي، لا يمكننا أن نتجلد دائما ونحبس دموعنا، فنحن بشر».

أخذت زهرة نفسا عميقا في محاولة للسيطرة على عواطفها الجياشة.

قالت العجوز: «الآن، أعرف أن لي جارة تحب الفن، والأولى بنا أن نلتقي للحديث عن الكنائس والرسم، أليس كذلك؟ كم سيكون جميلا أن أجد فيك صديقة». ترددت العجوز قليلا، ثم أضافت قائلة: «قليلون هم الناس في هذا الحي ممن لهم هذا الذوق الراقي. إنه أمر يثير الخجل».

جففت زهرة بقايا دموعها. واستأنفت العجوز حديثها قائلة: «هناك في الطابق الثالث ماريا وهي طبيبة أسنان جميلة المعشر، وأظنها بولندية، جذابة جدا ومتعلمة. أود أن أراها أكثر ولكنها تعمل في أوقات غريبة جدا. وباستثناء هذه المرأة، لا بد من الإقرار بأن البعد عن بعض سكان المبنى غنيمة. لا أعرف كيف آلت الأمور إلى ما أصبحت عليه الآن. أعتقد أن السبب في ذلك هو شره رئيسة الوزراء مسز تاتتشر، وزوال الذوق الرفيع. فقد بشرتنا مسز تاتشر بنهاية التمسك بالعقد الاجتماعي وكان لها ما أرادت.» وقبل أن تغادر زهرة، خاطبتها العجوز قائلة: «مع السلامة يا عزيزتي، أراك قريبا».

وأثناء تناول الفطور في اليوم التالي، تأخر عبد اللطيف في الالتحاق بطاولة الأكل وجلس دون أن يلقي بالا إلى أمه وأخته وصفية اللائي جلسن قبله إلى الطاولة. نظرت سماح إليه من بين قرص التوست الذي كانت تمسك به والمربى، ولكنها قررت ألا تلقي عليه محاضرة جديدة بشأن ظروف عمله. وبدلا من ذلك واصلت النسوة حديثهن بشأن ما دار بين زهرة ومسز إدواردز. قالت صفية وكأنها تريد أن تلخص لعبد اللطيف ما فاته من حديثهن: «تركها أبناؤها وحيدة هنا، ويتعين عليها الانتقال إلى أقصى أقاصي البلد لزيارتهم، يا لها من

اِمرأة لطيفة أيضا! إنها ليست كتلك العجائز اللائي يُستحسن عدم الاحتكاك بهن».

قالت سماح: «لا بد أن الأمر ليس بالهين عليها».

قالت صفية في ما يشبه الهمس: «يكاد الأطفال في المدرسة لا يتحدثون مع أبائهم وأمهاتهم ولا يتناولون الطعام معهم. يجلسون إلى تلفزيوناتهم الخاصة بهم يشاهدون برامجهم المفضلة ولا يلقون بالا لآبائهم وأمهاتهم».

تبادلت النساء الثلاثة نظرات مشفرة. ثم سألت سماح ابنها عبد اللطيف الذي كان ملازما للصمت: «ارحم نفسك من العمل لساعات طويلة!». فأجابها قائلا: «لا تعودي إلى هذا الموضوع!». ثم فرك وجنتيه بيد واحدة كمن يريد أن يطرد عنه النعاس. ومضى يقول: «أنا آسف، أماه، لقد كانت لي محادثة تلفونية مع اسماعيل بالأمس».

حدقت فيه النساء، فهن يعرفن جيدا أنه يتحادث مع إسماعيل عدة مرات في اليوم، ولا بد أن تكون المحادثة المشار إليها تحمل خبرا جديدا. وسألته أمه قائلة وقد لمست في صوته ما لا ينبئ بخير: «ما الذي حدث كفانا الله الشر؟».

قال: «لقد داهم رجال المخابرات منزل أخيه المقيم في أم درمان، ذلك الأخ الذي حدثنا عنه ذات مرة، وسألوه عما وصفوه بأنها أراجيف نروجها هنا عن النظام في البلد».

تساءلت زهرة في سرها كيف علمت السلطات في الخرطوم بهذه الأنشطة ولم يطل بها التساؤل حيث إنها تذكرت أنها كثيرا ما سمعت

أخوها عبد اللطيف يقول إن لنظام الخرطوم في إنكلترا عيونًا وآذانًا، ولم تكن قبل الآن تفهم ما يعنيه بكلامه ذلك. سرت قشعريرة في جسدها وتوجست خوفًا من عواقب تلك الأنشطة جراء وجود من يبلغ عنها أولا بأول أجهزة مخابرات نظام الخرطوم التي تقتفي آثار الجالية السودانية ولا يغيب عن علمها فحوى ما يصدر عن عبد اللطيف ورفاقه في الاجتماعات التي يعقدونها والرسائل التي يبعثون بها إلى الصحافة والمقابلات التي يجرونها.

قال عبد اللطيف دون أن يرفع عينيه عن فنجان القهوة التي كان يمسك به بين يديه: «لقد هشموا أصابع إبن أخيه وأحدثوا له فيها «سقوطا» مستديما، ولم يشفع له عندهم صغر سنه وكونه لا يزال طفلا بريئا لا ناقة له ولا جمل في أي وزر ينسبونه إلى عمه».

أغمضت سماح عينيها ووضعت يدها على فمها تكتم صرخة كادت أن تنطلق من حنجرتها.

أضاف عبد اللطيف قائلا: «وقتلوا أخاه».

ضغطت سماح براحتها على فمها لتكتم صيحة كادت أن تفلت منها وتمتمت بدعاء إلى الله. وتسمرت زهرة وصفية وتحجرتا في مكانهما من فرط الصدمة.

وقال عبد اللطيف بصوت حزين: «لذا، يتوجب علينا أن نلازم جانب الحيطة والحذر حتى ونحن هنا في هذه البلاد البعيدة جدا عن بلدنا». ثم نظر في ساعته وقال مخاطبا أخته زهرة وصفية: «حان موعد ذهابكما إلى المدرسة».

تركت الفتاتان الطاولة واتجهتا نحو غرفتهما في صمت.

الفصل العشرون

المكان: مخيم الجنينة، ولاية غرب دارفور
الزمان: أيار/ مايو 2006

لم يكن من السهل مطلقا على رشيد انتزاع موافقة جده على استقباله للاستماع إليه بين مجلسين من مجالسه الصباحية. لذا، بقي خارج الخيمة يذرع الأرض جيئة وذهابا من شدة التوتر والترقب. واشتد به اليأس وهو يرى جده يسبّق عليه الجميع ولا يدعوه إلى الدخول عليه.

وكان رشيد يعي جيدا أن ثمة واجبات منوطة بجده تقتضي منه أن يسبق عليه البعض، غير أنه كان يدرك جيدا أيضا أن جده لا يستطيع صبرا مع أي ثرثار يثقل عليه بالحديث عن شواغل ضيقة لا تهم سواه. وعندما طال به الانتظار، رجح أن يكون زواره هذا الصباح من عينة أولئك الذين تربطه بهم مصالح حيوية من الذين يقصدونه للتدخل لفائدتهم لدى السلطات ومن الحريصين على أن يخفوا تعاملهم مع الأجهزة القمعية لنظام البشير.

وعندما عيل صبره وأوشك على الانصراف، خرج إليه عمه يدعوه للدخول على جده أثناء استراحة الغداء، وحذره ألا يثقل عليه بأي شكل

من الأشكال ودعاه إلى تذكّر أن جده مرهق جدا، ويستحسن به ألا يضيع عليه وقته الثمين في توافه الأمور.

كان الشيخ عصمان مستندا إلى كومة من المخدات ومستسلما لغفوة بينما كان صوت مذيع البي. بي. سي. يتلو على المستمعين نتائج جولة مباريات كرة القدم.

وما أن وجد رشيد نفسه ماثلا أمام جده حتى اضطرب وانعقد لسانه وتبخر حماسه الذي دفعه إلى طلب مقابلته. تنحنح عدة مرات، ثم نطق بلسان متلعثم وبصوت أقرب إلى الهمهمة، فقال: «جداه، أرجوك أريد أن أتحدث إليك».

تحرك الشيخ وفتح عينيه، ثم رمشت أجفانه وحدّق في حفيده بعين مفتوحة وأخرى لا تزال مغمضة. وبدا للحظات أنّ العجوز قد اشتبه عليه الأمر وفوجئ بوقوف حفيده أمامه على تلك الحال. وهو ما حزّ في نفس رشيد وأحبط معنوياته إذ لم يغب عليه أن يلاحظ مرة أخرى أن جده كان يحاول جاهدا أن يتذكر من يكون صاحب هذا الوجه غير الغريب عليه.

أخيرا، نطق جده وسأله: «ماذا تريد؟».

قال رشيد بعد أن أخذ نفسا عميقا: «إنهم يقولون إنك بعت الفتية».

تثاءب العجوز وفرك وجهه كمن يغتسل بدون ماء. وشرع في النهوض من على وسائده، ثم وكأني به عدل عن النهوض، فعاد إلى جلسته الأولى. وإذ به يغفو من جديد، ويكفهر وجهه ويسأل حفيده متهكما عليه ومستخفا به: «هل سمعتك تقول إني بعتهم جميعهم؟».

قال رشيد: «هذا ما يردده الناس، إنهم يقولون إنك بعتهم».

قال جده: «لماذا تضيع وقتي في توافه الأمور؟».

أحس رشيد كما لو أنه تلقى صفعة على قفاه، فغير مجرى حديثه وخاطب جده قائلا: « جئت لأبلغك إني أريد الالتحاق بصفوف المتمردين إذ لم يعد أمامي من خيار آخر للدفاع عن عرضي وسمعة أسرتنا. فالجميع يعيرونني بالجبن ويتهمونني بأني أقبل لنفسي أن أرى جدي يبيع رفاقه ولا أحرك ساكنا ولا أتضامن معهم، لا همّ لي سوى اللهو وكرة القدم.

قال جده: «لم أكن أعرف أنك لاعب متميز وأن فريقك يعتمد عليك كثيرا».

قال رشيد وقد شعر بالدماء تصرخ في عروقه: «أنا ذاهب لتلبية نداء الواجب، واجب الدفاع عن الأرض والعرض بوصفي سليل أسرة من الأشراف».

شبك الشيخ عصمان يديه فوق بطنه وظل للحظات مستلقيا على ظهره لا يحرك له ساكنا. وهو ما أربك رشيد إذ لم يعد يعرف ما إذا كان جده قد غفا فجأة من جديد، أم أنه انصرف ببساطة بذهنه إلى سماع نتائج مباريات كرة القدم التي كان مذيع البي. بي. سي. لا يزال يتلوها تباعًا. غير أنه سمعه يتنهد بسأم ويمرر يدا على فمه وهو يقول: «يبدو لي أنك تريد أن تجرب حظك في ممارسة السياسة وجئت لتسمعني مقطعا من خطبة نارية تلهب المشاعر وتكشف غباوتك وضيق تفكيرك».

ومضى الشيخ يقول بعد أن ألجم بإشارة من يده فم حفيده الذي ومنعه من مقاطعته: «دعك من هذه العنتريات! لن أسمح لك ولا لغيرك من أفراد أسرتي بالانجرار وراء هذه المناوشات السخيفة».

أشهر رشيد قبضته وتوجه بكلامه إلى جده قائلا: «لقد سمعتك تقول إن واجبنا الدفاع عن هويتنا الدارفورية، ألم تقل هذا الكلام إلى قادة المتمردين الأسبوع الماضي؟».

أجابه جده دون تردد: «بل أؤيدهم وأجزل لهم العطاء، ولكن في المقابل أكفل لنفسي ألا يزجوا بمن هم من لحمي ودمي في معركة أعلم أنها خاسرة. فبعد جيل واحد من الآن، ستندثر لغتنا الدارفورية نهائيا وستحل اللغة العربية محلها. ولن تجد من ينفي أن الدم الذي يجري في عروقه دم عربي لا تشوبه شائبة. فهذا هو الاتجاه الذي سار ويسير فيه تاريخ السودان منذ أن قدم إليه العرب قبل إثني عشر قرنًا. ولن تجد من يتشبث بأسلوب حياتنا القبلية النبيل إلا مجنون حالم لن يقوى على مقاومة تيار العولمة الذي سيجرفه مع ما جرف». ثم ختم قائلا وهو يتثاءب: «والآن آغرب عن وجهي ولا تفسد عليّ راحتي!».

ازدرد رشيد ريقه، ثم قال: «لماذا إذن كل تلك القصص التي حكيتها لنا في صغرنا عن شجاعة رجال القبيلة التي لا يضاهيهم فيها أحد في كامل القارة الأفريقية وعن بسالتهم وهم يصارعون السباع وليس لهم من سلاح سوى سلاح بسيط، وكيف توارثنا نحن عنهم جيل بعد جيل هذه الشجاعة على امتداد مئات السنين».

أغمض الشيخ عينيه وأمر رشيد بالانصراف بإشارة متثاقلة من يده تقول ما معناه: «دعني أستمع إلى الراديو!».
قال رشيد: «لم تترك لي وجها أخرج وأقابل به أندادي؟».
قال جده ضاحكا: «ستتعود على هذا الأمر، إنها ضريبة الوجاهة يا بني، وستجد دائما من يحسدك على ما أنت فيه».
أجابه رشيد: «كيف تريدني أن أتعود على مسألة تمس شرف أسرتي وعرضها!».
قال عصمان: «إنك تفسد على متعتي وتمنعني من الاستماع إلى الراديو!».
قال رشيد: «سألتحق بالمتمردين وسأحفظ شرف أسرتي وعرضها وأقطع لسان من يشيع أن في أسرتنا من ليس جبانا ونذلا».
جن جنون جده، فترك الراديو وانتصب واقفا في لمح البصر وقد اتقد الشرر من عينيه وصاح فيه: «ماذا تقول؟ أريدك أن تكرر حالا هذا الذي قلته».
خطر لرشيد أن ينسحب فورا، ولكنه غالب نفسه وظل واقفا في مكانه بالرغم من أنه كان يشعر بأن رجليه لم تعد تقويان على حمله.
وسمع جده يضيف قائلا: «أيها الأحمق، كيف تبيح لنفسك أن تنتقدني، أنت أيها الراعي الحقير! كيف تنسى أني ولي نعمتك وأني أنا الذي أطعمك يوميا من عملي، بينما تعيش أنت عالة بلا عمل تملأ بطنك من خيرات كدي وكدحي. ولكن يبدو أني لست نذلا بما يكفي

لأني أسمنك كما تسمن المواشي ولا أتركك تتضور جوعا كما هو حال الآخرين في هذا المخيم».

حاول رشيد عبثا أن يعترض على أقوال جده الذي لم يمهله وأمره أن يغرب عن وجهه وألا يعود إلا لتقديم اعتذاراته. تسمر رشيد في مكانه ولم يحر جوابا.

فصرخ الشيخ عصمان في وجهه: «اخرج حالا، لا أريدك هنا!».

تحسس رشيد طريقه نحو مخرج الخيمة وشعر بدقات قلبه تتسارع. وقبل أن يغادر الخيمة تناهى إلى سمعه من جديد صوت زر تشغيل الراديو وسمع بعدها مباشرة صوت المذيع وهو لا يزال يعلق في جمل متسارعة ومتلاحقة وقائع مباراة فريق تشلسي الأخيرة.

هام رشيد على وجهه بين أزقة المخيم واعتراه شعور بأن جده قد طعنه في كبريائه وعامله كما لو كان طفلا مشاكسا تملكته سورة غضب، لا كشاب أهين في كرامته فثار غيرة على شرف أسرته وسمعة أهله. وتذكر أنها ليست أول ولا آخر مرة لا يقيم له فيها وزنا ويستخف به واحد من أفراد أسرته.

سار ببطء في أرجاء المخيم متنقلا بين أكوام القمامة ومرَّ في طريقه بحمارين فعل فيهما الجوع فعله، فنتأت عظامهما وبانت أضلاعهما فأصبحا أقرب إلى هيكلين عظميين. كان يسائل نفسه: « هل كنت تتوقع أن يجزع جدك فيستحلفك ألا تفكر ثانية في الالتحاق بالمتمردين؟ أم هل كنت تمنّي النفس بأن تراه يعتذر منك لأنه أساء

التعامل معك ولا يريدك أن تموت وتخلف لدى الجميع لوعة حرّة لن تنطفئ مطلقا؟».

توقف رشيد عن المشي، ووجد نفسه يقف دونما غاية محددة في طابور لمجموعة من الوافدين الجدد على المخيم. نظر إلى ثيابهم الرثة والمغبرة، وإلى علامات الحيرة والذهول المرتسمة على وجوههم وهم ينتظرون بصبر دورهم ليسجلهم المسؤولون في دفاترهم، ورأى كيف تشبث بعضهم ببقايا أمتعة بائسة كما يتشبث غريق بطوق نجاة.

تساءل رشيد في سره: «ماذا تراني أفعل في هذا المخيم؟ لا أحد يرى حتى من بين أفراد أسرتي، أنه ثمة غاية من قعودي هنا».

فجأة، غيّر رشيد وجهته ومشى إلى المكان الذي يعرف أين تتواجد الواسطة التي ستأخذه إلى فصيل المتمردين الذي يقوده المدعو عبد الله.

في صبيحة اليوم التالي، وصلت إلى مدرج الطائرات خارج المخيم طائراتان عموديتان تابعتان للأمم المتحدة. وخلافا لما تحمله الطائرة في العادة، لم تكن الطائرتان تحملان هذه المرة ركابًا من موظفي الأمم المتحدة ولا شحنات من الأدوية والمواد الصيدلانية، وإنما نزل منهما وفد زائر من بلد غربي يتألف من سياسيين وصحفيين يصطحبهم جنود يعتمرون قبعات زرق، أي أنهم من أفراد الأمم المتحدة لحفظ السلام. ولم يكن سكان المخيم الذين شاهدوا قدوم الطائرتين يعرفون على وجه التحديد بلد وجنسية هؤلاء الفرنجة الذين نزلوا من الطائرتين، حيث إن زيارتهم كانت في حد ذاتها حدثًا بارزًا

تناقلته الألسن في المخيم. وكان أفراد القبعات الزرق مسلحين. وقد علم سكان المخيم في ما بعد أنهم قدموا مع أعضاء الوفد الفرنجي لحمايتهم.

نزل أعضاء الوفد من سلالم الطائرتين العموديتين وأجفانهم ترمش وراحوا يتفحصون المكان في عز الشمس. ويبدو أن بعضهم ذُعر وهم يرون بقايا خردة لأكثر من طائرة ثابتة الأجنحة وطائرة عمودية لم يسعفها الحظ للهبوط بسلام في هذا المدرج في ماض غير بعيد، فتحطمت واشتعلت فيها النيران، وانتهى أمرها. ولم يجتهد المسؤولون كثيرا في إيجاد حل للتخلص من هذا الحطام المعدني، وإنما لم يفعلوا أكثر من جر الحطام غير بعيد وتركه بمحاذاة الشريط المعشب المستخدم حاليا مدرجا للطائرات.بل، ولم يتجشم أي منهم عناء إزالة بقايا الحطام التي ظلت هناك إلى أن أتى عليها الصدأ وغاصت في الأرض واختلط بثراها وأصبحت أثرا يذكر الوافدون بأن عليهم أن يحمدوا ربهم لأنهم كتبت لهم السلامة خلافًا لآخرين كانوا أتعس حظًّا.

وجد أعضاء الوفد الزائر في انتظارهم ثلاثة مسؤولين من وكالة الأمم المتحدة للاجئين العاملة في الجنينة، قدموا إلى المدرج ومعهم سبع مركبات رباعية الدفع بيضاء اللون من طراز لند كروز، فاندسّ فيها السياسيون والجنود والصحفيون. وما هي إلا لحظات من نزولهم حتى كانت مركبات الأمم المتحدة تنطلق بهم بعيدا عن المدرج.

كان مقر قيادة بعثة مراقبي الاتحاد الأفريقي القريب من المدرج هو المحطة الأولى التي توقفت فيها مركبات الأمم المتحدة. وبعد اجتماع

دام أقل من ساعة، وقف السياسيون، والتقطت لهم عدسات المصورين صورا وهم يقفون داخل مقر البعثة الأفريقية إلى جانب حاملة أفراد مدرعة، وأجروا مقابلات إعلامية مع طواقم القنوات التلفزيونية الذين استقدموهم معهم. وتحدث أعضاء الوفد عن«الحالة الأمنية» في دارفور. وانتظر السياسيون من أعضاء الوفد رفقة أفراد الحماية المخصصة لهم أن ينتهي الصحفيون المرافقون للوفد من طي معداتهم، ثم رجع جميعهم إلى المركبات واستقلوها إلى المحطة التالية.

كان المخيم محطتهم الثانية، فركنوا المركبات خارج الخيمة الكبيرة التي تأوي مكاتب موظفي مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين الذين يديرون مخيم الجنينة. وهناك استمعوا أيضا إلى إحاطة إعلامية استغرقت ساعة تقريبا ظهروا بعدها وأجروا مع الصحفيين أحاديث دارت حول موضوع«التحدي الذي تجابهه وكالات الإغاثة الإنسانية في دارفور». وفي أثناء ذلك، كان أفراد قوة الحماية المرافقين لهم يقفون خارج الخيمة يرقبون جمعا من الأطفال قد تحلقوا حولهم وراحوا يحملقون بفضول في بشرتهم البيضاء وأزيائهم الكبيرة الحجم ومدافعهم الرشاشة.

استعان أعضاء الوفد بمترجمين في إلقاء كلماتهم، فقالوا إنهم قدموا في جولة لتقصي الحقائق وإنهم يريدون الاستماع إلى شواغل سكان المخيم. وألقى كل سياسي كلمة مقتضبة صورتها وسائط الإعلام المرئي، ثم دعا موظفو الأمم المتحدة سكان المخيم للإدلاء بدلوهم. فساد بينهم صمت، وخفضوا أبصارهم.

قال أحد أعضاء الوفد ضاحكا: «هل أنتم راضون عن خدمات الأمم المتحدة في المخيم؟».

رنت بين أعضاء الوفد وموظفي المفوضية ضحكات لم تكن تخلو من بعض التوتر.

أخيرا، أخذ الشيخ عصمان الكلمة فقال: « أشيد بأعضاء الوفد الموقرين لتجشمهم عناء المجيء إلينا للاطلاع على عين المكان على ظروف إقامتنا في المخيم والاستماع مباشرة إلى شواغلنا. نحن جميعنا هنا قدمنا تضحيات جسام، فليس بيننا من لم يثكل في عزيز ومن لم يفقد مواشيه ومسكنه ومنابه مما ورثه عن أسلافه. ولكن لا يسعنا إلا أن نعرب عن امتناننا للأمم المتحدة على جهودها».

سأل أحد الأعضاء الحاضرين ما إذا كان النظام السوداني يريد إرغامهم على اعتناق الإسلام.

تنحنح الكثيرون من سكان المخيم وسرت بينهم همهمة واسعة باللغة المحلية. غير أن موظفًا في الأمم المتحدة بادر بالرد على سؤاله بلهجة حرص على أن تكون ودودة ومتعاطفة، فقال: « هؤلاء هم مسلمون أصلا، والمسيحيون يوجدون في جنوب السودان».

ولم يشأ أي من اللاجئين أن يتحدث قبل الشيخ عصمان. ورأى بعضهم في صمته إشارة منه لكي لا يتحدثوا في هذا الموضوع. غير أن رجلا له أنف معقف شديد النفور يعرف عنه استقلاله بآرائه وسرعة انفلاته رفع صوته قائلا:

«إنهم يشترون الجنجويد بالمال ويرسلونهم لتهجيرنا من أراضينا ولا يطيقون أن يعترض أحدنا على خياراتهم السياسية».

سارع الشيخ عصمان كمن يسارع إلى إطفاء حريق يوشك على الاندلاع، فقال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة: «كنا نعيش في وئام، ولكن لعنة الله على هذا الذي يسميه أهل العلم «الاحترار العالمي»، فهو الذي أفسد علينا صفو حياتنا إذ تقلصت مساحات المراعي والأراضي الصالحة للزراعة. وحبذا لو تسعفونا بمعونة إنمائية نجابه بها هذه الظاهرة المخيفة».

غير أن صاحب الأنف المعقف لم تثنه لهجة الشيخ اللينة، فواصل كلامه قائلا غير عابئ بما أبداه البعض من استهجان لخرقه العرف الجاري ومواصلته الحديث في الوقت الذي كان الشيخ لا يزال يتحدث: «نريد أسلحة ندافع بها عن أنفسنا ونريد جنودا من الأمم المتحدة يجردون الجنجويد من أسلحتهم ويكفّون عنا آذاهم».

ارتسمت على أعضاء الوفد علامات الامتعاض بعد سماعهم لترجمة كلام الرجل المشاكس. فلقد أُخذوا على حين غرة ولم تسعفهم ورقاتهم التي احتضنتها حجورهم لمراجعتها عند الحاجة.

تشجع رجل آخر من سكان المخيم بكلام الرجل فقال: «بلغوا نظام البشير أن يتوقف عن قصف قرانا».

تكلم الرجل المشاكس من جديد، فقال: «يصرون على وصف الحالة بالكارثة الإنسانية في حين أنها نتيجة طبيعية لخطة مبيتة يريد بها نظام البشير الإسلاموي تهجيرنا من السودان. هذه الحكومة تضع يدها

في يد بن لادن وأرى أن من مصلحتكم أيضا أن تساعدونا على كسر شوكتها».

ووجد أعضاء الوفد مرة أخرى أنفسهم دون جواب، فتظاهر أحدهم بأنه يدون كلام الرجل المشاكس، بينما راح عضو آخر يترشف جرعات من قارورة ماء موضوعة أمامه.

بسط عصمان راحتيه كمن يستجدي شيئا وطفق يقول: «كلنا أمل في إعادة تعمير دارفور عندما تنتهي الحرب وسنحتاج إلى إرساء برنامج لبناء السلام وتحقيق التصالح هنا، وحبذا لو تُيسّروا لنا لإنجاح هذا البرنامج دعما يكون عبارة عن مشاريع تعزز القدرات وتدرّ علينا دخلا وفيرا».

هز أعضاء الوفد برؤوسهم عدة مرات وقد شعروا بالارتياح لسماعهم لخطاب ألفوه وتمرّسوا على مصطلحاته التي لا تخرج عن لغة التنمية. ولم يطل الاجتماع بعد ذلك. فلقد انتفض الجمع، ثم عقد أعضاء الوفد سلسلة أخرى من المقابلات الصحفية والتقطت لهم عدسات المصورين صورا وهم أمام الخيمة، ومن ورائهم ظهرت في خلفية الصور صفوف عشاش سكان المخيم.

لم يمض أعضاء الوفد في دارفور أكثر من ثلاث ساعات. غير أنهم عادوا إلى بلدانهم وتحدثوا عن الحالة في المنطقة بلهجة العارف الملم بكل كبيرة وصغيرة، ولم يخجلوا من أنفسهم وهم يتقبلون بتواضع كاذب آيات الثناء على شجاعتهم ومجازفتهم بأرواحهم وإقدامهم على السفر إلى «بؤرة صراع». بل، وأضافوا إلى سيرهم الذاتية أنهم

اكتسبوا خبرات قيمة تؤهلهم للحديث عن سبل إدارة السياسة الخارجية لبلدانهم.

ولقد استمر الحديث عن هذه الزيارة لعدة أيام في المخيم. ومما أمد في الحديث عنها أن إذاعة صوت أمريكا وإذاعة البي. بي.س قد أشارتا إليها وتحدثتا عنها في نشرتيهما الإخباريتين. واستمع المتطوعون العاملون في عيادة المخيم أثناء فترة استراحة لتناول الشاي إلى حصة من برنامج « على الهاتف»، انتقد فيها عدد من المستمعين الحضور الأمني المكثف الذي أفردته الأمم المتحدة لأعضاء الوفد وقارنوه بالغياب الكلي لأي حماية للاجئين المقيمين في مخيم الجنينة.

وقد قال أحد المتدخلين في الحصة مستنكرا: «ألم تتعظ الأمم المتحدة بما حدث في رواندا؟». فلقد أصدرت هناك أوامرها بإطلاق الرصاص على الكلاب لمنعها من نهش جثث الضحايا والحيلولة دون تفشي الأمراض.ولكنها امتنعت عن إصدار أوامر مماثلة لقتل المجرمين الذين كانوا يرسلون أصحاب السواطير لنصب حواجز تسد الطريق على ضحاياهم، ثم يهوون عليهم بسواطيرهم.

وبعد انتهاء الحصة الإذاعية، التفتت ماري ناحية حواء وسألتها قائلة: «ما رأيك؟».

قالت حواء: «الوفد الزائر تجشم على الأقل عناء القدوم إلينا حتى وإن كانت زيارته لبضع ساعات». ثم أضافت قائلة دون اقتناع كبير:

«ولولا هذه الزيارة لما لقيت دارفور هذا الاهتمام الذي حظيت به طوال هذا الأسبوع ولما تحدث عنا أحد».

قالت ماري وهي تهز برأسها تأييدًا لكلامها: «أصبت القول، وهذا هو سبب رفض حكومة البشير قدوم أي صحفي إلى هنا بوسائله الخاصة».

خاطبت حواء ماري قائلة: «إن شاء الله يأتي إلينا مزيد من هؤلاء السياسيين الفرنجة لأخذ صور لهم»، وعلت محياها ابتسامة حزينة حيث إن معنوياتها كانت لا تزال في الحضيض من شدة قلقها على أحمد، وهو القلق الذي ظل يلازمها ويثقل كاهلها، ولا تستطيع التخلص منه. ثم أضافت قائلة وهي تنهض بتثاقل: «أستودعك الله الآن، لقد جاء دوري لأقود الفريق النسائي الذي سيخرج لجلب الحطب».

قالت ماري وهي تنظر نحو حواء نظرة تدرك حواء مغزاها جيدا: «كوني حذرة!»، فقابلت حواء نظرتها تلك بإيماءة من رأسها.

***

كانت حواء أول من سمع وقع حوافر خيل، فتجدمت وتسمرت على الفور في مكانها ورفعت يدًا تشير بها إلى صاحباتها في الفريق الذي خرج من المخيم لجمع الحطب في أربعة عشر اِمرأة، أن يتسترن ويكتمن أصواتهن. فإذا بهن يتجمدن بدورهن كتماثيل ويمسكن أنفاسهن ويرهفن سمعهن تحسبًا لخطر داهم.

كانت الأمهات من عناصر الفريق قد تركن في المخيم أطفالهن كما هو معمول به في كل عملية من عمليات خروج النساء لجمع الحطب. وتحسبًا لمثل هذا الموقف، حرص عناصر الفريق على تجنب ارتداء أي لباس بألوان لا تساعد على التخفي وتجلب إليها الأنظار. وها قد حانت لحظة الاختبار، وها هن يتخفين وقد ناءت كل واحدة منهن بحملها من الأعواد والأغصان. سالت على وجوههن وأعناقهن شلالات صغيرة من العرق المتقاطر. وانتهز الذباب الفرصة فهجم على محاجر أعينهن وفتحات أنوفهن ينهشها نهشا دون أن يستطعن له دفعًا خشية أن يتفطن إليهن هؤلاء الجنجويد الذين يتحينون كل فرصة سانحة للانقضاض عليهن إذا ما ظفروا بهن.

شعرت حواء كما لو أن صعقة كهربائية تسري في نخاعها الشوكي، كلما صدر عن أوراق الشجر حفيف أو سقط غصن من أغصانها فأحدث طقطقة، وألفت نفسها كظبي أخذ يرصد بكل حواسه مصدر الخطر الداهم. غير أنه خلافا للحيوانات المفترسة التي تهتدي بحاسة الشم لاقتفاء أثر الطريدة، لا يمتلك الجنجويد حاسة كهذه وإنما لديهم جياد ومركبات مجهزة أسطحها بمدافع رشاشة في حين لا تملك حواء والنساء اللائي خرجن معها إلا سيقانهن تطلقهن للريح.

وفي اللحظة التي سمعت فيها حواء صهيل جواد إذ بثلاثة جنجويد يمرقون بجيادهم عبر الأشجار. فأسقطت أعواد الحطب التي جمعتها وانطلقت تعدو. غير أن يدا أمسكت بذيل ملاءتها التي انتفخت وطارت في الهواء وأحست بيد الفراس تجرها عدة ياردات وراء جواده ثم

تتوقف عن جرها. أصيبت بذهول من صدمة المفاجأة وحاولت أن تنهض، غير أن صاحب اليد ترجل بسرعة عن جواده وطرحها أرضا.

انتصب أمامها رجل ملثم لم تتبين منه إلا عينيه وأنفه. وكان يمسك بيد مدفعا رشاشا صوبها نحو بطنها. ارتمى عليها وباعد ما بين ركبتيه ومزق ملاءتها بيده الثانية وظل يحاول أن يسحب الملاءة أعلى وظلت تقاومه وتحبط كل محاولاته. وفجأة تركها وانتصب واقفا وأمسك رشاشه بكلتا يديه وسدد إلى وجهها ضربة بكعب الرشاش أسقطتها شبه مغشيا عليها.

صاح فيها بالعربية قائلا: «إياك أن تتحركي أيتها الزنجية الحقيرة».

انتابها دوار لم تلبث أن غابت على إثره عن الوعي، ولكنها ما عتمت أن انتزعها من إغماءتها ألم شديد كما لو أن سكينا خرق فرجها. ورأت الجنجويد يعتليها بعد أن تخلص من سلاحه وشعرت بقضيبه يدكها دكًّا. وبعد أن أولجه فيها وسحبه منها وأعاد إيلاجه وسحبه عدة مرات، ارتعش وتأوه فوقها. ثم سحب قضيبه منها بعنف وبصق عليها واستوى واقفًا بعد أن لطخ جسمها بخيط رفيع من بقايا ماء دافق أراقه في فرجها.

انقلبت على بطنها وأدارت له ظهرها وتوقعت أن يزخها بين لحظة وأخرى بوابل من الرصاص. وتلت بسرعة دعاء إلى الله أن يجمعها بأحمد. وتمنت أن يهبه الله عمرا طويلا وحياة هانئة وسعيدة وأن يحفظه من كيد الكائدين. وتمنت ألا يعلم أنها قد تعرضت للاغتصاب

مرة أخرى. وتمنت أن يصفح عنها لو كتبت لهما النجاة وخرجا من هذه الحرب سالمين.

غير أنها لم تسمع جلجلة شريط الذخيرة، وإنما سمعت حركات الجنجويد وهو يصلح هندامه ثم وهو ينصرف. فظلت على حالها مستلقية على بطنها وجسمها يهتز ورجلاها ترتعشان من الألم.

سمعت صرير عجلات سيارة تتوقف غير بعيد عن المكان الذي هي فيه، وسمعت أبواب السيارة وهي تفتح ويخرج منها رجال يتحدثون بلهجة رسمية في ما تصورت أنه مشهد لضابط يصدر أوامر. فقالت في سرها: « هؤلاء ليسوا جنجويدا وإلا لكانوا يتحدثون بالعربية، ويبدو من طريقة تخاطبهم بلهجة رسمية أن بإمكاني الاطمئنان إليهم والاستنجاد بهم».

لملمت عباءتها وتحاملت على نفسها للوقوف على قدميها، وأصلحت هندامها. وكانت ترتعد جافلة مع كل حركة وتتنفس بصعوبة جراء الضربة التي هشمت أنفها. مسحت بأكمامها الدماء التي غمرت عينيها واتجهت نحو السيارة الواقفة والتي كان محركها لا يزال يدور ببطء. سمعت خلفها عدة أصوات تستغيث، فحدثت نفسها قائلة: «يحسن أن أصل إلى تلك السيارة الرابضة هناك وأستجير بأصحابها».

وعندما خرجت حواء من أجمة الأشجار، تبينت أنها أمام سيارة لاند كروز رسم على بابها شعار بعثة مراقبي الاتحاد الأفريقي، ورأت داخلها جنديين يستمعان إلى أنغام تنبعث من راديو السيارة الذي شغلاه وشغلا معه الهواء وتركا من أجل ذلك محرك السيارة في حالة

دوران. أسرعت نحوهما، فحدقا فيها. نادتهما، فرفضا أن يفتحا لها باب السيارة. لامست بكفها المفتوحة والمخضبة بالدماء زجاج نافذة السائق فتلطخ منها بلورها بالدم.
صرخت تقول: «جنجويد»، وأشارت بيدها إلى ما وراء الأجمة. وحاولت عبثا أن تدعوهما بانكليزيتها المحدودة جدا إلى النزول من السيارة والقدوم معها لاستجلاء الأمر.
تجاهلها الجنديان وواصلا حديثهما غير عابئين بحركاتها اليائسة والفزع البادي عليها واستغاثتها بهما وهي تترجاهما قائلة: «أسرعا، أسرعا، جنجويد!».
حرَّك السائق علبة التروس، فانطلقت السيارة لا تلوي على شيء بينما تسمرت حواء، في مكانها من شدة الذهول وظلت تنظر إلى السيارة المبتعدة وإلى ستائر الأتربة التي خلفتها وراءها. وما إن تلاشى هدير محركها حتى التقطت أذنيها ما تبينت على الفور أنها تأوهات تلتها ضحكة مجلجلة عرفت مصدرها وأصحابها، فأيقنت أن الجنجويد لم ينتهوا بعد مما هم فيه. ثم فجأة سمعت وقع حوافر تدنو وأصواتا يقترب مصدرها منها على نحو حثيث، فأطلقت ساقيها للريح باتجاه أجمة كثة وألقت بنفسها داخلها فغاص في جسدها كمّ هائل من الأشواك. كانت تردّد في سرّها قائلة: «إنهم قادمون للإجهاز علي». ثم زحفت حتى بلغت منتصف الأجمة وغاص في جسدها كمّ آخر من الأشواك. تمددت على جنبها مستندة إلى أحد مرفقيها وهي تتنفس بشق

الأنفس، وراحت تتضرع إلى الله أن ينجيها من الجنجويد وألا يدعها تقع في قبضتهم مرة أخرى.

قبل مغيب الشمس بقليل، سمعت حواء وقع حوافر آخر جواد يغادر المكان. فانتظرت حتى تأكدت من خلو المكان من الجنجويد وخرجت من مخبئها لتستجلي الضرر الذي ألحقوه بفريقها الذي خرجت به لجمع الحطب. فوجدت أن ست نساء فقط يستطعن الرجوع إلى المخيم سيرا على الأقدام، وأن اثنتين لا تقويان على النهوض، واثنتين أخريين فارقتا الحياة. انتظرت حواء ومعها الأخريات أن تلتحق بهما إلى جوار العلي القدير اِمرأة ثالثة أمسكت حواء بيدها وظلت هي والأخريات بجانبها يدعون لها أن يلطف الله بها ويريحها سريعا من عذاب الاحتضار، ولم يتركنها إلا بعد أن أسلمت الروح. وبالاستفسار عن مصير ثلاث بنات أخريات، تطابقت الأقوال حولهنّ، حيث أكدت أكثر من اِمرأة أنها رأت الجنجويد يقتادونهن سبايا. ويبدو أن صغر سن البنات الثلاث المفقودات قد كان عاملا حاسما في المصير التعيس الذي أفردهن به الجنجويد.

كان الظلام قد أرخى سدوله عندما وصلت حواء والأخريات إلى المخيم. ولحسن حظهن، كان معظم سكان المخيم قد أووا إلى عشاشهم. وهو ما وفر عليهن كثيرا من الحرج نظرا لحالتهن المثيرة للشفقة ودمائهن التي كانت تسيل منهن وتفضح ما تعرضن له. سارت حواء بهن مباشرة إلى خيمة العيادة دون أن ترفع عينيها، وتجنبت بخاصة أن تنظر في عيني ماري كي لا تلمح وجهها وقد اشتد به الارتياع.

أشارت حواء عليهن بأن يصلحن من مظهرهن قدر الإمكان والاغتسال باستعمال الأوعية المنصوبة في الفناء الخلفي للخيمة، ثم يتمددن على أسرة في انتظار تلقي الإسعافات.

شعرت حواء بالارتياح لأن ماري تقبلت الأمر دون ارتياع هذه المرة بعد أن تعودت على هذا المشهد، إذ لم يكن يمر أسبوع دون أن تتعرض امرأة أو أكثر من امرأة من الفريق النسائي لجمع الحطب للاغتصاب على يد الجنجويد. لذا، ودون أن تتبادل أي كلمة معها، حذت حذوها، فأحضرت القماشات والإبر تحت الجلدية وإبر الخياطة اللازمة وراحت تقدم على نحو منهجي ومنظم الإسعافات اللازمة لزميلاتها في الفريق الواحدة تلو الأخرى وترتق لكل منهن جراحها، ثم تناولها حبة أسبرين تخفف عنها الألم. وأخيرا، وعندما كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، تمددت حواء على سرير وتركت ماري تتولى إسعافها.

أخذت ماري تعالجها في صمت، فعالجت أنفها المهشم ونظفت جراحها. وظلت حواء مستلقية مغمضة العينين تتساءل قائلة في سرها: «ترى ماذا سيقول أحمد لو علم بما حصل لي. ترى هل أصيب بجراح هو أيضا مثلي أم قتل؟ وهل سيطول بي الانتظار قبل أن يأتيني خبر مقتله أو جرحه؟ بل هل ثمة من سيتجشم عناء إبلاغي بما حدث له؟ أم سأعلم بخبر مقتله في ثرثرة تتناهى إلى مسمعي صدفة؟».

أخيرا، قالت ماري: «الأفضل أن تتحدثي عن هذا الذي وقع».

أومأت حواء لها برأسها وقد فوجئت بنفسها كيف تريد الحديث عما وقع لها وتريد أن تنسى التفكير في مصير أحمد.
قالت حواء: «مراقبان من الاتحاد الأفريقي كانا في مكان الحادثة، وقد أعلمتهما بما حدث لكنهما فضلا الهروب».
التقت عينا ماري بعيني حواء وأجابتها قائلة وقد ارتفع صوتها: «أكانا في مكان الحادثة زمن وقوعها؟».
شرحت لها حواء ما جرى، ثم قالت بعد برهة من الصمت أخذت فيها نفسا عميقا: «يا لخيبة المسعى، يا له من تصرف جبان!».
صرّت ماري على فكها فارتخت عضلتا وجنتيها. ثم قالت: «سيتعللون بأن مهمتهم لا تتعدى الإبلاغ عن الحوادث. وسيقولون بأنهم ليسوا مخولين التدخّل أو حماية المدنيين، وسيقولون في معرض الدفاع عن أنفسهم إنهم كانوا غير مسلحين وسيحررون تقريرا عن الحادثة. لذا، لا غرابة أن يسمح لهم نظام البشير بالمجيء إلى دارفور».
قالت حواء: « وماذا عساهم يقولون بشأن البنات الثلاث اللائي أخذهن الجنجويد سبايا، وعن النساء الثلاث الأخريات اللائي لفظن أنفاساهن؟».
ظلت ماري تعض على شفتيها ثم أضافت قائلة: « سيصورون الحادثة على أنها من فعل عصابة مسلحة هاجمت مجموعة من النساء».

قالت حواء وهي تمسك دموعا ترقرقت في حدقتيها: «من أين يستمد هؤلاء القدرة على النظر إلى وجوههم في المرآة».

قالت ماري: « إن كنت تقصدين مراقبي بعثة الاتحاد الأفريقي؟ فهؤلاء لم يطلبوا بتاتًا المجيء إلى دارفور والحرب لا تعنيهم ودارفور ليست قضيتهم».

قالت حواء: «ولكن بشرتهم سوداء مثلنا».

قالت ماري: «لم تسند إليهم صلاحيات تخوّل لهم التدخل.لذا، فلا غرابة أن يفروا خشية التورط في مشاكل قد تعود عليهم بالوبال».

قالت حواء بتبرم: «إذن، فما الفائدة من وجودهم؟»:

سألت ماري حواء: « هل تريدين فعلا الحديث في هذا الموضوع الآن»؟

قالت حواء وهي تشير تباعًا إلى أنفها المتورم وإلى فرجها المضمد: «أليس هذا أفضل من الحديث عن هذا وذاك؟».

قالت ماري راضخة وهي تدوّر لفافة من النسيج المعدني: «سمعا وطاعة، هناك أعضاء في المجتمع الدولي لن يضغطوا على نظام البشير لعدة أسباب من أهمها علاقاتهم التجارية معه. ولكنهم بدلا من أن يعلنوا عن اعتزامهم بناء محطات نفطية هنا، يقولون إنهم يريدون منح البشير فرصة لإجراء محادثات لعقد اتفاق سلام مع المتمردين. والفصائل المتمردة على اختلاف مشاربها ومآربها تعلم علم اليقين أن وعودهم كاذبة ولا يوجد من بينها رجل واحد يثق في البشير أو يصدقه. وهذه البلدان التي أتحدث عنها لا تطيق سماع هذا التحليل لأنه

يكشف نواياها الحقيقية. والسبب الثاني لعربدة نظام البشير اقتناعه بأن الولايات المتحدة تؤيده لأنه حليفها في حربها ضد الإرهاب. بيت القصيد أن الدول الغربية لا تريد أن ترسل أبناءها للموت في دارفور».

قالت حواء وقد تملكها الغيظ: «أتفهّم أن تكون المصالح التجارية مع الخرطوم عاملا له وزنه في الميزان، ولكن ما سرّ تحالف نظام البشير مع الولايات المتحدة لمحاربة الإرهاب؟ كنت أظن أن الأمريكيين يكرهون المسلمين».

ثم أردفت تقول وقد عقدت ما بين حاجبيها: «سمعت في الراديو أن بن لادن قضى خمسة أعوام في الخرطوم. إنه متشدد دينيا وصديق صدوق لنظام البشير».

حاولت ماري أن تكتم ابتسامة وهي ترى علامات الجدّ على محيا حواء التي ضيقت عينيها كما لو أنها تحاول جاهدة فكّ طلاسم معضلة استعصت عليها.

سألتها حواء قائلة: «ما القصة؟».

قالت ماري بحنان: «لا علينا، ولكن لا يسعني إلا أن ألاحظ البون الشاسع بين حواء التي أراها الآن وحواء السابقة التي رأيتها عندما أسعفتها لأول مرة في هذه العيادة. ها أنا أراك تتحاملين على أوجاعك وتناقشين الشأن العام والسياسة الدولية، وهو ما لا يفعله أي مريض آخر يعاني من وطأة الألم مثلك».

قالت حواء وقد قطبت جبينها: «كفاني بكاء، فقد بكيت أنهارا وما أغنى البكاء عني شيئا. وكم نهشتني مشاعر الغضب والغيظ والحقد دون فائدة تُرجى».

قالت ماري وهي تهزّ رأسها تأييدا لقولها: « الحقيقة أني أنا أيضا...وليس أحمد وحده هو الفخور بك».

تقوس حاجبا حواء وتبسمت رغم ما تشعر به من ألم. وقالت مداعبة ماري: «كل ما في الأمر أني طبقت تعليماتك ونصائحك».

قالت ماري وهي تداري شعورا بالحرج: «بعد هجمات بن لادن على أمريكا، قرر نظام البشير التخلي عنه إذ وجد أنه من غير الحكمة أن تناصبه الولايات المتحدة العداء، فأصبح يخطب ودها ويزودها بما لديه من معلومات عن بن لادن صديق الأمس».

قالت حواء: «ما هي طبيعة هذه المعلومات؟».

قالت ماري: «أتصور أنها معلومات قديمة، حيث إن آخر عهدهم به كان في عام 1995».

ندت عن حواء آهة ثم قالت بعد برهة من الصمت: «ما زال الأمر غير مفهوم بالنسبة لي».

قالت ماري وهي تلاطفها وتلامس جبينها العنيد: « هو في الحقيقة أمر يستعصي فهمه على الجميع». أبي رحمه الله علمني أن أول علامات النضج الفكري هو رفض ما لا يقبله العقل وعدم التسليم بأي شيء على أنه حقيقة مطلقة مفروغ منها.والآن، حاولي أن تنامي، أرجوك!».

أومأت حواء برأسها وشعرت أنها استراحت من مشقة تحسس طريقها في حلكة الظلام للرجوع إلى عشتها الضيقة ومن وخزات البرد والزمهرير التي تنتظرها هناك.
قالت ماري وهي تربت على يد حواء وتستعد للنهوض: «أراك غدا صباحا، لا تبرحي سريرك، فأنت معفية من العمل إلى أن يلتئم جرحك». وبعد برهة من الصمت، ختمت قائلة وهي تضغط على راحة حواء: «لن أكون هنا غدا في الموعد المعتاد لأني سأذهب أولا لقضاء شأن في الجنينة».
حاولت حواء أن تجد لها أنسب وضع في السرير يقيها وطأة الألم. فاستلقت على جنبها وهي تحاذر ألا تضغط بشكل أو بآخر على القماشة المرصوصة في فرجها. وتساءلت ما إذا كانت ستستطيع الإخلاد للنوم قبل مضي عدة ساعات، وما إذا كانت ستظل مستيقظة تستحضر وقائع الاعتداء عليها. غير أنها سرعان ما غفت ولم تفق إلا في الصباح فرأت أحد المتطوعين المناوبين ينحني ويترك لها أسفل سريرها قدحا من الشاي.
شعرت بروح انتصارية تغمرها رغم أنها أحست بالأوجاع تعاودها عندما حاولت أن تنهض من سريرها دون مساعدة من أحد. حدثت نفسها قائلة: «ما زلت صامدة، وسأعيش، وهيهات أن ينالوا مني».
بعد ساعتين، ظهرت ماري في العيادة ولمحت حواء وجهها الذي تحرص كعادتها على أن يظل محايدا وألا يرشح منه أي نوع من الانفعالات التي تعتمل بداخلها. ورأتها وهي تتنقل داخل الخيمة بين

المتطوعين وسمعتها تصدر إليهم تعليماتها بصوت ملؤه الهمة والنشاط وتشكرهم على تفانيهم في العمل، وترشد بنفسها كيف يغيرون الضمادات. امتثلت حواء لنصيحة ماري، فظلت نائمة طوال النهار. وعندما استيقظت في وقت من الأوقات وكانت لا تزال متمددة في سريرها، جلست ماري على حافة السرير قريبا منها. وأحست حواء بماري تنزع عن وجهها تعابيره المحايدة، وبدا واضحا أنها تريد مفاتحتها في أمر خطير.

قالت ماري: «أجريت مكالمة عبر الساتل إلى المقر».

قالت حواء وقد اتسعت عيناها: «اتصلت بالمقر في هولاندا!».

ترددت ماري قليلا، ثم قالت: «نعم، فهم في المقر يجمعون معلومات عن حوادث الاغتصاب هنا، ويريدون استقاء أكبر عدد من الأدلة والإحصاءات والتواريخ والأسماء والوقائع». توقفت ماري عن الكلام للحظة وظلت تقضم أضافرها قبل أن تردف قائلة: «عمال الإغاثة الإنسانية هنا يلازمون الصمت لأننا نخاف أن يطردونا. ولكن طفح الكيل ولم نعد نستطيع السكوت عن أكاذيبهم ومغالطاتهم للرأي العام».

كانت حواء تدرك أن جمع ضمير الغائب يعود في هذا السياق على عدة وجوه من آلة النظام كالقادة الأمنيين الذين سيسحبون من المنظمات الخيرية تصاريح السياقة في طرقات معينة، وسيمنعون موظفيها من تزويد المخيم بالإمدادات اللازمة، وعلى حكام الأقاليم الذين سيتصرفون دون سابق إنذار كما فعلوا في السابق عندما علّقوا إصدار تصاريح ووثائق الإذن بالسفر داخل البلد إلى عمال الإغاثة

الأجانب. وهو ما سيقود إلى منع موظفي المنظمات الخيرية من الانتقال من مجمعات سكناهم في الجنينة إلى العيادات حتى وإن كانت لا تبعد عنهم إلا مسافة ميل بالسيارة.

قالت حواء وهي تبتسم في وجه ماري رفعا لمعنوياتها: «كم أنا مسرورة لأنك أخبرت المقر بحقيقة ما يحدث هنا».

أنهت ماري المحادثة ونهضت وهي تقول بصوتها الأجش المميز: «الأولى بي أن أعود إلى العمل».

***

في تلك الليلة، عندما كانت ماري عائدة إلى محل سكناها في الجنينة وتسير في الظلام وتتحسس طريقها الاعتيادي إلى بيتها مستعينة بضوء القمر. توقفت إلى جانبها مركبة عسكرية. قالت ماري بصوت خفيض بالانكليزية: «متى سيكفّ هؤلاء الأغبياء عن مضايقة عمال تقديم المساعدة الإنسانية والتسلط علينا دون موجب حقيقي؟». وأدخلت يدها في حقيبة الظهر وراحت تبحث فيها عن بطاقة هويتها، ثم أخرجتها وأمسكت بها وأخذت تتطلع نحو نافذة الباب الأمامي للسيارة في انتظار أن تمتد إليها من داخل المركبة يد تتناولها منها بغرض التثبت فيها وإرجاعها إليها كالعادة في ما يعدّ مضيعة لوقتها واختبارا لقدرتها على مسك أعصابها.

ولكن خلافا للعادة، لم تمتد إليها هذه المرة يد، وإنما برز لها من جوف الظلام عسكري انتزع منها حقيبتها. وسرعان ما دفع بها نحو الباب الخلفي للمركبة الذي فُتح بعنف والتقفتها من داخل المركبة

ذراعان سمراوان في مقعدها الخلفي. حانت منها التفاتة، فطالعها وجه عسكري كالح صوّب فوهة مسدس نحو صدغها.

انطلقت السيارة بسرعة، فارتدت ماري إلى الوراء وأخذت تزعق في وجوههم قائلة: «إلى أين أنتم بي ذاهبون؟».

سمعت ضحكة مكتومة تأتيها من المقعد الأمامي، وإذ برجل في زي عسكري يستدير بعنقه من أعلى مقعده ويبادرها قائلا: «ألست أنت الممرضة المسيحية، ألست من جنوب السودان؟».

صوبت ماري نحوه نظرة نارية.

قال بلهجة متعالية كمن يلقنها درسا أخلاقيا: «ليس من حقك العمل هنا في دارفورأو السودان». سكتت ماري ولم تجبه، فأردف قائلا: «ولو لم يكن زوجك عديم الشرف، لما سمح لك بالخروج إلى الشارع والعمل. كلكن عاهرات سواء كنتن مدرسات أو ممرضات أو طبيبات».

تجلدت ماري وتركت الرجل يكيل لها عبارات الاحتقار التي تفوّه بها ولم تنبس ببنت شفة. كانت تعي جيدا أنها تجسد صورة حية لأبشع ما يبغضه الإسلاميون المتشددون من أنصار البشير، فهي في نظرهم جمعت «الخزي من أطرافه» إذ لا يكفي أنها اِمرأة، وإنما أضافت إلى ذلك أنها زنجية ومسيحية ولا تستحي من الخروج إلى الشارع والتشبه بصفات الرجال.

نطقت أخيرا قائلة: «لماذا تكرهون المرأة وتخافونها؟».

اتقدت عينا الضابط شررا وتلاشت نشوته واختفت من وجهه ابتسامة الرضا عن النفس. فأغرب عنها مدحورا، وظلّ صامتًا ينظر أمامه عبر الزجاج الأمامي للمركبة وكأنه يحدّق في الظلام.

غرقت ماري في مقعدها وظل جسمها يهتز مع كل هزة ترتجف وتصطك لها مفاصل المركبة كلما تعثرت في حفر الطريق. صدق حدسها. فلقد أخذتها المركبة إلى مقر قيادة الأجهزة الأمنية. أحست ماري بدنوّ اللحظة التي ستتوّج مسيرتها النضالية الطويلة التي طالما توقعتها منذ أن كانت طفلة صغيرة تجلس في حضن والدها وتستمع إليه يشرح لها قيمه الإنسانية البسيطة واعتزازه المستمد من كينونته الآدمية. تيقنت بأنهم سيأخذون في استجوابها لساعات طويلة لن تفيق بعدها. غير أنها لم تفزع ولم تجزع، إذ أنزل الله عليها سكينته. وتذكرت كيف كان أبوها رحمه الله يقول: «الله خلق الناس سواسية لا فرق بين زيد وعمرو، فكلنا من نسل إبراهيم عليه السلام».

نظرت نحو الضابط الجالس في المقعد الأمامي، والذي لم تكن ترى منه إلا ملامحه الجانبية، وقالت في سرها تحدث أباها: «ولكن أنَى لبعضهم أن يدرك مثلك أننا جميعنا إخوة في الإنسانية وينذر حياته للدفاع عن هذه الأخوة؟».

***

عثرت دورية لمراقبين من الاتحاد الأفريقي على حقيبة الظهر التي كانت ماري تحملها قبل أن ينترعها منها العسكري الذي برز لها من جوف الظلام. ويبدو أنهم سلبوا محتوياتها ثم ألقوا بها على قارعة

الطريق. فالتقطتها الدورية في وقت باكر من صباح اليوم التالي، وأخذتها إلى العيادة بعد أن خمّن أفرادها أن الحقيبة لا بد أن تكون لأحد عمال المساعدة الإنسانية العاملين في العيادة الممولة من المنظمة صاحبة الشعار المرسوم على الحقيبة. ورغم خلو الحقيبة من أي متعلقات بماري، عرفت حواء على الفور أن ماري هي صاحبتها حيث إنها كانت تحملها دائما في مجيئها ورواحها. صرخت حواء في سرها وهي تضم الحقيبة وكأنها تجد فيها ريح ماري: «لمن تركتني يا ماري؟».

وفي اليوم التالي، عثروا على جثة ماري ملقاة في حفرة في الطرف الآخر من مدينة الجنينة. كانت ملامح وجهها قد طُمست نهائيا. ولولا خاتم الزواج الذي كانت لا تزال تحمله في إصبعها، لما أمكن لزوجها أن يتعرف عليها.

وبعد عدة أيام، نشرت المنظمة الخيرية الهولندية تقريرها عن حوادث الاغتصاب في دارفور. وحظي التقرير بتغطية إعلامية دولية واسعة. ولم تعمّر طويلا الضجة التي أحدثتها الاستنتاجات التي خلص إليها التقرير، ولكن التقرير أحدث تغييرا ملموسا في العناوين الرئيسية التي أصبحت تتصدر صفحات ونشرات وسائل الإعلام.

ندد الرئيس البشير بالتقرير ووصفه بأنه محض اِفتراءات من نسج خيال القوى الإمبريالية والصهيونية المتآمرة على المسلمين. واستنكر أن يجادل أصحاب التقرير في مسائل دون علم وينسبون إلى الرجل السوداني والرجل الدارفوري أشياء تشجبها وتأباها ثقافتهما. وقال إن

جرائم الاغتصاب المزعومة غريبة تماما عن بلده وأنكر جملة وتفصيلا وجودها. وعلى ذكر شهادات الضحايا، قال البشير إن مزاعمهن لا تكتسي أي مصداقية لأنهن متواطئات مع المتمردين وبينهن وبينهم صلة قرابة.

سمعت حواء أحد المذيعين يقول إن الاغتصاب أصبح سلاحا حربيا وعنصرا حاضرا على الدوام في استراتيجية نظام البشير المتبعة لإبادة أهالي دارفور وقطع دابرهم عن بكرة أبيهم وتمزيق نسيجهم الاجتماعي التقليدي. وسمعت في نفس الحصة الإذاعية علاّمة من بلد عربي يقدم تفسيرا مخالفا. فلقد قال إن المرأة التي تدعي في مجتمع مسلم أنها اغتصبت، يجب عليها ألا تلوم إلا نفسها لأن الرجل لا يغتصبها إلا إذا دعته إلى اغتصابها وكانت هي التي راودته عن نفسها بطريقة أو بأخرى. وسمعته يشيد في هذا الصدد بتجربة بلده الرائدة، ويقول إن بلده يتبع خطى السلف الصالح الذي يقول عن المرأة«ما أفلح قوم ولوا أمرهم اِمرأة» و«المرأة ناقصة عقل ودين» وأقوال مأثورة كثيرة أخرى تعضد حجته لا يتسع المجال لتعدادها.

أحست حواء بقلبها ينفطر من الغضب وحدثت نفسها قائلة: «كيف لهؤلاء المتشدقين بالتقوى والورع أن يتفوهوا بمثل هذا الكلام. فهل أصبحت مسلمة غير صالحة إذا ما رفضت ما يقولونه عن نقص المرأة، وكيف أصدق أن المولى عز وجل قد فضل نصفا من عباده على نصف آخر».

وأثناء العمل، وجدت حواء نفسها تعيد كل مرة وأخرى النظر في التعاليم الدينية التي نشأت عليها. لقد علموها أن تسلم بهذه التعاليم وأن مجرد التفكير في مناقشتها رجس من عمل الشيطان. وكانت تتساءل هل من الضروري أن تتحمل كل هذه التعاسة حتى يصدق ويستوي إيمانها؟ لقد حدثتها ماري بأن هناك نساء مسلمات من بلدان أخرى بإمكانهن العمل والاشتغال بالتجارة والترشح لشغل مناصب سياسية. فلماذا يختلف الحال في السودان في حين أن جميع المسلمين في العالم يعبدون إلها واحدا؟ وظلت حواء مضطربة وتتنازعها طوال الوقت هذه التساؤلات وعبثا حاولت أن تركز على عملها وتنزع من ذهنها صورة ماري ونهايتها البشعة والمأساوية.

وعملا بالإجراءات المتبعة، بعث المقر في هولاندا إلى حواء رسالة يبلغها فيها أن الموظف الذي سيحل محل ماري لن يصل قبل عدة أسابيع، وأنه يعرض عليها أن تتولى هي إدارة العيادة لثقته في قدرتها على التكفل بهذه المهمة على أحسن ما يرام. وفوجئت حواء بأنها لم تتردد في قبول القرار وشكر المسؤولين على ثقتها في شخصها. فلقد كانت متأكدة من نفسها. وأصبحت تجيد العربية قراءة وكتابة، وتفهم في الأدوية وتميز بينها وتعرف كيف تعالج الإصابات وحالات التعفن. ثم إنها تعلمت الكثير من كتب ماري التي كانت تطالعها في أوقات فراغها. والحقيقة أنها وجدت ضالتها في الانصراف كليا إلى العمل الذي كان خير عزاء يسليها تتغلب به على حزنها على موت ماري ومشاعر قلقها على مصير أحمد.

وكانت حواء تضيق في أثناء النهار الحصار على أحاسيسها ولا تترك لها متنفسا. غير أن خيالها يفلت من عقاله كلما استلقت. وغالبا ما يكون ذلك على حصير في الفناء الخلفي للعيادة. كانت تطلب من الله أن يتقبل أدعيتها ويحيل رسائلها إلى ماري، ولم تكن متأكدة مما إذا كان في طلبها ذلك ما يمس بالذات الإلهية. وكانت تسأل الله أن يبلغ ماري أنها مشتاقة كثيرا إليها، وتريد أن تعبر لها عن مدى امتنانها لها لأنها أنقذتها من حالة اليأس التي عصفت بها في وقت من الأوقات. ثم تتساءل ما إذا كان الله يستمع إليها، وتخشى أن تكون قد ضايقته بطلباتها الملحة والمتكررة.

مرت ستة أشهر أخرى ولم يرسل المقر من يحل محل ماري. فلقد رفضت السلطات أن تصدر أي تأشيرات جديدة لموظفي المنظمة الهولندية الخيرية المشاغبة عقابا لها على نشر تقريرها عن حوادث الاغتصاب، بل هددت بطرد جميع موظفيها، بمن فيهم حواء والمنتدبين محليا. وأصبحت الشحنات تتأخر لفترات أطول وتتقطع أحيانا لعدة أسابيع. وأقنعت حواء عددا من كيانات الأمم المتحدة ووكالاتها الأخرى بأن تزود العيادة باحتياجاتها لقاء قيام العيادة بتزويد منتدبيها الجدد بخدمات الترجمة والتدريب على أساليب التعامل مع أهالي دارفور بما لا يتعارض مع عاداتهم وقيمهم.

لم يكن يخطر لحواء قبل عامين أن تدخل في حديث مع أي من موظفي الأمم المتحدة العاملين في مكاتبها في المخيم. أما الآن، فقد أصبحت تقابلهم بانتظام وتعقد معهم صفقات وتتبادل معهم المعلومات،

وأصبحت تزود الزوار بإحاطات إعلامية عن الظروف المحلية. وتذكر حواء أنها عندما بدأ أحمد في تدريسها اللغة العربية، لم تكن تحلم بأنها ستجيدها سريعا وبأن يأتي يوم يصبح بإمكانها أن تفهم كل ما تذيعه محطة بي.بي. سي. في نشراتها الإخبارية، ولم يكن يخطر ببالها أن تصبح في يوم ما قادرة على تدريب الآخرين على اكتساب المهارات اللازمة قبل انتدابهم كمساعدي ممرض.

كانت تسائل نفسها أحيانا كلما وجدت فسحة لأخذ قسط من الراحة واحتساء قدح من الشاي، أين اختفت حواء القديمة التي كانت تخاف من ظلها والتي ما كانت لتكتب لها النجاة لولا ماما مونى التي أنقذتها من موت محقق. وعلى ذكر مونى، فلقد كانت حواء كثيرا ما تدعو لها في صلواتها ولا تجرؤ أن تتخيل ما الذي يمكن أن يكون قد حلَّ بها. ولكن كم كانت تتمنّى لو تراها تلك العجوز الحكيمة لتلمس التغير الكبير الذي طرأ عليها. وكم خطر لها أن ماما مونى ربما تكون قريبة منها تراها وتقودها في خطواتها كما حدثتها ماري ذات مرة، فيلهج لسانها بآيات العرفان والامتنان لها ولماري.

وفي وقت لاحق، جاءت طبيبة شابة من أستراليا، ولكنها سرعان ما مرضت، فأجلوها إلى نيروبي للتعافي. وبعد شهر كانت تركب الطائرة عائدة إلى سيدني لأن أجواء القارة لم تلائمها صحيًّا. وسأل المسؤولون في المقر حواء ما إذا كانت تأنس في نفسها القدرة على مواصلة إدارة العيادة، فأجابت بأنها أدارتها ولا تزال تديرها على أحسن وجه، ولم تذكر لهم أنها حامل في مرحلة متقدّمة لعلمها بأن

المسؤولين في هولندا لن يعرفوا ما الذي سيفعلونه بهذه المعلومة. وكيف لهؤلاء الفرنجة أن يفهموا أن المرأة الأفريقية تضع حملها وتستأنف العمل مباشرة بعد نزول الجنين.

***

بعد التحاق رشيد بالمتمردين، أدرك الفتى سريعا أن حياتهم أبعد ما تكون عن الصورة الحالمة التي رسمها في خياله عن حياة المجاهدين الأحرار. فلقد كان يتوقع أن يقضي شهورا في معسكرات تدريب سرية تفرض عليه الانضباط والالتزام بميثاق شرف وأخوة شديد الصرامة.

وكان يتوقع أن يتلقى سلسلة تدريبات واختبارات شاقة تمتحن رباطة جأشه ومدى تشبعه بأسمى معاني إنكار الذات وإيثار الآخرين. وكان يتوقع أيضا أن يستمع إلى محاضرات تشحذ فيه روح الكفاح ضد نظام البشير، وتعرّفه بعظمة تاريخ دارفور وثقافة أهلها. ثم يتخرج بعد كل ذلك مقاتلا كامل الأوصاف شديد المراس قادرا على قهر الصعاب ودحر الأعداء.

غير أنهم اكتفوا في الحقيقة بتدريبه على استعمال عدة أنواع من الأسلحة، ولا شيء تقريبا غير ذلك. ثم ألحقوه بعد أسبوعين بأفراد دورية منتظمة، وأصبح يقضي معظم الوقت يتجول في مركبة سرقوها قبل مدة قصيرة من منظمة خيرية من إحدى البلدان الغربية تسمى «سيف ذي تشيلدرن»، أي «أنقذوا الأطفال»، وكان أول عمل

يسند إليه أن يزيل من على طلاء أبواب المركبة شعارها الذي يرمز إليها.

لم يكن يخفى عنه أبدا أن في دارفور متمردين «أخيارا» ومتمردين «أشرارا». وها هو على وشك أن يتأكد من أن الجماعة التي انضم إليها لا تولي قيمة كبيرة للقيم. غير أنه لم يستسلم لليأس وظل يعلل النفس بأن النفير سيطلق قريبا، وعندها سينشد «أهلا بالمعارك». ويقول في سره: «ما هي إلا مسألة وقت وتوقيت عملا بالقول المأثور«ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة»، ستأتي اللحظة التي أنال فيها شرف الشهادة دفاعا عن الوطن».

وأينما رابطت دوريتهم، كان رشيد وسائر أفراد الدورية يقضون الوقت على سطح مركباتهم وهم يحملقون في المارة من وراء نظارات سوداء توحي بالرهبة وشدة البأس تردع من يحاول أن ينظر في عينيه ويقرأ نواياه. ولأول مرة في حياته، بدأ رشيد يرتدي ملابس غربية، سراويل دجين وقمصان وأحذية رعاة بقر وأوشحة يلفها حول عنقه، فيما أضحى الزي النظامي للمتمردين باعتبار أن اللباس التقليدي غير مناسب من الناحية العملية. وكان رشيد يرى بأم عينه ويكتشف كيف يثير رفاقه الخوف في نفوس المدنيين الآمنين ويتبخترون أمامهم ويمشون اختيالا، ويبدون استخفافا بهم لأنهم ليسوا مقاتلين مثلهم، كما لو أنهم أصبحوا من معدن مختلف تماما لا لشيء إلا لأنهم أقنعوا أنفسهم بأن من حقهم أن يآثرهم الآخرون على أنفسهم ويتنازلون لهم عن كل شيء خدمة للقضية النبيلة التي نذروا أنفسهم للدفاع عنها.

كان قائده فتى في الحادية والعشرين. غيَّر اسمه من عمر إلى تي. مون تشبها بفنان أمريكي من مغني الراب. وكان مغرما بالأحذية الرياضية التي لها مكانة خاصة في ثقافة الراب والمولعين بهذه الموسيقى. فلا غرابة إذن أن يكون على اطلاع واسع على مختلف أنواع وعلامات السلع الرياضية بالرغم من أنها لا توجد في السودان.

بعد ثلاثة أيام فقط من التحاق رشيد بأفراد الدورية،رأى قائده العسكري يستشيط غضبا عندما علم أن عدة وحدات أخرى حصل قادتها على هواتف ساتلية خلافا له. كان يسب ويلعن كطفل صغير. ثم حدث ذات مرة أن كانوا في قرية أحسن إليهم أهلها وتركوهم يمدون أياديهم بلا استئذان إلى طعامهم على قلته، فسمعوا صدفة منهم أن منظمة خيرية ألمانية ستزور القرية في موعد معلوم. ويبدو أن شيخ القرية أراد أن يوفر على قومه بعضا من الطعام الذي كان المتمردون يزاحمونهم عليه، فاقترح عليهم أن يأتوا في اليوم الموعود إلى القرية لينالوا مع أهلها نصيبهم من المساعدة الإنسانية التي سيوزعها الألمان على أهالي القرية.

ربضت الوحدة غير بعيد عن القرية في انتظار مجيء الألمان الذين قدموا إليها بعد يومين. جاءوا في قافلة من خمس مركبات جديدة بيضاء من طراز «لاند كروزر» تلمع لمعانا ومحملة بكميات من الأدوية والأغذية وقوارير مياه ومواد أساسية أخرى بكميات تفيض عن حاجة جيش من المتمردين لا يستقر به مكان.

غير أن عيني «تي-بون» زاغتا عند رؤية الهاتف الساتليتي الذي كان بحوزتهم والأحذية الرياضية التي كان ينتعلها أطباء البعثة، والتي لم يغب على «تي-بون». أنها من آخر طراز لعلامة نايك. وقد حاولت اِمرأة من البعثة الاحتجاج، فتلقت عدة صفعات أقنعت الجميع بعدم جدوى الاعتراض وسرعان ما سلموا مفاتيح السيارات. وسمح تي. بون لهم بالاحتفاظ بملابسهم الداخلية. ولم يلتفت لسراويل نساء البعثة وملابسهن لأنها ملابس قبيحة لا يقبل عاقل أن يراها على اِمرأة دارفورية. أخذ تي. بون مفاتيح السيارات وعلى وجهه ابتسامة هي أقرب إلى التكشيرة وشرع في توزيعها على رجاله. وحينما جاء دور رشيد ليناوله مفتاح إحدى السيارات، خاطبه قائلا وقد اعتلت وجهه ابتسامة متصنعة: «أعتقد أن الأوان قد حان لكي تتعلم كيف تقود سيارة».

***

في مخيم الجنينة، تجمع الناس قعودًا ووقوفًا في حلقات متفرقة أقبل فيها بعضهم على بعض يتساءلون عن الخبر الذي أعلنت فيه إذاعة صوت أمريكا في نشرتها الإخبارية أن مجلس الأمن قد صوّت لقرار يقضي بإيفاد بعثة كاملة القوام لحماية المدنيين. وورد في النشرة الإخبارية أيضا أن بعثة الأمم المتحدة إلى دارفور ستكون كاملة القوام وستعزز بعثة مراقبي الاتحاد الأفريقي الموجودة على عين المكان وأن عدد مجموع أفرادها سيصل بعد دمج أفراد البعثتين في أيار/مايو 2007 إلى 26000 فرد.

وأيقن سكان المخيم بأن ساعة الخلاص قد دقت، فراحوا يهنئون بعضهم بعضا بدنو رحيل عساكر البشير، وعودتهم القريبة إلى ديارهم واستعادة أراضيهم وجني محاصيلها وتركهم وشأنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم والسماح بعودة أبناء دارفور إلى ديارهم.

وفي غمرة استبشارهم بهذا الخبر السعيد، لم ينتبهوا إلى قدوم آخر مجموعة من اللاجئين الوافدين الجدد إلى المخيم، ولم يلحظوا الحالة الرثة التي كانوا عليها وكيف كانوا يتعثرون في مشيهم وهم يبحثون في العتمة عن مكان يقيمون فيه عشة تأويهم. كان يقودهم رجل طاعن في السن حيى بإيماءة من رأسه الشاب الذي سيصبح جاره في المخيم. وتبادل الرجلان كلاما عرف بعده الشاب أن الوافدين الجدد فروا من تشاد وأن الكثيرين من أهاليهم قتلوا ولم تكتب لهم النجاة مثلهم. ولم يكن ما رواه الرجل بالأمر الجديد على الشاب. غير أن شيئا لفت انتباهه، فطلب منه أن يعيد عليه ما قاله. ثم سقاه قدحا من الماء وأخذه معه إلى العيادة لمقابلة حواء حرصا منه على أن يبلغ الرجل كلامه إلى من أوتي نصيبا من العلم والمعرفة. سقته حواء قدحا آخر من الماء وطلبت منه أن يسترد أنفاسه اللاهثة.

قال الرجل: «لا بد لي من أن أبلغك بهذا الأمر حتى وإن كلفني حياتي، فبعد أن أعمل الجنجويد فينا السلب والنهب وقتلوا منا من قتلوا، ما راعنا إلا وعرب من تشاد يقتحمون علينا قريتنا دون أن ينتظروا أن ننتهي من دفن قتلانا».

قالت حواء متعجبة: «قدموا من تشاد؟»، فحركة نزوح السكان تتجه من الشرق نحو الغرب، أي من دارفور إلى تشاد الذي توجهت إليه أعداد كبيرة من سكان دارفور ممن صورت لهم سذاجتهم أنهم سيكونون هناك في مأمن من أعمال العنف.

قال الرجل: «لقد اقتحموا علينا ديارنا وأمرونا أن نرحل. قالوا إنهم وجهت إليهم الدعوة للقدوم إلى قرانا لاستيطانها بدلا منا. وواضح أن نظام البشير قد منحهم بطاقات تثبت جنسيتهم السودانية الجديدة وقد عرضوها أمامنا.

قالت حواء: وهي تقاوم مشاعر الخوف الذي بدأ يدب في عروقها: «ولكن كيف عرفوا وكيف بلغتهم الدعوة؟».

قال الرجل: «لقد عرفنا منهم أن ممثلين عن النظام يجوبون تشاد ويزينون للسكان من أصول عربية الانتقال إلى السودان حيث تنتظرهم مساكن وأراض ومواش توزع عليهم مجانا».

شعرت حواء بضيق في صدرها، فزاغت ببصرها نحو مدخل الخيمة المفتوح وكأنها تتأمل الظلام الداهم. فلقد انكشفت لها نوايا نظام البشير الذي يريد تهجير دارفور من سكانها المنحدرين من أصول أفريقية وجلب سكان جدد من أصول عربية يحلون محلهم في قراهم وديارهم. يا له من تطهير عرقي عنصري مقيت يريدون به تخليص السودان من أي ساكن لا تجري في عروقه دماء عربية نقية.

وعدت حواء الرجل بأن تبلغ مسؤولي الأمم المتحدة بالأمر فورا. وكانت حواء قد طلبت منهم بعد مقتل ماري، بأنها لا تريد أن تظهر

في الصورة، ولكنها شعرت هذه المرة أن من واجبها أن تبلغهم هذه المعلومة التي من شأنها أن تدفع الأمم المتحدة للتصدي لنظام الحكم السوداني.

قال الرجل الذي اختلطت عليه الأمور ولم يعد يدري كيف انتهى به الحال لاجئًا في مخيم الجنينة، إنّ كل ما يريده هو الرجوع إلى قريته ليستأنف حياته هناك. ثم شكر حواء عدة مرات قبل أن يختفي ويلفه الظلام.

سارت حواء باتجاه خيمة الأمم المتحدة وهي تحاذر أين تضع قدميها حفاظا على سلامة الجنين الذي تحمله في بطنها. ورغم أنها وعدت الرجل الطاعن في السن أن الخبر سيصل إلى أعلى مستويات القيادة في الأمم المتحدة، فإنها لم تكن تستبعد في قرارة نفسها ألا يصل مطلقًا إلى تلك المستويات. ولكنها وعدته حتى لا يفقد الأمل في وجود من يهمه بعدم غلق باب الرجاء واستعادة العدل.

قالت في سرها مستعيدة حديثا لماري: «لن يضيع حق وراءه طالب».

الفصل الحادي والعشرون

المكان: دونكستر، إنكلترا

الزمان: شباط/ فبراير 2007

تطلعت زهرة في وجه أخيها الجالس قبالتها على مائدة فطور الصباح لعلها تستشف من ملامحه المضطربة سبب تعكر صفوه. فلقد مضى عليه في العمل في محل البيتزا عام تقريبا. وقد دأب على الرجوع في ساعة متأخرة كل ليلة بعد يوم طويل من العمل المضني، ولكنها لم تذكر أن رأته ذات مرة منهوك القوى كما تراه الآن.

فمنذ أسبوعه الأول في العمل، خدعه الرجل السوداني صاحب محل البيتزا، ولم يسدد له أجره على ساعات العمل الإضافية. فلقد كان الرجل يعلم علم اليقين أن لا خيار لعبد اللطيف سوى الرضوخ للأمر الواقع باعتبار وضعيته كمهاجر لا تتوفر فيه الشروط القانونية ولا يحق له العمل. وفعلا، فلقد رضخ عبد اللطيف ولكنه توصل مع رب العمل إلى اتفاق ضمني، فلقد كان عبد اللطيف يستخدم هاتف المحل لخدمة نشاط مجلس شؤون الجالية الدارفورية في بريطانيا، ويقضي ساعات طويلة على الهاتف، دون اعتراض من جانب رب العمل الذي كان يخشى أن يؤلب عليه عبد اللطيف أبناء الجالية السودانية، إن هو اعترض.

سألت زهرة أخاها قائلة: «ما لك اليوم؟».

قال عبد اللطيف دون أن يرفع عينيه عن جفنة الثريد التي لم تمتد إليها يده: «لقد رحَّلوا إسماعيل».

أحست زهرة بطفرة من الفزع تسري في عروقها في حين علقت في الهواء الملعقة التي كانت تمسك بها يد أمها لتطعم بها ابنها الصغير، وصاحت غير مصدقة الخبر تسأل عبد اللطيف قائلة: «متى حدث هذا؟».

استرسل عبد اللطيف قائلا بصوت كئيب: «لقد كلمتني زوجته حليمة على الهاتف بالأمس، قالت إن سلطات الهجرة أخذته للتو وإنهم يعتزمون أن يضعوه في الطائرة المغادرة الليلة إلى الخرطوم. سكت برهة وقد سرح خياله وظل يلامس بأنامله صعودا ونزولا مقبض ملعقة السكر قبل أن يضيف قائلا: «البارحة قضيت معظم اليوم على الهاتف واتصلت بعدة محامين وصحفيين ولكن سلطات الهجرة صمّت أذنيها عن سماع تفاصيل حالة حقوق الإنسان في السودان، فهي لم تكن تريد أن ترى في المسألة سوى أن إسماعيل لم يحصل على الإقامة ويجب عليه أن يغادر البلد.

قالت أمه: «وماذا عن زوجته وولديه؟».

قال عبد اللطيف: «هم جاءوا بعده وسيبت في ملفاتهم بمعزل عن ملف إسماعيل، وقد يأتي الدور عليهم، هم أيضا، في أي لحظة».

قالت زهرة بلهجة غير واثقة: «لم أكن أعرف أنه اِستنفد جميع وسائل الطعن المتاحة، فهل كنت على علم؟». قال عبد اللطيف: «إسماعيل من النوع الذي لا يريد إزعاج الآخرين بالحديث عن مشاكله، وكلما سألته عن وضعيته مع دائرة الهجرة، كان يتهرب من

الإجابة». وبعد برهة من التردد، أضاف قائلا: « حليمة في حالة مزرية».

قالت أمها في صوت يشبه الهمس وهي تعانق صغيرها: «كان الله في عونها».

قالت زهرة فجأة: «لقد بات لزاما علينا أن نغادر إلى أمريكا، وأن نشرع حالا في استيفاء إجراءات طلبات تأشيرات السفر إلى أمريكا».

لاحظت سماح علامات الألم على وجه ابنها فصاحت بابنتها قائلة بحزم: «اتركيه لشأنه، واستعدي للذهاب إلى المدرسة».

وبعد خمس دقائق، كانت الفتاتان تشقان مسالك مشروع مساكن الرعاية الاجتماعية. قالت صفية لزهرة: «لماذا تتصورين أن الأفضل لنا أن نهاجر إلى أمريكا، فهي بلد لا يخلو أيضا من مشاكل، بدءا بكثرة الأمهات العازبات، والمخدرات ومظاهر العنف والصور الإباحية».

أجابتها زهرة قائلة: «ولكنهم على الأقل، لا يردون اللاجئين الفارين من الاضطهاد والاستبداد، ثم إن دائرة الهجرة البريطانية ستأتي في يوم أو آخر لترحيل زوجة إسماعيل، سيأتي الدور علينا أيضا إن عاجلا أو آجلا».

هزت صفية كتفيها وبدا أنها لا تريد أن تجادل زهرة في رأيها بشأن هذا الموضوع. وقالت: «كلما طال بي المقام هنا، كلما تعذر علي فهم بعض جوانب العيش في البلدان الغربية».

ندت عن زهرة ضحكة لا تخلو من فتور.

واصلت صفية تقول: «الأطفال في فصلي مهوسون بأبشع أنواع ألعاب الكمبيوتر، يتصورون أن أعصابهم باردة وأنهم شديدو البأس لأنهم يمارسون ألعابا يضربون فيها أعناق الناس ويقطعونهم إربًا إربًا، يتوهمون أنهم شجعان لا يشقّ لهم غبار وهم متكئون على أرائك وثيرة في غرف الجلوس وأعينهم مشدودة إلى شاشات حواسيبهم».
أخذت نفسًا، ثم مضت تقول: «يتعودون على رؤية تلك المشاهد البشعة، ومن ثمّ فهم لا يرف لهم جفن وهم يشاهدون في شريط الأخبار صورا لفظائع حقيقية تُرتكب بحق بشر مثلهم، أو إذا ما حاولت أن تصف لهم الحالة النفسية لمن يجد نفسه مطاردا وهاربًا من مدفع رشاش يلاحقه».

واصلت زهرة سيرها في صمت مفضلة ألا تستعيد مشاهد رحلتها التي حملتها من قريتها في دارفور إلى تشاد.

وأضافت صفية قائلة: «حتى الجديان في السودان لها أواصر أسرية أمتن مما يجمع الأسرة الواحدة في بلاد الغرب».

قالت زهرة: «لا تظلمي أصدقاءنا في نيوجرسي، فلقد حدثني جدي ذات مرة فقال لي إن مارتن وأفراد أسرته يجتمعون كل آخر أسبوع لتناول الطعام إحياء لأحد الطقوس الدينية».

أومأت صفية لها برأسها، ثم قالت: «ذاك لأنهم يهود، وهم ككل أقلية حريصون على الاحتفاظ بهويتهم ودينهم يقول لهم كما يقول لنا ديننا: يد الله مع الجماعة».

ظلت زهرة صامتة ريثما تقطعان الطريق، ثم سألت صديقتها قائلة: «يبدو أنك سعيدة بالعيش هنا، أعني في إنكلترا، لا دونكستر».

قاطعتها صفية قائلة ومتجاهلة ملاحظتها: «أساتذتي يريدونني أن أتقدم للامتحانات هذه السنة».

قالت حواء: «والله؟ يا له من خبر رائع!». وواصلت صفية:

«سيكون الأمر رائعا فعلا إذا حالفني النجاح، وأمكنني، الالتحاق بجامعة لندن في شهر أيلول/ سبتمبر».

أشاحت زهرة ببصرها بعيدا لتداري مشاعرها المختلطة بين الاغتباط لها والخوف من أن تفقدها.

واصلت صفية حديثها قائلة: «لديهم في كلية الاقتصاد في لندن مادة دراسية عظيمة في العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، ثم إني سأدرس القانون بعد ذلك».

أومأت زهرة لها برأسها، فقد تحدثتا من قبل بشأن رغبة صفية في أن تصبح محامية مختصة في حقوق الإنسان لمساعدة غيرها ممن هم في حالة مماثلة لحالتها. ولقد عرفت زهرة منذ أول مرة رأت فيها صفية أنها فتاة ذكية جدا. لم تتحدث صفية أبدا معها عن سالف حياتها ولكن كان واضحا أنها تلقت تعليما نظاميا وأنها من أسرة كريمة. فقد عرفت صفية كيف تتأقلم مع ثقافة غريبة وتعلمت لغة أجنبية وتفوقت في الدراسة على أقرانها من أبناء البلد في غضون ثلاثة أشهر فقط.

قالت زهرة: «عسى أن أكون قد استفدت قليلا من علمك الغزير بعد طول احتكاكي بك وعيشي ودراستي إلى جانبك سويا في نفس الغرفة

وممارستي معك للغة الإنكليزية. فلقد أرغمتني على أن أتجاوز قدراتي: ثم أضافت مبتسمة: «لقد وجدتني لحسن الحظ كمن يتدرب يوميا مع بطل رياضي».

ألقت صفية برأسها إلى الوراء وضحكت وهي تقول: «هذا بالضبط ما أشعر به مقارنة بقدرتك على الانضباط والتحمل، فلولاك لما أمكنني أن أحلق عاليا».

نظرت إليها زهرة غير مصدقة أذنيها. ثم ضحكت بدورها وأضافت قائلة: «أنا مسرورة بخبر تقدمك للامتحانات». وفكرت أن تصارحها بأنها تخشى فراقها وفقدان صديقة مثلها ولكنها عدلت عن ذلك لكي لا تحملها عبئا نفسانيا هي في غنى عنه، وأضافت قائلة: «سنظل على اتصال، أليس كذلك؟».

قالت صفية وقد علت وجهها ابتسامة عريضة: «وما فائدة الإنترنت ولماذا اخترعوها إن لم يكن لهذا السبب».

***

أول ما يلفت انتباه الوافد إلى مطار الخرطوم عندما يصل إلى قاعة التقاط الأمتعة أن الحزام المتحرك الذي يفترض به أن يطوف بالأمتعة تعطل عن العمل منذ أمد بعيد وأن قطة قد اتخذت من ردهة جهاز تصويرالأمتعة مأوى لها رفقة صغارها. وكانت القطط تتنقل بخيلاء بين الحقائب التي كان رجال يرتدون أزياء نظامية يأتون بها ويضعونها على طاولات لفرز محتوياتها بحثا عن أي منشورات ممنوعة.

لم يسمح لاسماعيل بأن يلتقط من هذه القاعة حقيبته التي ألقت فيها زوجته بضعة أشياء قبل أن ينتزعوه من بيته في ليدز ومعه الحقيبة التي سافرت معه على حد علمه إلى مطار هيثرو، ثم إلى السودان. غير أنه ما أن وطأت قدمه أرض المطار وشعر بلفعة الحر المنبعث من ظلمة الليل حتى أمسكت بمرفقيه يدان ابتعدتا به عن بقية الركاب واجتازتا به قاعة التقاط الحقائب حيث اتخذت القطط من ردهة حزامه المعطل مسكنا لها.

اقتاده صاحبا الزي النظامي إلى مركبة رباعية الدفع دون أن ينبسا ببنت شفة ودفعا به إلى مقعدها الخلفي.وما هي إلا لحظات، حتى كانت المركبة تسير بهم نحو المدينة في طرق خالية من أي سيارات أخرى. نظر إسماعيل من خلال زجاج النافذة، فطالعته ظلال المآذن الرابضة ودكاكين قليلة متفرقة هنا وهناك غارقة في الظلمة. قال في سره إنهم ذاهبون به على أغلب الظن إلى إحدى المساكن الآمنة المجهولة التي يعذبون فيها مناضلي حقوق الإنسان وغيرهم ممن يطعنون في حق النظام في أن يسجن شعبا بِقضّه وقضيضه ويتحدى إرادته في العيش بحرية. وها هو الآن ينظر إلى الهوة السحيقة التي آل إليها أمره، فيشعر بسكينة غريبة وبانسجام مع نفسه ورضاء تام على الخيارات التي أخذها في حياته. وها هي اللحظة التي ظل يخشاها لمدة أشهر تأتي أخيرا. كان يعرف سلفا من سجل النظام الحافل أنها لن تنتهي إلا بنتيجة واحدة ووحيدة. لم يعد أمامه ما يمكنه أن يفعله لرد مصيره

المحتوم سوى الدعاء إلى الله أن يعينه على نيل شرف الشهادة وحفظ كرامته كأحسن ما يكون.

تنحنح، ثم مال نحو القائد العسكري الجالس في المقعد الأمامي كي يصل إليه صوته وخاطبه قائلا: «سيأتي عليكم يوم تدينكم فيه المحكمة الجنائية الدولية في هولندا».

التفت القائد العسكري واشرأب بعنقه نحوه وظل يحدق فيه وقد فوجئ به يخاطبه على ذلك النحو.

واصل إسماعيل حديثه قائلا: « أعدك يا أخي أن البريطانيين والأمريكيين والفرنسيين سيبذلون كل ما في وسعهم كي يحملوكم مسؤولية ما اِقترفت أياديكم بحق جميع الأبرياء الذين عبثتم بهم».

هز القائد العسكري حاجبيه متعجبا من كلامه.

قال إسماعيل وقد ازداد ثقة في النفس: «المحكمة الجنائية تراقبكم، وهي تعرف كل كبيرة وصغيرة عنكم، وثق أنها تعرف اسمك شخصيا أيها الأبله وكل ما اقترفته يداك. عندهم عشرات المحامين والمحققين وهم يجمعون عنكم ملفات إدانتكم. طال الزمان أم قصر، وحتى وإن أصبحت عظاما رميما، فسيأتي اليوم الذي ستدفعون فيه الثمن».

***

بعد خمسة أيام من ترحيل إسماعيل من ليدز إلى السودان، تلقت زوجته حليمة مكالمة هاتفية من السودان علمت فيها أن زوجها قد توفي بسكتة قلبية وفقًا لرواية السلطات الرسمية. كانت صاحبة المكالمة التي نقلت لها الخبر الحزين زوجة أخيه المقيمة في أم درمان

وقد أبلغتها في المكالمة أيضا أنهم ذهبوا لاستلام جثمانه، وسارعوا بدفنه وفقا للتعاليم الإسلامية. ولم تشر أي منهما إلى ما إذا كان يتعين على حليمة أن تسافر إلى الخرطوم لحضور مراسيم الدفن وإلقاء نظرة أخيرة على زوجها. فبصرف النظر عن الاعتبارات والتفاصيل المملة كتلك المتعلقة بمصاريف الرحلة، فقد كانتا تدركان ضمنيا أن سكتة قلبية أخرى قد تكون في انتظار حليمة إذا ما وطأت قدمها أرض السودان.

وفي الاجتماع التالي لنشطاء مجلس الجالية الدارفورية في ليدز، أقام الرجال حفل تأبين للفقيد وألقوا كلمات أشادوا فيها بذكراه. وبدا الاضطراب على عبد اللطيف وهو يلقي كلمته التي تلاها دون أن يرفع، من شدة التأثر، عينيه عن الورقة التي دوّن فيها كلمته. وظل بقية الوقت يحملق حواليه على غير هدى ولا يعرف كيف يدفع عنه مشاعر اليأس التي اجتاحت كيانه. فمنذ أن بلغه خبر نعي صديقه، وهو لا يستطيع أن ينتزع من ذهنه ضروب التعذيب والتنكيل التي تعرض لها إسماعيل على أيدي جلاديه وأدت إلى استشهاده. قال عبد اللطيف في سره: «لقد فقدت بفقدك يا صديقي قطعة مني لن أستعيدها مطلقا».

وفي الحافلة التي عادت به إلى دونكستر، جلس عبد اللطيف خلف رجلين كانا يتحدثان عن «تلفزيون الواقع». وكان عبد اللطيف قد تابع هذا البرنامج عندما كان ذات مرة ينتقل بين القنوات بحثًا عما يرفه به عن نفسه وينسيه هواجسه التي يغلي بها رأسه. غير أنه لم يعجبه

البرنامج، بل وجده تافهًا وقال في سره: «ما أبعد هؤلاء القوم عن الواقع!».

خطر لعبد اللطيف وهو يسمع حديث الرجلين أن يتوجه إليهما بهذا الكلام: «بما أنكما تريدان مشاهدة الواقع الملموس، لمَ لا تذهبان للعمل في مخيم للاجئين في منطقة مزقتها الحرب، أو لعلكما تتركان مثل هذا العمل للراهبات الإيرلنديات والأطباء الأمريكيين الذين ليس ثمة ما يدعوهم إلى المجازفة بأرواحهم في بلد مسلم كالسودان؟». قال عبد اللطيف في سره: «بارك الله في جنود الخفاء من متطوعي الأمم المتحدة الحقيقيين،الذين يجازفون بأرواحهم من أجل الدفاع عنا، والذين يؤمنون بأنه بإمكان البشر أن يتعايشوا في وئام على اختلاف ثقافاتهم وديانتهم».

ثم انتبه فجأة وكأنه تلقى لكزة أن هذا الحلم الذي داعب مخيلته هو ذات الحلم الذي كثيرا ما كان جده الشيخ محمد يصفه لأبنائه وأحفاده. أشرق وجهه بابتسامة وهو يتذكّر جده وحدث نفسه قائلا: «يجب ألا أنسى أن أقص على زهرة ما كان بيني اليوم وبين جدي».

الفصل الثاني والعشرون

المكان: مخيم الجنينة، ولاية غرب دارفور

الزمان: شباط/ فبراير 2007

في اليوم الذي وضعت فيه حواء مولودها، تجمع حولها خلق كثير من العاملين في العيادة وشلوا حركة السير داخلها، وشخص جميعهم بأبصارهم نحوها وهي ترفع وليدها عاليا بين ذارعيها وتعرضه للناظرين. تحاملت على نفسها كي تنزل ستارا على صورة ابن أختها الذي انتشلته من النار وسارت به في الفلاة، وتنسى الخطط الجهنمية التي يبيتها نظام الخرطوم لبني جلدتها لإبادة أكبر عدد من الذكور. أقسمت في سرها قائلة: «والله لأردنّ كيدهم إلى نحورهم، وسيعيش هذا الولد رغم الداء والأعداء وسيصبح سيد قومه وقائدا كبيرا يكسر عنهم قيود الذل والهوان».

واصلت تقول في سرها وهي تتمعن في وجهه المنكمش ككل مولود جديد: «ليس ثمة أجمل من هذه اللحظة في حياتي، لحظة الشعور بالأمومة لأول مرة». قررت أن تسميه أحمد. وعندما نظرت إليه رأت فيه عيني وفم حبيبها أحمد رافضة أن يكون أبوه جنجويدا فظا أعمته الكراهية والبغضاء.

بعد أن أيقنت حواء أنها قد حملت جراء عملية الاغتصاب التي كانت ضحيتها، وجدت نفسها أمام خيارين. فإما أن ترفض المولود لأنه لن يجلب لها إلا المتاعب والأوجاع، وإما أن تقبله ليكون رمزا على انتصار قوى الخير والحب وبارقة أمل تبشّر بمستقبل أفضل. فلقد خبرت بنفسها كيف تنازعتها ثنائية الشر والخير، وانتهى النزاع في حالتها بانتصار الخير على الشرّ انتصارًا خرج بها من الظلمات إلى

النور وفتح لها صفحة نقية جديدة تسمو فيها بنفسها وتتطلّع نحو مستقبل أفضل.

لم تكن حواء المرأة الوحيدة في المخيم وفي دارفورالتي حملت جراء اغتصابها على يد جنجويد بل كان عددهنّ لا يُحصى. ولم تكن الواحدة منهن تجد الجرأة، من شدة خوفها من نبذ المجتمع واحتقاره لها، كي تتحدث عن حملها لأن مجرد الإشارة إليه من قريب أو بعيد، يعدّ إقرارا صريحا منها بأنها أذنبت ووقعت في المحظور. وكثيرا ما كانت الواحدة منهن تتخلى عن جنينها حال نزوله وتتركه يموت أمام صمت وتآمرالجميع. وكانت حواء ترى في هذ التصرف دليلا دامغا على نفاق وتعنت المجتمع الذي تعيش فيه، وعلى تماديه في تجاهل كل الحقائق.

فلقد ظلت النظرة التقليدية هي الغالبة بالرغم من الأدلة الطاغية التي تنفي عن المرأة نهائيا أن ترضى لنفسها، عند خروجها لجمع الحطب، أن يغتصبها الجنجويد وأن ينكلوا بها وأن يقودوها بالعصي كما تقاد البهائم ليسموا ثديها بعلامة تدينها إلى أبد الآبدين. وكانت ضحية الاغتصاب في العامين الأولين من الحرب فتجد نفسها فجأة كما يقول الشاعر، وقد تحامتها القبيلة كلها وأُفردت إفراد البعير المعبّد. بل وكانوا يرفضون الإقرار بهذه الحقيقة المرة.غير أنه إزاء الارتفاع السريع في أعداد ضحايا الاغتصاب، لم يعد بالإمكان تجاهل الحقيقة ومواصلة إنكارها.

في الأسابيع التي تلت مولد أحمد، لمست حواء العداء السافر الذي يبديه ذكور القبيلة تجاه الأم التي وضعت مولودا نتيجة تعرضها لاغتصاب. فلقد كانوا يقاطعونها ويعدّلون من لفة أوشحتهم لكي لا تلتقى أعينهم بعينيها. وكانت حواء قد خبرت من قبل ردود فعل سكان المخيم تجاه مولود وضعته أم تعرضت للاغتصاب على أيدي الجنجويد. أما الآن، وبعد أن وضعت أحمد الصغير، ها هي تشعر في الصميم بما تشعر به أي أم وضعت مولودا بعد أن اغتصبها جنجويد، وها هي تلمح في عيون الآخرين، هواة تلقين الدروس الأخلاقية، نظرات الاحتقار إليها وتخبر معاملتهم القاسية لها. فلقد لمست هذه الردود حتى في العيادة لدى مرضاها وإن كانوا يحاولون جاهدين ألا يجهروا بما يكتمون، وكأنهم يقولون في قرارة أنفسهم ليس من الإنصاف كثيرا هوانُ هذه الممرضة التي تهرع لتنظيفنا وغسلنا كلما استفرغ أو تبوّل أو تغوط أحدنا.

كانت حواء تترك أثناء ساعات العمل وليدها أحمد لقاء أجر مع أم شابة لطفل وضعته هي أيضا إثر تعرضها للاغتصاب على أيدي الجنجويد. فلقد كان راتب حواء وفيرا يسمح لها بأن تؤجّر خدمات هذه المرأة النابهة التي كانت حواء تعرفها حق المعرفة وتثق فيها وتعلم أنها ستحسن معاملته وتغذيته وسيكون معها في حفظ وأمان.

وجاء اليوم الذي بلغ فيه السيل الزبى، حيث نما إلى الأسماع، ذات يوم بعد الظهر، تعرّضُ عدد كبير من سكان المخيم لضرب مبرح في مكان ما من المخيم. وقد رجّح العاملون والمتطوعون في العيادة أن

يكون رجال أجهزة الأمن السودانية هم أصحاب هذه الفعلة لأنهم ما من مرة ينزلون إلى المخيم في دوريات راجلة إلا وينهالون بالضرب على كل من تلكّأ في مشيه ولم يوسع لهم الطريق. وتأهبًا لمجيء عدد كبير من المصابين نبّهت حواء على جميع العاملين والمتطوّعين ألا يبرحوا أماكنهم وأن يستعدّوا لاستقبال المصابين.

وقد لاحظت حواء سريعا أنّ كل من وفد على العيادة كانوا نساء يحملن مواليد حديثي الولادة وقد جئن إليها الواحدة تلو الأخرى وهن يعرجن في مشيهن ويضعن قماشات يشددنها على مواضع إصاباتهن لوقف نزيف دماء سالت جراء تعرضهن لضرب شديد. وأثناء قيامها بتنظيف إصاباتهن ورتق جراحهن،استدرجت حواء كل واحدة منهن للحديث عما حدث لها. فعلمت منهن سريعا أن الجناة هذه المرة ليسوا رجال أمن سودانيين نزلوا إلى المخيم في دوريات راجلة.

حدثتها إحداهن، فقالت: «كنت بمفردي أمام العشة أرعى وليدي، عندما ظهر لي ثلاثة رجال مسلحين بعصي، وبدون مقدمات، شرعوا في شتمي لأني لطخت شرف القبيلة، ثم اتهموني بأني أسلمت جسدي للجنجويد. كانوا في حالة من الغضب الشديد، وانهالوا علي بالضرب ولم يتوقفوا عن ضربي إلا بعد أن نزف الدم غزيرا من أنفي وجبيني».

وأضافت قائلة: «كنت أرى الغضب يتقد في عيونهم، وأيقنت أن هلاكي قريب، فتكومت بجسدي حول وليدي حتى لا تصيبه عصيهم. فأشبعوني ضربا على ظهري ورجلي. ثم غادروا المكان ولم

يتعرضوا لجارتي بأذى. ولكني رأيتهم بعد ذلك ينهالون بالضرب على الأم الوحيدة الأخرى التي توجد عشتها في نفس صف العشاش الذي توجد بها عشتي. لقد كانت مثلي وضعت مولودا على إثر تعرضها للاغتصاب على أيدي جنجويد».

قالت أخرى: «كنت وراء العشة أعد طعاما، عندما أقبل الفتيان. ألقوا التحية على جيراني، وشرعوا فجأة في تعنيفي بعصيهم. وصفوني بأني عاهرة نجسة، وأنكروا علي ألا أقاوم وأموت دفاعا على شرف القبيلة الرفيع الذي لطخته. لقد كانوا فتية صغارا في السن».

ومن الأحاديث التي تبادلتها حواء مع الضحايا، تبين لها أن ثمة قاسم مشترك بينهن وأن الجناة قد اختاروهن بعناية فائقة مع سبق الإصرار والترصد. فهم لم يعتدوا عليهن عرضًا، وإنما هاجموهن باعتبارهن نساء «نجسات» واعتدوا عليهن بشراسة تنمّ عن حقد دفين، وهو ما تسبب لعدة مواليد في كسور في أضلاعهم وأحدث لهم جراحا غائرة.

ولقد امتنع الجميع عن إبلاغ السلطات بهذه الاعتداءات تسليما بأن الجناة لن تُتخذ ضدهم أي إجراءات، لأن القانون لا يحمي المرأة إذ ليس لها في مجتمعها من ولي ولا نصير. فلقد درجت العادة منذ قرون على أن تطيع المرأة زوجها الذي يحق له أن يضربها لأتفه الأسباب. ولقد عرفت حواء من أقوال النسوة المصدومات والباكيات اللائي أسعفتهن أن لا أحد هب لنجدتهن. بل وليس مستبعدا أن يكون تصرف هؤلاء الفتيان الذين نصبوا أنفسهم حماة لشرف القبيلة قد حظي

باستحسان عدد غير قليل من سكان المخيم. فالنار لا يشعر بلسعها إلا من اكتوى بها، والأقرب إلى الظن أن المتعاطفات معهن في محنتهن، يفضلن ألا يجاهرن برأيهن في هذا الموضوع.

في تلك الليلة، جلست حواء في ناحية من العيادة تسهر على راحة النسوة اللائي تعرضن للضرب وعلى راحة مواليدهن وتحاول أن تخفف عنهم آلامهن، فوزعت عليهن حبات من الأسبرين وغمرتهن بدفق فياض من مشاعر العطف والتعاطف. وبقدر ما كانت حواء تعي مدى خطورة وصمة العار التي أُلصقت بهن في مجتمع كمجتمعها ويقينها المطلق بأن هذه الوصمة الجائرة والظالمة سترافقهن طوال حياتهن وستتسبب لهن في نبذ المجتمع لهن، بقدر ما كانت تتميز غضبا لشعورها بأن لا حول ولا قوة لها لمحوها عنهن ولعلمها بأنهن من ناحية ضحايا جريمة اغتصاب لا ذنب لهن فيها، وضحايا من ناحية أخرى لتصرف مجتمع منافق يدفن رأسه في الرمل لكي لا يجابه الحقيقة وينظر بعين الرضا إلى فتيان القبيلة الذين اعتدوا عليهن بالضرب المبرح بدعوى غسل العار والدفاع عن الشرف.

حدثت حواء نفسها قائلة في ما يشبه الهمس: «هذه هي إذن الثغرة التي سيتسللون منها لتركيعنا. فلا الجفاف ولا الفيضانات ولا المجاعات ولا الأمراض استطاعت أن تفت من عضدنا.؛ عرفنا دائما كيف نتكيف مع هذه الآفات والتغلب عليها. ولكن ها أنهم يجدون سلاحا فتاكا يشق صفوفنا ويمزق رايتنا. فباغتصاب أكبر عدد من نسائنا وفتياتنا، يزرعون بذور الفتتنة بيننا وينسفون مقومات استمرارنا

كشعب متماسك، فينقلب الرجال على النساء، وينفر الفتيان من الفتيات، فينهار بسهولة، كما تنهار قلاع الورق، الصرح الذي بنيناه على مر العصور ورسخته تقاليدنا وعاداتنا التي لولاها لما صمدنا في وجه الأنواء والأعداء كما تصمد أعواد القصب أمام العاصفة؛ فهي تنحني لها ريثما تمرّ ولكنّها لا تدعها تقصم ظهرها».

لقد نشأت حواء على الامتثال للنواميس الاجتماعية دون نقاش. غير أنها منذ ماض غير بعيد، اجتازت خطا أحمر غير منظور. فلقد نمّت فيها ماري القدرة على إعمال الفكر النقدي بدلا من التسليم بالحقائق الجاهزة. ولقد قادها تفكيرها هذا إلى استنتاج مفاده أن الهوية الدارفورية وثقافة أهلها لن يعمرا طويلا إذا لم يأخذ الدارفوريون بأسباب التكيف والتأقلم مع الواقع الجديد. قالت في سرها: «إذا استمر بنا الأمر في المخيم على هذه الحال، فسندق أول مسمار في نعش وطننا ونكتب نهايتنا بأيدينا». إذ ليس أمام أمهات المواليد اللائي حملن من مغتصبيهم من مكان يقصدونه، وهؤلاء الفتيان الذين يموتون ضجرا داخل المخيم إنما يجدون فيهن ومواليدهن تعيسي الحظ متنفسًا يفشّون فيه جام غضبهم. وهم بأعمالهم هذه، يضعون أياديهم دون وعي في أيدي نظام البشير، ويحققون له نواياه المبيتة ضد شعبنا. ففي مرحلة أولى من جريمة الإبادة التي تستهدفنا، أجهزوا على كل من يستطيع حمل السلاح ضدهم ومقاومتهم. وها هم يستهلون الآن المرحلة الثانية من نواياهم الدنيئة، فيعمدون إلى تمزيق الوشائج التي تربطنا ببعضنا ويستمد منها مجتمعنا مقومات بقائه واستمراره.

ثم حدثت نفسها قائلة وهي ترى الرعب الشديد في عيني إحدى الضحايا التي كان جبينها معصبا بضمادة منتفخة تنز منها قطرات لسائل هو خليط من دم ودواء مطهر: «ليس أمامنا من خيار سوى أن ننقذ أنفسنا بأنفسنا». ثم تذكرت مشهدا سعيدا، فرأت وجه ماما موني وحلقة صديقاتها اللائي هرعن لإسعافها ما إن وصلت إلى قريتهن. تذكرت حواء تلك المجموعة النسوية التي أنشأتها ماما موني للتعاون فيما بينهن دونما حاجة إلى الرجال. وهنا، خطر لها أن هذه هي أمثل طريقة تنقذ ضحايا الاغتصاب وتنتشلهن من مجاهل هذا البحر المتلاطم من الكراهية وتصل بهن إلى بر الأمان.

برقت هذه الفكرة في ذهن حواء وملكت عليها حواسها. وبعد أن عرجت في تلك الليلة في طريقها لأخذ مولودها أحمد، ظلت مستيقظة ساعات طويلة تقلب الأمر من جميع نواحيه وتتصور العراقيل التي ستعترضها. وقبل أن تستسلم للنوم، كانت قد عقدت العزم على إنشاء مجموعة نسوية مماثلة للمجموعة التي أنشأتها ماما موني وقررت أن تنسج على منوالها وأن تتسلح بالإرادة التي تسلحت بها تلك العجوز وأن تتحلى بالروح التي سددت خطاها.

في صبيحة اليوم التالي، جلست حواء في العيادة إلى جانب اِمرأة من الضحايا اللائي تعرضن البارحة للضرب وقد سبق لها وأن لمست فيها علامات النباهة وسرعة البديهة، فقررت أن تفاتحها في الأمر وتعرض عليها فكرتها.

خاطبتها قائلة: «يريدوننا ألا نظهر في الصورة، فهل يريدون منا أن نتوارى عن الأنظار حتى تقتلنا الوحدة والشعور بالخزي والعار؟ هل يريدون دفننا أحياء؟ ولكن لماذا يُعاقب مواليدنا والله يقول لا تزر وازرة وزر أخرى».

همهمت المرأة قائلة: «لقد كتب عليهم الشقاء».

قالت حواء وقد ارتفع صوتها: «سنكافح من أجل أولادنا، لقد جمعتنا نفس المصيبة، ويجب علينا ألا نطأطئ رؤوسنا وألا نخشى نظرات الآخرين إلينا وإلى مواليدنا. يجب أن نتّحد في ما بيننا وحدة صماء لا تفتّ فيها الشدائد».

قالت المرأة: «ما الذي يمكن لمجموعتنا أن تفعله؟».

قالت حواء وقد لمعت عيناها من فرط الحماس: «لن يساعدنا أحد ولن ننتظر من أحد أن يساعدنا، سنساعد أنفسنا بأنفسنا، سنتناوب على رعاية مواليدنا بما يحررنا للذهاب لتوريد الماء والوقوف في الطوابير الطويلة، أو الذهاب إلى المدينة والبحث عن عمل كأعمال التنظيف وما إلى ذلك».

نظرت المرأة إلى حواء وقالت مذعورة: «قصدك أن ننشأ لنا أسرة جديدة؟».

ابتسمت حواء في وجه المرأة وقالت وقد رفعت ذراعها وبسطت راحة يدها لتصافحها كفا بكف: «لا فض فوك، نعم أسرة، ونِعم القول ما قلت».

قالت المرأة وهي تستوي في جلستها: «في اتحادنا قوتنا، أليس كذلك؟».
قالت المرأة المتمددة في السرير المحاذي: «سينبذوننا».
قالت امرأة ثالثة: «ولكنهم نبذونا وانتهى الأمر، ولم يعد لدينا ما نخسره، سكان المخيم منافقون ويبدون ما لا يكتمون، فلنتحداهم، فليس أمامنا من خيار!».
خاطبتها حواء بلهجة توافقية: «ضعي نصب عينيك أن المهم أن نتكاتف ونساعد بعضنا وألا نترك الكراهية تستهلك منا كل قوانا التي يجب أن نوفّرها لرعاية مواليدنا وتنشئتهم تنشئة قويمة.
وأضافت حواء قائلة: «هلا سألتموني عن خطوتنا القادمة؟».
تفرست حواء في الوجوه المتطلعة نحوها وأضافت قائلة: «بلّغوا الأخريات بقرارنا هذا. وهلمّ بنا نشرع في إعداد العدة لعقد اجتماع نحدد فيه الخطوات العملية لمساعدة بعضنا البعض في قضاء شؤون حياتنا اليومية. وسننسج في ما بيننا شبكة واسعة من العلاقات المتينة فنصبح في المستقبل كالبنيان المرصوص وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».
انكمشت امرأة كبيرة نسبيا في السن في سريرها وقالت دون أن تخفي شكوكها: «سيضربوننا مرة أخرى لو علموا بقرارنا».
قالت امرأة أخرى: «لن يجرؤوا على ضربنا إذا صمدنا في وجوههم. والمرأة أقوى من الرجل وكلنا نعرف هذه الحقيقة».

قالت المرأة الشابة التي كانت أول من فاتحتها حواء بهذا الأمر مخاطبة حواء: «ها أنك تضيفين إليك عملا آخر».
استفسرت حواء منها عن مغزى كلامها، فأجابتها قائلة: «ها نحن نبايعك قائدةً لنا وحاملةً لراية مجموعتنا».

***

كان واضحًا منذ اللحظة الأولى لالتحاق رشيد بالمتمردين أن قائده العسكري واسمه تي-بون يفرده دون سائر أفراد وحدته بمعاملة تفضيلية. فلم يكن يخفى عليه أن رشيدا من عائلة متنفذة، بل وكان مبهورا بمركزها الاجتماعي وعلاقات جده المتميزة. ولم يكن أحد من أفراد الوحدة يصدق في قرارة نفسه أن رشيدا ثائرا حقيقيا ولم يكن من بينهم من يلقي بالا لدوافعه النبيلة، بل كانوا يعتبرون أنه ربما ثمة من غرر به وجنده عنوة أو باعهم إياهم بمقابل مالي. وكان أقصى ما يعنيهم أن جده الشيخ عصمان يرسل إليهم بانتظام صناديق من الأغذية والأدوية. ولم يكن رشيد لينخدع بالصناديق التي يرسلها جده إلى المتمردين ولم يكن يرى فيها رسالة منه تبلغه بأنه قد عفا عنه ويريد التصالح معه. فلقد كان رشيد يعلم علم اليقين أن ما يريده جده بتلك الصناديق هو استرضاء المتمردين وكسب ودهم.
غير أن أفراد وحدته لم يقبلوه ولم يشركوه في مزاحهم وشقاوتهم إلا بعد مرور أسابيع. وظل رشيد يشعر بالرغم من ذلك بأنهم لا يقبلون على التبسط معه لإدراكهم بأنه صاحب حظوة لدى قائدهم وأن القائد حريص على ألا يعرضه لأي مخاطر يدفع بهم إليها. ولم يكن أي منهم

يجد الجرأة على استفزازه أو التصريح أو التلميح أمامه بأنه الفتى المدلل لقائد الوحدة.

وبعد فترة قصيرة من التحاق رشيد بالمتمردين، أرسله تي-بون في شاحنة رفقة سائقها وثلاثة أفراد في رحلة ليلية إلى المخيم الكائن خارج الجنينة لتوريد إمدادات طبية وغذائية. جاد بها عليهم جده الشيخ عصمان مما تيسر له من إمدادات «غيّر وجهتها» لصالحه وحرم منها سكان المخيم. ولاحظ رشيد أن جده يتجاهله ولا يبدي منه ما يدل على أنه فخور برؤيته في لباس المحارب الصنديد. غير أنه أرسل هذه المرة معه رقم هاتفه الساتلي، وطلب منه أن يتصل به بعد يومين في ساعة محددة.

وعندما هاتف رشيد جده في الساعة المحددة، رد عليه مباشرة وخاطبه قائلا: «بلغ قائدك أنّ قافلة مهمة ستمر قريبا من موقعكم اليوم». وأبلغ عصمان حفيده بتوقيت مرور القافلة ومسارها وأنهى المكالمة. نقل رشيد هذه المعلومات إلى قائده تي-بون فتلقفها منه بابتسامة عريضة.

خاطب تي-بون رشيدا قائلا بنبرة فيها الكثير من التبجيل والإجلال خلافا لعادته: «يا لجدك من شخصية فذة!» قبل أن يضيف قائلا، في ما يشبه الهمس، كما لو كان يتحدث عن شهيد: «أبقاه الله ذخرا لنضالاتنا». ثم طلب من رشيد أن يبلّغ بقية أفراد الوحدة بأن القائد يريدهم وسيلتحق بهم حالما ينتهي من إجراء مكالمة هاتفية.

أقبل تي-بون وأخذ يشرح لرجاله المهمة التي تنتظرهم، فقال: «هناك قافلة سنعترض طريقها بعد قليل، وذلك بالتنسيق مع مفرزة جبريل لأن القافلة كبيرة ونحتاج إلى عدد أكبر من الرجال للتعامل معها. سنلتقي برجال جبريل على الساعة الثانية لإعداد الخطة. واستعدوا للمسير بعد ساعة من الآن». وزع تي-بون المهام عليهم، ثم انسحب إلى خيمته للاستماع إلى التعليق الحي على مباراة في كرة القدم تدور وقائعها في الكامرون.

وعندما وصلوا إلى المكان المتفق عليه مع رجال جبريل. اضطرب رشيد لمرأى أحمد في الباب الخلفي لمركبة جبريل. فلا أحد منهما كان قد التقى بالآخر منذ «ليلة تجنيد الفتية» كما يسمي تي-بون تلك الليلة بليلة اختطاف الفتية من المخيم. فما أن استقرت عينا أحمد عليه حتى شعر رشيد بالاضطراب والتوجس وراح يتظاهر بأنه لم يره. فلقد عاوده هذا الشعور الذي ينتابه كلما قابل أحمد، شعور بتفاهته ودونيّته ونقصه مقارنة به حتى وإن لازم أحمد تجاهه الصمت ولم ينبت ببنت شفة.

نزل أفراد المفرزتين من مركباتهم القتالية المحوّرة وتحلّقوا حول تي-بون. استجمع رشيد قواه وأقرّ العزم على أن يسيطر على أعصابه ويقمع الشعور الغريب الذي ينتابه كل ما وجد أمامه خصمه في كرة القدم اللاعب المغوار أحمد، وقرر ألا يدع شعوره ذلك يطفو إلى السطح. ارتدى رشيد نظارته السوداء ليخفي وراءها عينيه وحدث نفسه قائلا في سره: «أنت بطل الآن، ولم تعد راعي الجديان سابقا.

وها أنت تقف شامخا إلى جانب رجال عظام بصفتك محاربا مقداما من قماشة المحارب الدارفوري الأسطوري الذي طال ما ما سمعت عن أمجاده في صغرك وحرصت على أن تنحت من نفسك بطلا مثله». نفخ رشيد صدره وأرغم نفسه على أن يلاقي من وراء نظارته نظرات أحمد الصافية والمركزة.

أطلعهم تي-بون على خطة الهجوم، ثم انتشروا في حلقات في انتظار مكالمة على الهاتف الساتلي من المركبة الاستطلاعية التي ربضت في موقع متقدم لإبلاغهم بقرب وصول القافلة. دخل الشباب في مزاج رائق، فأخذوا يتبادلون نظاراتهم لتجريبها. غير أن قائدهم منعهم من الاستماع إلى موسيقى صاخبة أو إثارة الكثير من الجلبة.

تجنّب رشيد الدنو من أحمد وظل واقفًا مع أبعد حلقة عن مكان وجود أحمده. غير أنّ أحمد توجّه مباشرة نحوه إليه بخطى ثابتة وراح يصوّب نحوه نظرات نافذة.

خاطبه أحمد بصوت مرتفع قائلا: «كيف تتحمل رؤية وجهك في المرآة؟» كفّ الجميع عن الحديث وأصغوا ينصتون إلى ما يقوله أحمد الذي ارتفع صوته فجأة. تمالك رشيد نفسه لكي لا يرتد إلى الخلف وهو يسمع أحمد يصيح به قائلا: «لست إلا نخاسًا يتاجر بالبشر».

وما هي إلا لحظة حتى هبّ تي-بون لنجدة رشيد. فتدخّل قائلا: «ما خطبكم أيها الشباب؟».

لاحت ابتسامة على شفتي أحمد وهو يرى علامات الهلع على وجه رشيد. وقال مجيبا على تساؤل تي-بون: « نتحدث عن بيع البشر وشرائهم كما تُباع وتُشترى أكياس الفاصوليا».

نظر رشيد إلى الأفق كما لو أنه ليس معنيا بالموضوع الذي يتحدث عنه أحمد.

هز تي-بون كتفيه مستخفًا بقول أحمد وأجابه قائلا: «هذه هي الدنيا، لا سبيل إلى تغييرها، لأنه سيكون هناك دائما من يستغل الأوضاع لفائدته، ثم من منعك أنت من أن تنتزع نصيبك من هذه الدنيا!».

نهره أحمد قائلا: «يا له من فكر قيم يتفق تماما مع صفتك مناضلا يحارب من أجل تحرير شعبه».

قال تي-بون في ما يشبه الهمس: «ماذا تقصد بقولك هذا؟». وكان الآخرون قد انتبهوا إلى الحديث الجاري بينهما، فأخدوا يتبادلون النظر إلى بعضهم بعضا في صمت ولا يعرفون ماذا يفعلون.

واصل أحمد قائلا وقد ارتفع صوته: «نختبئ في معظم الأحيان في الجبال ونترك الجنجويد يدمرون قرانا، ونهاجم قوافل المساعدات ونسرق الإمدادات الغوثية كما يفعل المجرمون. بالله عليكم ما النبيل في هذا الذي نفعله؟ وقريبا، سيتصور العالم أن المتمردين في دارفور ليسوا أفضل ولا أشرف من اللصوص. إننا بعملنا هذا نعقّد الأمور على الوحدات التي تحاول بالفعل مقاتلة نظام البشير».

قال تي-بون: «أن تكون لاعبا مغوارا لا يبيح لك بأن تنصّب نفسك خبيرا يتحدث في ما ليس له به علم، والأفضل لك ألا تفتح فمك إطلاقًا، هل فهمت ما أعنيه؟».

صوّب أحمد نحو تي-بون نظرة نارية، وواصل قائلا: « عمال المساعدة الغوثية هؤلاء الذين نسرق منهم المساعدة التي يأتون بها لن يأتوا ثانية إلينا إذا ما تمادينا في السطو على شاحناتهم. وبانسحابهم، لن يجد الناس غذاء يقتاتون عليه ولا أدوية يعالجون بها أنفسهم ولا صهاريج تورد إليهم ماء صالحا للشراب ولا أي شيء آخر. وعندما يتركون البلد، سيخلو الجو والساحة لنظام البشير لكي يرتع في البلد بلا رقيب ولا حسيب».

ضحك تي-بون وقال: «طبعا، لن يغادروا البلد، فحكومات بلدانهم يريدونهم هنا رفعا للعتب لأنها لا تريد مجابهة نظام البشير أو فرض القرارات السابقة التي اتخذتها الأمم المتحدة. فهل يعقل أن تفعل حكومات بلدانهم ما من شأنه أن يهدد سلامة مواطنيها العاملين في تقديم المساعدة الإنسانية؟».

قال أحمد وقد قطب جبينه: «ما هذا التهكم والاستخفاف؟ أتنسى المخاطر التي يُعرّض هؤلاء الناس لها أنفسهم بمجيئهم إلى دارفور؟».

لم يكترث تي-بون لقول أحمد وواصل حديثه قائلا: « الحكومات تريد أن تشعر بالرضا عن أنفسها بتقديم علب من الحليب الجاف لإطعام اللاجئين الذين يتضورون جوعًا. إنها لعبة لا أكثر ولا أقل.

إنهم يطعموننا في انتظار أن يتمكن نظام البشير من القضاء علينا عاجلا أم آجلا».

قال أحمد وهو يصرّ على أسنانه: «أراك تبسّط وتسطّح الأمور وتصوّرها على أنها مجرد تمثيلية وُزعت فيها الأدوار».

كشّر تي-بون في وجهه وقال متوعدا: «لقد تجاوزت الحدود أيها اللاعب المغوار؟».

قال أحمد: «إننا بهذه الأعمال، نفقد كل مصداقية في أعين أبناء شعبنا».

طرطق تي-بون بلسانه واغتاظ من عدم انضباط أحمد. فقال وقد احتدت لهجته: «شعبنا؟ عمن تتحدث؟ لا أحد يعنيه ما يقوله الرجل البسيط القابع داخل عشته أو خيمته. ولن يفكر أحد في هذا الرجل البسيط المسالم المتواري عن الأنظار على أمل ألا ينتبه إليه أحد ولن يفكر احد في نعليه المهترئين. ثم إن هذا الرجل البسيط لا يريد أن يزج بنفسه في أي مشاكل قد لا تحمد عقباها. الكبار وأصحاب النفوذ والمال هم وحدهم المعنيون بمعترك الحياة».

توقف تي-بون عن الكلام وراح يمسح قطرات العرق التي تصببت من جبينه بينما صمت رجاله وكأنّ على رؤوسهم الطير في انتظار تبيّن المنحى الذي سينتحيه قائدهم المعروف عنه سرعة انفعاله وتقلب مزاجه من النقيض إلى النقيض.

قال تي-بون مستهزئا وهو يبرم رأسه: «طبعا نسيتُ أنك لاعب مغوار لا يشق له غبار، وهذا كل ما يلزمك لتصبح من أهل الحل

والعقد في التكتيكات العسكرية، تعالوا يا أيها الملأ، تعرفوا على جنرال كرة القدم!».

ضحك الشباب تملقًا لقائدهم كعادتهم كلما أطلق دعابة. يتسابقون لالتقافهامن قائدهم المتقلب المزاج والتهليل لطرافتها.

فجأة سمعوا صوتا جهوريا يقول: «ما هذه الجلبة؟».

التفتوا جميعهم ناحية الصوت،، فإذا برجل ضخم الجثة، سمين الوجه، ثاقب النظرات، ذراعاه واسعتان كفخذين ينحدران على جنبي جذعه الضخم ويشكلان معه زاوية مستقيمة من كلا الجانبين. نظر أولا إلى أحمد ثم إلى تي-بون وقال مخاطبًا تي - بو:

«هل أزعجت صديقنا بكهام في شيء؟».

التفت تي-بون حواليه متسائلا بحركات تنفي عن نفسه أي خطأ وقال بصوت مسموع: «من هذا البكهام؟».

أومأ جبريل برأسه الضخم نحو أحمد وقال: «دعه لشأنه!».

تظاهر تي-بون بأنّ شيئا لم يكن وقال ضاحكا: « بكهام، أهكذا ينادونك؟».

أردف جبريل قائلا وكأنه يتلو بيانًا: «عندما تنتهي الحرب، سنبيعه إلى مانشتر يونايتد، أو ليفربول، أو ريال مدريد أو أي. سي. ميلان».

لازم تي - مون بون الصمت. فهو لا يريد الدخول في مواجهة مع جبريل، ولكنه في الوقت ذاته لا يريد أن يظهر أمام أفراد وحدته بمظهر المهزوم. ومن حسن الحظ أنْ رنّ الهاتف الساتلي لينتشله من هذا الموقف الحرج. كانت المكالمة من المركبة الاستطلاعية.

اندسوا في مركباتهم القتالية المحوّرة وأحكموا امتشاق أسلحتهم وانطلقوا لاعتراض القافلة المتكونة من سبع مركبات.

كانوا يحملون كلاشنكوفات على سبيل التباهي لأنهم يعلمون جيدا أن عمال الإغاثة وأفراد القافلة لا ترافقهم حماية أمنية ولن يقاوموهم. فلقد هام مئات من هؤلاء الناس أصحاب النوايا الطيبة على وجوههم في البرية وكثيرا ما كانت تفتك منهم مركباتهم ويتعرضون للسلب. وكثيرا ما كانت تُنتزع منهم أيضا هواتفهم الساتلية وتتقطع بهم الطرق. ولم يكن بوسع مراقبي بعثة الاتحاد الأفريقي أن يهبّوا لنجدتهم في جميع الحالات والخروج من معسكراتهم لقلة الموارد المتاحة وشحّة البنزين والماء الصالح للشراب. ثم إنه حتى وإن توفر لهم البنزين، فإنهم لا يستطيعون التدخل وليس بوسعهم أن يفعلوا شيئا غير تحرير تقارير. فهم لا يرافقون قافلات الإغاثة الإنسانية ولا يتدخلون للتصدي لقطّاع الطرق.

وما هي إلا ثوان حتى حاصر المتمردون القافلة وأجبروها على التوقف. وقفزوا من مركباتهم القتالية المحورة واستعدّوا لتكرار المسرحية التي أصبح كل فرد منهم يتقن فيها الدور المنوط به. استبد الفزع بعمال الإغاثة، فتخلوا عن مركباتهم دون مقاومة.

غير أن أحدهم، وقد كان يرتدي قميصا عليه شعار ريال مدريد ويبدو أنه كان كبيرهم، أخذ يحتج. فلقد احمرت وجنتاه، وبدأ يصيح في وجوههم. وحيث إن لا أحد من المتمردين فهم ما يقوله، فقد عاجلوه

بعدة ضربات بأعقاب بنادقهم. وحاول سائقه المحلي أن يهدّئ من روعه ولكنه كان غاضبا جدا، ولا يريد الاستماع إليه.

أمر تي-بون رجاله بأن يصفّفوا عمال الإغاثة على جانب الطريق، ولكنّ الرجل الذي يحمل قميص ريال مدريد، واصل الاحتجاج بصوته الذي كان يخرج من حنجرته على نحوٍ متقطعٍ كما تخرج الرصاصات من مدفع رشاش.

قال جبريل: «امسكوا عني هذا الرجل قبل أن تنفلق أعصابي».

ودون تردد، بادر نائبه بصفع الرجل في وجهه بعقب بندقيته.

اهتز رشيد لقسوة وسرعة الاعتداء على الرجل ولكنه شعر كذلك بنوع من الإثارة. ولا غرابة أن يكون جبريل محاطا برجال طوع بنانه، يريدون إسعاده ولا ينتظرون منه إلا أن يأمرهم. فلقد صُدم رشيد بما رأى ولكنّ هذا الذي رآه أيقظ وأشعل فيه أحاسيس كانت نائمة.

وبسقوط حامل قميص ريال مدريد أرضًا، أخذت امراة افرنجية في الصراخ بينما نزعت زميلة له وشاحها وشدته على شفتيه وفمه في محاولة لاحتواء أثر الضربة التي تلقاها الرجل بكعب البندقية.

رأى رشيد رجلا إفرنجيا آخر يتقدم وقد نتأ منه فكه السفلي ولكنه سرعان ما تجمد في مكانه وكأنه يزن جدوى ما سيُقدم على فعله بالاحتجاج وهو الذي كان قبل قليل يبدو متحفّزًا ومتوثبًا. ولاحظ رشيد أن الرجل قد خار فجأة وارتخت ذراعاه وتحوّل إلى ما يشبه دمية خشبية لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا.

انتبه تي-بون إلى أن رشيد كان يقف متحفزا للاشتباك مع عامل الإغاثة الثاني الذي هاج وماج قبل أن تخمد ثورته سريعًا، فعلق عليه بالقول: «حسنا فعل بأن عدل عما كان يعتزمه».وهو ما أثار ضحك رشيد.

أمر تي-بون أفراد وحدته بأن يفتشوا جيوب عمال الإغاثة الفرنجة، فإذا بامرأة منهم ترتد وتندفع إلى الوراء وتدخل في نوبة هيستيرية كحيوان جريح ورفضت أن تتركهم يفتشون جيوبها. اعترض رشيد طريقها وأمسك بها ليلتحق بها الآخرون ويفتشون جيوبها. التقت عيناها بعينيه فزمّت شفتها تقزّزا ثم بصقت عليه.

طار بصاقها واستقر على عنق رشيد وتسرب عبر رقبة قميصه إلى صدره. شعر رشيد للحظة أن قلبه قد توقّف عن النبض. وفجأة ركبه شيء ما كما لو أنّ أحدهم أدار زرًا برأسه فإذا بأذنيه يجتاحهما إعصار من الصياح بألفاظ إفرنجية فيصمهما ويفقدانه القدرة على البصر والتبصر.

وجه رشيد إليها صفعة قوية طوحتها عدة خطوات إلى الوراء وأسقطتها أرضًا. وإذ به ينقض عليها ويشرع في تمزيق ثيابها وتجريدها منها. تحلق عدة جنود حوله وأخذوا يهللون ويتراقصون. وانحنى ثلاثة منهم وأمسكوا بها وثبتوها في الأرض ليسهل عليهم النيل منها. وبينما كان رشيد لا يزال يحاول الاحتيال على سروالها وقماشه الرقيق الذي استعصى عليه تمزيقه، رفع بصره نحوهم شاكرا إياهم بإيماءة من رأسه، ثم صفع المرأة مرة أخرى. غير أنه عندما

رفع عينيه من جديد، لم يجد أيًّا من رفاقه وإنما طالعه وجه أحمد ونظرته النارية المصوّبة نحوه. وفي لحظة انزاحت عنه سَورة الغضب الشديد التي تملكته، وارتخى قضيبه الذي كان منتصبًا، ونهض من فوق المرأة وسحب سوستة سرواله إلى أعلى.

قال رشيد مخاطبًا بقية الجنود وهو يضحك ضحكة فاترة: «يكفيها هذا درسًا تتعلم منه».

غير أنه ما أن ابتعد بخطى حثيثة حتى أخذ مكانه فتى آخر همّ بإنزال سرواله.

أمسك أحمد الفتى من ذراعه وصاح به قائلا: «ماذا تفعل، أترضى لنا أن نستوي مع أعدائنا في أخلاقياتهم الرديئة؟».

كان واضحا أنه يشير إلى الجونجويد وإلى نظام البشير. تلاشى على الفور أثر الشبق من عيني الفتى فتنحى وانزاح عن المرأة. ثم انتصب واقفًا ورفع سرواله ومضى معبسًا مغتاظا.

نظر أحمد إلى المرأة المطروحة أرضا. كانت عيناها كشقين منقعين ومنتفختين جراء الصفعتين اللتين وجههما رشيد إليها. تكورت على نفسها محاولة أن تخفي ثدييها بيديها. نزع أحمد قميصه الرياضي المنشيستراوي وناولها إياه. أخذته منه بيدين مرتعشتين وحاولت تمريره من فوق رأسها وعنقها. ثم جاء زميلها وساعدها على النهوض والابتعاد.

قال تي-بون مخاطبًا جبريل: «ربما الأفضل لنا ألا نترك أي أثر وراءنا، وليس من الحكمة في شيء ألا نتخلص من كل الشهود بعد هذا الذي حصل».

اعترض أحمد بسرعة على اقتراح تي-بون واقترب منه كثيرا حتى كاد أن يحتك به وواصل قائلا: «إذا قتلتهم، فكن واثقا من أنك ستهدر أي رصيد من التعاطف معنا لدى بقية بلدان العالم. وستعطيهم الفرصة كي يقولوا عنا: «السودانيون كلهم أشرار، ودعوهم يفضون مشاكلهم بأنفسهم؛ فالابتعاد عنهم غنيمة».

تنهد تي-بون ووضع نظاراته السوداء على أرنبة أنفه.

ويبدو أن جبريل وازن بين الخيارين، ثم نطق قائلا: «بكهام محق في رأيه، لنأخذْ الشاحنات ونغادر المكان!». ثم أضاف قائلا بعد برهة: «وربما تعيّن علينا أيضا أن نجري مكالمة مجهولة المصدر مع أفراد حفظ السلام نبلّغهم فيها بمكان وجود هؤلاء الرجال والنساء».

وقف رشيد إلى جانب مركبة تي-بون القتالية وهو يتساءل ما إذا كان قد فقد كل مصداقية في أعين أفراد وحدته، ورجح ألا يشركوه في المستقبل في شقاواتهم. وحدث نفسه قائلا إنهم سيكونون دائما بحاجة إليه نظرا لمركز أسرته المتنفذة وعلاقات جدّه الواسعة.

ثم لمح أحمد يتجه ببطء نحوه وقد بدت عليه علامات الانشغال وعدم الارتياح. خطر له للحظة أن خصمه قادم إليه ليهنئه على حسن تصرفه. أحس بقلبه يضطرب قليلا وشعر بالحرج من هذا الارتباك والضعف الذي اعتراه. فهو يكره نفسه لحرصه دائما على الفوز

بإعجاب أحمد كما هو الحال معه في علاقته مع جده الذي لم يفز برضاه رغم محاولاته العديدة والمتكررة.

شاهد رشيد أحمد يقترب منه ويضيق ما بين عينيه، ثم سمعه يقول كلامًا لم يتبين فحواه. تردد رشيد وبدلا من أن يتجاهل أحمد ويصعد إلى المركبة كما قرر، وجد نفسه يتجه نحوه منقادا، كطفل صغير، متلهفا لسماع ما الذي يريد قوله حتى وإن كان سيسمعه كلاما لاذعا ينتقده فيه على شيء أتاه. وكم كان يكره نفسه بسبب موقفه المهين والضعيف تجاه أحمد، وها هو يذهب إليه بنفسه ليستفسر منه ما قصده بلهجة حاول جاهدًا أن يداري فيها ضعفه والظهور أمامه بمظهر الولد الشقي.

قال أحمد ردا على سؤال رشيد: «ألقيت نظرة على متعلقاتهم في شاحناتهم، فاتضح لي أنهم أطباء جاؤوا من إسبانيا لمداواتنا».

أحس رشيد بأن رجليه لم تعد تقويان على حمله واستجمع قواه لكي لا يجهش بالبكاء وينكّس رأسه. داهمه صداع شديد وخشي أن ينهار على عين المكان. شعر بالخزي والعار، فارتدّ على أعقابه خائبًا مدحورًا وصعد سريعًا إلى المركبة بحركات منقبضة وغير متناسقة.

الفصل الثالث والعشرون

المكان: لندن

الزمان: آذار/ مارس 2007

كان هناك سبب وجيه حمل زهرة على عدم الذهاب إلى المدرسة؛ فلقد استلم أخوها عبد اللطيف رئاسة مجلس اللاجئين الدارفوريين في بريطانيا بعد موت إسماعيل، وطلب منها أن ترافقه لحضور اجتماع دعت الحكومة البريطانية إليه المجلس إلى جانب الجمعيات الناشطة من أجل إعلاء كلمتي القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان. لم يكن يخفى على زهرة أن أخاها قد أصبح قادرا على التواصل قليلا باللغة الإنكليزية، ولكن خشيت أن ترهبه أجواء الاجتماع، فينعقد لسانه ويعجز عن إبلاغ الحكومة البريطانية ما يريد إبلاغها. لذا، لم تذهب اليوم إلى المدرسة وجاءت معه لأنها تجد دائما طريقة للتخلص بابتسامة من أي موقف حرج أو سوء تفاهم قد يثير أي التباس لغوي، خلافا لأخيها الذي لم يتخلص من خوفه من أن يحكم عليه الآخرون من خلال هندامه وضحالة معرفته للغة الإنكليزية.

كانت زهرة تجلس إلى جانب أخيها في الطابق العلوي للحافلة اللندنية الحمراء. وشعرت بالابتهاج لمرأى شوارع لندن المكتظة التي أخذت الحافلة تشقها بعناء. وعندما وصلت الحافلة إلى ساحة البرلمان، ظهرت لزهرة ساعة بيغ بان ورأت المبنى الضخم المجاور لها الذي يأوي البرلمان والذي تعرفت فيه على الفور على سمات العمارة القوطية الحديثة.

نزلت هي وعبد اللطيف من الحافلة، ولاحظت أنه كان متهيبا من هيبة المكان خلافا لها حيث إنها شعرت بالانتشاء لمصافحتها لمكان يروي صفحات طويلة من تاريخ البشرية. بل، وخطر لها في لحظة ما أنه يتعين عليها أن تحمد الله لكونها امرأة ليس مطلوبا منها أن تعرف كل الأجوبة كما هو مطلوب من الرجل حفظا لكرامته. فلقد اكتشفت منذ اليوم الأول الذي وطأت فيه قدماها أرض هذه البلاد أنّ الناس يسعدهم أن يرشدوا الغريب إلى حاجته وأن يوجهوه إلى الوجهة التي يريدها، مهما كانت الاستشارة أو الخدمة المطلوبة بسيطة؛ كأن يسألهم عما إذا كان من الأفضل له شراء هذا أو ذاك الخبز أو أن يسير في هذا الاتجاه أو ذاك للوصول إلى عنوان ينشده.

لقد وصلت إلى عبد اللطيف رسالة صوتية باللغة الإنكليزية على هاتفه الجوال من فتاة تنشط في حملة الدفاع عن حقوق الإنسان، تشجعه فيها على حضور الاجتماع المذكور وتبلغه فيها أنّ حضوره واشتراكه في الاجتماع سيتيح للقائمين على الحملة فرصة إبلاغ المسؤولين في الحكومة البريطانية على لسانه شهادة حية عن دارفور من رجل من أهلها.

ردت زهرة على الرسالة وعلمت من صاحبتها أن الاجتماع سيضم الجمعيات الناشطة في مجالي القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان.

وشرحت لها صاحبة الرسالة واسمها ساندرين تروسكوت أنْ ليس من بين النشطاء من هو مثل عبد اللطيف دارفوري المولد والتنشئة

خبِر اعتداءات الجنجويد وعاشها، وقتل له الجيش السوداني أفرادًا من أسرته.
طلبت منها زهرة أن تصف لها نفسها وهي تقول في سرها: «كيف لي أن أميزها بين جموع الإنكليز؛ فوجوههم كلها متشابهة».
قالت ساندرين: «إنها شقراء تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما وتحمل قلادة من الفضة من المشغولات الحرفية الأثيوبية».
ذهلت حواء وتساءلت كيف لفتاة في سن الثالثة والعشرين أن تدير جمعية تدافع عن حقوق الإنسان، ولم ينتشلها من ذهولها إلا صوت ساندرين وهي تسألها أن تصف لها نفسها أيضا. فأخبرتها حواء أنها سوداء طويلة القامة نسبيا وتبلغ سبعة عشر عاما من العمر، في حين يبلغ أخوها عبد اللطيف الواحد والعشرين من عمره وهو طويل القامة.
وقبل أن يتوادعا، شرحت ساندرين لها أن الدخول إلى مبنى البرلمان تحكمه عدة إجراءات تفتيش أمنية وأوصتها بأن يسألا شرطي الحراسة الواقف أمام باب الدخول إلى المبنى الذي سيرشدهما، ثم أضافت قائلة بعد تردد: «لا تخافا، فرجال الشرطة هنا يختلفون عما تعرفانه في بلدكما، فهم عموما في خدمة الناس».
عملت زهرة بتوصياتها ووقفت في الطابور بانتظار مرورها عبر البوابة المجهّزة بكاشف بالأشعة السينية. ظل عبد اللطيف ينظر أمامه لا يحرّك رأسه وقد غلب عليه التوتر والتوجّس. خرجا من الطابور وصعدا سلالم نحتت أدراجها من الحجر، تعلوها أسقف مطلية بلون سماوي، تتخلله نجوم تتلألأ. أخذتهما هذه السلالم إلى رواق نصبت

على جانبيه تماثيل من رخام لسياسيين يحمل معظمهم شوارب كثة، ودروع مرصعة بالذهب عليها شعارات أسر حكمت البلد في وقت من الأوقات، ومجلدات على رفوف تصل إلى السقف، وشاهدا على امتداد الرواق الذي سارا فيه خداما يسهرون على شؤون المبنى يرتدون أحذية لماعة أحكموا شدها حول أقدامهم المغلفة بجوارب سوداء. وكان الواحد منهم يبدو في معطفه الفضفاض، وهو يرشد الزوار بأدب كبير بإيماءة من رأسه نحو وجهاتهم، أقرب إلى ممثل يؤدي دورا في رواية تاريخية.

وأمكن لزهرة أن تلمح من خلال أبواب مفتوحة على مصراعيها مشاهد خاطفة من نهر التايمز. كانت زهرة تتمهل في مشيها للتمتع بمرأى هذا النهر، ولكن أخاها عبد اللطيف كان يستحثها أن تسرع الخطى. ولم يفت زهرة ملاحظة سمات العمارة القوطية الحديثة في كل ما وقعت عليه عيناها. وكانت تطيل النظر إلى مقابض الأبواب والسجاد المفروش. غير أنها كلما حاولت التوقف لتأمل الزخارف عن كثب، ذكرها عبد اللطيف بأن تسرع في مشيها كي لا يتأخرا على الاجتماع.

أرشدهما أحد خدام المبنى إلى قاعة لاجتماعات اللجان؛ توجد في أقصى ممر واسع وطويل رُصفت على جانبيه مجلدات، وعُلقت لوحات زيتية غبراء لمشاهد تاريخية. اقتربت من زهرة امرأة طويلة شقراء وسألتها: «هل أنت زهرة؟».

قالت زهرة: «أنت ساندرين، أليس كذلك؟».

ابتسمتا وتصافحتا. وقالت ساندرين وقد لمعت عيناها الزرقوان: «وهذه جيليان لوسك من مجلة « أفريكا كونفيدنشيل، الأفضل أن نجلس، دعونا نجلس في مقاعد متجاورة!».

وجدت زهرة نفسها بمحاذاة نافذة تطل على نهر التايمز ويمكنها أن ترى دون أن تنهض من مقعدها حافلات لندن الحمراء ذات الطابقين وهي تعبر جسر وستمنستر، وأن تسمع محركات الزوارق وهي تغدو وتؤوب في النهر. استهل رئيس الاجتماع كلمته بالقول: «مرحبا بكم جميعا، يسرني أن نستقبل السيد الوزير، ودعوني أطلب من معاليه أن يلقي كلمة مقتضبة عن الحالة في دارفور».

كان الوزير رجلا نحيفا طمست نظارته ذات الإطار المعدني معظم ملامح وجهه المستدير والضيق، ولاحظت زهرة أنه لم يتجشم عناء النهوض من مقعده، أو النظر إلى الحضور، وإنما أخذ يتلو وهو جالس نص كلمته من ورقة أعدها سلفا، ولم يكن يرفع عنها رأسه كما لو كان في عجلة من أمره ويريد الانتهاء من تلاوتها بأسرع ما يمكن والانصراف.

قال في نص كلمته: «لقد ظلت الحالة الآن هادئة في دارفور طوال ثلاثة أشهر. ونحن نبذل الآن جهودا متضافرة في مجلس الأمن لعقد مفاوضات ثنائية بين النظام السوداني ومختلف أطراف النزاع. ولقد كان لنا طبعا دور مهم في إنشاء قوة مشتركة بين الاتحاد الأفريقي والأمم المتحدة لحفظ السلام في دارفور».

ثم عدَّد الوزير جملة من الأرقام عن حجم المساعدة الإنسانية التي قدمتها إلى دارفور كل من بريطانيا وأمريكا والاتحاد الأوروبي. وترجمت زهرة لأخيها همسا أهم ما ورد في كلمة الوزير بينما ظل هو مطرق يستمع إليها وقد عقد ما بين حاجبيه.

استغرقت كلمة الوزير أقل من خمس دقائق، وما إن انتهى من إلقائها حتى رفعت ساندرين يدها تطلب أخذ الكلمة. نظرت إليها زهرة متعجبة من شجاعتها، ووجدت أن مسحة الخجل لم تفارق محياها ولكنها رأت في وجهها الجميل مسحة أخرى توحي بأن ثمة شيء ما في كلمة الوزير قد ضايقها وصممت أن تصارحه بها.

خاطبت الوزير قائلة: « عن أي هدوء تتحدثون سيدي الوزير؟ والحال أنه ثمة أنباء متطابقة استقيناها من أكثر من مصدر في دارفور تؤكد أن سلاح الجو السوداني يواصل قصف القرى مستخدما طائرات تحمل ألوان الأمم المتحدة لخداع الأهالي!»، ثم عددت له أسماء خمس قرى دارفورية والتواريخ التي تعرضت فيه للقصف من سلاح الجو السوداني.

عقّب الوزير على تدخلها قائلا: «لا علم لنا بهذه الأنباء». ثم طلب مباشرة الاستماع إلى صاحب السؤال التالي.ولاحظت زهرة علامات الاستغراب على وجه ساندرين التي قطبت جبينها تعجبا من إجابة الوزير. وحاولت ساندرين أن تضيف شيئا ما إلى كلامها، ولكن إجابة الوزير كانت باتة.

كانت جيليان الجالسة إلى جانب ساندرين هي صاحبة السؤال الثالث، فقالت: «ماذا يقول السيد الوزير عن الأخبار المتناقلة بشأن احتفاظ الحكومة السودانية لنفسها بحق الاعتراض على مشاركة أي دولة في قوة حفظ السلام المشتركة بين الاتحاد الأفريقي والأمم المتحدة؟».

قال الوزير ببعض من العناء: «المهم الآن هو إنشاء هذه القوة في أقرب وقت ممكن. فأرواح مليوني شخص مرهونة بالمساعدة الغذائية ولا بد من إيلاء الأولية القصوى إلى مسألة تأمين وصول قوافل المساعدة الإنسانية إلى مخيمات اللاجئين».

حاولت جيليان أن تعقب على قول الوزير، ولكنه تجاهلها تماما والتفت ناحية صاحب السؤال التالي. وشهدت زهرة كيف تبادلت جيليان مع ساندرين نظرات قلبتا فيها عينيهما وكأنهما يشكوان أمرهما إلى الله. التفتت زهرة إلى أخيها وفسرت له ردة فعلهما، فأغمض عينيه وراح يهز رأسه أسفا وتأسفا. لكن زهرة لكزت أخاها غاضبة وقالت: «اطلب الكلمة! لا بد لك من أن تُسمعه الحقيقة».

فكر لحظة في كلامها ثم أومأ لها برأسه موافقا. وعندما حان دور زهرة لأخذ الكلمة، شرحت للحضور أنها ستترجم ما يقوله أخوها الذي سيتكلم بصفته رئيس مجلس الجالية السودانية في شمال بريطانيا. خيم الصمت على القاعة واستنفر الحاضرون حواسهم لسماع تدخله.

قال عبد اللطيف: «ما زلنا نذكر جميعنا من كان يتعسف علينا في صغرنا. وحكام السودان ليسوا سوى تشكيل عصابي لقوم ظالمين. وما نشهده اليوم هو إذعان لإرادتهم. ولن يمر وقت طويل قبل أن يندم

المجتمع الدولي يوم لا ينفع الندم. فهؤلاء قوم لا تنفع معهم سوى لغة المواجهة واتحاد الجميع ضدهم، وعندها سيرتدون مدحورين لأنهم جبناء».

لاحظت زهرة أن الوزير لم يرفع عينيه عن الورقة الموضوعة أمامه منذ أن شرعت في ترجمة كلمة أخيها عبد اللطيف.

واصل عبد اللطيف إلقاء كلمته، فقال: «إن الأمر يتعلق هنا بسلطة معنوية منوطة بالمجتمع الدولي بمقتضى القرارات المتعددة التي اتخذها مجلس الأمن. فإذا ما أذعنا لشروط نظام البشير، فسيرى في ذلك علامة ضعف فينا، وسينتهز الفرصة وسيتمادى في غيه إلى أن ينال مبتغاه».

هزالبعض رؤوسهم استحسانا لكلامه بينما لم يخف الكثيرون ضيقهم. فأكمل: «دعوني أؤكد لمعالي الوزير أن شعبنا يفضل أن ينصبّ محور التركيز أولا على إيجاد حل سياسي دائم حتى وإن كلّفه ذلك البقاء دون مساعدة إنسانية إلى حين. والرجاء ألا تتظاهروا بمساعدتنا ثم تمدوا أياديكم إلى نظام الخرطوم لإبرام صفقات بيع وشراء معه».

تجاهل الوزير تعليقات عبد اللطيف بينما بحثت ساندرين عن عين عبد اللطيف وأومأت له برأسها ورفعت إبهامها إلى أعلى تصديقًا لكلامه. وخصت جيليان عبد اللطيف بابتسامة عريضة وهمست قائلة: «لم تعجبه ملاحظتك الوجيهة ولكنها ستظل محفورة في خلده».

وعند انتهاء الاجتماع، أخذ عبد اللطيف يحادث جيليان بلغة أقرب إلى لغة الإشارة، وسألتها زهرة عن سبب حضورهم لهذا الاجتماع إن كان الوزير لا يريد الإجابة عن الأسئلة التي طرحت عليه.

جالت زهرة بعينيها بحثًا عن ساندرين، فلمحتها وقد انتحت ناحية من القاعة وانهمكت في محادثة على هاتفها النقال قبل أن تنضم إليهم من جديد وتسألها عن موعد خروج حافلة عودتها مع أخيها إلى شمال البلاد، لأنها أجرت للتو مكالمة مع قناة الجزيرة العربية التي أبلغتها أنها تريد دعوة عبد اللطيف ليكون طرفًا في حوار ستنقله في بث حي.

فغر عبد اللطيف فاه وهو يسمع أخته تنقل إليه الخبر إلى لغتهما الأم. نظر إلى جيليان، فإذا بتعابير وجهها وحركاتها تشجعه بقوة على قبول العرض. ثم تلت ذلك ساعة مثيرة إثارة لم يسبق لعبد اللطيف ولزهرة أن خبراها من قبل. فلقد وجد عبد اللطيف نفسه وقد تحول فجأة من عامل نكرة ينظف رواق محل لبيع البيتزا في دونكاستر، إلى شخصية عامة يطلب منه فني يتحدث باللغة العربية أن يلفظ بعض كلمات لتجربة مصدح صغير شبكه هذا الفني تحت رقبة قميص عبد اللطيف استعدادا لإجراء الحوار الذي ستذيعه قناة الجزيرة في بث حي.

جلس عبد اللطيف في صوفة في ما بدا له أنها قاعة جلوس مهجورة وسط ستوديو للبث التلفويوني. وغشيت عينيه أضواءٌ ساطعة بينما جلس مذيع في مكان آخر يشكل زاوية مستقيمة مع مكان جلوسه هو. ولاحظ عبد اللطيف أن المذيع كان يقول شيئا ما بالعربية في المصدح

الموضوع أمامه ويكاد لا يلقي له بالا. ولمح زهرة وجيليان وساندرين وهن يجلسن في مكان ما خلف الأضواء الساطعة.

قال المذيع الذي أقبل على عبد اللطيف مصافحا: «البرنامج ينقل في بث حي، واللغة المستخدمة هي العربية. أرجو ألا يكون لديك اعتراض على هذا».

وافق عبد اللطيف بإيماءة من رأسه، ثم سأله قائلا: « هل لك أن تعطيني فكرة عن الجمهور الذي سيشاهد هذا الحوار؟».

قال المذيع وهو ينظر إلى ساعته: « الحصة تُبث في جميع أنحاء العالم إذا ما حضر الطرف الثاني ووجد متسعًا من الوقت».

سأله عبد اللطيف وقد أحسّ بنفسه كالمُقعد من فرط الرعب: «من هو الطرف الآخر؟».

قال الإعلامي: «إنه السفير السوداني والحوار سيُنقل في بث حي».

بعد قليل، ظهر رجل قصير متأنق يرتدي بدلة فاخرة رافقه إلى داخل الأستديو حارسان شخصيان كأنهما من المصارعين الشداد الغلاظ تدلى من أذن كل منهما شريط رفيع لجهاز الالتقاط والإرسال. جلس السفير إلى جانب عبد اللطيف وحياه بإيماءة من رأسه دون أن ينظر إليه.

أعطى رجل يقف خلف الكاميرا إشارة انطلاق البث الحي.

نظر المذيع مباشرة نحو الكاميرا. وبعد كلمة الترحيب بالسادة النظارة وتقديم ضيفيه الكريمين، توجه بالكلام إلى عبد اللطيف وقال:

«هل لك أن تحدثنا بعجالة عن فحوى الكلمة التي وجهتها اليوم إلى الحكومة البريطانية؟».

شعر عبد اللطيف للحظة أن عجلة الزمن قد توقفت عن الدوران وأن الكلمات تختنق في حلقه، ثم سرعان ما انحلت عقدة لسانه، فمضى يقول: «لقد أثبت النظام الحاكم في السودان المرة تلو الأخرى أنه لا يفي بالالتزامات التي يقطعها على نفسه».

تنهد السفير متبرما، وقال: «هذا الفتى عميل للصهاينة الذين يريدون غزو السودان وتحقيق أطماع الولايات المتحدة التي تريد الاستيلاء على ثروتنا النفطية».

أدرك عبد اللطيف أن السفير لا يريد مناقشة حججه، فقرر أن يخاطبه بالطريقة التي أرادها، فأجابه قائلا: «معظم أفراد أسرتي قتلهم عساكركم بأمر من حكومتكم ضمن خطة شاملة لتطهير دارفور من سكانها الأصليين وإبادتهم وقطع نسلهم».

قال السفير: «جميع تمويلاتكم تتلقونها من الكيان الصهيوني، وهذا جزء من الخطة الامبريالية الكبرى التي تستهدف الشعوب المسلمة المقهورة لأن الولايات المتحدة تضمر لنا الشر وتريد تدميرنا».

قال عبد اللطيف وهو يفرش ذراعيه منكرا عليه قوله ذلك: «أتسمى مسلما من يرسل عساكره لاغتصاب نسائنا. إنكم بهذا الصنيع تدوسون على أبسط تعاليم دينكم وديننا السمحة».

قال السفير بلهجة حاول أن تكون رقيقة ولكنها جاءت خالية من أي تعاطف: « دعك من الأكاذيب والأراجيف، لقد بدأوا بفلسطين، ثم

أفغانستان، فالعراق، والآن جاء الدور على السودان لأننا نرفض الانصياع للإملاءات الأمريكية».

قال عبد اللطيف: «رفضكم الانصياع للإملاءات الأمريكية هو الذي جعلكم تطردون بن لادن. لذا، أرجوك لا تتحدث عن نضالكم ومناهضتكم للولايات المتحدة دفاعا عن المستضعفين في العالم».

غير أن السفير لم يرف له جفن.

سأل الإعلامي عبد اللطيف عن العمل المطلوب لتسوية المشكلة.

نظر السفير في ساعته بينما تلا عبد اللطيف جملة التدابير التي سبق أن اتخذها مجلس الأمن وظلت حبرا على ورق. وقال: «إنه لا بد من فرض حظر السفر على كبار مسؤولي النظام الفاسد».

قال السفير وقد بدأ عليه الامتعاض الشديد وارتجفت شفته السفلى: «ما هذا الطلب الجائر؟!».

قال عبد اللطيف بلهجة المنتشي بالنصر: «لم يستفزك اغتيال أطفال مسلمين ولكن أزعجك اقتراح يحرمك من السفر للتبضع في باريس، وأظن أن هذا هو الهاجس الوحيد لرجال حكمكم».

أعلن المذيع اِنتهاء الحوار وشكر ضيفيه على الحضور.

وعندما خرج عبد اللطيف من الأستوديو، تفاجأ بشجاعته وشعر برجفة تسري في أوصاله، غير أنه وجد في جيليان وساندرين صديقتين جديدتين يشد بهما أزره حيث إنهما غمرتاه بآيات الإعجاب والثناء. ولاحظت زهرة كيف أن أخاها أخذ يمشي واثقا من نفسه ومنتصب القامة من جديد لأول مرة منذ زمن طويل.

رافقت جيليان وساندرين عبد اللطيف وأخته زهرة إلى محطة الحافلات، وفي الطريق إليها، انهالت الفتاتان على عبد اللطيف بسيل من الأسئلة التي تولت أخته نقلها إليه مترجمة إلى لغتهما. فلقد طرحتا عليه عدة أفكار للاستفادة منه وكسب تأييد الرأي العام في بريطانيا والاتحاد الأوروبي والبلدان الإسلامية للتعريف بقضية دارفور. وأحس عبد اللطيف وهو يركب الحافلة ويلوح بيده مودعا للفتاتين بأنه يسبح في عالم من الأحلام شرّعت أبوابه على جميع احتمالات الأمل والتفاؤل. فحدث أخته قائلا وقد أخذت الحافلة تتحرك: «يا لهما من فتاتين! ويا لغزارة أفكارهما العملية، ترى هل سنراهما ثانية؟».

ضحكت زهرة وقالت: «إنكم مقبلون على عمل كبير، وأراهنك أنهما سيتصلان بك غدا».

ولم يسع عبد اللطيف إلا أن يشعر في الأخير بالرضا عن نفسه، فافترّ ثغره عن ابتسامة عريضة وخاطب أخته قائلا: «كم أنا سعيد، والله!».

وفي صبيحة اليوم التالي، أفاق عبد اللطيف حوالي الساعة السابعة على رنين هاتفه الجوال. كانت المكالمة من محطة إذاعية من القاهرة. سمع صوتًا يقول على الخط: « ساندرين هي التي أعطتني نمرة تلفونك، هل يمكنك إجراء مقابلة معنا نبثّها في اتصال مباشرعبر الهاتف؟».

قال عبد اللطيف: «متى تريدونها؟».

قال المتكلم على الهاتف: «الآن».

فكّر لحظة في أهله الذين استيقظوا الآن في مخيماتهم التعيسة فزعين مما يخبئه لهم يوم جديد، فأجابه قائلا: «حسنا»، ثم نهض واستوى واقفًا.

وبعد ساعتين رن الهاتف من جديد وكان المتحدث هذه المرة يمثّل أقصى ما كان عبد اللطيف يحلم به. فلقد طلب منه محدثه ما إذا كان بإمكانه القدوم إلى الأستديو الإقليمي لمحطة بي. بي. سي. العالمية في دونكستر لإجراء المقابلة معه في موعد بث النشرة الإخبارية.

ولم يمر أسبوع حتى أصبح عبد اللطيف يتحدث إلى وسائط الإعلام مباشرة عبر الهاتف ما لا يقل عن مرتين يوميا مساهمًا في ذلك في تحديد ملامح المادة الاخبارية لوسائط الإعلام العربية في العالم، وأصبح يحرر مقالات تنشر على الصحف العربية.

ولقد قالت عنه ساندرين لزهرة في إحدى مكالماتها التليفونية المنتظمة معها: « هو اِبن دارفور البار، وأهل مكة أدرى بشعابها، وهو خير من يتحدث عن قضية دارفور ويدافع عنها دون كلل ولا ملل، ولقد جاء ليسدّ فراغا كبيرا. كنا بحاجة إلى صوت فصيح وصادق صاحبه يكون دارفوريا لحما ودما؛ يرى الصورة بكاملها ويستطيع تحليل الوضع تحليلا سياسيا سليما».

قالت زهرة: «عظيم كل هذا، لقد بدأ المقام يطيب له في هذا البلد» قبل أن تضيف قائلة: «وهذا لا يعني بطبيعة الحال أني أعترض على بقائه هو أو غيره في بريطانيا».

قالت ساندرين: « لا عليك، أنا متأكدة من حنينه إلى العودة إلى وطنه، ولكن ماذا عنك، أنت؟».

قالت زهرة وقد شعرت كما لو أنها تتنكر لوطنها باعترافها بأنها سعيدة بوجودها في إنكلترا: « أحب ارتياد المدرسة وأريد أيضا مواصلة تعليمي الجامعي».

قالت ساندرين وكأنها تتحدث عن أمر بديهي وتحصيل حاصل: «طبعا، وماذا ستدرسين في الجامعة؟».

قالت زهرة: « الفن المعماري» وكانت تخشى في سرها أن يثير خيارها السخرية، إذ كيف لفتاة مثلها نشأت في كوخ من الطين في قرية في الفلاة أن تحلم بتصميم عمارات شاهقة. قالت ساندرين: «اختيار عظيم». ابتسمت زهرة ابتسامة عريضة. غير أن مزاجها الرائق لم يعمر طويلا. فلقد تلقت في صبيحة اليوم التالي رسالة تبلّغ أسرتها بفتح باب النظر في طلب اللجوء الذي قدمته وتطلب منها تقديم مستندات أخرى والحضور لدى مكاتب دائرة الهجرة لإجراء مقابلة مع موظفي الدائرة.

قال عبد اللطيف وهو يحرك رأسه متطيرا: « هكذا بدأت نهاية إسماعيل».

***

أبت زهرة إلا أن ترافق أخاها لمقابلة المسؤولين في دائرة الحدود في المملكة المتحدة لعلمها أن لغته الإنكليزية لا تسمح له بإجراء مقابلة مباشرة تجمعه مع مسؤول وجها لوجه. ولقد ورد في الرسالة التي

وجهتها دائرة الحدود إلى أسرة زهرة أن الدائرة تتعهد بتوفير خدمات الترجمة لمن لا يجيد الإنكليزية. غير أنّ البعض حذرهما من الاطمئنان إلى هذا التعهد، إذ حدث في حالات كثيرة أن ذهب بعضهم لإجراء المقابلة ولم يجد مترجما. بل، وفي أحسن الحالات، كانت الدائرة تأتي بشخص يتكلم العربية بلهجة غريبة عنهم تكاد تستعصي على الفهم. ثم إن عبد اللطيف كان على علم بأنّ الدائرة لم تتورع عن استخدام الحيلة، إذ رحلت عدة أسر بأن استدرجتها إلى التوقيع دون بيّنة على استمارة إعلان قبول عودتها الطوعية إلى السودان.

أحس عبد اللطيف وزهرة بتوجس ما إن دخلا غرفة المقابلات. فالمسؤولان اللذان حياهما كانا رجلا ملتحيا وامرأة تحمل نظارة وكلاهما إنكليزيان من سكان المدينة وكانا يجلسان وراء مكتب عليه كومة من الملفات المجمعة في مجلدات ضخمة. غير أنه كان هناك في جانب من الغرفة رجل يحمل شاربا كثًّا وعرفا على الفور من سحنته التعيسة أنه مثلهما من السودان. وعرفا من المرأة صاحبة النظارة أن اسمه الصادق وأنه سيتولى الترجمة. ولقد تبسم الصادق في وجههما ابتسامة صفراء.

قال الموظف الإنكليزي الملتحي: « الرجاء ذكر بلد الجنسية والأسباب التي تدعوك إلى اعتبار أنه تتوفر فيك شروط نيل حق اللجوء إلى بريطانيا».

ترجم الصادق الجملة وأضاف من عنده: «وإياكم أن تعرّضوا أهاليكم في دارفور إلى الخطر إذا ما نقلتم لهما أكاذيب عما يحصل هناك».

ارتدت زهرة في مجلسها من هول المفاجأة.

ووجدت نفسها تقول للمرأة: « هذا الرجل يعمل في السفارة السودانية، أليس كذلك؟» فوجئت المرأة بسماع زهرة تتحدث الإنكليزية بطلاقة.

قالت المرأة: «وما العيب في أن يكون موظفًا في السفارة؟».

قالت زهرة: «حكومته تمارس التطهير العرقي ضد شعبنا».

ضحكت المرأة وكأنها تعيب على زهرة مبالغتها في تشخيص الحالة وقالت: «كلكم من أبناء بلد واحد، أليس كذلك؟».

قالت زهرة: «نحن من دارفور، وهذا الرجل يتعامل مع نظام الحكم في الخرطوم».

قالت المرأة: «بلى، وهو هنا معنا ليساعدنا على معرفة الأسباب التي تدعوكما إلى الامتناع عن العودة إلى دارفور وعلى تقييم مدى صحة مزاعمكما».

كررت زهرة سؤالها قائلة: «هل يعمل في السفارة السودانية؟».

قالت الموظفة بتبرم وهي تستعجل الدخول في صلب الموضوع: «نعم، يعمل في السفارة».

قالت زهرة: «إنه يمثل نظاما آل على نفسه أن يطرد كل من لا يؤيده. عيون النظام يسيطرون على كل شيء: القانون، وفرز المرشحين للذهاب إلى الكلية، أو الحصول على عمل».

قالت الموظفة وهي لا تخفي غضبها: « أرجوك، الصادق معنا ليساعدنا على تجهيز طلبكما. وليس ثمة في هذا ما يثير الشبهات».

قالت زهرة: «لقد هددنا وهو يترجم كلامك».

قال الصادق: « هذا هراء في هراء، إنهما يعمدان إلى المراوغة لتفادي الإجابة عن الأسئلة».

قال الموظف الملتحي: « أدعوكم إلى ملازمة الهدوء، السفارة السودانية تساعدنا على تقييم مدى وجاهة أسباب طلبات اللجوء. وبما أن الصادق ليس من دارفور، فلا ضير في الاستعانة به».

قالت زهرة وقد علا صوتها: «ولكنه يمثل نظام الخرطوم. وهو نظام شمولي كما كان نظام طالبان في أفغانستان».

حرك الصادق رأسه وكأنه يعتذر لموظفي الدائرة وهو يقول: «طبعا هذا ليس صحيحا، لا خطر عليهما من العودة إلى البلد، والحقيقة أنهما يريدان البقاء هنا لأسباب اقتصادية، فهما يعرفان أنّ فرص الكسب الوفيرة متاحة هنا، ويؤسفني أن أبلغكما أنهما كاذبان في مزاعمهما».

قالت زهرة وقد شعرت بأن رأسها سينفلق: «أرجوكما، هل تعلمان ما الذي يحصل في دارفور؟».

قالت الموظفة وهي تهز برأسها: « هناك آلاف الآشخاص في المخيمات، ونحن نتفهم الدواعي التي تدفعكما إلى الفرار من هناك. إنها كارثة إنسانية، ولكن الحالة مختلفة في الخرطوم عما عليه هناك».

قالت زهرة: «المسؤولية تقع على الإسلاميين الذين يفرضون بالقوة قوانينهم المستمدة من قراءتهم المتشددة للشريعة الإسلامية، فمنظومة القوانين هناك منافية للديمقراطية وغير محايدة».

ومضت زهرة محاولة إقناع الموظف الملتحي: «للاسلاميين خطة مبيتة لنشر هذا العنف في كامل أنحاء أفريقيا، بل والوصول به إلى أوروبا».

قال الصادق وهو يحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال تكذيبا لكلامها: « هناك حرب أهلية بين القبائل في دارفور، قبائل تمارس الزراعة وأخرى من الرحل، والنزاع بينها على الأراضي والمياه. وهذه القبائل متصاهرة في ما بينها وهذه الحال لا تزال مستمرة منذ قرون طويلة».

قالت زهرة وهي تكاد تنفجر بالبكاء وتنتقل نظراتها بين وجهي الموظفين على أمل إقناعهما: «النظام هو الذي يؤجر العرب الرحل ويؤلبهم علينا وأعتقد أن هذا الأمر لا يخفى عنكما».

قال الموظف الملتحي بصوت هادئ وهو يقلب أوراق ملفهما: «لا ألومكما على سعيكما من أجل البحث عن عمل هنا، ولكن هذا أمر لا يجيز طلب اللجوء هربا من الاضطهاد».

وقلبت الموظفة عينيها وهي تنظر في ملفهما.

وفي أثناء ذلك، ركّز الصادق نظراته على عبد اللطيف قبل أن يخاطبه بالعربية قائلا: «ما هي القبيلة التي تقول إنك منها؟».

أجابه عبد اللطيف بلغته المحلية ليثبت له صدقه.

قال الصادق وقد التفت نحو الموظفين محركا رأسه حركة خفيفة علامة النفي: « لا يتكلم لغة القبيلة التي يزعم أنه منها، وأشكّ في دعواهما بأنهما من أبناء القبيلة التي يقولان إنهما منها». تردد لحظة،

ثم أضاف قائلا وقد زمّ شفتيه: «إنه لشيء مؤسف بالنسبة لبلدي أن يأتي مثل هؤلاء الرهط ليستغلوا طيبة قلب وسخاء الشعب البريطاني».

ترجمت زهرة لأخيها أقوال الصادق، فلم يتمالك نفسه وأمطره بسيل من العبارات باللغة العربية.

واصل الصادق قائلا بالإنكليزية: «إنه لمن دواعي الحزن أن يدعي أحدهم أنه من قبيلة ولا يجيد لغة أهلها».

نقلت زهرة قوله إلى عبد اللطيف بسرعة. فردّ عليه عبد اللطيف وترجمت زهرة ردّ أخيها فقالت: «إنه يقول بإمكاني إحضار شهود من الجالية الدارفورية هنا وسيقسمون بأني أقول الصدق. وبإمكاني أن أقدّم رسائل موقّعة منهم يشهدون فيها على أني من القبيلة التي ذكرت أنّي منها».

قال الموظف الملتحي وهو يدق على الملف الذي أمامه: «نحن لا نحتكم إلى كل من هب ودب للتدقيق في انتماء من نريد التحقق من انتمائه لهذه أو تلك القبيلة، والصادق هو مرجعيتنا الوحيدة التي نحتكم إليها ولنا معاييرنا الخاصة بنا التي نعتمدها لهذا الغرض».

قال عبد اللطيف وزهرة تترجم ما يقوله: « ولكنه ليس حكما محايدا».

قال الموظف متنهدا: «عدنا إلى الخانة الصفر».

وسألته الموظفة قائلة: «هل لديك ما يثبت زعمك؟».

قال عبد اللطيف: «لقد ضاع منّا كل شيء يوم هاجمنا الجنجويد».

قالت الموظفة: «ليس لديك إذن أسانيد تؤيد روايتك؟».
قالت زهرة: « هذا أمر ينطبق أيضا على سائر اللاجئين، أليس كذلك؟».
نظر الموظفان في الملاحظات التي دوناها ولم يعقبا على قول زهرة.
تنحنح الموظف الملتحي ثم طفق يقول بلهجة خالية من نبض الحياة: «نرفض طلب اللجوء لعجزكم عن تقديم ما يثبت أن عودتكم إلى الخرطوم تعرضكما للخطر بشكل أو بآخر. بإمكانكم استئناف هذا القرار والطعن فيه، وشكرا». ثم نظر إليهما وابتسم في وجههما ابتسامة فاترة وأغلق الملف.
وجدت زهرة نفسها بعد قليل تسير في الطريق رفقة أخيها عبد اللطيف وهما لا يقويان على الحديث من هول الصدمة. وسارا إلى محطة الحافلات وقد احدودب ظهريهما من شدة البرد. وأحست زهرة بقطرات من ماء المطر قد علقت بجفنيها ولكنها لم تنطرها تجنبًا لتعريض يدها للفح الصقيع. ووقفا قرب موقف الحافلة يراقبان سحب الدخان المنطلقة في الهواء مع كل نفس من أنفاسهما في مشهد كلما رأته زهرة أثار دهشتها.
قالت زهرة: « اعتقد أن الأوان قد حان لبحث سبل المغادرة إلى نيوجرسي، إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا».
قال عبد اللطيف مستسلما: «أعتقد ذلك أيضا».

وبعد الظهر، استجمعت زهرة شجاعتها وهاتفت راكيل في نيوجرسي. وكانت قد بعثت لها رسالة بعد وصولها بقليل إلى دونكستر، ثم ظلتا على اتصال عن طريق البريد الإلكتروني الذي كانت زهرة تستخدمه في مكتبة المدرسة. ولقد اضطرت زهرة إلى إجراء هذه المكالمة الباهضة الثمن بالنسبة لها لأن الموضوع كان عاجلا ويتطلب التحرك بسرعة لأنه في حالة ما رفض الطعن في قرار دائرة الهجرة، فستتولى السلطات البريطانية ترحيلها هي وأفراد أسرتها في إطار حرص الحكومة البريطانية على المسارعة بتنفيذ سياسة التخلص من المهاجرين غير الشرعيين.

لم يكن غريبا على راكيل أن تتلقى اتصالات من أناس من دارفور بحكم نشاطها في حملة «أنقذوا دارفور»، غير أنها لم تكن تتوقع اتصالا من إنكلترا. اعتذرت زهرة لها على الإزعاج وحاولت أن تشرح لها الوضع بوضوح ودون إطالة.

قالت راكيل: «حسنا، مجموعتنا هنا، ساعدت بعض أبناء دارفور على نيل الإقامة في الولايات المتحدة، وبإمكانك تقديم طلب لجوء وأنت لا تزالين في إنكلترا، وأعتقد أنه بإمكانك الحصول على اللجوء أنت وأفراد أسرتك لأنكم إذا عدتم إلى دارفور، فستكون حياتكم في خطر».

قالت زهرة: «وهو كذلك».

قالت راكيل: «يمكنكم أن تقولوا إنكم تعرضتم بالفعل للاضطهاد لا لشيء إلا بسبب أصلكم العرقي، أليس كذلك؟».

قالت زهرة: «هذا صحيح».
قالت راكيل: « حسنا، نبدأ من هنا إذن. سأرسل إليك الرابط الإلكتروني لدخول موقع دائرة الجنسية والهجرة في الولايات المتحدة، ويمكنك استجلاب الاستمارات وتقديم الطلب إلى أقرب قنصلية للولايات المتحدة في بريطانيا.
استحسنت زهرة ما أشارت راكيل عليها أن تقوم به وشعرت بتشتت ذهنها بين كل هذه الجزئيات الدقيقة التي يتعين عليها استيعابها.
واصلت راكيل قائلة: «وسأشرع في جمع المال اللازم لتسديد ثمن تذاكر السفر، هل اتفقنا؟».
قالت زهرة: «كم أنا آسفة».
قالت راكيل: «كم عددكم؟».
قالت زهرة: « أربعة، أنا وأمي وأخويا عبد اللطيف والصغير يوسف».
قالت راكيل: «ماذا عن قريبتكم، ذكريني باسمها؟».
قالت زهرة: «صفية ستمكث في إنكلترا، لقد اجتازت الامتحانات المؤهلة للالتحاق بكلية لندن للعلوم الاقتصادية».
قالت راكيل: «سنجد أماكن لكم هنا».
قالت زهرة: «جميل منك أن تساعدينا على هذا النحو، سنجد عملا وسنستأجر مسكنا بأقرب وقت».
قالت راكيل: «ستذهبين إلى المدرسة، يا صغيرتي».

قالت زهرة: «أستطيع العمل بعد الدوام المدرسي وفي عطلة آخر الأسبوع».
قالت راكيل ضاحكة: «يعجبني تفكيرك هذا، ستكونين مثالا جيدا لاِبني واِبنتي».
وعدتها زهرة أن تملأ استمارة طلب اللجوء فورا وشكرتها مرة أخرى قبل أن تودعها.
وقالت وهي تبتسم لنفسها ابتسامة عريضة: «جداه، يبدو أننا سنذهب إلى أمريكا».

الفصل الرابع والعشرون

المكان: مخيم الجنينة
الزمان: آذار/ مارس 2007

حدث ذلك بعد وقت الغداء مباشرة عندما كانت الشمس في عز أوارها وكان الناس يتفيئون الظلال هربا من حرارتها. فلقد كانت حواء على وشك الانتهاء من تحرير تقرير إلى رؤسائها في هولندا عندما سمعت هدير محرك مركبة توقفت خارج خيمة العيادة. أحست بارتياح لتخلصها - ولو إلى حين - من واجب إداري ثقيل، ولكنها

ظلت متخوفة ومتحفزة لاستجلاء هوية القادم المجهول الذي لم تهب لاستقباله كما هي عادة أهلها التي غيرتها الحرب كما غيرت فيهم أشياء عديدة أخرى. فمن يدريها ألا يكون القادمون لصوصا مسلحين لا رادع يردعهم إن عبثوا بالعيادة وعاثوا فيها فسادا.

ارتفع غطاء مدخل الخيمة، فظهر افرنجييان يرتديان زيا نظاميا. كان أحدهما يتكئ على كتف زميله الأصغر منه إذ لم يكن مثله قد غزا الشيب مفرقيه. ورأت حواء أن ذراع الرجل الذي كان يحجل في مشيه قد ضمدت بقماشة لُفت حولها كيفما اتفق.

هرعت حواء نحوهما وأرشدتهما إلى سرير شاغر في جناح الرجال. وكم كانت دهشتها عندما حياها الرجل المصاب باللغة العربية بصوت منهك ولكن بتأدب. رفع زميله الساق التي كان يحجل بها المصاب وأجلسه برفق على السرير. لاحظت حواء أن سرواله قد مزقته شظايا قذيفة وأن ساقه كان ينزف منها دم من أكثر من ثقب وفتحة.

أصدرت حواء جملة من التعليمات إلى المتطوعين العاملين معها، وشرعت مباشرة في إسعاف المصاب. قصت الضمادة وتفحصت عمق الثقوب. ثم انتبهت إلى الشاب الذي ظل واقفا جانبا وهو على أحر من الجمر من شدة القلق، فخاطبته قائلة: «من فضلك، أريدك أن تحكم شدّ أعلى موضع الجرح في ذارعه برباط يبطئ الدورة الدموية».

نظر إليها وقلب راحتيه وهز كتفيه متسائلا.

قال الرجل المصاب وقد أجفل متألما عندما نزعت عنه القماشة التي كانت تلف موضع الإصابة، فانتزعت القماشة معها بعض دم قد تجمد والتصق بها: «هو لا يتكلم العربية». ثم أخذ نفسا، وفسر بالإنكليزية لزميله المتحرق قلقا ما طلبته منه حواء، فأومأ الشاب برأسه واستجاب لطلبها.

ثم سألت حواء الرجل المصاب أن يطلب من زميله إحضار ماء ساخن».

رجع الجندي الشاب بعد قليل وهو يحمل وعاء مملوءًا ماءً ساخنًا نظفت به حواء مواضع الجروح في ذراع الرجل وساقه؛ الجرح تلو الآخر.

ثم طلبت من الرجل المصاب أن يشيح بوجهه وأن يتجنب رؤية نتف الشظايا التي ستلتقطها من داخل الثقوب والفتحات. وأعربت له عن أسفها لعدم وجود مسكنات للألم في العيادة باستثناء دواء وحيد يمنع تخثر الدم.

أشاح الرجلان بناظريهما عندما شرعت حواء في استخدام الكحول لتطهير الإصابات ورتق الثغرات والفتحات الواحدة تلو الأخرى. وفي أثناء ذلك، كان العرق يتصبب من جبين المريض وكانت تصدر عنه رعشة كلما غرست حواء إبرتها في جلده.

قالت حواء وهي تحاول أن تشد انتباه مريضها إليها خشية أن يغيب عن الوعي: «لدينا نقص كبير في هذه المواد» قبل أن تضيف بلهجة لا تخلو من الدعابة: «وأتوقع أن نستلم غدا بعض المضادات التي

ستسمح لي بأن أعالج أي تعفن غير مرحب به. إني أحاول أن ألهيك عن الألم بالحديث معك ولا بأس إذن من أن أسألك كيف تعلمت اللغة العربية والحال أنه يبدو من سحنتك أنك أمريكي».

قال: «لم أكن أعرف أن جنسيتي مرسومة على جبيني».

قالت: «صوتك يذكر بأصوات مذيعي محطة صوت أمريكا».

أغمض المريض عينيه وضحك ضحكة عذبة.ثم قال«أنا من الشرطة المدنية» وشرح لها أنه من ضباط وحدة للشرطة المدنية تعمل في دارفور وهي تابعة لوحدات أمريكية تعمل خارج الولايات المتحدة، وأن وحدته أُلحقت في الآونة الأخيرة بقوة البعثة المشتركة بين الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي المتعارف عليها باسم يوناميد».

صدرت عنه رجفة بعد أن انتهت حواء من رتق ثقب غائر. ثم لم يلبث أن أضاف قائلا: «وأتكلم قليلا من العربية لأني عملت ضمن قوات الأمم المتحدة في لبنان».

قالت حواء مداعبة إياه دعابة أدخلت عليه البهجة: «ولكنك ما شاء الله تتحدثها بأفضل مما يتحدثها رئيس السودان».

تأوه من أثر الإبرة التي انغرست في جلده من جديد وقال: «في هذه اللحظة، هو أبعد من أن يكون صديقي».

نظرت إليه حواء مرتبكة، فلمحت في عينيه بريقا ينمّ على أنه يمزح معها.

قالت وهي تلاطفه: «حقا؟ هل لاعبته في كرة السلة وغلبك؟».

قال: «شيء من هذا القبيل، أصدقاء له أطلقوا علينا هذا الصباح عدة قذائف». أشار إلى جروحه واسترسل قائلا: «نظريا نحن نعمل سويا إلى جانب القوات المسلحة السودانية».

نظرت إليه حواء فإذا بعينيه ترمشان وخُيل لها أنه سيغيب عن الوعي.

تعمدت مواصلة الحديث معه لكي لا يغيب عن الوعي، فسألته: «ما الذي حدث؟».

قال: «خرجنا مع أفراد بعثة يونيميد للتحقق من ملابسات هجوم على قرية باتجاه الغرب غير بعيدة من هنا، أنا ودجيف»و أشار إلى زميله الذي كان يراقب إبرة حواء وقد استبد به الفزع وازداد لون وجهه شحوبا، وأضاف قائلا وقد أغمض عينيه: «وفجأة سقطنا في كمين نصبه الجنجويد، فانسحبنا، غير أننا في انسحابنا أصابتنا شظايا قذائف أطلقها أفراد من القوات السودانية المسلحة التي أنكرت جملة وتفصيلا أن يكون جنودها هم من أطلقوا النار».

أخذ نفسا وفتح عينيه مرة أخرى وظل ينظر إلى وجه حواء. ثم قال: «بالمناسبة، لا بد أن أفسر لك سبب وجودنا هنا، صدقي أننا لا نمتلك أي لوازم طبية، وأنه ليست لدينا عيادة نذهب إليها. وبل ونكاد لا نملك ما يكفي من المؤونة والوقود!».

نظرت إليه حواء متعجبة وسألته: «أفهم من كلامك أن الحالة في لبنان تختلف عما عليه هنا؟».

ظلت للحظة تتفحص عينيه مأخوذة بزرقتهما وظلالهما المتراقصة وتذكرت كيف أن من الأعين الزرقاء ما لا يوحي إلا بقسوة أصحابها خلافا لهذا الشخص الطيب القلب. وتساءلت في سرها ما إذا لم يكن انطباعها الإيجابي عنه ناتجا عن كبر سنه وعفويته ومعنوياته العالية بالرغم من الجروح التي أصابته.

فوجئت بنفسها ترفع الكلفة معه وتسأله عن اسمه.

قال: «بيل».

قالت: «اسمي حواء» وابتسمت له وهي تتفادى أن تنظر إليه في عينيه. ثم أضافت قائلة: «لقد جادت عيادتنا بما عندها لاسعافك ولكن لا بد لزميلك من أن يحجز لك مكانا على طائرة إلى نيروبي وهناك يمكنهم علاجك».

قال: «صدقيني، أنا ممنون لك جدا». ثم التفت إلى زميله ونقل إليه ملاحظات حواء وطلب منه أن يذهب إلى خيمة الأمم المتحدة، فالمسؤولون هناك على علم بما حدث.

قال بيل محدثا حواء عن زميله: «هذه أول بعثة له وما كان ليخطر على باله، المسكين، أن النظام يحاول جاهدا عرقلة عملنا».

قالت حواء وهي تمسح حبات العرق من على جبينه الذي صهدته الشمس: «صدقني مساهمتكم وقدومكم إلينا يمثلان بالنسبة لنا علامة فارقة وعاملا حاسما. فلولاكم ولولا بعثة يونيميد، لما كُتبت لنا النجاة ولقصفوا هذا المخيم منذ أشهر عديدة».

قال: «كانوا يقولون لنا هذا الكلام في البوسنة أيضا».

قالت: «ذهبتَ إلى البوسنة أيضا؟ حدثني كيف كانت الحالة هناك؟».
تنهد بيل وقال: «أطلق الصرب لأنفسهم العنان فعاثوا في البوسنة قتلا ونهبًا واغتصبوا النساء تمامًا كما يفعل العساكر هنا».
بحثت حواء عن عينيه وقد شعرت بقشعريرة تسري في نخاغها الشوكي. وأخذت لها نفسا عميقا ريثما تهدأ دقات قلبها وقالت: «تماما كما يحصل هنا»، ثم حولت اهتمامها نحو ذراعه. وتساءلت في سرها ما إن إذا كان يعرف أنها هي نفسها ضحية لمثل هذه الاعتداءات. ثم سرعان ما حركت رأسها علامة الأسف والتأسف وقالت: «واصل الحديث، أرجوك!»، لقد جاء دوري لكي أخفف عن نفسي أثر الألم الذي أراه من حوالي.
قال: «لا تخافي ولا حاجة لك بتشجيعي على الحديث فلست على وشك أن أغيب عن الوعي».
قالت مبتسمة: «أحب أن أستمع إلى لغتك العربية الممتازة، كم مكثت في لبنان؟».
قال وهو يبادلها ابتساما بابتسام: «أربعة أعوام، تزوجت فيها اِمرأة من أهل البلد،؛ محامية من بيروت».
قالت وهي تنظر إليه بخجل: «هذا هو السر إذن وراء إجادتك للغة العربية، هل لديكما أطفال؟».
قال: «لديّ ولد يافع من زواج أول وأنا محظوظ لأنه ما زال على اتصال بي، وماذا عنك؟».

قالت وهي تتجنب النظر في عينيه وتجمع من فوق سريره الخرق المخضبة بالدم: «لدي رضيع بهي الطلعة اسمه أحمد».
قال: «بارك لك الله لك فيه».
وعندما أحست حواء بالشاب يقترب من المريض، تراجعت إلى الخلف وأخذت معها الخرق ونتف الشظايا وذهبت للتخلص منها، فاقترب دجيف في الأثناء من زميله محاذرا وسأله وكأنه يتوقع أن يجده قد فارق الحياة، وسأله: «بيل، هل أنت بخير؟».
أجابه بيل: «أحسن بكثيرا أنا بخير خلافا لتوقعاتي».
قال دجيف وهو يقلب عينيه: «لدي خبر سيء جدا».
سأله بيل وهو لا يزال هادئا: «ماذا تقول؟».
قال دجيف وهو يجلس إلى جانبه على سريره: «تجلد»!
قال بيل: «لم أتجلد في حياتي بمثلي تجلدي الآن».
قال دجيف: «الرحلة القادمة إلى نيروبي بعد ستة أيام».
قال بيل: «حسنا!».
قال دجيف: «كيف تقول حسنا؟».
قال بيل: «المضادات تصل غدا، وسأكون هنا بخير ما لم تر حواء خلاف ذلك».
نظر إليه دجيف مشدوها.
خاطبه بيل قائلا: «عد أنت إلى مقر القيادة قبل أن يحل الظلام!».
قال دجيف: «كيف أذهب بدونك!».

قال بيل « أنا بين أياد أمينة جدا، أشعر أني بين يدي ابنتي التي لطالما تمنيت أن أنجبها ولا تسلني كيف حدث هذا، يمكنك الانصراف ولا تخشى عليَّ».

أجابه دجيف قائلا وهو يرمش جفنيه كأنه لا يصدق ما تسمعه أذناه: «لست مطمئنًا إطلاقًا».

صاح فيه بيل: «غادرْ قبل أن يحل الظلام وكن حريصا على إحاطة رجال الأمم المتحدة علما بالمسار الذي ستسلكه، وعلى شحن بطارية هاتفك الساتلي»!

قال دجيف: «نعم لقد شحنته ولكن».

كانت حواء قد عادت فخاطبها بيل قائلا: «الطائرة لن تعود قبل ستة أيام».

تقوس حاجباها وخاطبته قائلة: « أنت ممنوع من الصعود إلى مركبتك الرباعية الدفع إلى أن تلتئم جروحك».

قال: «ولكن، ألستم في حاجة إلى هذا السرير الذي أشغله؟».

قالت وهي تهزكتفيها: «ستتقاسمه مع شخص آخر في صورة ما إذا قدم إلى العيادة مصابون آخرون ولم نجد لهم العدد الكافي من الأسرّة، ومن حسن حظك أن العيادة ليست مكتظة بالمرضى في الوقت الحاضر». ثم ابتسمت وقالت: «ثم إنه لا ضير من بقائك معنا، فستجد متسعا من الوقت لتخبرني عن كل تفاصيل حياتك وعملك في مختلف بلدان العالم، وهو ما سيساعدني أيضا على تحسين لغتي العربية».

هزّ بيل كتفيه وخاطب دجيف وهو يبتسم قائلا وكأنه مقبلٌ على تناول فطور فاخر: «يمكنك المغادرة، إنها تقول يمكنني المكوث».
نهض الشاب متباطئًا وغير مقتنع، وعندما همَّ برفع غطاء الخيمة ليخرج، ولفحه حرّ الظهيرة، التفت إلى بيل وودّعه قائلا: «أتمنى لك حظا سعيدا أيها القائد».

الفصل الخامس والعشرون

المكان: معسكر للمتمردين، ولاية دارفور الغربية
الزمان: آذار/مارس 2007

سار رشيد ورفاقه مسافة إثني عشر ميلا ليصلوا إلى مكان معتم في غور كانوا قد ضربوا لهم فيه موعدا مع فصيل جبريل. ولقد استلم تي-بون يومها قيادة الكتيبتين في غياب جبريل الذي ألم به مغص منعه من المجيء. وصدرت إلى تي-بون الأوامر بأن يتولى هو ورجاله حماية قرية قريبة من موقع معسكرهم يُنتظر أن يهاجمها الجنجويد بين لحظة وأخرى. فلقد شرع سلاح الجو السوداني في قصف سلسلة من القرى الواحدة تلو الأخرى على امتداد شريط كامل باستثناء القرى التي سكانها عرب. وكان الدور سيأتي لا محالة على القرية المذكورة

التي كان شيخها تاجرا معتدا بنفسه واسع النفوذ والعلاقات ولم يكن أهالي قريته يترددون عن إيواء المتمردين وتقاسم زادهم معهم كلما قصدوهم رغم أنهم لم يجدوا منهم ما يقيم الدليل على عرفانهم بالجميل، وهو ما دفع بشيخ القرية إلى ابلاغ قيادتهم العليا باستيائه من هذا الجحود. ومن ثم، قررت القيادة إرسال تي-بون مع عدد من الرجال ليرابطوا قريبا من القرية مدة يومين أو ثلاثة أيام ذرا للرماد على الأعين وإرضاء لرغبة شيخ القرية الثري الذي لم تكن القيادة تريد أن تنقطع عنها «جمائله». كانت القرية شبه خالية من سكانها إذ فر معظمهم من ديارهم، ولكن كان ثمة حاجة إلى حماية ممتلكاتهم ومخازن حبوبهم التي تركوها وراءهم.

شرح تي-بون لرجاله الهدف من المهمة التي أوكلت إليهم، وهي أن يكمنوا خارج القرية والاستعداد لاعتراض الجنجويد ومنعهم من اقتحام القرية. استمع إليه جنوده ولم يبدُ عليهم أي انفعال. فلقد كانوا يغالبون أنفسهم لإخفاء خوفهم وراء العدسات السميكة لنظاراتهم السوداء. وقبل أن يندسوا جميعهم في مركباتهم القتالية، انتحى تي-بون برشيد بعيدا عن الآخرين.

تحدث تي-بون وهو يتصنع أن الموضوع الذي يريد مفاتحة رشيد بشأنه ليس ذا أهمية، فقال: « أريد رأيك في الاستراتيجية التي سنعتمدها لتنفيذ مهمتنا». وكان تي-بون قد دأب على الحديث معه منذ أن قدم رشيد للمتمردين المعلومة القيمة التي نقلها له جده الشيخ عصمان ليبلغها إليهم.

قال تي-بون وهو يومئ برأسه باتجاه أحمد: «أريت هذا الثرثار المغرور، لست أدري إن كان من الحكمة في شيء الإطمئنان إليه وهو الذي لا ينفك يحط من معنوياتنا باعتراضاته على أسلوبنا العسكري وتكتيكاتنا ويشكك في سلامتها، فما رأيك أنت؟».

زم رشيد شفتيه ولم يَحِرْ جوابا. غير أن تي-بون لم ينتظر ردا على سؤاله وواصل قائلا وقد احتد صوته: «أعتقد أن الأصلح له أن يمارس كرة القدم، بدل الاعتراض على كل كبيرة وصغيرة، وتقديم الدروس الأخلاقية لمن يريد أن يسمعه». ثم أضاف قائلا بإزدراء: «هو الإبن المدلل لجبريل الذي يحلو له أن يدعوه باسم اللاعب الإنكليزي الشهير بكهام».

لم يعقب رشيد على كلام تي-بون. ولم يدر ماذا عساه يقول، بل وخشي أن يكون تي-بون يريد امتحانه.

واصل تي-بون حديثه قائلا: «صحيح أنه عداء سريع. لذا، سأرسله إلى الأمام ليستطلع لنا الوضع ويأتينا بالخبر اليقين».

لم ترتسم على وجه رشيد أي علامات قد يستشف منها تي-بون أي إجابة أو رأي. فهل كان تي-بون ينتظر منه أن يعترض وأن يصارحه بأن إرسال أحمد على هذا النحو معناه الإلقاء به إلى التهلكة. وترى هل أن مستقبل رشيد مرهون بتأييد قرار قائده، أم هل أن تي-بون يريد أن يتقاسم رشيد معه أمام جبريل مسؤولية تعريض حياة أحمد للخطر ونسف كل الآمال التي عقدها جبريل على ابنه المدلل. شعر رشيد بنوع من الفزع وهو يزن أي جواب يجيب به قائده تي-بون.

اهتدى رشيد إلى الجواب أخيرا فقال: «أظن أن الأفضل في هذه الحالة الإصغاء لما يقوله لك حدسك».

نظر إليه تي-بون مليا من طرف إطاري زجاج نظارته السوداء وقال: «صدقت، سأرسله ليسبقنا ويستطلع لنا الوضع».

تنفس رشيد الصعداء، فقد كفاه تي-بون عناء الاختيار وصعد إلى المقعد الأمامي للمركبة القتالية وجلس بين تي-بون والسائق وهو المكان الذي بدأ يجلس فيه منذ اليوم الذي أصبحت لديه عند تي-بون حظوة اكتسبها باعتباره حفيد الشيخ عصمان.

عندما اقتربت مركباتهم من القرية وجدوا أن الجنجويد قد سبقوهم إليها وأغاروا عليها. فلقد حلقت طائرات سلاح الجو السوداني عدة مرات في سماء القرية وأمطرتها بوابل من القنابل. وشاهدوا من مركباتهم ستائر سميكة من الدخان تتصاعد من العشاش المحترقة وتناهت إلى أسماعهم لعلعة الرصاص الذي أخذ المهاجمون يطلقونه من فوهات مدافعهم الرشاشة.

أمر تي-بون السائق بالتوقف فورا. فلقد كان جميعهم يعلمون أن لعلعة رصاص الأسلحة الخفيفة مؤشر على أن الجنجويد قد شرعوا في اجتياح القرية وليس من المستبعد أن يكونوا مدعومين بعساكر الجيش السوداني.

قال تي-بون لرشيد: « لا قبل لنا بمواجهتم، فهم يفوقوننا عددا وعدة».

لم يكن رشيد يعرف كيف كان سيتصرف لو كان مكان قائده، فأومأ له برأسه ولسان حاله يقول: «نعم الرأي رأيك». وأحس رشيد بأن أجواء التوتر التي كانت تسود مركبتهم القتالية قد انقشعت فجأة بمجرد أن قرر تي - مون أن لا فائدة من خوض المعركة. ثم شعر بغضب شديد من نفسه عندما أدرك أنه كان مغتبطا في قرارة نفسه بقرار الامتناع عن القتال. فخاطب نفسه مؤنبا: «أي نوع من المقاتلين أنت، يا هذا؟».

قال تي - مون موجهًا كلامه إلى رشيد وكأنه يلقنه درسًا في فنون القتال: «نجاح أي هجوم لن يتحقق إلا متى امتلكت عنصر المفاجأة، كأن تهاجم عدوك عندما يكون قد أخلد للنوم، أو انشغل بتناول غذائه أو كان غافلا لسبب أو لآخر». وخطر لرشيد للحظة أن تي - مون يريد تأهيله بهدف ترقيته.

أضاف تي - مون قائلا: «ولكن لا يجب مهاجمتهم أبدا الآن. فهم في حالة فوران وهيجان لا يلوون على شيء». ثم أطرق برهة وراح يمصمص شفتيه ويقول بصوت مسموع مخاطبا السائق: «دعنا نبتعد عن الطريق الزراعي ونتوارى داخل تلك الأجمة وراء تلك الصخور».

أوقفوا مركباتهم في مكان مظلل وأطفأوا المحركات. رأى رشيد بعد ذلك بقليل تي - مون ينتحي بأحمد ويحدثه على انفراد ويصدر إليه تعليماته بأن يذهب لاستطلاع الوضع والرجوع بالمعلومات اللازمة عن عدد المهاجمين وعدتهم.

شاهد رشيد كيف حمل أحمد بندقيته وسار صوب مصدر إطلاق النار. لقد امتثل أحمد لأوامر قائده العسكري ولم يناقشه في الأمر رغم أن النجم الكروي لم يكن يجهل أنه ربما كان سائرا لملاقاة حتفه. تساءل رشيد عما إذا كان يستطيع أن يحافظ على هدوئه وكرامته ويتصرف على نحو ما تصرف به أحمد دون أن يترجى قائده أن يعفيه من تلك المهمة المجنونة. ظل رشيد يتابع أحمد بنظره تتنازعه مشاعر الغبطة والحسد تجاهه في نفس الوقت. وكان شعوره بضآلته بالمقارنة بأحمد لا يزال يلازمه، فيثور على نفسه ويتوجه إليه قائلا في سره باستخفاف: «انظر أيها الغبي إلى أين قادك غرورك واعتدادك بنفسك وعنادك وتهورك».

غير أن تهكمه على أحمد لم يدم طويلا، إذ سرعان ما غلب عليه شعوره بالنقص تجاهه، ووجد نفسه يقول: «لا أحد من أفراد أسرتي يقول الحقيقة. ولا أحد منهم يجرؤ على قول الحقيقة بسبب الأوتار التي نعزف عليها. لدينا الجاه والمال ولكن لا شرف لنا». وقفزت صورة حواء إلى خياله فلم يتمالك إلا أن صارح نفسه قائلا: «إنها تكرهني لأني أجبن من أن أواجه الحقيقة».

قال متنهدا «لا ألومها». ثم حمل سلاحه فجأة وقال: «ربما ما زال بإمكاني تدارك الأمر». وأخذ في اقتفاء خطوات أحمد وهو يقول في سره: «لا بد لي من أن أثنيه عما هو مقبل عليه». فلقد أدرك رشيد فجأة أن لا بد له من أن يفعل شيئا يكفر به عن ذنبه وألا يستسلم هذه المرة لصوت غريزته؛ يكفيه ما استسلم وانقاد لها».

سار رشيد منحني الظهر وكأنه يقلد مشية البطة وأمسك بندقيته بيد واحدة بعد أن جهزها للاستعمال. لم يستجب لتحذيرات تي - مون الذي كان يناديه بصوت أقرب إلى الفحيح مستنكرا عليه ما هو بصدد فعله.

فلقد أقر العزم على اللحاق بأحمد وسحبه من الخلف قبل أن يتفطن إليه العدو. لقد زين لنفسه أن هذا العمل البطولي سيشفع له نهائيا لدى أحمد وسيكسبه تقديره واحترامه إلى أبد الآبدين.

أسرع الخطى في مشيته الغريبة تلك، وإذ بوابل من رصاص مدفع رشاش يزخ الأرض أمامه. توقفت ساعة الزمن في ذهنه وظل مشدوها أمام مشهد ذرات التراب وهي تتراقص أمام عينيه في منظر مشهود.

ثم وكأنه انتُزع من عالم الغيب، أفاق فجأة، فانبطح أرضا وأخذ جسمه يرتعد وتملَّكه رعب شديد لم يسبق أن خبر مثله قط. ولعلع الرصاص من جديد وسمع خبطة على الأرض وتأوهات وأصوات أشخاص يتحدثون بالعربية، ثم تلا ذلك صمت رهيب.

تجمد رشيد في مكانه وأرهف السمع على أمل أن يلتقط ما يشي بأن العساكر قد انسحبوا. وسمع هدير سيارة جيب قادمة نحوه وتتوقف على بعد خمس وعشرين قدمًا من الدغل الذي كان متواريا داخله.

ثم سمع عساكر يقولون لبعضهم: «انظروا، إنه هناك ولا يزال حيا، لا تجهزوا عليه، نريد استجوابه».

فقد رشيد من شدة الخوف القدرة على التحرك وظل في مكانه مشلولا لا يقوى على النهوض والفرار. سمع تأوهات تلاها صوت يقول:

«انهض أيها العبد الحقير». ثم سكنت الحركة قبل أن يسمع من جديد صوتا يرغي قائلا: «انهض أيها العبد الكسول!»ثم سمع صوتا آخر يقول: «سنجره جرًّا».

سمع رشيد خطواتهم تبتعد عنه، ثم سمع خبطتي فتح الباب الخلفي لسيارة الجيب وإغلاقه وهدير السيارة وهي تنطلق.

شعر رشيد بأن أنفاسه تنقطع من جديد. ثم نهض بحذر وراح يتفحص المكان حواليه والخوف لا يزال يصرعه. ورأى من خلال أوراق الشجيرات المليئة بالأشواك انسحاب العساكر والجنجويد. لم يجرؤ على أن يرفع رأسه كثيرا ليشاهدهم على نحو أوضح، فانحنى متخفيا على أمل أن يلوذ بالفرار بعد حين ليلتحق بجماعته. وعندما سار في طريق عودته خطوات خالها مسافات، تملكه الهلع إذ حسب أن رفاقه ربما ظنوا أنه قد وقع في الأسر، فتركوه واستعجلوا المغادرة قطعا لأي مفاجأة غير سارة.

تساءل: «ماذا عساني أفعل إذا ما تركوني وغادروا؟ وأين سأذهب؟ هل صدقت أني سأصبح بطلا؟ لماذا لم أبق عائشا في راحة ولماذا جنيت على نفسي؟».

أقعى وراح يستعرض الخيارات المتاحة أمامه. لا فائدة من الرجوع إلى القرية المدمرة. ونظر إلى الشمس التي أخذت توشك على الغروب وتلقي سريعا بظلالها الضخمة، فأيقن أن الشجيرات ستثخنه بأشواكها جراحا إن هو حاول شق طريقه بينها. استنأنف سيره وشعر بأن

رجليه لم تعد تقويان على حمله وتمنى ألا يكون قد أخطأ طريق العودة في غمرة الفوضى التي عصفت بحواسه.

وما إن لمح تي-بون متخفيا وراء صخرة حتى كاد ينفجر بالبكاء فرحا بعد أن يئس من اللحاق به قبل فوات الأوان. هدأ من روعه وحاول جاهدا أن يتماسك وأن يسيطر على يديه المرتعشتين بعد أن انتبه إلى مظهره المثير للشفقة إذ أصبح وكأنه أرجوز أو دمية عرائس تحركها خيوط تمسكها أياد من وراء ستار. أخذ عدة أنفاس طويلة واستجمع رباطة جأشه واستوى في مشيته قدر الإمكان ليبدو بمظهر الرجل الصلب والواثق من نفسه.

وإذ بأزيز رصاصة يمزق السكون.

أصابته الرصاصة في أعلى كتفه، فانفجر منه دم فوار. التفت يعاين الضرر ولم يصدر عنه ما يشي بأنه فوجئ بما رأى.

سمع تي-بون يصيح به أن ينبطح أرضا.

انهار ووقع على الأرض وسمع أزيز رصاصة لامست أذنه تلاه أزيز رصاصة أخرى. امتدت إليه عدة أذرع رفعته من على الأرض وحملته إلى المركبة بينما صاح تي-بون بالسائق أن يسرع وراح يرشده إلى الطريق التي عليه أن يسلكها وأين يتعين عليه تهدئة السرعة أو زيادتها. ظل ممددا بين أحضان عدد من رفاقه وكانت تعليمات تي-بون إلى السائق تتناهى إلى سمعه ولكنه لم يكن يستطيع تبيانها. مزق أحد رفاقه قميصه وانتزع منه قماشة عصب بها موضع

الإصابة في حين كانت المركبة القتالية التي تقلهم تواصل ارتجاجها واهتزازها وهي تطوي الأرض طيا على الطريق الرملية.

***

أحس رشيد بجلبة وأصوات أزعجته تمنى لو يتركه أصحابها لشأنه ويكفوا عنه أوامرهم ونواهيهم. فهذا يريده أن يرفع رجلا وذاك يحمله وآخر يتطلع في وجهه. ثم ها هو يسمع صوت اِمرأة تقول له «اشرب ماء من هذا القدح!»، فتعرف على صاحبته فورا، وفتح عينيه بعد تردد.

طالعه وجه حواء وشعر بيدها تمسك بعنقه وتدني فمه من قدح ماء ليرشف منه، وسمعها تقول له: «حاول ألا تغيب عن الوعي ريثما انتزع الرصاصة، مفهوم؟».

زاغ بصره واختلطت عليه الأمور وحاول أن يقول شيئا ما ولكنه شعر وكأنه فقد القدرة على النطق.

أومأت حواء بإشارة منها إلى رفاقه أن يمسكوه جيدا وطلبت منهم بصوت لا أثر فيه لأي انفعال أن يصفعوه لمنعه من مفارقة الحياة.

ارتد إلى الخلف محاولا الابتعاد عنها حتى لا تغرس مبضعها لتوسيع الثقب الذي أحدثته الرصاصة. طاردته كما يطارد حيوان فريسته حتى تمكنت منه. فقد الوعي برهة من الزمن ثم أفاق وراح يتجشأ ويقذف ما في جوفه.

استخرجت الرصاصة وصاحت مظفرة وهي تعرضها على الأنظار: «لقد انتزعتها».

أسقطت الرصاصة في إناء، فأحدث سقوطها رنة كتمها أنين رشيد الذي تملكه الفزع.أشارت على من حولها أن يأتوها بسرعة بماء ساخن آخر والإبرة والخيط وضمادات نظيفة.

انكمش في سريره واتسعت عيناه من شدة الفزع وتصببت من جسمه شلالات من العرق، وصاح في وجهها في مزيج من الغمغمة والتمتمة: «ماذا تريدين؟».

أجابته كما لو كانت تتلو بيانا: «أولا، أطهَر الجرح، ثم أرتق موضع الجرح، ثم أضمد الجرح كي لا يتعفن».

حملق في ما حوله وبدا عليه وكأنه ذعر لمرأى تي-بون واقفا في جانب من السرير بنظاراته السوداء التي لم يكن قد نزعها عنه.

خاطبه تي-بون قائلا«ستخرج منها سليما معافى». وخاطبته حواء قائلة: «ستغادر العيادة في غضون ثلاثة أيام».

ثم صاحت برفاقه الرابضين على جانبي سريره: « امسكوه من جديد».

***

عندما أفاق رشيد، لم يجد حوله تي-بون ولا أحدا من رفاقه. ولم يدرك كم من الوقت مكث نائما ولم يكن يدري ما الذي حدث بالضبط وما سبب وجوده في خيمة العيادة. ثم سمع حواء تتحدث إلى أحدهم، فحاول أن ينهض ويستند إلى أحد مرفقيه. شعر كما لو أن قطعة معدنية تحرق جسده، فارتد منكفأ في فراشه. وإذ بالأحداث التي عاشها في ظهيرة هذا اليوم تعود إلى ذاكرته وتستفزه وتؤنبه.

بعد قليل، جاءت حواء تتفقده وسألته بوجه خال من أي تعبير: «كيف حالك الآن؟».

حاول أن يقول شيئا، غير أن صوته كان أقرب إلى صرير. شعر فجأة أنه يريد أن يمسك يدها وأن يدنوها منه لتحتضنه وتلاطفه وتساعده على الخروج بسلام من الحالة التي انتابته.

قالت: «لقد جاء جدك لزيارتك وسنترككما تتحدثان على انفراد».

كان يريدها أن تبقى معه، ولكنها ابتعدت عنه وتركت المكان لجده الذي لم يشعر به إلا وهو يجلس بجانبه على كرسي أتى له به أحدهم. وسمع جده يقول: «سنرسلك بالطائرة إلى الخرطوم غدا صباحا».

عبس رشيد وردد وراءه متسائلا: «الخرطوم؟».

أجابه جده: «سيعتنون بك هناك وسيعالجونك على النحو السليم».

قال رشيد وقد استعاد صوته: «لقد تكفلت بالأمر وقامت بما يلزم. ثم إن الإصابة سطحية وسأخرج منها بسلام».

قال جده: «ماذا سيقول الناس عني إذا عرفوا أني تركت حفيدي يرقد في هذه الخيمة العفنة».

قال رشيد وقد ترقرق الدمع في عينيه: «إذن المشكلة في ما سيقوله الناس، وليس في ما هو أصلح وأسلم لي».

قال جده وهو يتثاءب: « لا تتعبني معك!»، ثم نظر في ساعته وتململ في كرسيه وأضاف قائلا فيما يشبه الهمس: «أنت المسؤول على ما حصل لك، فلقد حذرتك من مغبة الانضمام إليهم».

قال رشيد: «لن تفهم أبدا لماذا انضممت إليهم».

قال جده وهو يقلب عينيه: «اعفني من سماع خطابك عن الشجاعة والشرف والواجب، ولا تفسد علي عشائي!».

قال رشيد: «ومن يدريك أنك لا تزيدني بموقفك هذا إلا مرضًا على مرض».

قطب جده جبينه وانتصب واقفًا وغادر دون أن ينبس ببنت شفة.

قال بيل مخاطبا حواء وهو يرى الشيخ عصمان يغادر الخيمة على عجل: «يبدو أن اللقاء بينهما قد كان لقاء أسريا وديا».

عبست حواء في وجهه قائلة: «من دخل في ما لا يعنيه، سمع ما لا يرضيه».

قال: «شكرا على النصيحة» قبل أن يضيف قائلا وهو يشير إلى فطائر من الذرة وقدح من حليب الماعز: «وبالمناسبة، لقد أعجبني الطعام الذي أتيتني به». وكانت حواء قد طلبت من الأم المرضعة الشابة التي تترك حواء لديها ابنها أحمد أثناء انشغالها في العمل أن تعد لها عدة أطباق من الطعام الدارفوري لتحملها إلى صديقها الأمريكي الجديد.

قالت حواء وهي تبتسم: «لقد تعبت من سماع امتداحك للطعام اللبناني ووصفك له بأنه أفضل طعام في العالم».

أجابها وقد اختفت البسمة من شفتيه بسرعة: «الغريب أنه كانت في الصائفة الفائتة في لبنان حرب سقط فيها نحو 1200 قتيل ودامت المعارك ثلاثة وأربعين يوما. ثم تدخل المجتمع الدولي لوقفها. وهنا لا تزال الحرب تدور منذ عام 2005 ووصل عدد ضحاياها إلى

300000 قتيل ولا يزال المجتمع الدولي يرجئ النظر فيها ولا يستعجل إيجاد حل لإنهائها ويسبّق عليها قضايا دولية أخرى.
قالت حواء: «أفهم من هذا أن إنقاذ الأرواح اللبنانية أهم من إنقاذ أرواح الأفارقة».
قال وهو يتململ في فراشه: «بإمكانك أن تقولي هذا».
شجعته حواء على أن يشرب الكثير من الماء، ثم نظرت إليه في عينيه وقالت: «هل تعرف أن أمريكا هي أملنا».
قال: «أعرف هذا». ثم تنهد وواصل قائلا: «أخطاؤنا ومشاركاتنا في قلب الحكومات وتنصيب نظم يرأسها حكام مستبدون وتلويثنا لكوكب الأرض ونهبنا لموارده، كل ذلك لم يقض على أمل الكثير منّا...! وهذا ما أسمعه من عديد الأشخاص الذين قابلتهم في حلّي وترحالي». أغمض عينيه وقال بلهجة أرادها أن تكون ذات طابع رسمي: «حرية التعبير والديمقراطية والتسامح».
قالت: « هذا ما يصبو إليه جميع المناضلين من أجل الحرية والانعتاق».
قال وهو يغمض جفنيه: «هذا حمل ثقيل».
سمحت حواء لنفسها أن تجلس لدقائق قريبا من سريره وراحت تراقبه وهو يغفو ويستسلم للنوم.

الفصل السادس والعشرون

المكان: معسكر للجيش السوداني، ولاية غرب دارفور
الزمان: آذار/مارس 2007

انتزع العساكر أحمد من داخل المركبة وجروه جرا حتى قطعوا به فناء إحدى البنايات. ساروا به عبر ممر طويل اصطفت على جانب منه عدة أبواب موصدة. فتحوا بابا من تلك الأبواب وزجوا به داخل زنزانة قذرة وضيقة جدا تفوح من حيطانها المسدودة رائحة عطنة، فتعثر وسقط على أرضيتها. مال بنظره نحو وركه الأيمن الذي استقرت فيه الرصاصة، فقدر أن إصابته ليست خطيرة ولكنها قد تودي بحياته إذ أنه لم ير منهم ما ينبئ بأنهم يريدون إسعافه ولو بشربة ماء، ناهيك عن أن يستخرجوا الرصاصة ويوقفوا نزيف الجرح.

كان الحرّ خانقا داخل الزنزانة. حملوه وأجلسوه على كرسي معدني وكتّفوا يديه إلى ظهر الكرسي. ظل يتململ ويتمايل في جلسته خشية أن ينكأ الجرح الذي أحدثته الرصاصة في وركه الأيمن. ولم يطل به الحال حتى شعر بآلام حادة تعصر ظهره جراء جلسته تلك غير المريحة أبدا. ولاحظ أن موضع الجرح قد ظل ينبض حتى بعد أن توقف النزيف وأن الدم الذي تجمع تحت عجيزته ظل يتقاطر من جانبها الأيمن ويسيل على ساق الكرسي.

غادر العساكر الغرفة، فأغمض عينيه وراح يفكر في المصير الذي ينتظره. قال وهو يمني نفسه: «سيخلون سبيلي ربما بعد ساعتين يكونون قد حققوا معي خلالها وأيقنوا أني لا أحد ولا وزن لي، وسأجد نفسي حرا طليقا من جديد أتنفس هواء نقيا وأشرب من الماء ما يروي عطشي. سينتهي هذا الكابوس، وسأعرف كيف أعود للعمل في عيادة المخيم وإلى حواء. وسيأتي اليوم الذي أرى نفسي فيه جالسا رفقة حواء وحولنا أحفادنا وأنا أروي لهم كيف اعتقلت زمن الحرب وحققوا معي، أسمع حواء تقول لهم أنها كانت تظن أنها لن ترى جدهم ثانية ولكن الله استجاب لدعواتها، ولله الحمد».

ومضى يحدث نفسه قائلا: «ربما تحرمني هذه الإصابة من تحقيق حلمي في أن أصبح لاعبا محترفا في كرة القدم، وسأرضى بنصيبي هذا إذا ما قيض لي الله أن أخرج حيًّا من هذه الزنزانة. فهذه أمنيتي الآن التي لا قبلها ولا بعدها أمنية».

وهروبا من الحر الخانق وألم الإصابة، سرح بخياله نحو قريته واسترجع الأيام التي كان ينهض فيها باكرا والهواء العليل الذي كان يستقبله كلما أطل من عشته وبدأ رحلة عدوه اليومية. لكم أحب ذلك الشعور الدافئ الذي كان يتملكه كلما لبس حذاءه الرياضي الذي أهداه إياه صديقه خليل. وتذكر كيف كان سرعان ما يستعيد بعد الخطوات القليلة الأولى خطواته الواسعة ويشرع في العدو بسرعة البرق، فتتوارى القرية وتختفي بعيدا وراءه. قال أحمد ممنيا نفسه بصوت

غير مسموع: «سينتبهون إلى أني لا أملك المعلومات التي يريدونها وسيخلون سبيلي قريبا».

دخل إلى الغرفة رجل صحبة جنديين. نظر أحمد إلى قامته الفارعة ووجهه الطويل والنحيف الذي تتوسطه شفتان نديتان وعرف من الشعار المرسوم على بزته أنه من أفراد جهاز المخابرات والأمن الوطني. شرح المحقق لأحمد بلهجة رتيبة بلا روح أنه يريد أن يلقي عليه بضعة أسئلة وأن من مصلحته أن يجيب عليها سريعا لأنه لن يخلي سبيله إلا إذا ما أجاب عليها وقنع بأجوبته.

ثم خاطبه قائلا بصوت ضجر وكسول يخلو تماما من أي تهديد أو إيحاء بتهديد: «إذا حاولت أن تلعب دور البطل، فستبدو لك أسئلتي مملة وممجوجة. لذا من الأفضل لك ولنا أن تعفينا من مشقة تكرار نفس السؤال وتعفي نفسك من مشقة الجواب على نفس السؤال، وبذلك ننتهي سريعا ويعود كل واحد منا إلى بيته».

جلس المحقق وأخرج دفترا وقلم حبر جاف وقال وهو يقرأ سؤالا مدونا في دفتره: «ما هي أسماء قادتك والجهة التي يأتمرون بإمرتها. فهل يتلقون الأوامر مباشرة من تشاد وهل يتلقون جميع أسلحتهم من تشاد أم من اسرائيل أيضا؟ وما هي المنافذ التي يهربون منها الأسلحة عبر الحدود وماذا عن تواتر عمليات تهريبها. ومتى وكيف وأين يعتزمون مهاجمة قواعد القوات المسلحة السودانية».

قال أحمد إنه جندي بسيط جنّدوه عنوة من المخيم الكائن خارج مدينة الجنينة وأنه لا يمتلك أي معلومات قيّمة. والدليل على ما يقول أن قائد الوحدة التي كان فيها أرسله إلى موت محتوم غير مأسوف عليه.

تجاهل المحقق كلام أحمد وحجته وظل يكرر عليه نفس السؤال المرة تلو الأخرى. وظل أحمد يحاول المرة تلو الأخرى أن يشرح له أنه جندي بسيط لا وزن له.

وهنا، ارتكب أحمد خطأ قاتلا عندما أراد مداعبة المحقق.

قال مخاطبا المحقق: «لو شئت، أحدثك عن نادي تشلسي وما هي التعديلات التي ينبغي أن يدخلها على تشكيلة الفريق إذا أراد أن يحسن أداء الفريق ونتائجه، أو عن الأسباب التي تحول دون توصل إنكلترا إلى تكوين منتخب قوي في كرة القدم. فأنا أفهم في هذه الأمور ولا شأن لي إطلاقا بهذا الذي تسألني عنه».

وعندما نظر أحمد إلى المحقق، أيقن أن هذا الرجل ذو الشفتين المبللتين والوجه الطويل والنحيف لم يستسغ كلامه. فلقد نظر إليه وعلى شفتيه المبللتين ابتسامة عريضة ولسان حاله يقول«لقد وقعت أخيرا وبعد طول عناء في المصيدة أيها الجرذ!»وسأله: « سيادتك مغرم بكرة القدم؟ وهل تمارسها»؟ ثم عاينه من رأسه إلى أخمص قدميه وأضاف قائلا: «أراهنك على أنك قلب الهجوم».

أشاح أحمد عنه بوجهه وأدرك أنه ارتكب حماقة ستكلفه غاليا. فلقد كان البريق الذي لمع في عيني المحقق نذيرا بأنه حسم فيه أمره إذ نهض الرجل بعدها من كرسيه مباشرة واتجه حالا وهو يغمغم إلى

ركن من الزنزانة حيث كانت توجد منضدة خشبية متداعية وضعت عليها مجموعة من أدوات التعذيب.

أوعز المحقق لعسكري آخر أن ينزع عن أحمد حذاءه وأن يمسك برجليه بينما راح هو في الأثناء يقلب سكاكينه ومناشيره وكلاليبه الموضوعة فوق المنضدة فتصدر عنها جلجلة. لقد كان منظر تلك الأدوات أقرب إلى أدوات جراح في غرفة عمليات تفتقر لأدنى المواصفات الصحية. وكان هناك في الزنزانة رجل ثالث متكئ إلى بابها الموصد يقلب عينيه ولا يخفي شعوره بالضجر.

صرخ أحمد في سره: «اتركوني لحالي، لا قبل لي بتحمل هذا الذي تريدون فعله بي. دعوني أذهب إلى حواء. حرام هذا الذي تريدون فعله بي. ترى هل يريدون قتلي، أم أنهم سيكتفون بتعذيبي لتركيعي وإذلالي ثم يطلقون سراحي؟».

كان الضابط يدندن بلحن أغنية وهو يفاضل بين أدوات التعذيب الموضوعة على المنضذة. تناول آلة لماعة وقلبها بين يديه ثم وضعها ثانية فأحدثت جلجلة.

حدث أحمد نفسه قائلا: «إذا ما خرجت سالما من هنا، فسأتعظ ولن أفاخر أبدا بمهاراتي ومعارفي الكروية وسأعرف كيف أكبح طموحي الجارف في أن أصبح لاعبا يشار إليه بالبنان. يكفيني من الدنيا أن أعيش إلى جانب حواء وأن أحظى بنظرة منها في خضم الفوضى التي تسود العيادة وأن أجلس قريبا منها نحتسي الشاي سويا. ترى هل تدري كم كان يسترق إليها النظر وكم هدد بكسر رقبة شاب رأى فيه

غريما محتملا، فأخذه إلى الفناء الخلفي لخيمة العيادة وحذره من مغبة محاولة الدنو منها ومجرد النظر إليها؟».

ظل الضابط واقفا دون حراك أمام المنضدة يتأمل أدواته. حدث أحمد نفسه قائلا: «إنه يؤدي العمل المنوط به. أتصور أنهم تعودوا على رؤيتنا ونحن نتلقى اللكمات والركلات، وعلى نظرات الفزع في عيوننا وفرائصنا المرتعدة من شدة الخوف. وإني متأكد من أن الرجل المتكئ على باب الزنزانة يكاد يموت من الضجر وهو يشاهدني جالسا أمامه والأغلب على الظن أنه يتعجل المغادرة إلى بيته ليحضن طفله ويلاطفه.

أخيرا، عاد الضابط إلى منضدة الأدوات وهو ممسك بسكين وخمن أحمد أن حصة استجوابه لن تنتهي قبل أن يذيقونه من ضروب التعذيب الأمرين.

شق الضابط بيسر الجلد حول عضلة ربلة ساق أحمد فبان منها عظم الساق بلونه الأبيض الشاحب وانكشفت لناظريه أوتار عضلتها المطابقة تماما لما كان يشاهده في الرسوم الطبية البيانية الملونة المعلقة على جدران خيمة العيادة. وفوجئ بأنه لم يغم عليه لمرآها. فلقد كان يأمل في أن يرأف به دماغه فيفقد الوعي ويوفر عليه عناء وألم مشاهدة هذا العرض الحي لتشريح ربلة ساقه.

توسل لربه أن يساعده على أن يفقد وعيه ويرحمه بالغياب عن هذا الوجود ويريحه من تحمل هذا الذي يفعلونه به. فإن أفاق بعدها، فيا حبذا. وإن غاب دون رجعة، فسيرضى بمشيئته صاغرًا راضيًا.

غير أنه لم يغب عن الوعي، وظلت رائحة اللحم المشوي المنبعثة من أنفاس الجلاد الممسك برجليه تفطس أنفه وتذكره بأن خياشيمه قد تسللت إليها رائحة هذا الأكل الذي تناوله الجلاد في مركبة الجيب عندما كان أحمد مرميا في جزئها الخلفي.

نادى ربه أن يجعل له مخرجًا. وتذكر أن مختطفيه لم يعصبوا عينيه، وهو ما ينذر بأنهم يأخذونه في رحلة لا عودة له بعدها، وإن كانوا في واقع الأمر ليسوا في حاجة إلى تعصيبه، فلا عقاب يطالهم لأنهم يعرفون جيدا أنهم في مأمن من أي تتبعات أو ملاحقات في دولة يحكمها حزب واحد وأوحد.

دخل في نوبات مفتعلة من السعال يحجب بها صراخه من شدة الألم ويسحب بها من جلاده لذة الشعور بأنه حطمه وكسر إرادته. غير أن الألم ملك عليه جميع حواسه وطغى على أحاسيسه ومشاعره، فتلاشت صورة حواء ولم تصمد أمام ضروب التعذيب التي مورست عليه، ولم يعد يقوى على استحضار صورتها بأنفها الذي لا يخلو من فطس طفيف ليخفف عنه قساوة هذه اللحظات التي استحالت إلى ساعات من العذاب المؤبد. لقد دأب على استراق النظر إليها في العيادة وهو يحاذر أن تتفطن إليه. وها هي الآن بالنسبة له القشة التي يتشبث بها الغريق. وها هي الآن مبلغ همه في هذه الدنيا. وكم أحب الحياة وأقبل عليها بنهم كلما تراءت له صورتها بوجنتيها البديعتين وبريق الإثارة الذي يلمع في عينيها كلما أفلحت في فك طلاسم مقال أو كتاب جديد.

حدث نفسه قائلا: «إذا ما خرجت سالما من هنا، فلن أتركها أبدا. أما إذا قتلوني، فسنلتقي في جنة الخلد وستظل روحي ترفرف حولها وتحرسها».

فجأة، ودون سابق إنذار، توقف المحقق وتوابعه عما هم فيه وغادروا الغرفة. أرهف السمع يصغي إلى وقع أحذيتهم الغليظة التي رددت صداها جدران الممر وسمع بعد هنيهة صفق باب الممر وهم يغلقونه وراءهم. اقترب منه الجندي الثالث الذي كان متكئا على باب الزنزانة وأدنى من فمه قارورة ماء.

خاطبه قائلا: «لقد ذهبوا لتناول الغداء وأنصحك أن تبتلع هذه الحبة المسكنة للوجع».

ابتلع دون تردد الحبة وكرع من قارورة الماء وتركه الجندي يشربها حتى آخر قطرة.

شكره أحمد في صوت يشبه الهمس.

قال الجندي: « عمي صيدلي ويتركني أتزود بهذه المسكنات، فلقد أخبرته بما يحصل هنا».

قال أحمد: «يا له من رجل شهم».

قال الجندي: «إنه يتألم لما يحدث هنا. معظمنا يريد السلام، السلام ولا شيء غير السلام».

قال أحمد: «ترى هل سيقرر قائدك قتلي؟».

قال الجندي: «لا أدري، يختلف الأمر من حالة لأخرى».

شهق أحمد وانخرط في البكاء. دنا منه الجندي وراح يربت على كتفه مواسيا.

***

في اليوم التالي، أرسل تي-بون نائبه إلى المخيم للاطمئنان على رشيد. ولقد تعرفت عليه حواء حال دخوله إلى خيمة العيادة رغم لثامه الأزرق الطويل الذي كان يخفي وجهه بالكامل باستثناء عينيه. ولما كان يعرف جيدا أنها صديقة مقربة من أحمد، وسبق له كثيرا أن جاء في عز الليل إلى العيادة طلبا لإسعاف رفاق له أصيبوا بجروح، فلقد تطيرت من رؤيته وانقبض قلبها وحدثها بأنه لا يحمل إليها خبرا سارا وانتابها دوار وأحست بأنها ستنهار من شدة رعبها من خبر طالما أفزعها تلقيه وخشيت سماعه. فكل ما نما إلى علمها حتى الآن عن أحمد لم يكن سوى طراطيش كلام لا سند يؤكدها. لذا، لم تعرف للنوم طعما وظلت كمن يقف على شفا هاوية سحيقة.

خاطبته قائلة بدون مقدمات: «هل لديكم أخبار عن أحمد؟».

قال: «لقد أخذوه أسيرا».

قالت: «هل أخذه الجنجويد؟».

قال وهو ينكس رأسه: «جهاز المخابرات هو الذي أخذه».

صاحت وهي ترتعد وتغالب نفسها لكي لا تمسك به من كتفيه وتخضهما بعنف: «هل عرفتم عنه شيئا آخر؟».

قال: «لا يزال في الأسر، وليس لدينا ما نضيف حتى يطلقوا سراحه أو نعثر على جثته».

ابتعدت عنه واتجهت بسرعة لتخرج من الخيمة حتى لا يراها هو أو أي من مرضاها وهي على تلك الحالة التعيسة. انحنت لترفع غطاء مدخل الخيمة وسارت ردحا من الزمن على غير هدى وقد أظلمت الدنيا في عينيها ولم تعد تسمع سوى دقات قلبها الذي كان يدق بقوة. ظلت تتضرع إلى الله وتردد قائلة: «رباه، انت الرحمن الرحيم، أعوذ بك رباه، كف كيدهم عن عبدك الطيب أحمد وأعده إلي سليما معافى».

أخيرا، ظل جسمها يرتعد، ولكن ذهنها أخذ يستعيد نشاطه تدريجيا كما لو أنه خضع لعدة صدمات كهربائية متتالية، فراح يتأرجح بين يقينها المفزع بأنهم قتلوه وانتهى الأمر وبين بقايا أمل يدعوها إلى عدم استباق الأحداث فعسى أن يأتي الفرج بعد الكرب ويعود إليها سليما معافى وينزاح عنها هذا الكابوس نهائيا.

عادت حواء إلى العيادة وتصادفت عودتها مع دخول الشيخ عصمان الذي مرَّ بها دون إلقاء التحية ولاحظت أنه كان معبسا ومتجهم الوجه. شق سبيله بين صفوف الأسرّة حتى وصل إلى السرير الذي كان يرقد فيه حفيده رشيد.

جلس بجسمه الضخم إلى حافة سرير مجاور لسرير حفيده وخاطبه قائلا: «لقد دعوتني على ما أظن».

قال رشيد مباشرة دون مقدمات: « هل تذكر المسكين أحمد لاعب كرة القدم؟».

فوجئ عصمان بحفيده يخاطبه بلهجة لم يألفها منه، لهجة متحررة من أي مظهر من مظاهر التقدير والاحترام، فزمَّ شفتيه ولم يجبه.

واصل رشيد قائلا بصوت واثق: «إنه أحد الشباب الذين بعتهم، لقد اعتقله جهاز المخابرات».

قال عصمان وقد بسط ذراعيه تعجبا: «وما دخلي فيما حدث له؟».

خفض رشيد صوته وأشار إلى جده أن يدنو منه وهمس قائلا: «أريدك أن تتدخل لفائدته كي يطلقوا سراحه».

قال الشيخ وهو يقهقه: «أتظن أني سأهدر الفرص القليلة المتاحة لي لطلب جمائل من معارفي المتنفذين في قضاء مصالح كهذه الخدمة التي تطلبها مني؟ يا لقصر نظرك»! سكت جده برهة وتشاغل بإزالة بقايا لحم علق بنواذجه قبل أن يضيف قائلا: «عليك أن تعرف من أين تؤتى الكتف وأن تتعلم كيف تترك عنك الغث وتذهب إلى السمين».

قال رشيد: «ولكن الأمر مهم جدا».

قال عصمان بعد أن أطلق تنهيدة: «تجرني إلى هذا المكان الذي تعافه الكلاب لتحدثني في هذا الموضوع السخيف، وأنا الذي ظننت أنك قد ثُبت إلى رشدك وقررت السفر إلى الخرطوم لتتلقى العلاج قبل أن تتعفن إصابتك بفعل الشمس الحارقة، فيحصل لك مكروه ما أغنانا عنه!».

نظر رشيد في عين جده وخاطبه قائلا: «أريدك أن تهاتف البعض من معارفك المتنفذين وتسألهم التدخل من أجل الإفراج عن أحمد».

أجابه جده: «وما هو المقابل الذي سأجنيه»؟

قال رشيد: «الشعور بالغبطة لأنك أدركت أخيرا حلاوة أن يأتي المرء عملا حسنًا لا يرجو من ورائه جزاء ولا شكورا».

مال عصمان بجذعه نحو حفيده وصفعه صفعة مدوية. توقف الجميع عما هم فيه وخيَّم على الخيمة صمت لم يقطعه إلا لهاث رشيد الذي انقطعت أنفاسه من شدة الصفعة.

حمل الشيخ عصمان نفسه وسار مترنحًا لا يخفي ضيقه. رفع غطاء الخيمة وغادرها، فلفحته أشعة شمس الصباح.

الفصل السابع والعشرون

المكان: مخيم الجنينة، ولاية غرب دارفور
الزمان: آذار/ مارس 2007

هرعت حواء إلى الردهة القريبة من مدخل العيادة وقد أنبأها قلبها بالخبر المشؤوم. قطعت المسافة القصيرة بخطوات استغرقت دهورا وكان صدى كل نبضة من دقات قلبها يردد بقوة بين ضلوعها أن رسول تي-بون إليها يحمل خبر استشهاد أحمد.

وما إن التحقت به إلى هناك حتى سألته وهي تلهث: «خبرني، ما الذي حدث؟».

قال: «حواء، اعذريني ولكن لقد عثروا عليه». أخذ نفسا ثم أضاف بصوت خنقته العبرة: «لقد وجدوا جثته على بعد حوالي ثلاثة أميال من مقر جهاز الأمن».

أحست حواء كما لو أنها تلقت ركلة في بطنها. فانحنت وراحت تتلوى وانعقد لسانها، كادت تسقط مغشيا عليها. تشبثت بطرف الخيمة وقد خارت قواها وتقطعت أنفاسها وأيقنت أنها ستذوي في الأرض وراحت تردد في صوت أقرب إلى الهمس: «رباه، كيف يعقل هذا، كيف يعقل هذا!».

تكورت على نفسها ودفنت رأسها بين ذراعيها محاولة أن تغيب عن الوجود وتعود بعجلة الزمن إلى ما قبل خمس دقائق فقط عندما كان لا يزال ثمة أمل يراودها ولكن، ها هي الآن فريسة لليأس تردد منتحبة: «رباه أسألك اللطف رباه».

خاطبها الشاب قائلا: «كم أنا آسف، ولكن الأفضل لك أن تعودي إلى عشتك، سأخبر الآخرين».

تحاملت على نفسها وأخذت تنهض ببطء وكفكفت دموعها وغمغمت قائلة: «سأعود إلى عشتي وسأعرج على عشة المرأة التي ترعى صغيري في غيابي لأستلمه منها».

ساعدها الشاب على النهوض وتابعها بنظره وهي تغادر الخيمة وتختفي في الظلمة.

عاد إلى داخل الخيمة واتجه مباشرة نحو رشيد وأبلغه خبر العثور على جثة أحمد اليوم بعد مغيب الشمس. ثم أضاف وهو يهز رأسه من

شدة الجزع: «لن تصدق ضروب التعذيب والتنكيل التي مارسوها عليه».

نظر إليه رشيد مشدوها بعينين اتسعت حدقتاهما.

ثم استطرد قائلا: «لا بدَّ لي من الذهاب الآن، ولكن أريدك أن تأخذ بيد حواء وتشد أزرها». ثم عاد من حيث أتى وابتلعته ظلمة الليل.

تساءل رشيد في البداية عن سبب اختياره هو بالذات للوقوف إلى جانب حواء ورفع معنوياتها. فلقد كانت حسب تفكيره الضيق لا تريد أحدا غير أحمد. ثم سرعان ما تبين له أنه مطالب بطبيعة الحال قبل غيره بأداء هذا الواجب. فأحمد اختفى الآن من حياتها ولن تجده إلى جانبها ليأخذ بيدها. لقد فقدت السند وأضحت وحيدة، ومع ذلك فإنها تتولى بمفردها مسؤولية تنشئة ولدها ورعايته وتساعد الآلاف من خلال إدارتها للعيادة، وتقود مجموعة الأمهات العازبات المقيمات في المخيم. فلئن كانت قادرة بالرغم من كل هذه الصعاب على خدمة الآخرين، فلماذا لا يتزوجها ويمنح اسمه لابنها فينال ثوابا؟

ثم استلقى على سريره من جديد وصوب نظره نحو سقف الخيمة وراح يساءل نفسه عن التغير الذي طرأ في مشاعره وموقفه تجاهها. فلقد ظل طوال حياته ينتظر من أسرته أن تفكر عوضا عنه وأن تملي عليه إرادتها. وها هو الآن يخطو خطوات جبارة نحو التحرر من هيمنة الأسرة ويشب عن الطوق الذي ضربته حوله. لن يغفر له جدّه الشيخ عصمان تهوره معه، وهو ليس نادما على ما فعل، بل ها هو يقطع مع أهله خط الرجعة. لقد انقضت وولت تلك السنوات التي كان

يخشى فيها أن يعود إلى جده ذليلا صاغرا يطلب العفو إن هو صارحه برأيه فيه وفي تصرفاته. أما الآن ومنذ أن واجهه وأعلن له رأيه فيه، فلقد حسم الأمر وتجاوزه وشعر لأول مرة في حياته أنه تحرر نهائيا من سلطته وسطوته.

حدث نفسه متسائلا عما يريده وجاءته الإجابة سريعة. فهو يريد أن يكون رجلا شريفا يعتني بأسرته ورجلا يحترم نفسه ويحترمه الآخرون يقول الصدق وجنديا شجاعا يقاتل دفاعا عن حق شعبه في الوجود على أرض أسلافه. شعر بالارتياح للقرارت التي اتخذها. أغمض عينيه ثم استسلم للنوم.

***

وصلت شحنة الأدوية في اليوم التالي بعد الظهر. كانت حرارة بيل، المريض الأمريكي قد ارتفعت ارتفاعا شديدا وتورمت إصاباته، وهو ما تطلب من حواء أن تفتحها وتنظفها وتتركها مفتوحة وتعيد رتقها بعد تخليصها من العفن الذي لحق بها.

ولما أخذت حرارته تنخفض، حاول بيل أن يداعب حواء ويتندر بما وصلت إليه حالته وأن يزين لها كيف أنه اشتاق لإبرتها التي ستعيد رتق جروحه المفتوحة. غير أن حواء تقوقعت على نفسها كئيبة واجمة وقد عزفت عن التواصل معه أو مع غيره. وعندما سألها عما أفسد عليها مزاجها، أخبرته بمصرع أحمد. أعرب لها بيل عن تعاطفه معها وشجعها على أن تترك العمل في عطلة تتفرغ فيها للاعتناء بصغيرها. غير أنها لم تتحمس لاقتراحه لأن في العمل، كما علّمتها

ماري، خير ملاذ يلهم الصبر والعزاء. وكانت كلما وجدت فسحة، جلست على حافة سرير مريضها الأمريكي واستمعت لحكاياته. وبالرغم من أن مشاعر القهر كانت أقوى وأكثر حدة من أي وقت مضى، فإنها لم تكن قادرة إلا أن تبكي صباحًا مساءً.

وفي اليوم الذي كان بيل يستعد فيه لركوب الطائرة ومغادرة الجنينة، انتظر حتى حانت له فرصة الحديث إليها بعيدا عن الآذان. استأذن منها أن تستمع إليه لدقائق معدودة.

قال: «أعرف أنك في أتعس حالاتك والمستقبل هو أبعد ما يمكن أن تفكري فيه الآن، ولكني أريد أن أحدثك في أمر ربما ينال اهتمامك».

هزها الفضول لمعرفة ما يريد أن يقوله لها ونسيت للحظة عبء الأحزان الجاثمة على صدرها.

قال: «إذا خطر لك في يوم من الأيام أن تدرسي الطب في الولايات المتحدة، فأستكفل أنا وزوجتي بتمويل نفقات دراستك الجامعية. سنستخرج لك تأشيرة طالبة ولدينا في بيتنا غرفة خالية يمكنك أن تمكثي فيها».

نظرت إليه وقد فغرت فاها من شدة الدهشة، فأساء فهم ردة فعلها وظن أنها لا ترحب بعرضه فاستدرك قائلا: «ربما تفضلين الدراسة قريبا من هنا في القاهرة مثلا أو أي مكان آخر».

تأثرت حواء بكلامه فأخذت تبكي في صمت. ثم أفصحت في الأخير عما يخالجها فقالت وهي تكفكف دموعها: «يا لك من رجل طيب،

شكرا على هذا العرض الكريم، الواجب يدعوني للبقاء هنا ما دامت هناك حاجة إلى خدماتي».

قال: «لقد خطر لي هذا أيضا، ولكن ربما يمكنك أن تفكري في الأمر عندما تضع الحرب أوزارها».

قالت: «هل تعتقد فعلا أن بإمكاني أن أتخرج طبيبة؟».

قال: «طبعا. وهو ما سيمكنك من خدمة الصالح العام على نحو أفضل».

هزت رأسها مؤيدة لكلامه ثم أضافت بعد قليل قائلة وهي تجفف دموعها وتحاول الابتسام: «حتى بعد انتهاء الحرب، سأجد لي عملا في دارفور، إني مدينة كثيرا لامرأة تعرفت عليها هنا اسمها ماري كانت تعمل في العيادة علمتني معاني الإنسانية والانعتاق من العبودية».

قال: «لقد أحسنت ماري صنعا» ثم أخرج ورقة من جيبه وناولها إياها» وأضاف قائلا: «اتصلي بي متى حزَمت أمرك».

شكرته وسمعته يقول لها إنه متأكد أن ماري ستكون فخورة بها جدا.

قالت بين دموعها وهي تبتسم له على استحياء: «إن شاء الله وبحول الله».

***

تماثل رشيد للشفاء وبدأ جرحه يلتئم وساعدته على التماثل سريعا للشفاء بنيته القوية وتغذيته السليمة نسبيا مقارنة بغيره من المرضى. وما إن غادر العيادة حتى عاد مباشرة إلى وحدته. ولم يكن قائد الوحدة

تي-بون مقتنعا بأنه في حالة تسمح له باستئناف سالف نشاطه. بل أشار عليه بأن يمكث مع جده أسبوعا أو أسبوعين ريثما يستعيد عافيته بالكامل.

أخبره رشيد أنه مصمم على ألا يعود إلى جدّه أبدا، وأبلغ رشيد قائده أنه لن يساعده في المستقبل بمثل تلك الخدمات التي سبق أن قدمها له. وقال إنها رسالة واضحة يبعث بها إليه وإلى جدّه. واستجمع رشيد قواه تحسبا لما سيسمعه منه إذ كان يتوقع أن يصرفه أو أن يرميه بالجنون.

رفع تي-بون حاجبيه كمن يفكر في أمر ما. ثم قال: «في هذه الحالة، الأفضل لك أن أعيرك خيمتي، عد متى شعرت بأنك في أحسن حال، فلدي مهام جديدة أريد أن أكلفك بها».

قال رشيد وهو يحاول إخفاء توجسه: «أي مهام هذه؟». قال تي-بون: «أريد نائبا ثانيا».

قال رشيد: «تريدني أنا؟».

قال تي-بون: «وما وجه الغرابة؟».

حاول رشيد جاهدا أن يتصنع اللامبالاة فلقد ظن أن تي-بون قد شطب عليه بعد أن رفض الامتثال له وحاول الالتحاق بأحمد.

قال تي بون: «موقفك يوم هاجمنا القافلة الإسبانية أقنعني بأنك النائب الذي أريده، فأنت من طينة الرجال الذين أبحث عنهم».

تلقف رشيد طوق النجاة الذي ألقى به إليه تي-بون وقرر أن يذهب مباشرة لمقابلة حواء. وصل إلى العيادة دقائق قبل انتهاء دوام حواء في العمل حيث كانت ترتب حاويات الأقراص الطبية وتستعد

للانصراف. ثم اقترب منها وهو يتصنع الظهور بمظهر الرجل المتمسك ببرودة أعصابه وأبلغها أنه يريد الحديث معها خارج الخيمة في أمر.

استجابت في صمت لدعوته واتجهت إلى ظل شجرة خارج الخيمة. ولحقها رشيد بخطوات مستعجلة وهو يحاول جاهدا كبح لهفته وتلهفه. تلفت حواليه ليتأكد من خلو المكان من الأعين والآذان. وما أن التحق بها بادرها قائلا: «أريدك أن تعرفي أني قد غفرت لك وأريدك زوجة لي وسيحمل ابنك اسمي ونسبي».

قالت حواء وهي ترفع حاجبيها تعجبا: «ما الذي غفرته لي، لم أفهم قصدك؟».

قال متضايقا: «هذا الذي حصل».

قالت وهي تستمرئ شعوره بالحرج لأنه لم يكن يتوقع منها أن تسمي الأشياء بأسمائها: « غفرت لي تعرضي للاغتصاب على أيدي الجنجويد وإنجابي نتيجة لذلك لطفل رغما عني!». خطر لها أن ماري هي التي كانت تتكلم بلسانها.

قال رشيد وهو يشيح بوجهه: «فلنطو الصفحة نهائيا!».

قالت في ما يشبه العتاب: «فليكن! ولكني لن أنسى ما حدث لي. ثم إني قد غفرت لك وبإمكاني شق طريقي في الحياة بمفردي وبمساعدة الأمهات العازبات الأخريات اللائي تعرضن لما تعرضت له».

وخلافا لما كانت تتوقعه، لازم رشيد الصمت. فلقد كانت تتوقع أن يثور في وجهها أو أن يصفعها ولكنه بقي ينظر إليها بهدوء ودون

انفعال. فواصلت قائلة بنبرة حادة: «سأعمل في العيادة، أريد أن أكون عنصرا فاعلا ومفيدا بدلا من أن أكون مجرد خادمة مطيعة لك».

لم يبد عليه أي اعتراض على ما تقوله، فأحست كما لو أنه يسحب من تحتها البساط واحتارت في هذا التغير الذي طرأ عليه. لم يسعها إزاء صمته إلا أن واصلت قائلة: «بإمكان جدك أن يجد لك زوجة أخرى بسهولة؛ فأنتم طوال حياتكم تتاجرون في البشر، ولكن مثلي لا يباع ولا يشترى».

ظل رشيد صامتا ولم ينبس ببنت شفة ولكنها أحست بأنه جفل في لحظة من اللحظات من وقع كلامها. أحست بأنه اكتسب قوة لم تعهدها فيه من قبل وتساءلت عما عساه يضمر في داخله. وظلا صامتين للحظات.أثارها صمته، فخطر لها أن تستفزه، فانحنت وأخذت في راحتها حفنة تراب أفلتت ذراتها من بين أناملها وتطايرت في الهواء.

قالت وقد تملكها الغضب: «انظر، ربما لا تعني حفنة التراب هذه لأمثالك ولأسرتك الثرية شيئا، ولكن مئات الأجيال من أهلي سقوا هذه التربة بدمائهم الزكية».

ثم تذكرت ماما مونى، فهدأ غضبها فجأة وقالت وقد ارتسمت على وجهها شبه ابتسامة: «لم يبخل نساؤنا بأي جهد طوال آلاف السنين من أجل تعهد هذه الأرض الطيبة وعندما أتذكر تضحياتهن وتفانيهن، لا يسعني إلا أن أنتبه إلى أن الأهم من التربة أن نظل أنا وأنت وجميعنا متحدين كصخرة صماء لا تذرها الرياح هكذا هباء منثورا».

ثم فتحت راحتيها فتتطايرت حبات التراب وحملها الريح من بين أناملها. ولم يعلق رشيد على كلامها وظل يتفحص وجهها.

واصلت تقول: « عندما تتحد حبات التراب تتحول إلى صخرة صماء». ثم لوحت بذراعها باتجاه الأفق وقالت: «فالأهم من هذه الذرة أو تلك أن نظل متحدين ونحافظ على حريتنا ونتمسك بهويتنا وندافع عنها من خطر الاندثار».

ثم انحنت ثانية وأخذت حفنة أخرى من التراب ثم نهضت وهي مطبقة عليها هذه المرة براحتيها.

تركت الرمل يتسلل برفق من بين أناملها وقالت: «من واجبي أن أدافع عن أرضي بكل ما أوتيت من قوة لذا سأحتفظ بموقعي هنا في العيادة وسأدرس لأصبح ممرضة ذات مؤهلات عالية، بل ولكي أصبح طبيبة ولمَ لا؟».

وأضافت قائلة وقد تصلبت ملامحها: «أعرف أنه سيتعين علي أن أكافح ولن يكون الأمر سهلا لأم عزباء. ولكني أفضّل أن أواجه الصعاب على أن أكون زوجة جاهلة وخادمة مطيعة لك أتوسل إلى الله أن يكف أذاك عني وأن يقيني سورات غضبك كلما خذلتك الحياة في أمر من الأمور». ثم اشرأبت بعنقها نحوه ونظرت إليه بشموخ وكأنها تتحداه إن كان لديه اعتراض على ما تقول.

أخيرا، نطق وتكلم، فقال: «أعرف كل هذا وأوافقك تماما».

نظرت إليه وقد تملكتها الدهشة.

قال: «سأعود إلى وحدتي لأقاتل بكل ما أوتيت من قوة.سأقاتل دفاعا عن المثل العليا التي تكافحين من أجلها وتنشدين من ورائها دراسة الطب والتخرج طبيبة، والفرق الوحيد هو أنني لست نابها مثلك، ولكن يمكنني أن أساهم في خدمة بلدنا من موقعي كجندي. وإذا ما قدر لي أن أعود سالما، فسأعرض عليك الزواج وعسى أن تقبليني في يوم من الأيام زوجا كفؤا وصالحا».

ثم، ورغم النظرة المفزعة التي لمحها في عينيْ حواء، وجد نفسه خلافا لعادته ينظر إليها ويبتسم في وجهها بكل ثقة ابتسامة رجل واثق من نفسه.

الفصل الثامن والعشرون

المكان: دونكستر، إنكلترا
الزمان: آذار/ مارس 2007

نهضت ماريا اليوم كعادتها مع الساعة الخامسة صباحا. وأعدت لنفسها فنجانها الأول من الشاي وانتقلت به إلى نافذة المطبخ لتطل منها على الشارع في هذه الساعة وهو ينهض من سباته وينفض عنه تدريجيا أثر النعاس ويستعيد حيويته وحركته، وترى لون سماء

دونكستر المخضبة بأحمر وهاج ينبعث من قرص الشمس البازغة خيوطها من وراء الأفق.
وماريا هذه طبيبة أسنان بولندية تقيم في إنكلترا منذ ثمانية عشر شهرا، وتعتزم مواصلة الإقامة في إنكلترا والاستفادة أطول وقت ممكن من ارتفاع الجنيه الاسترليني مقابل اليورو لتعود بعدها إلى بلدها وتبني بمدخراتها لابنتها البالغة من العمر ثلاثة أعوام منزلا تستقله بالسكن عندما تكبر وتغادر بيت جدتها التي تركتها معها في فرصوفيا لتتولى أمها رعاية ابنتها في غيابها وهي في إنكلترا.
لكنّ رؤية سيارتي شرطة، في مدخل مجمَّع مساكن الرعاية الاجتماعية الذي يضم البناية التي تقطن ماريا في إحدى شققها، صرفتها عن التمتع بمنظر طلوع الشمس. أمسكت ماريا بهاتفها الجوال وخاطبت السيدة إدواردز التي تقطن مثلها في نفس البناية في شقة أعلى من شقتها بطابقين. اعتذرت لها عن الإزعاج في هذه الساعة المبكرة وأخبرتها بعجالة أن رجال الشرطة في طريقهم إلى البناية، وأغلب الظن أنهم يريدون ترحيل جيرانها السودانيين الطيبين المهددين بالطرد من البلد بأمر من دائرة الهجرة.
شكرت مسز إدواردز ماريا وأجرت بدورها مكالمة هاتفية خاطفة اتصلت فيها بمسز ركبي وزوجها اللذين يقطنان في نفس الطابق الذي توجد فيه شقتها وعلى الجانب الآخر من الممر شقة أسرة زهرة.

ثم اتصلت بزهرة وطلبت منها أن تخلي الشقة حالا وتأخذ أمها والصغير يوسف وصفية إلى الشقة المجاورة لشقتها التي تسكن فيها مسز ركبي وزوجها.

ارتبكت زهرة ولم تستوعب في البداية، في غمرة النعاس، ما كانت مسز إدواردز تريد قوله. فأجابتها قائلة: «ولكني لا أعرف مسز ركبي وزوجها، علاقتي بهما لا تزيد عن إلقاء التحية عليهما كلما قابلتهما في الرواق، فكيف أطرق باب شقتهما في هذه الساعة المبكرة؟».

قالت مسز إدواردز بصوت حازم ولكنه لا يخلو من مسحة من الدعابة: « الشرطة في طريقها إليكم وأغلب الظن أنهم قادمون لترحيلكم، ولا وقت الآن لإلقاء الأسئلة؛ السيدة ركبي تنتظركم. اتركي أمك وابنها وصفية في شقتها وتعالي أنت وأخوك عبد اللطيف إلى شقتي. ولا تنسي أن تحملي جوازات سفركم وأوراقكم الثبوتية!».

لم يهتد رجال الشرطة إلى رقم العمارة إلا بعد عدة دقائق إذ لم يكن من السهل عليهم التمييز بين العمارات القبيحة والمتشابهة رغم أنه لا يمر يوم أو يومان دون أن يأتوا هنا لفض اشتباك من الاشتباكات التي تنشب في هذا الحي الذي كلما أسدل الليل سدوله يتحول إلى ساحة تتصارع فيها العصابات. فالمكان يعج بمجموعة من أعتى أشقياء دونكستر من سكان مشروع شقق الرعاية الاجتماعية يعيشون جنبا إلى جنب مع ملتمسي اللجوء الذين لا يجرؤون على الخروج في الليل خشية التعرض للأذى.

ولما كان المصعد معطلا، اضطر رجال الشرطة إلى صعود السلالم وتحسس طريقهم إلى الطابق الخامس عبر أكوام القمامة وروائحها الكريهة التي كانت، تتسلل إلى أنوفهم فتزكمها رغم الكمامات التي استعانوا بها درءا لهذه الروائح.

دقوا باب شقة زهرة عدة مرات، وعندما لم يفتح لهم أحد، عالجوا الباب بأنفسهم بأن أولجوا في القفل بطاقة ائتمان. وعرفوا من حرارة ملاحف الأفرشة أن سكان الشقة قد غادروها لتوهم وأفلتوا منهم وتبخروا بتواطؤ مع سكان العمارة الذين يكرهون رجال الشرطة وإنفاذ القوانين أكثر مما يكرهون الأجانب من المقيمين في البلد على غير الصيغ القانونية. وكما حصل في مرات عديدة سابقة، غادر رجال الشرطة الشقة خائبين.

وفي أثناء ذلك، كانت مسز ركبي توزع على ضيفتيها والطفل يوسف الشاي والكعك وهي لا تزال في ثياب النوم. قالت إن البيت بيتهم وسألت أم زهرة وصفية وهي تناولهما قدحين من الشاي ألا يشعرا بالحرج لقيامها بخدمتهما في هذه الساعة المبكرة. ولم يفت صفية أن تلاحظ وهي تستلم قدح الشاي من يدي هذه المرأة الأربعينية أن أظافرها كانت مصقولة ومطلية بلون أسود وعندما رفعت صفية نحوها رأسها لتشكرها على كرم الضيافة، لم يفتها أيضا ملاحظة طلعتها البهية وتسريحة شعرها الأسود كجناح الغراب.

قالت المرأة: «ما أسعدنا بجيرتكم الميمونة، أنتم لا تعرفون الجماعة التي سكنت قبلكم في الشقة. لقد كان الصخب المتسلل عبر الجدار

الرهيف جدا للشقة المقابلة لا ينقطع ليلا نهارا على مدار الأسبوع».
ثم التفتت ناحية زوجها أنثوني وقالت: «غير أننا لم نشتكهم للشرطة مطلقا، فنحن نكره رجال الشرطة، أليس كذلك يا أنثوني العظيم؟».

رد عليها زوجها أنثوني مقهقها بحنان واهتز لقهقهته جسمه الضخم الذي لم يترك منه حيزا إلا ورسم فيه وشما. وتحت رجلي هذا الأنثوني العظيم، ربض تايسون، كلب الأسرة باسطا ذراعيه جذلانا وهو يلوك بين فكيه عظما كبيرا.أما انثوني الاِبن، فلقد كان لا يزال نائما في غرفته في فراشه الذي يكاد لا يتسع لجسمه الضخم ضخامة أجسام مصارعي السومو بالرغم من عمره الصغير وهو البالغ سبعة أعوام فقط.

قال أنثوني العظيم«: الأولى برجال الشرطة أن يجربوا شيئا جديدا وأن يذهبوا مثلا لمطاردة المتحرشين جنسيا بالأطفال بدلا من مضايقة الناس الطيبين».

وعلى بعد شقتين في الجانب المقابل من الممر، كانت السيدة إدواردز تعد فطور الصباح لعبد اللطيف وزهرة. قالت المرأة ضاحكة وهي تناولهما شرائح من الخبز المحمص: «كنتم على قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في قبضة الشرطة، الغالب على الظن أنهم سيعودون غدا في نفس هذا التوقيت».

تبادلت زهرة مع أخيها نظرة كشفت مشاعر القلق الذي يختلجهما. سألت زهرة جارتها ما إذا كان الوقت مناسبا لمهاتفة صديقتين لهما في لندن أم هو مبكر جدا.

قالت مسز إدواردز: «هذا ظرف استثنائي يُجيز أي سلوك ويحتم التصرف بسرعة، وأتوقع أن الأمر يتطلب اتخاذ بعض التدابير العاجلة». ثم أخذت سكينا ونشرت به طبقة من المربى على كامل سطح شريحتين من الخبز المحمص وضمتهما إلى بعضهما وقضمتهما وراحت تمضغ وهي مطرقة تفكر في ما ستقوله، ثم أضافت قائلة: «سأفتقدك، فلقد ساعدتني يا زهرة على دخول القرن الحادي والعشرين».

قالت زهرة: «وكيف ذلك؟».

قالت المرأة: «مستر ركبي يتاجر في السلع المستعملة، وسيجد لي حاسوبا ودون الخوض في الجزئيات، فلقد قال لي إنه سيكون حاسوبا محمولا يمكنني من ربط الصلة مع حفيدتي». وعلت وجهها ابتسامة مشرقة. ثم أضافت قائلة: «لقد حان الأوان لكي أرتقي إلى مستواها وأعفيها من اللجوء إلى وسائل أكل الدهر عليها وشرب، حتى لا أضطر إلى ركوب القطار والذهاب إليها إذ لا قبل لي بأسعار تذاكر السفر».

قالت زهرة وهي تشجعها بابتسامة: «هذا خبر سعيد، الآن، أصبح بإمكانك الاتصال بأي شخص في أي مكان من العالم دون أن تغادري شقتك، وسأرسل لك عنوان بريدي الإلكتروني ما إن يستقر بي المقام».

قال عبد اللطيف بالإنكليزية: «زهرة، أرجوك، عجلي بمكالمة ساندرين!». ثم اردف قائلا بلغته الأم: «أعرف أنكما بصدد التمتع

باحتساء الشاي ولكن، إذا ما عثرت علينا الشرطة، فسيرحلوننا على الفور. أرجوك، فنحن في خطر».

أحست من صوته أنه متوتر جدا، فأمسكت بالهاتف وهي لا تزال مترددة خشية إزعاج صديقتهم في هذا الوقت المبكر. وما هي إلا هنيهة حتى رن الهاتف على الطرف الآخر بينما ظلت مسز إدواردز تنظر إليها وتنتظر أن تبلغها زهرة بفحوى مكالمتها مع ساندرين.

قالت زهرة: «سيسمح لنا زميل أو زميلة لساندرين بقضاء بضعة ليال في بيته، ساندرين تقول أن التخفي أسهل هناك، وسنكون في مأمن ريثما نتدبر تذاكر سفرنا ومستلزمات السفر».

نظرت زهرة إلى عبد الطيف، فهز رأسه ولسان حاله يقول إنه فهم ما قالته بالانكليزية وأضاف قائلا: «بعيدا عن أعين الرادارات».

رددت مسز إدواردز وراءه: «بعيدا عن أعين الرادارات».

قال عبد اللطيف بنبرة تشي بأن الأمر لا يحتمل التأخير: « إذن، فلنذهب الآن إلى لندن!».

قالت المرأة: «في أي مكان من لندن؟».

قالت زهرة: «هولاند بارك».

قالت المرأة وقد لمعت عيناها: «عظيم والله، ربما ستنزلان ضيفين عند مادونا أو التون جون. فليكن في علمكما أنهما يقطنان هناك»!

قالت زهرة: «صديقايا الجديدان» وانخرطت هي ومسز إدواردز في الضحك. ثم اختلست نظرة نحو أخيها، فإذا بعلامات الخوف والترقب لا تزال تلازمه، فأضافت قائلة: «كم أنا حزينة ولكن لا بد لنا من أن

نستعد للمغادرة»، وإذ لاحظت مشاعر الخيبة التي ارتسمت على وجه مسز إدواردز، شعرت بأن قلبها يذوب في صدرها، فأضافت قائلة: «ولكننا سنبقى على اتصال، ومن يدري، ربما تزورينا ذات يوم في أمريكا».

احترقت أعصاب عبد اللطيف من شدة الترقب، ولم يعد يقوى على البقاء جالسا، فنهض من مكانه ولم يهدأ إلا عندما رأى أخته تنهض بدورها من مقعدها إيذانا بالإنصراف ثم تنتحي بالمرأة في جانب من الغرفة. تعانقت المرأتان بحرارة وسمع عبد اللطيف نشيجهما.

صافح عبد اللطيف مسز إدواردز وخاطبها قائلا بلهجة مهيبة: «لقد أنقذت حياتي، اليوم». وعندما حاولت المرأة أن تهوَن من قيمة ما قامت به تجاهم، كرَّر قائلا عدة مرات: «فعلا، فعلا، لقد أنقذتِ حياتي يا سيدتي جازاك الله خيرا، لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت!».

وعندما أغلقت الباب، لاحظ عبد اللطيف أن عينيها كانت لا تزالان مبللتين بالدموع. أسرع أفراد الأسرة إلى شقتهم وجمعوا عدة أغراض لا غنى عنها؛ معظمها أشياء تخص يوسف. وشعرت زهرة بالاستياء لأنه كان لزاما عليها أن تترك وراءها زيها المدرسي الذي طالما شعرت بالفخر والاعتزاز بارتدائه بينما شق على سماح كثيرا مفارقة أدواتها ولوازمها المنزلية، فقالت عنها وهي تودعها بنظراتها: «كم هي ضرورية وكيف لأي امرأة دارفورية أن تنهض بالأعباء المنزلية دونها»؟

قالت زهرة: «سيعوضنا الله بغيرها في نيو جرسي».

صاح فيهم عبد الطيف للمرة الألف هذا الصباح: «هيا بسرعة!».

وزمجر مخاطبا أخته عندما انفرد بها: «الأفضل ألا تتصوري أن انتقالكم إلى أمريكا تحصيل حاصل، فما زالت أمامنا أكثر من عقبة!».

وعندما تحركت بهم الحافلة إلى لندن وشعروا بالأمان، هاتفت زهرة صديقاتها عضوات الكنيسة الميثودية وأبلغتهن أن أسرتها قد خسرت الطعن الذي رفعته ضد قرار الترحيل. وشكرتهن على جمائلهن ولم تنس أن تذكرهن بأنه بإمكانهن الذهاب إلى الشقة التي كانت تقيم فيها أسرتها والتصرف في كامل الأثاث والكساء الموجود فيها وتقديمه لأسرة أخرى من الأسرالمحتاجة.

وأثناء الرحلة، همس عبد اللطيف الذي كان يجلس خلف صفية ولا يزال متجهم الوجه ومضطربا،. همس شيئا ما في أذن صفية، فإذا بها تنهض من مقعدها وتتركه يجلس في مكانها إلى جانب زهرة وتنتقل هي للجلوس في مقعده. ودون مقدمات، فاتح عبد اللطيف أخته في الموضوع الذي يريد الحديث فيه معها حيث أخبرها بألا تطلب من راكيل أن تحجز له تذكرة سفر.

اتسعت حدقتا زهرة دهشة ولاحت في عينيها مسحة من الفزع.

قال عبد اللطيف: «الواجب يقتضي مني أن أمكث هنا مع أهلي وعندما تنتهي الحرب سأعود إلى دارفور على جناح السرعة لقطع الطريق على المجرمين ومنعهم من الاستئثار بالسلطة الجديدة».

قالت دون حماس كبير لعلمها بأن كلامها لن يلقى تجاوبا لديه فهو كما تعرفه قد حزم أمره ولن يتراجع عن قراره: «يمكنك أن تخدم البلد من نيو جرسي كما تفعل راكيل من خلال عضويتها في حركة «انقذوا دارفور».

قال ممتعضا: «كل من يذهب إلى أمريكا يطيب له المقام هناك ويصبح أمريكيا بسرعة وتلهيه متعة الحياة فيها وسهولتها عما يجري في أرض الوطن».

قالت: «وماذا عنا نحن إذا ما مكثت أنت هنا». ثم أخذت تنظر إليه لعلها تسبر أغواره وتعرف ما إذا كان يظن أنها ستسدل ستارا على دارفور وأهلها هناك ما أن يطيب لها المقام في الولايات المتحدة. غير أن السؤال ظل عالقا في ذهنها ولم تطرحه عليه.

«اذهبي إلى نيوجرسي! يمكنك أن تعتني بأمك ويوسف، ولستم بحاجة إلي، ولا فائدة من بقائكم هنا، في إنكلترا!».

أطرقت زهرة وعضت على شفتها السفلى وراحت تحدث نفسها قائلة في سرها: «يظن أن لا فائدة من بقائي هنا، لأني أنثى، إنه يعتقد أن لا دور لي في خدمة دارفور، أو لعله يتصور أن مستقبلي الدراسي هو الشيء الوحيد الذي يعنيني». راودها الشك في ما إن كانت ستستطيع الاعتناء بنفسها في بلد أجنبي وغريب والاعتناء في آن معا بأمها وأخيها الصغير. أرادات أن تغير الموضوع، فسألته قائلة: «كيف ستفعل لمنع الشرطة من الوصول إليك وترحيلك؟».

قال: «البعض من أبناء البلد المقيمين في لندن سيسمحون لي بالإقامة معهم في شقتهم وسأفترش الأرض عند الإخلاد إلى النوم. وبما أنني سأتخفف من عبء الاعتناء بكم، فسيسهل علي التحرك واستباق رجال دائرة الهجرة». أطلق تنهيدة طويلة وارتد إلى الخلف قبل أن يضيف: «سأكون بخير، وستكونين بخير، فلقد اشتد عودك قبل الأوان وعركَتك الحياة على صغر سنك، ثم إنك ورثت عن جدك رجاحة عقله» وقال وقد أخذ صوته يتلاشى ويفقد قوته: «كم أغبطك على هذه الميزة!».

أرسلت زهرة ناظريها، فتراءت لها في ضوء الفوانيس الأمامية للحافلة الطريق السيارة ببساطها الناعم الممتد والمتمدد، فأحست بخوف ورهبة مما ينتظرها في منعرجات مسيرة حياتها. وأدركت فجأة أنها مقبلة على تغييرات جديدة، وأن عقد أسرتها سينفرط ويتفرق شملها قريبا. خاطبت أخاها قائلة وقد تملكها الفزع: « هل ستمكث معهم طويلا؟ يعلم الله متى ستستطيع الرجوع إلى دارفور».

قال وهو يشدد قبضة يده اليمنى ويدق بها راحة يده اليسرى برفق: «كل ما أعرفه هو أن مصلحة الوطن تقتضي مني أن أبقى هنا إلى جانب الآخرين للدفاع عن دارفور أمام وسائط الإعلام والتصدي لأكاذيب نظام البشير ودحضها»، ولن أحتاج إلى أكثر من هاتف نقال وعدد قليل من الأصدقاء».

قالت زهرة وقد شعرت بثقل العبء الذي جثم فجأة على صدرها: «إياك أن تفرط في التفاؤل، فالمسألة ليست هينة وبسيطة كما قد تتصور».

أطلق تنهيدة، ثم مضى يقول: «أفتقد لقدرتك على التأقلم بسرعة مع أي مجتمع غريب وتعلّم لغة أهله، المسألة بسيطة وواضحة لا تستدعي الكثير من التحليل والتفسير». ثم نهض ببطء وطلب من صفية أن تعود إلى مقعدها وتترك له مقعده الذي كان يجلس فيه.

انتظرت زهرة حتى الساعة الثامنة بتوقيت نيوجرسي، ثم هاتفت راكيل وأحاطتها علما بآخر المستجدات. أبدت راكيل استغرابها وقلقها مما حصل وأكدت لها زهرة أنه لولا مساعدة الجيران لها ولأفراد أسرتها لما تسنى لها أن تتحدث معها الآن بالهاتف».

حدثتها راكيل مرة أخرى عما يجب عليها أن تقوله لضباط الهجرة عندما تصل إلى مطار نيويرك في نيوجرسي على اعتبار أن حصولهم على تذاكر العودة إلى لندن سيسهل عليهم المرور من مطار لندن. وأوصتها بأن تطلب تأشيرة سياحية قصيرة المدة للدخول إلى الولايات المتحدة. وعندما تصل إلى أرض المطار في نيوجرسي، تبلغ ضباط الهجرة أنها تطلب اللجوء لنفسها ولأمها وأخيها على أساس تعرضهم لاضطهاد ملموس بدوافع عنصرية. وعندما اطمأنت راكيل إلى أن زهرة قد حفظت جيدا ما يجب عليها قوله، ثم أنهت المكالمة وأبلغتها أنها ستتصل بها ثانية ما أن تحجز لهم التذاكر.

استغرقت رحلة زهرة وأفراد أسرتها إلى لندن عدة ساعات نزلوا بعدها من الحافلة منهوكي القوى يحملون أمتعتهم البائسة. وكان واضحا أنهم غرباء عن المدينة. فلقد راحت زهرة تنظر حواليها بتوجس، فما يدريها ألا تكون الشرطة في الانتظار للتثبت من هويات الركاب القادمين من دونكستر. لم يكن خوفها يقل عن الخوف الذي تملكها عندما جاءت شرطة دونكستر للبحث عنهم، ولقد أمكنها حينئذ احتواء مشاعر خوفها بفضل مسز إدواردز التي راحت تتسلى بمشهد المقلب الذي وقع فيه رجال الشرطة وبإجراءات دائرة الهجرة البيروقراطية العديمة المشاعر. وها أن راكيل تصف لها الآن عملية السفر إلى الولايات المتحدة بطريقة تنزع عنها كل التعقيدات التي تأبى إلا أن تصورها لها أوهامها ومخاوفها.

ولكن، كيف لزهرة أن تتخلص من مشاعر الخوف من أن تفطن الشرطة إليهم وتفسد عليهم خطتهم بالسفر إلى الولايات المتحدة؟ لم يكن مسموحا بالفشل، لقد كانت زهرة ترتعد من شدة الهول كلما تخيلت هذه النهاية ورأت نفسها داخل زنزانة ومعها أفراد أسرتها وهم ينتظرون ترحيلهم إلى السودان. وكلما استبد بها الخوف، كانت تتذكر لهجة راكيل الواثقة، فترتفع معنوياتها ويعاودها التفاؤل، وتطرد عنها تلك الصور السوداوية.

نظرت زهرة حواليها في محيط محطة الحافلات وحين لم تجد أحدا في انتظارها، أحست بانحسار موجة التفاؤل التي رغبت في أن تتملّكها. ثم سمعت صوت ساندرين يناديها وأحست بذراعيها وهما

تحتضنانها، فعاودها التفاؤل وقد ظنت في لحظة أنها فقدته إلى غير رجعة.

سارت ساندرين بهم إلى موقف سيارات الأجرة واستقلت معهم إحداها. لم تستطع زهرة أن تطرح على ساندرين أيا من وابل الأسئلة المتزاحمة في ذهنها والتي كانت تتلهف لطرحها عليها لتعرف منها إلى أين الذهاب وما الخطوة القادمة المزمع اتخاذها. فلقد كانت ساندرين مشغولة عنها تماما إذ لم تتوقف طوال الطريق عن مداعبة يوسف الذي افتتنت به واستأثر بكل اهتمامها.

قالت زهرة: «أرجوك، حدثينا قليلا عن هذه المرأة التي سننزل ضيوفا عندها، إذ ليس من الأدب أن نحلَ في بيتها ونحن لا نعرف عنها شيئا».

قالت ساندرين وهي لا ترفع عينيها عن يوسف: «اطمئني، أرسولا امرأة طيبة المعشر».

قاطعتها زهرة قائلة: «ماذا تقصدين؟».

قالت ساندرين: «لا تأخذي كل ما تقوله على محمل الجدّ، هي أم رائعة تعالج المشاكل بالدعابة والضحك بدلا من التذمر والشكوى. هي امرأة جميلة وذكية تسكن في بيت جميل رفقة زوجها الذي يعمل في عالم المال والأعمال. وهي بالإضافة إلى كونها ربة بيت ممتازة، تكرس وقتها لخدمة القضايا الإنسانية كمناهضة جرائم الإبادة الجماعية والتصدي للنظم الديكتاتورية».

قالت صفية بنبرة ملؤها الإعجاب: «هذا جميل».

نزلوا من سيارة الأجرة في حي هادئ تناثرت على جانبي أنهجه الواسعة أوراق الخريف واصطفت مساكن كبيرة جدا لم تر زهرة مثلها من قبل. كان البيت يتألف من أربعة طوابق وقد تسنى على الفور لزهرة أن تلاحظ أن واجهته كانت مزوقة بزخارف لونها أبيض ناصع في لون كعكعة زفاف ضخمة وهي من تلك الكعكات التي كانت تشاهد نماذج منها معروضة في واجهات محلات بيع الحلويات في دونكستار. ولاحظت زهرة أن واجهة البيت تزينها أيضا رسوم كلاسيكية من الطراز المعماري الفيكتوري الذي ظهر في المملكة المتحدة في منتصف وأواخر القرن التاسع عشر.

فوجئ عبد اللطيف وبقية أفراد الأسرة بمظاهر البذخ الخارجية لهذا البيت، فصاح قائلا: «أهذا بيت تقطنه امرأة تهتم بحقوق الإنسان وتكرس وقتها لتسيير حملات للدفاع عن حقوق الإنسان؟». فلقد كان يتوقع كما كانت تتوقع زهرة وصفية وسماح أن يُعرض عليهم افتراش الأرض في شقة لا تختلف عن شقتهم في دونكستر.

حملت أرسولا، مضيفتهم، وصاحبة البيت عنهم بعض أمتعتهم وخاطبتهم قائلة بلهجة اعتذارية نوعا ما: «أرجو أن تستقلوا الطابق التحتي المتواضع وألا تزعجكم الإقامة فيه».

قالت ساندرين: «أريد أن احتفظ لنفسي بيوسف».

ضحكت أرسولا وشعرت سماح ببعض الحرج. غير أن أرسولا خاطبتها قائلة بلهجة شبه جدية: «لا تتركيه لها، فإنها قد تختطفه!»

وعندما أدركت أن الأم قد ارتبكت أو أنها لربما لم تستوعب قصدها، استدركت قائلة: «لا عليك، فأنا أمزح معك».

كان الطابق التحتي الذي أفردته لهم أرسولا يشتمل على غرفتي نوم فاخرتين وحمام كبير جدا يتسع لاحتضان حفل بمدعوّيه وغرفة جلوس تحتوي على أريكة تتحول إلى سرير عند الحاجة وتلفزيون ساتلي. لقد كان الطابق السفلي يمثل على حد وصف أرسولا شقة قائمة بحد ذاتها.

وفي حين انصرفت أرسولا إلى إعداد العشاء، ألحت ساندرين على سماح أن تتركها تحمَم يوسف. وأثناء تناول العشاء، تحدثت سماح وعبد اللطيف مع الاِمرأتين وتولت زهرة وصفية الترجمة عنهما وإليهما. وبعد الساعة التاسعة، رن الهاتف وكانت راكيل هي المتكلمة وأبلغتهم بأنها اشترت التذاكر لرحلة يوم الغد التي تنطلق من مطار قاتويك نحو مطار نيويورك في نيوجرسي. ثم أوضحت أنها لم تحصل على التذاكر إلا في آخر لحظة، وأضافت قائلة: «لقد ساعدني الحظ، أليس كذلك؟».

قالت زهرة: «كم أنا سعيدة، وكم أنا خائفة أيضا!».

قالت راكيل: «لا تخشي شيئا، سنراكم غدا!».

قالت زهرة: «شكرا جزيلا،من كان يصدق أننا سنلتقي بعد كل هذه الأعوام من المراسلات والبطاقات البريدية، والتفكير فيك وفي أسرتك. إني لأسمع صوت جدي يشكرك ويعبر لك عن امتنانه».

قالت راكيل: «وأنا لم أفعل سوى تحقيق أمنية عزيزة على والدي مارتن بينيت».

بعد أن انتهت من مكالمتها مع راكيل، التحقت زهرة من جديد بمائدة العشاء ولاحظت أن صفية تتأمل أرسولا عن كثب وتحاول أن تستشف أغوارها، فتمعن النظر في طريقة مسكها لسيجارتها وترشفها للنبيذ الذي كانت تحتسيه من كأسها وفي طريقة مسكها للكأس، وتسجل آداب سلوكها المتميزة بعفويتها. ولاحظت زهرة أنهما كانتا تميلان لبعضهما كلما خاطبت أحدهما الأخرى، وهو ما يعلن عن ميلاد علاقة خاصة بينهما.

تذكرت زهرة أنها قاسمت صفية نفس الغرفة وأنها احتكت بها يوميا لمدة طويلة وانتبهت فجأة إلى أنها ظلت ولا تزال تجهل عنها كل شيء حيث كان يربط بينهما شبه اتفاق ضمني يقضي بعدم التعرض لا تلميحا ولا تصريحا لحياة صفية الماضية.

سألت أرسولا صفية: «لقد فهمت منك أنك ستدرسين القانون، أتصور أنك ستبحثين لك عن عمل في الصيف». لي صديق محام متخصص في قضايا حقوق الإنسان، يدافع عن اللاجئين السياسيين، وهو عمل لا يدر عليه مالا وفيرا على ما اعتقد، فإن شئت عرفتك به في مقابلة معه لاحتساء قهوة ومن يدري، فلعله يكون بحاجة إلى من يساعده في عمله». أبدت صفية ترحيبها بالعرض. ولاحظت زهرة أن صديقتها بدأت من حيث لا تدري تحاكي أرسولا في طريقة تلويحها برأسها وفي ضحكتها ولهجتها الإنكليزية الأنيقة.

وجدت زهرة نفسها تتمعن في ملامح صديقتها الدقيقة التي تكاد تنطق وفي قوامها الرشيق الذي يذكر بصور حسنوات بلاد النيل

المرسومة على جدران مدافن الفراعنة، فخاطبتها قائلة في سرها: «ستظلين على الدوام من أهم الناس الذين أثروا في حياتي ولن أنساك مهما فرقتنا المدن، ويكفي أنك الملاك الطاهر الذي ظهر لي فجأة في قلب الصحراء ليؤنس وحدتي وينسيني وحشة الطريق».

وفي صباح اليوم التالي، كانت صفية قد عدلت خططها المستقبلية. فلقد ألحت عليها أرسولا أن تواصل الإقامة في الطابق السفلي لقاء تكفلها بتقديم خدمات لها كجليسة لأطفالها، في الأوقات التي تغادر فيه أرسولا البيت وتخرج إلى الشارع لتنكّد على السفير السوداني صفو حياته.

لقد فاتحت أرسولا صفية في الأمر على مائدة فطور الصباح قائلة: «سأصاب بخيبة أمل كبيرة إذا رفضت لي طلبي»، قبل أن تضيف مازحة: «بوجودك في بيتي، ستشهد مكانتي الاجتماعية قفزة نوعية، بالأمس لم أكن إلا امرأة نكرة لا أحد يعرفها في المدينة، ولا تعرف من المناسبات العامة إلا حفلة زفاف سحاقيتين أو ما ماثل ذلك. ولكن، مجرد وجود شخصك الكريم في بيتي سيغري الكثيرين بتوجيه دعوات إلي أيضا تكريما لشخصك واحتفاء بك وللتعرف عليك عن كثب باعتبارك قادمة من بلد أفريقي مزقته الحرب».

تفاءلت زهرة خيرا بهذا التطور السعيد واطمأنت إلى أن صفية ستكون بين أياد أمينة وأيقنت أنها ستكون في أمان في عهدة أرسولا وشبكة معارفها.

واستقر الرأي أيضا على أن يواصل عبد اللطيف أيضا الإقامة هناك لمدة أسبوع أو أسبوعين ريثما يجد له مكانا مع نشطاء دارفوريين يمكنه أن يشعر معهم براحته وأن يقوم بعمل مفيد لبلده.

وضعت أرسولا وساندرين أمتعة السفر داخل السيارة بينما وقفت زهرة وسماح ويوسف - المطمئن إلى دفء ذارعي أمه - يودعون صفية وعبد اللطيف، وكانوا جميعهم يكررون ويعيدون القول: «سنراكم قريبا» ولكنهم كانوا يدركون في قرارة أنفسهم أنهم ربما لن يروا بعضهم ثانية.

دنا عبد اللطيف من أخته وعانقها للمرة الأخيرة وهمس في أذنها قائلا: «جدّك الشيخ محمد سيكون فخورا بك لو كان بيننا».

لوحت زهرة وأمها بيديهما من داخل السيارة مودعتين عبد اللطيف وصفية اللذين ظلا واقفين في الممشى خارج بيت أرسولا.وأحست زهرة بأن قلبها يكاد ينفطر. وظلت تتابعهما ولا ترفع عنهما ناظريها إلى أن انعطفت السيارة فجأة وغابت صورتهما نهائيا. قالت في سرها: «كلاهما يبدأ الآن المرحلة الثانية من رحلة حياتهما - صفية بقدراتها على التكيف وعبد اللطيف التائه في بلد غريب». ودعت ربها أن يحفظهما، ثم دعته أن يمنحها القوة لاجتياز المرحلة الثانية من رحلتها الاستثنائية.

لم تجد الوقت لإعداد الرواية التي ستختلقها للإجابة عن الأسئلة التي قد يطرحها عليها موظفو المطار وشركة الطيران. فلقد دخلت أرسولا وساندرين معها في نقاش محتدم تواصل طوال الطريق إلى المطار

اختلفتا فيه بشأن اللحظة الحاسمة التي يتعين فيها تغليب مبدأ التدخل على مبدأ احترام سيادة الدول كلما تعلق الأمر بحالة إنسانية تقتضي وقف جريمة حرب أو جريمة إبادة جماعية. ولقد خطر لها في ما بعد أنهما ربما تعمدتا إلهاءها بتلك المناقشة عن التفكير في احتمالات منعها من السفر لسبب أو لآخر، غير أنها وبالرغم من ذلك، كانت تشعر أن الدم قد تجمد في عروق يديها المرتجفتين وأنها قد عجزت عن طرد تلك الهواجس التي لازمتها وشوشت عليها حبل أفكارها.

وعند وصولهم إلى المطار، رافقتهم ساندرين إلى داخل المطار بينما أخذت أرسولا السيارة إلى مرآب السيارات. وانتهت إجراءات التسجيل بسرعة لم تترك لزهرة إمكانية استيعاب كيف مر كل شيء بسلام. فلقد قادتهم ساندرين إلى شباك التسجيل وأقنعت موظف شركة الطيران أن الأسرة ذاهبة في زيارة سياحية إلى الولايات المتحدة بعد أن لوحت أمامه بتذاكر الإياب وبعنوان راكيل كمن يشهر في وجهه ساطورا قاطعا. وسرعان ما اختفت تدريجيا خطوط التقطيبة التي علت جبين الموظف وانبسطت أسارير وجهه. وسرعان ما وجدت زهرة نفسها تمسك ببطاقات الصعود إلى الطائرة وتقف رفقة أمها وأخيها يوسف أمام المنطقة الأمنية استعدادا لاجتيازها.

التفتت زهرة تجاه ساندرين وأرسولا وبدأت في توجيه عبارات الشكر إليهما ولكن سرعان ما خنقتها العبارات وعجزت عن الكلام وأجهشت بالبكاء.

قالت ساندرين وهي تعانقها: «أريدك أن تذهبي إلى الولايات المتحدة وأن تحققي حلمك في التخرج كمهندسة معمارية مشهود لها بالكفاءة وقدوة تقتدي بها الفتاة السودانية».

قالت زهرة وقد خانتها العبرات: «لن أخيب ظنك!».

وعندما كانت زهرة في البوابة على وشك اجتياز المنطقة الأمنية، سمعت صوت ساندرين يهتف وراءها قائلا: «يالك من فتاة مدهشة!».

ثم سمعت صوت أرسولا يهتف وراءها قائلا: «رافقتك السلامة، اندمجي في المجتمع الأمريكي!».

ضحكت زهرة ولوحت لهما مودعة بيدها، والدموع تنهمر من عينيها. ثم حملت يوسف واجتازت صحبة سماح بوابة المنطقة الأمنية.

وفي تلك اللحظة فقط، أيقنت زهرة أنها قد تخطت هي وأمها وأخوها يوسف الحاجز الأول في طريق رحلة حياتهم الجديدة. كانت تشعر بأن الخوف لا يزال يعصر أحشاءها، غير أن ذلك لم يمنعها من أن تبتسم للمستقبل الواعد الذي أيقنت أنها ستخط صفحاته صفحة صفحة ابتداء من لحظة وصولها إلى أراضي الولايات المتحدة.

كانت ساندرين قد اختارت لسماح ويوسف مقعدين يتيح لهما حيزا كافيا يتمدد فيه الطفل إلى جانبها ويخلد للنوم. أما زهرة، فقد جلست وحيدة في مقعدٍ بعيدٍ عنهما وبقيت خلفهما طوال الرحلة التي دامت سبع ساعات. لم يكن الأمر هينا عليها وهي التي قد سبق لها أن شقت البراري مشيا على الأقدام في رحلةِ فرارها إلى تشاد.

وعندما استوت الطائرة في الجو وبلغت سرعتها القصوى، أخذت زهرة تتصفح خيارات الترفيه المتاحة على شاشة الحاسوب المثبت أمامها. اختارت خارطة الرحلة ثم أرخت مقعدها واستراحت في جلستها وراحت تتابع لحظة بلحظة الرسم البياني لرحلة الطائرة الصغيرة التي ظهرت لها على الشاشة وهي تحلق فوق المحيط الأطلسي باتجاه نيوجرسي. إنها رحلة طويلة لا توازيها إلا الرحلة التي ستخوضها قبل أن تطمئن أخيرا إلى أنه قد أصبح بإمكانها هي وأمها وأخيها البقاء في الولايات المتحدة ونيل الجنسية الأمريكية. وسيتعين عليها أيضا التأقلم مع نظام الدراسة والعادات الأمريكية. ستمر بفترات صعبة وستشعر بوطأة الوحدة.

نظرت إلى يمين خارطة الرحلة الجوية، فظهرت لها القارة الأفريقية وفوقها القارة الأوروبية وأيقنت أنها صارت على وشك أن تترك خلفها هذين العالمين. واستحضرت وجه جدها الشيخ محمد، فرأته يخط أمامها بعود على أديم الأرض حروف أبجدية اللغة الإنكليزية. وتذكرت رحلة فرارها الطويلة إلى تشاد وتخفيها في الوديان والوهاد عن أعين طوافات جيش البشير ومشيها وحيدة في الصحراء حتى قابلت صفية. وتذكرت الرجل المنهك القوى الذي رأته يبكي حماره الوفي الذي أوصله إلى برّ الأمان ومات.

تابعت مسار الطائرة المتجه عبر المحيط الأطلسي باتجاه الغرب حيث ينتظرها مستقبل حياتها. وعندما ثقلت أجفانها، استحضرت

الصورة الأثيرة إلى نفسها، صورة بناية كرايسلر وهي تتلألأ تحت أشعة شمس فجر جديد في مدينة نيويورك.

قالت تحدث نفسها وهي تكاد لا تصدق أن حلمها يتحول إلى حقيقة: «إني ذاهبة إلى هناك، وإذا ما اجتهدت، وحالفني النجاح، سأتخرج مهندسة معمارية في أمريكا وسأساهم في خلق عالم أجمل أشيد فيه مباني تلهم خيال الناس وتدخل على نفوسهم البهجة».

داعبها الكرى، فابتسمت لنفسها وأخذت تتخيل كيف ستكون سنواتها في الجامعة وشكل البنايات التي ستصممها في يوم من الأيام والمنزل الذي ستسكن فيه والأصدقاء الذين ستتقاسم معهم أيام هنائها ومسراتها.

وانتبهت فجأة إلى صوت أليف يخاطبها قائلا: «زهرة، لا تنسي مطلقا أن مصدر قوتك واعتزازك هو أنك تلك الطفلة التي نفذت بجلدها وأفلتت من قوى الظلام والدمار التي اجتاحت دارفور!

قالت وهي تغوص في مقعدها وتغمض عينيها: «وكيف أنسى هذه الحقيقة يا جدي!».

***

تنفست زهرة الصعداء، فلقد سارت الأمور في مطار نيويورك كما حدثتها به راكيل تماما. فلقد قدمت أسرتها طلبا رسميا لالتماس اللجوء السياسي وهي لا تزال في أرض المطار وحصلت على إذن بالإقامة المؤقتة في الولايات المتحدة. كانوا يعرفون أن هذه الخطوة ستليها أشهر مضنية من المقابلات والمتاعب البيرقراطية. ولم يتطلب منهم استيفاء هذه الإجراءات إلا بضع ساعات وجدت زهرة نفسها بعدها

تحمل هي وأمها أمتعتهما القليلة وتشقان قاعة استلام الحقائب نحو بوابة خروج المسافرين.

لم يغب عن زهرة أن تلاحظ حالة الإعياء التي كانت عليها أمها جراء الرحلة الطويلة ومشاعر التوجس التي كانت تتنازعها بشأن ما إذا كان سيسمح لهم بدخول أراضي الولايات المتحدة أم لا. وحتى الصغير يوسف، استكان وسكنت حركته وتعكر مزاجه خلافا لعادته وتعبت هي وأمها في تهدئته. وبدت على أمها علامات لا تخطئها العين؛ علامات الخوف والذعر حال خروجها إلى قاعة وصول المسافرين وانتباهها إلى أنها أصبحت وسط حشد غريب من الناس.

حدثت زهرة أمها قائلة: «هوني عليك، لم يبق من المشاق إلا أقلها وإن بعد العسر يسرا، إن بعد العسر يسرا».

وقبل أن تهم أمها بالإجابة على قولها، شاهدا امرأة ضئيلة الحجم سوداء الشعر تهرع نحوهم تسبقها إليهما ابتسامة عريضة وعلى قميصها شعار يقول«انقذوا دارفور».

لقد تمثلت زهرة لحظة لقاء راكيل مرارا وتكرارا طوال السنوات، وها أنها تعيش أخيرا هذه اللحظة التي انتظرتها طويلا. كانت تتمثل مشهد اللقاء وترى نفسها وهي تنقل إلى راكيل مدى توق جدها ورغبته الشديدة في ملاقاتها وشكرها، ترى نفسها وهي تحدثها عن مدى تعلقه بأبيها مستر بينيت وكيف أن الحال قد وصل بها في وقت من الأوقات إلى أنه لولا علمها بوجودهم في نيوجرسي كأصدقاء لأسرة جدها لما استطاعت أن تتشبث بأهداب الحياة.

غير أنها ما إن لامستها ذراعا هذه المرأة الصغيرة وطوّقاها حتى نسيت كل الخطب التي أعدتها وانفجرت بالبكاء وعلا نشيجها وشهيقها وفقدت القدرة على النطق. وانهمرت الدموع أيضا من عيني راكيل وظلت تضحك حينا وتمسح دموعها حينا آخر، ثم انهمرت دموعها من جديد وهي تحتضن يوسف آخر أحفاد الشيخ محمد صديق والدها.

كانت سماح هي أول من حلّت عقدة لسانها. فقد أمسكت بيدي راكيل ونظرت في عينيها نظرة مهيبة وقالت بانكليزيتها المحدودة:

«أنت سندنا الأول والأخير وأقرب الناس إلينا في هذه الدنيا!».

وبعد فيض وآخر من الدموع وسيل وآخر من العبارات، توجه جميعهم إلى سيارة راكيل. استعادت زهرة هدوءها واستطاعت أن تخبر راكيل أن كل شيء قد تمَّ على أحسن ما يرام مع موظفي دائرة الهجرة.

قالت راكيل وعينيها على الطريق ويديها على مقود السيارة: «أعرف ذلك بحكم خبرتي القصيرة في هذه المسائل، ففي عملي التطوعي في الجمعية، يتصل بنا أناس كثيرون من دارفور ممن هم في مثل حالتكم».

طلبت سماح من ابنتها التي كانت تنقل فحوى المحادثة بينها وبين راكيل أن تستفسر من راكيل عن حركة «انقذوا دارفو» التي لم يسبق لسماح أن سمعت بها.

وهنا نقلت زهرة إلى أمها عن راكيل قولها: «نحن، بإيجاز، نحاول إطلاع الناس عما يحدث في دارفور، ولكن، شغلنا الشاغل هو أن تظل

قضية دارفور حاضرة في قائمة القضايا المتداولة في وسائط الإعلام وألا يغيب ذكرها في زحمة الأحداث العالمية. وحبذا، لو جئت معي يا زهرة لحضور اجتماعنا المقبل».

لم تسترح زهرة لهذه الفكرة، ولكنها أومأت لها برأسها تأدبا، في حين علقت سماح قائلة وهي تمسح دمعة: «سبحان الله، هؤلاء الناس في أمريكا يعنيهم أمرنا في السودان وهم ليسوا مسلمين، أرجوك بلغيها كم نحن ممتنّتان!».

وخلال الأسبوعين اللذين عقبَا إقامة زهرة وأمها في الطابق التحتي، ظلّتا تتبادلان مع راكيل آيات الإعجاب. وتكفلت سماح بجميع الأعمال المنزلية أثناء غياب راكيل لمباشرة العمل في حين، بدأت زهرة مباشرة في ارتياد المدرسة.

قالت راكيل لزهرة: «اجتهادك في الدراسة ونجاحك هو المقابل الوحيد الذي انتظره منك».

وبعد اسبوعين انتقلت زهرة وأمها والصغير يوسف بالسكن في ملحق وضعته تحت تصرفهم امرأة سخية تعمل في القطاع المصرفي وهي من مناصري حركة «أنقذوا دارفور»؛ امرأة كانت تقضي معظم وقتها تتنقل خارج البلد. وقد أوضحت راكيل لزهرة وأمها أن المرأة ترفض قبول إيجار المحل من منطلق أنها تريد مساعدتهم تعاطفا مع قضية دارفور.

أعربت زهرة للمرأة عن امتنانها الكبير ولكنها لم تشعر بأنها معنية فعلا بقضية دارفور. فهي ليست كأخيها عبد اللطيف الذي كثيرا ما

كانت تفكر فيه وفي العمل النبيل الذي يقوم به من أجل بلده ومن أجل الناس الذين بقوا في دارفور. ولم يطل المقام بزهرة وأسرتها طويلا حتى تعودت هي وأمها على أسلوب الحياة الجديد في أمريكا.

شعرت زهرة بضميرها يؤنبها وهي تقارن بين حياتها وحياة أخيها عبد اللطيف في لندن، ولكنها سرعان ما أقنعت نفسها بأن من واجبها أولا أن تعمل جاهدة لتلتحق يوما ما بالجامعة، وتبحث لها بعد ذلك عن عمل مجز يمكّنها من الإنفاق على أمها وأخيها الصغير يوسف. غير أن أمرا ما في عقلها الباطني كان يحثها على أن تطوي صفحة السودان وتسقط هذه المرحلة من حياتها نهائيا وتنساها إلى أبد الآبدين حتى لا تشغلها، بأهوالها، عما ينفعها ويصلح من شأنها.

بعد شهر من التحاقها بالمدرسة، كان ترتيب زهرة الأولى في فصلها الدراسي، فنقلها أساتذتها إلى الفصل التالي وكسبت عاما دراسيا وأبلغوها أن تستعد لاجتياز اختبار تقييم مؤهلات التلامذة لتحديد مجاميعهم التي سيتم على ضوئها تحديد الجامعات التي يحق لها الالتحاق بها.

وفي يوم من الأيام زارت راكيل زهرة وأسرتها في المنزل الجديد وهي تحمل إليهم معدات مطبخية وسألت زهرة أن تأتي معها في اليوم التالي لحضور اجتماع لحركة«انقذوا دارفور».

لم تكن لزهرة رغبة في مرافقتها إلى الاجتماع، فتعللت لها بكثرة واجباتها المدرسية. غير أن راكيل كررت طلبها وخاطبتها بلهجة حازمة وقاطعة قائلة: «إنك ستأتين معي، فأنا متأكدة من أن أخاك عبد

اللطيف يهمه الأمر ويريدك أن تحيطيه علما أولا بأول بجميع أنشطة حركتنا».

أحست زهرة بأن راكيل قد سدت عليها منافذ الهرب والتهرب، فرافقتها في مساء اليوم التالي إلى اجتماع عُقد في مركز مجتمعي حضره أكثر من خمسين شخصا لمناقشة السبل الكفيلة بتنظيم حدث لعرض صور رسمها أطفال دارفوريين كان أحد أعضاء لجنة حركة «أنقذوا دارفور» قد جلبها معه إلى نيويورك.

كانت كارن فريمان أول المتحدثين حيث تكلمت حوالي ربع ساعة تحدثت فيها عن الاجتماع الذي سيكون موضوعه المحكمة الجنائية الدولية، وأعلنت أن الرسوم قد عرضت في جميع بلدان العالم. وأعربت عن أملها في أن يُقبل على مشاهدتها أعداد غفيرة من الناس وأن تنظّم، في هذا الإطار، لأطفال المدارس زيارات تعمم في مقراتهم الدراسية.

ولقد استغرق الاجتماع أقل من ساعتين، ثم تفرق الحاضرون وأخذوا في التزود الواحد تلو الآخر بهذه أو تلك الأطعمة من بين أصناف الطعام المعروضة في البوفيه التي نصبت لهذا الغرض. أخذت زهرة بعضا من السلطة وجلست في ناحية بعيدا عن راكيل التي كانت مشغولة عنها بالتحادث مع أناس تحلقوا حولها. لم تكن زهرة تريد الحديث مع أحد كي لا تضطر إلى الإجابة على كم الأسئلة المتكررة والمتأدبة التي تُطرح عليها بدافع الفضول الذي يثيره وجودها.

وما هي إلا لحظات حتى دنا منها رجل أربعيني نحيل ونحيف.
حياها واستأذن منها أن تسمح له بالجلوس في الكرسي الشاغر قبالتها.
ابتسمت وأومأت له برأسها أن يتفضل.
قال إن اسمه ديفيد. ولاحظت زهرة أن في إنكليزيته بقايا لكنة طفيفة، فعرفت أنه ولد ونشأ خارج أمريكا. وعندما نظرت إليه، استرعى انتباهها أن لون عينيه كان غامقا وأن شعره لم يكن كثيفا ويصعب تحديد لونه. وبدا لها من لون بشرته الشاحب وشبه الخالي من نبض الحياة أنه يشبه شبحا عائدا من عالم الأموات.
قالت: «وأنا اسمي زهرة».
قال: «مرحبا بك في أمريكا. أرجو أن تكوني قد تعودت على البلد».
حدثت زهرة نفسها قائلة في سرها: «يبدو أن راكيل قد حدثته عنها، بل وربما هي التي أرسلته للتحدث معا ليؤنسها؟»؛ فلقد كانت متأكدة من أن أسئلته تلك ليست إلا مقدمة لاستدراجها للحديث عن أشياء أهم. وبعد أن تبادلت معه كلاما متأدبا عن تجربته مع حركة « أنقذوا دارفور». قال: « اسمي في الأصل داوود ولكني غيرته إلى ديفيد عندما جئت إلى الولايات المتحدة». ركز نظراته في عيني زهرة وأضاف وهو يزن كلماته وينطقها بتأن ووضوح: «أنا أسير سابق في معتقل أومراسكا».

شعرت زهرة وكأن ساعة الزمن قد توقفت وأن الهواء قد انقطع عن رئتيها. وتمنت أن يعفيها من هذا الموضوع ويشفق عليها من سماع ما سيقوله».

قال: «هل سمعت عن معتقل أومراسكا؟».

برقت أمامها صور لأشخاص يتضورون جوعا عيونهم غائرة، يقفون في طابور خلف سياج من الأسلاك الشائكة وقد بانت أضلاعهم من جلودهم المتكمشة شبه العارية وشاحبة اللون وبرزت من وجوههم عظام وجناتهم الناتئة. لقد وقعت عيناها على تلك الصور في إنكلترا عندما كانت تبحث ذات مرة في الانترنت عن مواد للاستعانة بها كمرجع لإعداد واجب دراسي عن الهولوكست وجرائم الإبادة الجماعية عموما.

قالت بإيماءة من رأسها وهي تتشاغل بالنظر إلى صحنها الذي لم تمد إليه يدها: «نعم سمعت عنه».

قال: «كنت أبلغ خمسة عشر عاما عندما جاء الصرب إلى قريتنا في عام 1994».

حدقت فيه، فبدا لها لدهشتها هرما ومهدودا فقالت في سرها: «لا عجب إذن أن يبدو وكأنه شبح عائد من عالم الأموات!».

قال بصوت هادئ: «لقد ضربوا طوقا عزلوا به جميع الرجال والصبيان ودفعوا بنا في شاحنات وساروا بنا، ولا أخالك لا تعلمين ماذا فعلوا بأمهاتنا وأخواتنا ونسائنا».

أومأت له برأسها مرة أخرى وخفضت بصرها تحاشيا لالتقاء عينيها بعينيه».

استرسل يقول: « أخذنا الصرب إلى قاعدة عسكرية مهجورة ووضعونا في تلك الثكنات الرثة وعاملونا أسوء من معاملة الحيوانات حيث تركونا للجوع ينهشنا والبرد يلسعنا والظلام يلفنا بل إن الحيوانات كانوا أفضل منا حالا».

نظرت حواء حواليها في الغرفة، فلمحت راكيل وهي لا تزال مشغولة عنها تماما ومنهمكة في مناقشة محتدمة أخرى مع كارن فريمان هذه المرة، فأيقنت في قرارة نفسها بأنها هي التي أرسلت لها هذا الرجل ليشغلها به ولا يدعها لشأنها.

واصل ديفيد قائلا: «كان حراسنا يرتدون أزياء نظامية ولكنهم كانوا يتصرفون كيفما عنّ لهم دون أي انضباط. فهم لا يتورعون عن استهلاك المخدرات ويُقال عنهم أنهم أثناء حملاتهم التطهيرية بحق المدنيين البوسنين لم يصمدوا أي مرة من المرات القليلة التي وجدوا أنفسهم في معركة تتكافؤ فيها القوى وإنهم كانوا يلقون أسلحتهم ويولون الأدبار لا يلوون على شيء».

وضعت زهرة شوكتها وتخلت عن طعامها. وأحست بضغوط فظيعة تجتاح رأسها وبرغبة شديدة في أن تسأله أن يكف عن الكلام.

غير أنه واصل قائلا: «لقد كانوا غلاظا شدادا وكانت أعدادهم ترتفع في عطل نهاية الأسبوع، إذ ينتهي الكثير منهم يوم الجمعة من العمل باكرا في صربيا، فيركبون سياراتهم ويأتون إلى البوسنة عبر الجبال

ويصلون إلى المعسكر. لقد كان هذا المدد من أناس مدنيين يعملون أساتذة ومحاسبين وسواقا لا علاقة لهم بعالم الجندية وإنما كانوا يتصورون أنفسهم أبطالا قوميين يكرسون أوقات فراغهم للقيام بعمل جليل خدمة لوطنهم وبني قومهم. ثم يعودون إلى صربيا يوم الأحد وهم محملون بما غنموه في البوسنة من أجهزة كهرومنزلية وأجهزة فيديو، بل وآلات غسيل كانت ملكا لأناس أبرياء من أهالي البوسنة شاء حظهم التعيس أن يأتي هؤلاء الرهط لتقتيلهم وإبادتهم حفاظا على نقاوة الدم الصربي.

حدثت زهرة نفسها قائلة: «إنه يدرك تماما أن ما يرويه ليس غريبا البتة عني وإنما غايته استدراجي للخوض في موضوع آخر».

احتسى ديفيد رشفة من علبة الصودا التي أمامه ثم استطرد قائلا: «وكانوا كلما جاءوا إلى المعسكر، اتخذوا منا وسيلة للترفيه عن أنفسهم بتسليط شتى ضروب الإهانات إلينا؛ كانوا يجدون في ذلك لذة لا تضاهيها لذة إذ يشعرون عندئذ بالزهو ويتصورون أنفسهم أبطالا شديدي المراس. كانوا يلقون في بطونهم ما تيسر من كميات الخمر، ثم تبدأ مراسم الاحتفال».

حاولت زهرة أن تصم أذنيها عن سماعه. وتمنت أن تصرخ في وجهه ليكف عن الكلام ويتركها لشأنها. ولكنه أبى إلا أن يواصل قائلا بصوته الهادئ والموزون تماما وبلغته الإنكليزية السليمة نحويا وحركات يديه النحيلتين والأنيقتين اللتين ترتجفان كلما أمسك بالشوكة والسكين ليلتقط من صحنه طعاما:

«رأيتهم يرغمون تحت التهديد بالقتل رميا بالرصاص شابا على أن يلعق العضو الذكري لأبيه»، قالها بصوت حزين ولكنه يخلو من أي شعور بالنقمة والحقد: «ورأيتهم بأم عيني كيف كانوا يعمدون في أكثر من مرة تحت تأثير السكر المفرط إلى استعمال مناشير كهربائية يحزون بها رؤوسا لأصدقاء لي عرفتهم وعرفوني».

لم تتحمل زهرة فظاعة هذه الصورة، فأغمضت عينيها لعلها بذلك تزيحها من مخيلتها.

واصل قائلا: «أكيد أنك تتساءلين من أين أستمد القدرة والجلد على استحضار هذه الفظائع التي كنت شاهدا عليها والتي لم أكن قبل التحاقي بحركة « انقذوا دارفور» أستطيع الحديث عنها أو الإشارة إليها والتي كنت أخفيها حتى عن أقرب الناس إلي بمن فيهم زوجتي الأمريكية إلى أن جاء اليوم الذي طلبت مني راكيل أن أرافقها للقاء شخصية سياسية كنا نريد كسب تأييدها لحملة «انقذوا دارفور».

لقد كان الرجل ينظر إلى مشكلة دارفور على أنها مجرد واحدة من الفواجع الإنسانية العديدة التي تخلفها مجاعة أو كارثة طبيعية. وحاولت راكيل أن تشرح له أننا هنا أمام جريمة إبادة جماعية، أي كارثة من صنع الإنسان ينزع فيها الإنسان عن إنسان مثله صفة الإنسانية وينكرها عليه ويستبيح دمه وينكل به ويبيده من وجه الأرض.

«وعندما تبين لي أن الرجل يخلط بين جريمة الإبادة الجماعية وحالات الطوارئ الإنسانية التي لا يخلو منها مكان في العالم على حد

قوله، أدركت عندئذ أنه من واجبي أن أحدثه عما خبرته وعشته شخصيا في معتقل أومراسكا. فلقد وجدتني أصف له فجأة كل تلك الفظائع التي رأيتها بأم عيني وكنت أظن أنني قد دفنتها إلى الأبد وأريدها أن تموت بداخلي وألا تطفو إلى السطح إلى أبد الآبدين. وقبل أن أروي له كامل قصتي، دمعت عيناه وأدرك معنى جريمة الإبادة الجماعية عندما تمثلها وتجسدت له في قصتي الشخصية».

قال وهو يميل بجذعه ويشير برأسه ناحية المكان الذي توجد فيه راكيل: «لقد أشارت علي صديقتنا الدكتورة بينيت بأن أطوف على الكليات والكنائس والمعابد وأحضر اجتماعات عامة أروي فيها قصتي على الناس. رفضت في البداية وشرحت لها أنها أساءت الفهم، فقد جئت إلى هذا البلد وتزوجت من اِمرأة أمريكية وأنجبت منها وأريد أن أدفن الماضي وأنساه نهائيا، فأجابت بأنه ليس أمامي من خيار سوى الذكرى والتذكير وأن الله نجاني لأنشر قصتي ليعرفها ويطلع عليها الجميع لتكون عبرة لنا حتى لا تتكرر هذه الجريمة».

سكت ديفيد برهة عن الكلام واحتسى رشفة أخرى من علبة الصودا وظل يتفرس في وجه زهرة مستفسرا منها عن رأيها في ما حدثها عنه، ثم أردف قائلا: «لقد تحولت الآن، إلى شاهد حي على الكارثة التي حلت بوطني البوسنة، لقد تحولت إلى الرجل البوسني الذي يجسد مأساة بلده. وبيت القصيد أني إذ أحضر الملتقيات الطلابية والتقي نواب الكونغرس لأحدثهم بحميمية عن تفاصيل ما تعرضت له شخصيا من تنكيل وضروب تعذيب، فإني لا أفعل هذا لرغبة في نفسي

وإنما لقناعة راسخة بأنه من واجبي أن أفعل هذا وأظن أنك فهمت لماذا حدثتك عن هذا والقصد من حديثي معك عنه».

أومأت زهرة له برأسها.

قال: «حسنا».

قالت محتجة: «ولكني أريد أن أعيش حياتي كأي إنسان عادي. أريد أن أدرس في الجامعة كغيري من الطلبة الأمريكيين». وكان لسان حالها يقول: «ألا يكفي ما مررت به؟».

قال وعلى ثغره ابتسامة حزينة: «لا تخادعي نفسك، لن تهربي من نفسك مهما حاولت ولن تعيشي حياة طبيعية بعد الذي حصل».

قالت غاضبة: «وهل هذا حال كل الذين كُتبت لهم النجاة؟ لماذا لا يقوم آخرون بهذا الدور الذي تريدني أن أقوم به»؟

قال: «ليسوا جميعهم بمثل نباهتك ولا يوجد الكثير من بينهم من يتقن الانكليزية بمثل اتقانك لها، وإن وُجد بعضهم، فهم ليسوا هنا على عين المكان في نيويورك ويستحيل عليهم بالتالي التحدث إلى شعب أقوى دولة في العالم ومخاطبته مباشرة».

حدقت زهرة فيه وشعرت بالارتباك.

قال: « جماعة « حركة انقذوا دارفور» يريدون منك أن ترافقيهم لمقابلة وجوه سياسية في واشنطن لتشرحي لهم ولطلبة الجامعات ما حدث ويحدث في دارفور، فأنت دارفورية لحما ودما تجيدين الحديث بالإنكليزية، ويريدون منك أن تكوني الوجه الناطق باسم أهالي دارفور، وبالله عليك، أليس من الأجدى من الناحية الإعلامية

والاتصالية أن يظهر على الشاشة وجه صبوح لشابة دارفورية جميلة تتحدث عن بلد هي أدرى بشعابه بدلا من أن يتولى ذلك رجل أبيض البشرة في منتصف العمر؟».

تنهدت زهرة ونكست رأسها وراحت تتأمل يديها اللتين شبكتهما وأراحتهما في حضنها.

قال ديفيد وقد صوب نظراته نحوها: «أعرف ما الذي يريدون منك أن تفعليه، أعرف كما لا يعرف أحد ولكن، يمكنني أن أقول الآن أني أصبحت أعيش في وئام مع نفسي ولم أعد أتظاهر بأنه بإمكاني فعلا أن أجلس في بيتي لمشاهدة مباراة رياضية وكأن شيئا لم يعد يعتمل بداخلي».

انتصبت واقفة وحركت رأسها ذات اليمين وذات الشمال علامة الرضوخ، وأخذت نفسا طويلا ثم نطقت أخيرا وقالت: «حسنا، يمكنك أن تخبر راكيل أنك نجحت في إقناعي».

قال وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة: «ستكون مسرورة جدا».

نظرت إليه باحتراس وقالت ضاحكة: «أشعر وكأنّي في شريط من أشرطة رعاة البقر وقد حاصرني رجال من الهنود الحمر وهم يمتطون صهوة جيادهم، بل وإني لأراهم بِشعورهم المسدلة والمرصعة بألوان مزركشة من ريش الطيور».

وبعد ثلاثة أسابيع، رافقت زهرة كبار الناشطين في حركة «أنقذوا دارفور» في الولايات المتحدة إلى واشنطن. إذ طلبوا منها أن تأتي معهم لتدلي بشهادتها أمام أعضاء لجنة الشؤون الخارجية في مجلس

الشيوخ وشرحوا لها مهام هذه اللجنة وأهميتها وتأثيرها في موقف سياسة الحكومة الأمركية تجاه السودان.

قضت زهرة وقتها أثناء الرحلة إلى واشنطن في إعداد كلمتها وأخذت تدوّن في دفتر عدة وقائع وأرقام. وعندما وصلت إلى قبة البرلمان في واشنطن، تملّكتها الرهبة فارتبكت خطواتها من شدة الذعر ولعنت في سرّها ما يحدث لها.

غير أنّ أصحاب النوايا الحسنة ظلوا يكيلون لها آيات الشكر والامتنان على قبولها القدوم للإدلاء بشهادتها أمام أعضاء اللجنة، وذكّروها بأنها إزاء فرصة سانحة لإبلاغ صوت دارفور إلى عدد كبير من الناس الذين سيشاهدونها ويستمعون إليها على شاشة التلفاز، وسمعتهم يقولون لها والابتسامة تعلو محياهم: «ثقتنا كبيرة فيك وآمالنا معقودة عليك»، وما كان ليخطر على بال أحد منهم أنها كانت ترتعد في داخلها وتشعر بأنها ستموت رعبًا.

جلست زهرة أمام الميكرفون في قاعة اللجنة وهي تتجنب أن تنظر إلى وجوه الأعضاء وإلى عدسات الكاميرا ودفنت عينيها في صفحات الدفتر التي خطت فيها ملاحظاتها. واغتنمت فرصة قيام أحدهم بتقديمها إلى أعضاء اللجنة لتلقي للمرة الألف نظرة أخيرة على تلك الملاحظات التي دونت فيها معدلات الوفيات وعدد القرى التي دمرت وعدد الناجين في المخيمات وأعداد الذين لم يكتب لهم مطلقا الوصول إلى تلك المخيمات.

وعندما سمعت رئيس اللجنة يطلب منها إلقاء كلمتها أمام الأعضاء، نسيت كل ملاحظاتها، فنظرت إلى الدفتر وأزاحته جانبًا، واستهلت كلمتها قائلة:

«دعوني أحدثكم عن اليوم الذي وجدت فيه نفسي وأنا في سن الرابعة عشر أعدو لأحتمي من نيران طوافة أرسلها الجيش السوداني لقتل أناس مثلي، لقد شعرت في ذلك اليوم أني أعدو للنفاد بجلدي».

ترددت قليلا، ثم نظرت إلى جمع السياسيين الذين كانوا يتفرسون فيها، ثم أضافت قائلة:

«بل دعوني احدثكم أولا عن بطل أمريكي اسمه مارتن بينت. لقد قدم هذا الرجل الشجاع إلينا من بلدكم أمريكا وأحدث تغييرا كبيرا في طريقة تفكير جدي الذي كان تلميذا لديه. وإني مدينة لهذا الرجل الأمريكي ولابنته راكيل بنجاتي وخلاصي وبوجودي الآن هنا لأتحدث إليكم. هذه الأسرة الأمريكية هي التي أنقذتني، هذه الأسرة الأمريكية تُلخص وتُجسّد أجمل ما في القيم الأمريكية».

أخذت لها نفسًا وازدردت ريقها. ثم جالت ببصرها بين أعضاء اللجنة ونظرت إليهم في أعينهم الواحد تلو الآخر. ثم ختمت بالقول:

«لقد جئت اليوم لأطلب منكم يا سيادة المشرّعين أن تساعدوا في استكمال ما بدأه مارتن بينيت وتنقذوا آخرين مازالوا عالقين في دارفور كما أنقذني هو وأنقذ من تبقى من أسرتي ونجّانا من مصير مشؤوم».

انتهت

ربيكا تنسلي

صحفية وروائية ومناضلة حقوقية أسست عدة تنظيمات للدفاع عن حقوق الانسان. ومراسلة سابقة لمحطة بي . بي. سي. صدرت لها مقالات في الجرائد البريطانية الغارديان والتايمز والإندبندنت. استلهمت روايتها الثالثة من المقابلات التي أجرتها مع الناجين من جريمة الإبادة الجماعية التي راح ضحيتها أعداد كبيرة من أهالي دارفور.

شغلت عضوية اللجنة اللندنية للدفاع عن حقوق الإنسان لفترة سبع سنوات حضرت فيها جلسات المحكمة الأوروبية للنظر في انتهاكات تركيا لحقوق الإنسان.